

القول المفيد

على

كتاب الوفجاني

شرح فضيلة الشَّيخ

محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعاً وتربياً وتصويباً ، وعزا آياته
وضرجم أحاديثه ، ووضع فهراسه ، وأشرف على طبعه

د. شيمان بن عبد الله بن حمود أبو الحيل

أجزاء الثانية

دار العِلَامَةُ
للنشر والتوزيع



الْقَوْلُ الْمُفِيدُ
عَلَى
كِتَابِ النُّوحِيدِ

حقوق الطبع محفوظة
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ

والرُّفَاهُ
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ٤٢٥٧ - الرِّزْنَ الْبَرِيدِي ١١٥٥١
هاتف ٤٩٢٢٣٦٨ - ٤٩١٥١٥٤ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: «ولقد علموا ملئ اشتراه ما له في الآخرة من خلاق»^(١).

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السحر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي المسحور لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنه يكون خفياً، فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً.

وأما في الشرع فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عَقْد ورُقْبَى، أي قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيها يريد لضر المسحور قال تعالى: «واتبعوا ماتتلوا الشياطين» إلى قوله: «يعلمون الناس السحر»^(٢).

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف. فيجعلون الإنسان ينعنطن على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور: بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك.

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله فربما يصل إلى الجنون، والعياذ بالله.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

فالسم قسمان :

أ - شرك ، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين ؛ لأنه في الغالب لا يتهيأ للإنسان إلا بالشرك .

**ب - عدوان ، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها .
ووهذا التقسيم الذي ذكرناه تتوصل به إلى مسألة مهمة : وهي هل يكفر الساحر أو لا يكفر ؟ .**

مسألة : كفر الساحر :

اختلاف في هذا أهل العلم فمنهم من قال : إنه يكفر .

ومنهم من قال : إنه لا يكفر .

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبيّن به حكم هذه المسألة ، فمن كان سحره بواسطة الشياطين فإنه يكفر ، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها فلا يكفر ولكن يعتبر عاصيًا معتديا ، ومن هذا ما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام من سحرة فرعون ، ألقوا الحبال والعصي ، فكان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وأنها حيات ، وهي في الحقيقة ليست بحيات ، ولكنها جبال وعصي ، إلا أنهم سحرموا أعين الناس واسترهبواهم وجاؤوا بسحر عظيم .

فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك ، لكنه لا يقلب الأعيان إلى أعيان أخرى ؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، وإنما يخيل للمسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى ، وما أشبه ذلك كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون ، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى .

إذا قال قائل : ما واجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد ؟ .

نقول : **المناسبة الباب لكتاب التوحيد :**

**وقوله: «يؤمّنون بالجُبْت والطاغوت»^(١) قال عمر: «الجُبْت
السحر والطاغوت الشيطان»^(٢)**

لأن من أقسام السحر ما لا يأبه غالباً إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالباً إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

قوله: ولقد علموا من اشتراه.

معنى اشتراه: أي تعلمـه.

قوله: «ما له في الآخرة من خلاق».

أي ماله من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق فمقتضاه أن عملـه حابط باطل، لكن إما أن يتضـيـنـ النـصـيبـ اـنـتـفـاءـ كـلـيـاـ فـيـكـوـنـ العـمـلـ كـفـراـ، أو يتضـيـنـ كـمـاـ النـصـيبـ فـيـكـوـنـ فـسـقاـ.

قوله: «يؤمّنون بالجُبْت والطاغوت» أي السحر.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلـمـاـ للـسـحـرـ وـمـارـسـهـ لـهـ، وهـذـاـ فـإـنـ سـاحـرـ النـبـيـ ﷺـ هو لـبـيدـ بنـ الـأـعـصـمـ الـيـهـوـدـيـ^(٣)ـ، وـهـمـ الـذـيـنـ تـعـلـمـواـ السـحـرـ وـادـعـواـ أـنـ سـلـيـانـ عـلـيـهـ السـلـامـ عـلـمـهـ إـيـاهـ.

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

(٢) علـقـهـ الـبـخـارـيـ بـصـيـغـةـ الـجـزـمـ فـيـ كـتـابـ التـفـسـيرـ/ـبـابـ (ـوـإـنـ كـتـمـ مـرـضـ أـوـ مـلـ سـفـرـ)ـ وـوـصـلـهـ اـبـنـ جـرـيرـ فـيـ تـفـسـيرـهـ ١٣/٣ـ،ـ ٨٣/٥ـ.

وـقـالـ اـبـنـ حـجـرـ فـيـ الـفـتـحـ ٢٥٢/٨ـ:ـ (ـوـوـصـلـهـ عـبـدـ بـنـ حـيـدـ فـيـ تـفـسـيرـهـ،ـ وـمـسـدـدـ فـيـ مـسـنـدـهـ،ـ وـعـبـدـ الرـحـنـ بـنـ رـسـنـهـ فـيـ كـتـابـ الـإـيـانـ كـلـهـمـ مـنـ طـرـيقـ أـبـيـ إـسـحـاقـ عـنـ حـسـانـ بـنـ قـائـدـ عـنـ عـمـرـ مـثـلـهـ وـإـسـنـادـهـ قـوـيـ .ـ .ـ .ـ)ـ وـوـصـلـهـ أـيـضاـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ،ـ وـأـبـوـ الـقـاسـمـ الـبـغـوـيـ كـمـاـ فـيـ تـفـسـيرـ اـبـنـ كـثـيرـ ٤١١/١ـ.

(٣) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ كـتـابـ الـطـبـ/ـبـابـ هـلـ يـسـتـخـرـ السـحـرـ ٤٨/٤ـ وـمـسـلـمـ فـيـ كـتـابـ السـلـامـ/ـبـابـ السـحـرـ ٤/١٧١٩ـ.

وقال جابر: «الطاغوت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»^(١).

قوله: «الطاغوت» أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبع، أو مطاع.

ومعنى «من معبود» أي بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه الله وقد سبق في أول الكتاب^(٢) التعليق على هذا القول عند قوله: «واجتنبوا الطاغوت».

الشاهد :

قوله: «بالجحبت» حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأما تفسير الطاغوت بالشيطان فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحهم الله يفسرون الآية أحياناً بمثال يحتذى عليه مثل قوله تعالى: «ثُمَّ أُرْثَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَأْذِنُ اللَّهُ

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه الذي لا يصلى إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد الذي يصلى في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصلى في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، وهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

(١) علقة البخاري بصيغة الجزم في الموضع السابق.

وقال ابن حجر في الفتح ٢٥٢/٨: «وصله ابن أبي حاتم طريق وهب بن منه»، ووصله أيضاً ابن جرير في تفسيره ١٣/٣.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٤) سبق ١/٢٢.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله،

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأشخاص تعتبر من الطواغيت كما قال تعالى: «وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ»^(١) والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت، لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق.

قوله: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد». هذا أيضاً من باب التفسير بالمثال حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكافر: قيل هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حي من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع فتأتي بخبر السماء إليه.

وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء فتفسير جابر رضي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه.

قوله: «اجتنبوا السبع الموبقات».

النبي ﷺ أنسح الخلق للخلق بكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، وهذا قال: «اجتنبوا». وهي أبلغ من قوله: لا تفعلوا؛ لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

.....
«واجتبوا» أي اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل اجتبه يعني اتركه مع البعد.
وقوله: «السبع الموبقات».

هذا لا يقتضي الحصر فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحياناً بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.
ومن ذلك حديث: «السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»^(١) فهناك غيرهم، ومثله: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيمة»^(٢) وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة على الحصر لكونه وقع بـ«آل» المعرفة، فإنه حصرها؛ لأن هذه أعظم الكبائر.
قوله: «قالوا يا رسول الله وما هن»:

الصحابة رضي الله عنهم أحقرن الناس على العلم، والنبي ﷺ إذا ألقى إليهم الشيء مبهما طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتبوهن. فأخبرهم، إلا ما علموا أن الحكمة في إخفائه وعلى هذه القاعدة [أن الصحابة رضي الله عنهم أحقرن الناس على العلم].

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشا في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمسجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعوا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقه فأخففها حتى لا تعلم شهاده ما تتفق يمينه، ورجل ذكر الله حالياً ففاقت شهادته أخرجه البخاري في الأذان/باب من جلس في المسجد يتضرر الصلاة ٢١٩ / مسلم في الزكاة/باب فضل إخفاء الصدقة ٧١٥ / ٢.

(٢) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيمة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم وهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلث مرات قال أبو ذر: خابوا =

.....
.....

حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والسعين^(١). فهو ليس في الصحيحين، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدتها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ، وصدق رحمة الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيف هذا الحديث قال إن هذا أمر عظيم، ومن أحصاها دخل الجنة فلا يمكن للصحابية أن يفوتوه، فلا يسألوا عن تعبيتها، فدل هذا على أنها قد عبئت من قبله ﷺ.

وخرروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلمته بالخلف الكاذب.
أخرج مسلم في الإيمان/باب غلط تحرير إبسال الإزار ١٠٢/١.

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات/باب أسماء الله ١٧٣/٩ وقال: «غريب» وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم ١٦/١، والبيهقي في السنن ١٠/٢٧، وفي الأسماء والصفات ص(٥)، والبغوي في شرح السنة ٣٣، ٣٢/٥ قال البيهقي في الأسماء والصفات ص: ٨: «ويعتمل أن يكون التفسير أي تفسير الأسماء - وقع من بعض الروايات، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم وهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في الصحيح». وقال شيخ الإسلام ٣٨٢/٢٢: «وحفظ أهل الحديث يقولون هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث أضعف من هذا رواه ابن ماجه». وقال ابن حزم في المحل ٣١/٨: «وقد جاءت أحاديث في إحصاء التسعة والسعين أسماء مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً، فإنما تؤخذ من نص القرآن وما صح عن النبي ﷺ». وانظر تفسير ابن كثير ٢٦٩/٢، وفتح الباري ١١/٢١٥.

وأخرج أيضاً ابن ماجه بزيادة ونقصان في بعض الأسماء في الدعاء/باب أسماء الله عز وجل ١٢٦٩/٢.

وقال البوصيري في الزوائد: «إسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك الصناعي». وأخرجه أيضاً الحاكم ١٧/١، والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٧) وضعفه الذهبي، وكذا البيهقي بعد العزيز بن الحسين بن الترمان، وكذا ابن حجر في تلخيص الخير ١٧٢/٤.

لكن يجاب عن ذلك بأنه لا يلزم تعينها.
ولو كان الأمر كذلك ل كانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم
أشد من علم الشمس، ولنقلت في الصحيحين وغيرهما، لأن هذا مما تدعو
الحاجة إليه، وتلخ بحفظه والعنابة به، فكيف لا يأتي إلا عن طرق واهية وعلى
صور مختلفة. فالنبي ﷺ لم يبينها حكمة باللغة، وهي أن يطلبها الناس
ويتحرروها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى يعلم الحريص من غير
الحرirsch.

كما لم يبين النبي ﷺ ساعة الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي
موسى الذي في مسلم حيث قال فيه: «إنما ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى
الصلاة»^(١). فإن بعضهم صحيحه وبعضهم ضعفه. لكن هو عندي صحيح،
لأن علة التضعيف فيه واهية والحال تؤيد صحته، لأن الناس مجتمعون أكبر
اجتماع في البلد على صلاة مفروضة، فيكون هذا الوقت في هذا الحال حريراً
بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: «الموبقات»:

أي المهلكات قال تعالى: «وجعلنا بينهم موبقا»^(٢) أي: مكان هلاك.

قوله: «قالوا يا رسول الله وما هن».

في هذا إجمالاً أولاً ثم تفصيل ، والفائدة من الإجمال أولاً ثم التفصيل ثانياً

(١) حديث أبي بودة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أسمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة».

أخرجه مسلم في الجمعة/باب في الساعة التي في يوم الجمعة ٦٨٤/٢
وانظر فتح الباري ٤٢٢ - ٤١٧ / ٢، ١٩٩ / ١١ . (٢) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

هي تطلع المخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبيناً من أول وهلة لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجل ثم بين.

قوله: «وَمَا هُنَّ» «مَا» اسم استفهام مبتدأ، و«هُنَّ» خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس «مَا»: خبر مقدم وجوباً، لأن الاستفهام له الصدارة و«هُنَّ» مبتدأ مؤخر.

لأن «هُنَّ» ضمير معرفة و«مَا» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يخبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

ويمكن أن يقال: إن «هُنَّ» ضمير يعود على «مَا»، وهي نكرة، والعائد على النكرة نكرة كما قالوا في قوله: رَبُّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ فَادْخُلُوهُ «رب» على الضمير مع أنها لا تدخل إلا على نكرة قال ابن مالك:

وَاحْصُصْ بِمَذْ وَمِنْدْ وَقْتًا وَبِرْبِ منكراً
قوله: «قال: الشرك بالله».

قدمه لأنه أعظم الموبقات، فإن أعظم الذنوب أن تجعل الله نذراً وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه، أو صفاتاته.

فمن اعتقاد أن مع الله حالقاً أو معيناً فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يعبد فهو مشرك، وإن لم يعبد، فإن عبده فهو أعظم، أو أن الله مثلاً في صفاتاته فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى فهو مشرك.

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»^(١) وقال تعالى: «أَنَّهُ مَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارِ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ^(١).

وَبَيْنَ أَنَّ الشُّرُكَ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَنَاحِيَةِ وَالْجُرْمِ بِقَوْلِهِ: «أَنْ تَجْعَلَ
لَهُ نَدًا وَهُوَ خَلْقُكَ»^(٣).

فالذى خلقك وأوجدهك وأمدهك ورزقك كيف تجعل له ندا؟ فلو
أن أحداً من الناس أحسن بما دون ذلك فجعلت له نظيراً، لكان هذا الأمر
بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله: «والسحر»:

أي: من المويقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك
بواسطة الشياطين، أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين فالذي لا يأتى إلا بالإشراك بهم فهو داخل في الشرك بالله .

وإن كان دون ذلك فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجنایة على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويقلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الأدمي فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، وهذا كان السحر يلي الشرك بالله عز وجل.

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٤) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سأله النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل الله ندأً وهو خلقك... الحديث.

أخرجه البخاري في التفسير/باب قوله تعالى: «فلا تجعلوا شهأندادا» ٣/١٩٠، ومسلم في الإيمان/باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/٩٠.

والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقدف المحسنات الغافلات المؤمنات^(١).

قوله: «وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق».

القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار، وما أشبهها.

وقوله: «التي حرم الله»

مفعول (حرّم) مذدوف تقديره حرم قتلها، ويجوز أن يكون التقدير حرمها الله، وأيا كان فالعائد على الموصول مذدوف.

وقوله: «إلا بالحق»:

أي بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر ببازاء الأحكام فالمراد به العدل، والعدل هو ما أمر الله به ورسوله قال تعالى: «إن الله يأمر بالعدل^(٢) . ، والنفس المحرمة أربعة أنفس هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن. فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة: الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة أي عهد، على أن يقيم في بلادنا، وأن نحميه مع بذل الجزية. وأما المعاهد: فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا، وأن لا نحاربه.

وأما المستأمن بكسر الميم طالب الأمان، فهو: الذي ليس بيننا وبينه عهد، لكننا أمناه في وقت محدود كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارتكم فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأنته»^(٣) وهناك فرق آخر وهو: أن العهد يجوز من

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٥/٣٩٣ فتح) وسلم في الإيمان ١/٩٢.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٩٠.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

.....

جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب. والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار. هذه الأنفس الأربعية قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء في التحرير، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟ أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهد خاص بخلاف المعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الخل والعقد منهم، فليس بيتنا وبينهم عقود تأميات خاصة، وأيا كان فالحديث عام.

وقوله: «إلا بالحق»:

أي: ما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: «وأكل الربا»:

الربا في اللغة الزيادة ومنه قوله تعالى: «فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»^(١) يعني زادت.

وفي الشرع: تفاضل بين أشياء ونساء بين أشياء.

أي تفاضل بين أشياء حرم الشرع التفاضل فيها، وتأخير في أشياء حرم الشرع التأخير فيها.

والربا: ربا فضل، وربا نسبيّة، وهو يجري في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»^(٢) فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنساً بمثله جرى فيه ربا

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة/باب الصرف ١٢١١/٣ من حديث عبادة بن الصامت.

.....
الفضل وربا النسية، أي: لو زدت واحداً على آخر فهو ربا، أو سويته لكن آخرت القبض فهو ربا، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهباً بذهب متفاضلاً والقبض متأخر، فإذا بعت جنساً بجنسه فلابد من أمرتين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة أي: اتفق المقصود فإنه يجري ربا النسية دون ربا الفضل، فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوية مع التأخير هذا ربا لتأخر القبض.
قال ﷺ: «إذا اختلفت هذه الأصناف فيبيعوا كيف شتم إذا كان يداً بيد»^(١).

وقولنا: اتفقا في الغرض والمقصود احترازاً مما إذا اختلف الغرض منها.
فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.
وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد، لأن هذا يقصد به النقد والشمنية، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض فما هو الجواب:
نقول: حقيقة إن هذا الأمر مشكل، إذ مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهباً ببر وجب التقابض لقوله ﷺ: «إذا اختلفت هذه الأصناف فيبيعوا كيف شتم إذا كان يداً بيد»^(٢).

ولكتنا نجيب عن هذا فنقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيها إذا كان أحدهما ثمناً، قال ابن عباس قدم النبي ﷺ المدينة: وهم يسلفون في الشمار السنة والستين فقال: «من أسلف في شيء

(١) سبق من حديث عبادة بن الصامت.

فليس في كيل معلوم وزن معلوم إلى أجل معلوم^(١).
وعلى هذا فحديث: «فيبعوا كيف شتم إذا كان يدأ بيد» لا عموم
لمفهومه فلا يشترط القبض في كل صورة من هذه الصور، وإنما يشترط القبض
إذا اتفقا في الغرض كذهب بفضة، أو ببر وشعير.

وأختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة، فالظاهرية قالوا: لا
يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس فيقتصر على ما
جاء به النص فيجوز عندهم مبادلة أرز بدرة متفاضلاً مع تأخر القبض؛ لأنها
لا يدخلان في المقصود عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربع فإنهم : عدوا الحكم إلى غيرها،
إلا أن بعضهم لم يعد الحكم إلى غيرها وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل
رحمه الله فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة لأن لا قياس،
ولكن لأن العلماء اختلفوا وأضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما
اضطربوا في العلة أغلبنا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه.

والصحيح: أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي
الكيل أو الأدخار مع الطعم وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر
والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا:
«الجنس» لأجل أن يشمل الخلي إذا بيع بعضه بعض فيجري فيه الربا، مع أنه
ليس بشمن، والثمنية مثل الدرارم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها
بمنزلة الذهب والفضة.

(١) أخرجه البخاري في السلالم /باب السلالم في وزن معلوم ١٢٤/٢، ومسلم في المساقاة /باب
السلالم ٣/١٢٢٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

.....
وأما الملح فقال شيخ الإسلام إنه يصلح به الطعام، فالعملة ليس أنه قوت، وهو من ضرورياته، وهذا لو طحنت برأ ولم يكن فيه ملح لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: «وأكل الربا»:

ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأن أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، وهذا قال تعالى في بني إسرائيل: «وأخذهم الربا وقد هوا عنده»^(١) ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم»:

اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه فليس يتيمًا لا شرعاً ولا لغة.
لأن اليتيم مأخوذ من اليتيم، وهو الانفراد أي انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخصص اليتيم لأنه لا أحد يدافع عنه، ولأنه أولى أن يرحم، وهذا جعل الله له حق في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله.

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا فليس خاصاً في الأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب وغيرها فهو داخل في ذلك.
وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص وهذا توعد الله من يأكل أموال اليتامي قال تعالى: «إن الذين يأكلون أموال اليتامي

(١) سورة النساء، الآية: ١٦١.

.....
.....

ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرًا) ^(١).

قوله : «والتولي يوم الزحف» :

التولي : بمعنى الإدبار والإعراض ، ويوم الزحف أي : يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار ، وسمى يوم الزحف ؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض ، كالذى يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر ، فيمشي رويداً رويداً.

والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب ؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله ، وكسر قلوب المسلمين ، وتفوية أعداء الله ، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين .

لكن هذا الحديث خصصته الآية وهي قوله تعالى : «ومن يوهم يومئذ
دباه إلا متزحراً إلى فتنة فقد باه بغضب من الله» ^(٢) .

فallah سبحانه استثنى حاليين :

الأولى : أن يكون متزحراً لقتال ، أي : متهيئاً له كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيء الأسلحة ويعدها ، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتى العدو من جهته ، فهذا لا يعد متولياً إنما يعد متهيئاً .

الثانية : المتزحى إلى فتنة كما إذا حضرت سرية لل المسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو ، فانصرف من هؤلاء لينقذها فهذا لا يأس به لدعاه الضرورة إليه ، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر ، فإن كان على الجيش ضرر ، وذهب طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش ، وتكسره أمام العدو ، فإنه لا يجوز ؛ لأن الضرر هنا متحقق ، وإنقاد السرية غير متحقق ، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله ، وفي هذا إدلال لدين الله ، إلا إذا كان الكفار أكثر من

(١) سورة النساء ، الآية : ١٦ . (٢) سورة الأنفال ، الآية : ١٦ .

.....

مثل المسلمين لقوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾^(١) أو كان عندهم عدة لا يمكن للMuslimين مقاومتها كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا، لأن مقتضى ذلك أنهم يغرسون بأنفسهم.

وفي هذا الحديث تخصيص السنة بالكتاب وهو عزيز. ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والشركين في الحديثية أن من جاء من الشركين مسلماً يرد إليهم^(٢)، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى، فأنزل الله تعالى: ﴿بِاَيْهَا الَّذِينَ آتَنَا إِذَا جاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾^(٣).

قوله: «وقدف المحسنات» :

القذف: بمعنى الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا والمحسنات الخرائر وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.
والغافلات، وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

والمؤمنات احترازاً من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها، فإن ذلك من الموبقات ومع ذلك يقام عليه الحد - ثمانون جلد - ولا تقبل شهادته

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي /باب غزوة الحديبية ١٣١/٣.

(٣) سورة المتحنة، الآية: ١٠.

.....
وبكون فاسقاً. فجعل الله عليه ثلاثة أمور قال تعالى: «والذين يرمون المحسنات ثم لم يأتوا بأربعة شهادة فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون»^(١) ثم قال: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا»^(٢).

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجملة بالاتفاق، ويشمل آخر الجملة بالاتفاق وخالف العلماء في الجملة الثانية وهي قوله: «ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً» فقيل إنه يعود إليها. وقيل: لا يعود.

وببناء على ذلك إذا تاب هل تقبل شهادته أم لا؟ الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم:

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: «ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً»^(٣) وفائدة هذا التأييد أن الحكم لم يرتفع عنهم.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبني قبول الشهادة وردتها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين فليفعل.

وإلا فالالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قدف المحسنين الغافلين المؤمنين كقدف المحسنات من كبار الذنب؟
الجواب: الذي عليه جهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة،

(١) سورة النور، الآيات: ٤، ٥.

(٢) سورة النور الآية: ٤.

وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر ضربة بالسيف» رواه الترمذى وقال: الصحيح: إنه موقوف^(١) وفي صحيح البخارى عن

إنما خص بذلك المرأة لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقدف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها فيلحق القذف بهن ضرراً أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلى لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.
الشاهد من هذا الحديث قوله: «السحر».

قوله: «وعن جندب»

ليس جندب بن عبد الله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله: «مرفوعاً أي إلى النبي ﷺ، فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»

ظاهره: أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

(١) أخرجه الترمذى في الحدود/باب ما جاء في الساحر ١٥٦ و قال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإساعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، وإساعيل بن مسلم العدي البصري قال وكيع هو ثقة ويروى عن الحسن أيضاً، وال الصحيح عن جندب موقوف».

والحديث أخرجه أيضاً: الطبراني في الكبير رقم ١٦٦٥، والدارقطنى ١١٤/٣، والحاكم ٤/٣٦٠، وصححه ووافقه النهوي، والبيهقي ١٣٦/٨.

وأخرجه من طريق إساعيل عن الحسن مرسلًا عبد الرزاق ١٨٤/١٠، وابن حزم في ٣٩٦/١١.

والحديث ضعفه ابن حجر في الفتح ١٠/٢٣٦، ورجح النهوي في الكباٰر وقفه ص(٤٢).

بجالة بن عبده قال: «كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحرا»^(١) وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت^(٤) وكذلك صح عن جندب^(٤) قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والكافر إذا قتل على رده فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول على ما سبق ، أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام ، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله : «ضربة بالسيف»

هذا كنایة عن القتل ، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحاً.

قوله : «وفي صحيح البخاري» :

ذكر في الشرح^(٤) أنه ليس في البخاري ، أي : أن هذا اللفظ ليس في البخاري أما أصله ففي البخاري ، والذي في البخاري أنه : «أمر بأن يفرق بين كل ذي رحم من المحسوس»^(٥) لأنهم يجوزون نكاح المحارم - والعياذ بالله - فأمر

(١) أخرجه الشافعي كما في بداع المن (١٥٣٢) ، وعبد الرزاق ١٧٩/١٠ ، ١٨٠ ، وأحد في المسند ١٩٠/١ ، ١٩١ ، وأبو داود في الخراج/بابأخذ الجزية من المحسوس ٤٣١/٣ ، والبيهقي ١٣٦/٨ ، وابن حزم ٣٩٧/١١ وصححه.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ - كتاب العقول/باب ما جاء في الغلة والسرور ٨٧١/٢ عن محمد ابن عبد الرحمن بن سعد بلاغاً ، ووصله عبدالله بن الإمام في مسائل أبيه ص ٤٢٧ ، والبيهقي ١٣٦/٨ بسند صحيح كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بقوله : «وصح عن حفصة»

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢٢٢/٢ ، والبيهقي ١٣٦/٨ . وسنته صحيح كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

(٤) انظر شرح تيسير العزيز الحميد ص (٣٩١).

(٥) صحيح البخاري - كتاب الجزية/باب الجزية والمزادعه ٤٠٦/٢ .

عمر أن يفرق ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح: أن القطبي رواه في الجزء الثاني من فوائده وفيه «ثم اقتلوا كل كاهن وساحر» وقال أي الشارح: إسناده حسن.

وهذا الأثر صحيح أن عمر أمر بقتل الساحر.

وهذا القتل هل حد أم قتله لكتفه؟ يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السابق^(١) في كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقول: من خرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل حد يجب تنفيذه.

والحاصل: أنه يجب أن نقتل السحرة سواء قلنا بکفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون؛ ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم فإن بعضهم قد يسرح أحداً ليعطفه إليه وبنال مأرب منه، كما لو سحر امرأة ليغبني بها؛ ولأنهم يسعون في الأرض فساداً كان واجباً على ولد الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه حد لضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه متى قبض عليه، وجوب أن ينفذ فيه الحد.

وهل الردة كذلك؟ الجواب: الردة فيها خلاف وقد سبق هل يستتاب أم لا، وقلنا الصحيح: أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام.

قوله: «قال أَحْمَدُ عَنْ ثَلَاثَةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ عُمَرٌ، وَحَفْصَةُ، وَجَنْدِبُ الْخَيْرِ» (ويكنى بقاتل الساحر) أي: صحيحة قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض

(٢) سبق ص (٢٤).

(١) ص (٦).

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية:** تفسير آية النساء. **الثالثة:** تفسير الجبّت والطاغوت والفرق بينها. **الرابعة:** أن الطاغوت قد

فساداً، وفسادهم من أعظم الفساد، فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلّف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم؛ وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم؛ وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة:

وهي قوله تعالى: «ولقد علموا من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق»^(١) أي نصيب ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر إذ كلُّ من له نصيب في الآخرة فإن ماله إلى الجنة.

الثانية: تفسير آية النساء.

وهي قوله تعالى: «يؤمنون بالجبّت والطاغوت»^(٢) وفسر عمر الجبّت بالسحر وبيان الطاغوت الشيطان، وفسر بأن الجبّت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبد أو متبع أو مطاع.

الثالثة: تفسير الجبّت والطاغوت والفرق بينها.

وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس: تؤخذ من قول جابر: **الطاوغيت كهان**، وكذلك قول عمر: **الطاغوت الشيطان**،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

يكون من الجن وقد يكون من الإنس. الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنبي. السادسة: أن الساحر يكفر. السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب. الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟

فإن الطاغوت إذا أطلق فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.
الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنبي، وقد سبق بيانها.
السادسة: أن الساحر يكفر.

تؤخذ من قوله تعالى: «وما يعلمك من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تکفر...» الآية^(١).

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

يؤخذ من قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»^(٢) والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين الكفر، وهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر لا يصلى عليه ولا يغسل ولا يدفن في مقابر المسلمين.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر فكيف بعده:

تؤخذ من قوله: «كتب عمر أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» فهذا إذا كان

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سبق ص (٢٣).

.....

في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها فكيف بعده من العصور التي بعذت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه، فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلاله والجهالة. فالضلاله: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد؛ وهذا نقول من عمل سوءاً بجهالة فهو آثم، ومن عمل سوءاً بجهل فليس باثم قال تعالى: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة»^(١) والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد وهي السفه.

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

باب : بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

أي بيان حقيقة هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق^(١). فإن كان باستخدام الشياطين، وما أشبه ذلك فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر منها ما هو كفر ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته، وقد يكون الجنس نوعاً باعتبار ما فوقه، وقد يكون النوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

« وأنواع » هنا باعتبار الجنس العام.

وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خفي السبب دقيقاً في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنواع السحر الساعات، وهي في القديم عبارة عن آلات مركبة، فكيف بالساعات الالكترونية اليوم؟!

(١) انظر ص (٦)

العيافه، والطرق، والطير، من الجبت^(١) قال عوف: العيافه زجر الطير، والطرق الخبط بالأرض والجبت^(٢) قال الحسن: رنة الشيطان، إسناده جيد ولأبي داود والنمسائي وابن حبان في صحيحه هم المستند منه.

قوله : «العيافه»

مصدر عاف يعف عيافه وهي زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل . فالتشاؤم عند العرب ، فعند العرب قواعد في هذا الأمر ، لأن زجر الطير له أقسام : فتارة يزجرها للصيد ، كما قال أهل العلم في باب الصيد إن تعليم الطير بأن يتزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب .

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل . فإذا زجر الطائر وذهب شهلاً تشاءم ، وإذا ذهب يميناً تفاءل ، وإن ذهب أماماً فلا أدري أيتوقفون ، أو يعيدون الزجر . فهذا من الجبت .

قوله : «الطرق» :

فسره عوف : بأنه الخبط في الأرض ، وكأنه من الطريق من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها ، وتحطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها .

ومعنى الخبط بالأرض معروف عندهم ، يضربون به على الرمل على سبيل

(١) أخرجه عبد الرزاق ٤٠٣/١٠ ، وأحد في مسند ٤٧٧/٣ ، ٦٠/٥ ، وابن سعد في الطبقات ٣٥/٧ ، وأبو داود في الطب / باب في الخبط وزجر الطير ٤/٢٢٨ وسكت عنه ، والنمسائي في الكبرى كما تحفة الأشراف ٢٧٥/٨ ، وابن حبان ١٤٢٦) ، والطحاوي في شرح معانى الآثار ٤/٣١٢ ، والبيهقي ١٣٩/٨ ، والبغوي في شرح السنة ١٢/١٧٧ .

وقال النووي في رياض الصالحين كما في دليل الفالحين ص ٨٠٢: «رواه أبو داود بإسناد حسن» وفي دليل الفالحين ص ٨٠٢: «وهو حديث حسن» .

(٢) سنن أبي داود الموضع السابق .

السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، والله أعلم بكيفيتها، وتقول حصل كذا أو سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم، وهذا نوع من السحر.
أما خط الأرض ليكون ستة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك،
فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط
قال: من وافق خطه فذاك^(١).

وبحسب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يمكن الحصول عليه؛ لأنه قال
 فمن وافق خطه فذاك.

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحى من الله تعالى كما في حال هذا النبي فلا
يأس به؛ لأن الله يجعل له علامات يتزل الوحى بها بخطوط يعلمها إياها.

أما هذه الخطوط السحرية فهي من الوحى الشيطانى، فإن قيل طريقة
الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة في موضوع الشرك، فلماذا لم يقطع
ويسد هذا الباب؟ فالجواب:

كان هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط، فلا بد
أن يحيى عنه الرسول ﷺ.

قوله: «من الجب»:

سبق أن الجب السحر، وعلى هذا فتكون «من» للتبعيض على
الصحيح، وليس للبيان أي: هذان النوعان من الجب.

قوله: «والطيرة»:

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواقع الصلاة/باب تحريم الكلام في الصلاة ٣٨٢-٣٨١،
وفي السلام/باب تحريم الكهانة ٤/١٧٤٨ من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

أي: من الجب، على وزن فعلة وهي اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير وهي التشاوم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاوم بمعلوم مرئيا كان أو مسموعاً، زمناً كان أو مكاناً. وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع كالتطير بالزمان.

وأصل التطير: التشاوم لكن أضيفت إلى الطير؛ لأن غالباً التشاوم عند العرب بالطير، فعلقت به وإنما فإن تعريفها العام: التشاوم بمرئي أو مسموع. وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ^(١).

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاوم؛ فإنها تضيق عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى أنه يوجد أناس إذا أصبح خرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتري. والعياذ بالله - وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشئم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هذا التشاوم، بأنه **عَلَيْهِ عَدْ** عقد عليها في شوال، وبينها في شوال، فكانت تقول أيكن كان أحظى عنده مني؟^(٢) والجواب لا أحد.

فالمهم أن التشاوم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال؛ لأنه ينكمد عليه عيشه، فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفال^(٣). فينبغي للإنسان أن يتغاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة

(١) يأتي ص (٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح / باب التزوج في شوال ٢/١٠٣٩.

(٣) يأتي ص (٨٩).

.....
بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجع فيه فيتركه . وهذا خطأ فكل شيء ترى فيه المصلحة فلا تتقاعس عنه في أول محاولة ، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك .

قوله : «من الجب» قال الحسن الجب : رنة الشيطان . قال صاحب تيسير العزيز الحميد^(١) . لم أجد فيه كلاماً .

والظاهر أن رنة الشيطان أي : وحي الشيطان . فهذه من وحي الشيطان وإملائه ، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً من الكفر .

وجه كون العيافة من السحر :

وجه ذلك : أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له ، فهذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً فهذا لا أصل له ، ولا سبب له ، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك ، فقد اعتمد على أمر خفي ، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة^(٢) .

وكذلك الطرق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر ، ويتوصلون به إليه .

والطيرة كذلك ، لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه ، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه^(٣) .

قوله : «إسناده جيد

قال الشيخ : إسناده جيد ، وعندني أنه أقل من الجيد في الواقع ، إلا أن

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٩٨ .

(٢) سبق ص (٥) .

(٣) يأتي ص (٨٩) .

وعن ابن عباس رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتبس شعبة

يكون هناك متابعات ، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صحي متنه ، وكان موافقاً للأصول ، فإنه يتراهل في سنته ، والعكس بالعكس ، إذا كان مخالفًا للأصول ؛ فإنه لا يبالي بالسند ، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث ، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة ، هذا مشكل ؛ لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد ، فالأولى أن يقال : إن السند فيه ضعف ، ولكن المتن صحيح . فانا أرى أن مثل هذا لا يحکم له بالجود ، إذ جيد أرقى من حسن ، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء ؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن . وأيها أهم السند أم المتن ؟

الجواب : كلامها مهمان ، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغنى عنه ، أما السند فلا بد منه يقول ابن المبارك : لو لا السند لقال كل من شاء ما شاء^(١) .

قوله : «من» شرطية وفعل الشرط «اقتبس» وجوابه «فقد اقتبس» .

قوله : «اقتبس» أي : تعلم . لأن التعلم وهوأخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة .

قوله : «شعبة» أي طائفة ومنه قوله تعالى : «وجعلناكم شعوباً وقبائل»^(٢) أي طوائف وقبائل .

(١) مقدمة صحيح مسلم ١٥/١ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه أبو داود
وإسناده صحيح^(١).

قوله: «من النجوم»: المراد علم النجوم وليس المراد النجوم نفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم. والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية. فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلامي بالنجم الفلامي على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً. وفي هذا النجم الآخر على أنه سيكون شقياً. فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من الله وليس للنجوم بها علاقة. وهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهمي في غزوة الحديبية قال: صلّى الله ذات ليلة على أثر سماء من الليل فقال: قال الله تعالى: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال مطرنا بنوه كذا وكذا - بنوه يعني بنجم والباء للسيبة يعني هذا المطر من النجم - فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»^(٢).

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي الرياح به أيضاً، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلامي؛ لأن النجوم لا تتأثر لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفترض يكون فيها ريح ومطر، فهي

(١) أخرجه أحد في المسند ١/٢٢٧، ٣١١، وأبو داود في الطب/باب في النجوم ٤/٢٢٦، وسكت عنه، وابن ماجه في الأدب/باب تعلم النجوم ٢/١٢٢٨، والطبراني في الكبير ١١٢٧٨ (والبيهقي ١٣٨/٨) من حديث ابن عباس، والحديث صحيحه النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص (٨٠٣)، والعرافي في تحرير الإحياء ٤/١١٧ والذهبي كما في فیض القدير ٦/٨٠.

(٢) يأتي ص (١٢٧).

.....
.....
.....

ظرف لها، وليست سبباً للريح أو المطر.
وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين :

الأول : علم التأثير وهو ما يستدل به على الحوادث الأرضية، فهذا محرّم باطل لقول النبي ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»^(١) وقوله في حديث زيد بن خالد: «من قال مطراناً بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(٢) لأنّه لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني : علم التسبيح، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتلهم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: «وَأَلْقَيْنَا فِي الْأَرْضِ رُوَايَيْنَ أَنْ تَعْيَدُ بِكُمْ وَأَهَارَأُ وَسْبَلًا لِعَلَكُمْ تَهْتَدُونَ»^(٣) فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية فقال تعالى: «وَعِلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ»^(٤). فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا يأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل، ودخل وقت الربيع.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»:
المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأنّ هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تغير بها الأحوال.

قوله: «زاد ما زاد»:

(١) سبق ص (٣٥).

(٢) يأتي ص (١٢٧).

(٣) سورة النحل، الآيات: ١٥، ١٦.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه»^(١).

أي كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.
ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء فإنه يزداد بزيادته.
وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف :

أن من أنواع السحر تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية.
وهذا الحديث وإن كان ضعيف السندي، لكن من حيث المعنى صحيح،
تشهد له النصوص الأخرى.

قوله: «من عقد عقدة»:

«من» شرطية، والعقد معروف.

قوله: «ثم نفث فيها»: النفث النفع بريق خفيف، والنفث من أجل السحر.
أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل تحكم بالرطوبة فليس
بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف،
فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح فيبعد الرجل عن
زوجته فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة فقد وقع في السحر كما قال
تعالى: «ومن شر النفايات في العقد»^(٢).

(١) أخرجه النسائي في كتاب تحرير الدم/باب الحكم في السحرة ١١٢/٧، والمزي في تهذيب الكمال ٦٥٤/٢ وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٢: «رواية النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه عند الجمهور» وقال الذهبي في الميزان ٣٧٨/٢: «هذا الحديث لا يصلح للبن عباد وانقطاعه»، وحسنه ابن مقلع في الآداب ٧٨/٣، ورواه عبد الرزاق عن الحسن مرسلاً في المصنف ١١/١٧.

قال في النهج السديد ص ١٣٥: «ثبتت أن أصل الحديث مرسل لكن عباداً أخطأ فوصله».

(٢) سورة الفلق، الآية: ٤.

.....
قوله: «ومن سحر فقد أشرك»: «من» هذه شرطية وفعل الشرط «سحر»
وجوابه «فقد أشرك».
وقوله: «فقد أشرك».

هذا لا يتناول جميع السحر إنما من سحر بالطرق الشيطانية.
أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها، فقد سبق أنه لا يكون
مشاركاً^(١)، لكن الذي يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد،
فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه».
تعلق شيئاً: أي استمسك به واعتمد عليه.
وكل إليه: أي جعل هذا الشيء الذي تعلق به عهداً له، ووكله الله إليه،
ونخل عنده.

ومناسبة هذه الجملة للفي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا
الشيء إلى حاجته وماربه، فيُوكِل إلى هذا الشيء المحرم.
ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق النفح بالعقد
ذهب إلى السحرة، وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراءات والأدوية المباحة
والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ»^(٢) وإذا كان الله حسبك فلا بد أن تصل إلى ما
تريد.

لكن من تعلق شيئاً من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من
المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على

(١) ص (٦)

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٥.

نفسه، وصار معجباً بما يقول ويفعل ، فإنه يوكل إلى نفسه ، ويوكِل إلى ضعف ،
وعجز ، وعورة . وهذا ينبغي أن تكون دائِماً متعلقاً بالله في كل أفعالك وأحوالك
حتى في أهون الأمور .

ونقول للإنسان : اعتمد على نفسك بالنسبة للناس ، فلا تأسِّم ولا
تستدلُّ أمامهم واستغْنِ عنهم ما استطعت ، أما بالنسبة لله فلا تستغن عنه ، بل
كن دائِماً معتمدَا على ربِّك حتى تيسِّر لك الأمور ، ومن هذا النوع من يتعلّقون
ببعض الأَحْرَاز يتعلّقونها ، فإنَّهم يوكلُون إلى هذا ، ولا يحصل لهم مقصودهم ،
لأنَّهم لو اعتمدوا على الله ، وسلَّكُوا السُّبُل الشرعية حصل لهم ما يريدون ،
ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من هذه القبور ، وجعلها ملجاً ومغپِّة عند
طلب الأمور ، فإنه يوكل إلى الله والإنسان قد يفتَن ويحصل له المطلوب بدعاء
هؤلاء ، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدَّعائهم ،
والآية صريحة . قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْلَى مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ
لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾^(١) لكن الله تعالى قد يفتَن من شاء من عباده .

مناسبة الحديث :

أن هؤلاء الذين يتعلّقون بالسحر ، ويجعلونه صناعة يصلُّون بها إلى
مارِّهم يوكلُون إلى ذلك ، وآخر أمرهم الخسارة والنَّدَم .

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٣ .

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أبشككم ما العَضْه؟ هي النَّمِيَّةُ: الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»^(١).

قوله: «ألا»: أداة استفتاح، والغرض تبيه المخاطب والاعتناء بما يلقي إليه لأهميته.

قوله: «هل أبشككم ما العَضْه؟»:
الاستفهام للتشويق كقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هُلْ أَدْلُكُمْ عَلَى تجَارَةٍ تَنْجِيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»^(٢).

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن يتبعه ليعلم وهي تصلح للجميع.
ومعنى أبشككم: أخبركم وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين. وقال بعض العلماء، من ناحية اللغة لا الاصطلاح: أن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في اهتمامه وغير اهتمامه.

قوله: «العَضْه» على وزن الحبل والصمت والجمل، والعَضْه بمعنى القطع، وأما العَضْه فإنها التفريق، وأيًّا كان فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً.

قوله: «هي النَّمِيَّةُ».

فعيلة بمعنى مفعولة وهي من نم الحديث إلى غيره أي نقله، والنَّمِيَّةُ فسرها مرة ثانية بقوله: «الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» أي نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث، ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذبا فهو بحسب نَمِيَّة، وإن كان صادقاً فهو نَمِيَّة.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب تحريم النَّمِيَّةِ ٤/٢٠١٢.

(٢) سورة الصاف، الآية: ١٠.

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس^(١) فتجد هذين الرجلين صديقين فيأتى هذا النهان فيقول لأحد هما صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلى عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفريق؛ لأن السحر فيه تفريق قال تعالى: «فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه»^(٢).

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قات»^(٣) أي نهان وفي حديث ابن عباس المتفق عليه أنه ﷺ «مر بقبرين يعذبان أحدهما كان يمشي بالنمية»^(٤).

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب، فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النهان منها كانت حاله قال تعالى: «ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم»^(٥) وأعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك فاحذر، وهي أيضا سبب من أسباب فساد المجتمع؛ لأن هذا النهان إذا أراد أن

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٤٥٩، ٦/٢٢٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٤٩٤، وأورده الهيثمي في المجمع ٨/٩٣: «رواه أحد، وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب/باب ما يكره من النمية ٤/١٠١، ومسلم في الإيمان/باب غلط تحريم النمية ١/١٠١، ولغظه: «لا دخل الجنة نهان» من حديث حذيفة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء/باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله ١/٨٩، ومسلم في الطهارة/باب الدليل على نجاسته البول ١/٢٤٠ من حديث ابن عباس.

(٥) سورة ن، الأياتان: ١٠، ١١.

وَهُمَا عَنْ أَبْنَى عَمِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ
مِنَ الْبَيَانِ لِسْحَرًا»^(١).

يسلط على كل صديقين متحابين، ويفرق بينها بسميمته فسد المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من أفراد له، فإذا تفرقت صار كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا
تَنَازَعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبُ رِيحُكُمْ﴾^(٢) وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعاً، فهو أفراد متناشرة، والأفراد المتناشرة ليس لها قوة وهذا قال الشاعر:

لا تَخَاصِمْ بِواحِدٍ أَهْلَ بَيْتٍ فَضْعِيفَانِ يَغْلِبُانِ قُوَّا
وَقَالَ الْأَخْرَ :

تَأْبِي الرِّماحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسِرَا فَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكْسَرَتْ أَفْرَادَا
وَنَحْنُ لَوْ تَأْمَلْنَا النَّصْوصَ الْشَّرْعِيَّةَ لَوْجَدْنَاهَا تَحْرُمُ كُلَّ مَا يَكُونُ سَبِيلًا
لِلتَّفْرِقِ وَالْقَطْعِيَّةِ قَالَ ﷺ: «وَلَا يَبْعَثُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بَعْضٌ»^(٣) وَقَالَ: «لَا
يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ»^(٤) وَكُلُّ هَذَا الدُّفُعُ مَا يُوجَبُ الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ
بَيْنَ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ»:

(١) أخرجه البخاري في النكاح/باب الخطبة ٣٧٤/٣، من حديث ابن عمر، ومسلم في الجمعة/باب تحريف الصلاة والخطبة ٥٩٤/٢ من حديث عمار بن يسار.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع/باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه ٩٩/٣، ومسلم في البيوع/باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه ١١٥٤/٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح/باب لا يخطب على خطبة أخيه ٣٧٣/٣، ومسلم في النكاح/باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه ١٠٢٩/٢ من حديث أبي هريرة.

.....
«إن» حرف توكيدي، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و«من» يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس.

قوله: «سحرا»:

اللام للتوكيد و«سحرا» اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان قال تعالى: «خلق الإنسان علمه البيان»^(١).

والبيان نوعان :

الأول: بيان ما لا بد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال إني جعت، وإذا عطش قال إني عطشت وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «إن من البيان سحرا».

وعلى هذا التقسيم تكون «من» للتبعيض أي بعض البيان - وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة - سحرا.

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط صارت «من» لبيان الجنس.
ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف إليه، وهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل لكن لقوة فصاحته وبيانه، يسرح السامع حقاً، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بلغ يحذر من حق، ول Francois de la Châtre يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف، فالبيان في الحقيقة بمعنى

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٤، ٣.

الفضاحة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحور:
حديثها السحر الحلال.

والبيان سحر، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أولبيان
الواقع ثم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد فالبيان من حيث هو بيان، لا يمدح عليه،
ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق
وإثبات الباطل فهو مذموم؛ لأن استعمال لنعم الله في معصيته، وإن كان
المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل فهو مدوح^(١)، وإذا كان البيان يستعمل
في طاعة الله وفي الدعوة إلى الله فهو خير من العي، لكن إذا ابتدأ الإنسان ببيان
ليقصد الناس عن دين الله، فهذا لا خير فيه والعي خير منه، والبيان لا شك أنه
نعمه. وهذا امتن الله به على العبد فقال تعالى: «علمه البيان»^(٢).

وجه مناسبة الحديث للباب :

المؤلف كان حكياً في تعبيره بالترجمة حيث قال: باب بيان شيء من أنواع
السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو حرام ومن
كثير الذنوب، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره
وآثاره.

(١) فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح ولا يذم.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤.

فيه مسائل :

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبٍت. **الثانية:** تفسير العيافة والطرق. **الثالثة:** أن علم النجوم نوع من السحر. **الرابعة:** العقد مع النفث من ذلك. **الخامسة:** أن التمييم من ذلك. **السادسة:** أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: «فيه مسائل»: أي في هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والأثار، مسائل.

المسئلة الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبٍت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبٍت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق وقد بُيَّنت في الباب أيضاً وشرحـت.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر لقوله: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر» وسبق الكلام عليها أيضاً.

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك، لحديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر» وقد تقدم الكلام على ذلك.

الخامسة: أن التمييم من ذلك؛ لحديث ابن مسعود: «ألا هل أتبّكم ما العضة هي التمييم» وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة، أي من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً» والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة، استدلاً بقوله ﷺ: «إن من البيان»؛ لأن من هنا

للتبسيض . ووجه ذلك من السحر أن لسان البريق ذا البيان قد يسرق الهم
وقد يلهب الهم بـما عنده من الفصاحة .

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

الكهان: جمع كاهن والكهنة أيضاً جمع كاهن. وهم قوم يكثرون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما جاء في السماء، تسترق السمع من النساء، وتأتي وتخبر الكاهن، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقد الناس عملاً بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، وهذا يسمون الكهنة إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهنة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهنة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهنة؛ لأنه يدرك بالحساب. وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلاً في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب؛ وكما يقولون إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهنة في شيء؛ لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب، وكل شيء يدرك بالحساب، فإن الأخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهنة.

وهل من الكهنة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟ الجواب: لا لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر. ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسألة عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»^(١).

السماء، وتحجع الغيوم والرعد والبرق ونقل السحاب، نقول يوشك أن يتزل المطر.

فالملهم أن ما استند إلى شيء محسوس فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون إن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبح كما قال السفاريني:
فكل شيء معلوم بحس أو هجاء إنكاره جهل قبيح بالحجاج
فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك
إلى الشرع لكان ذلك طعناً بالشرع.

قوله: «من»: شرطية فهي للعموم:
والعرف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة أي من يتسب إلى
العرفة.

والعرف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل.
وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمالي ونحوهم من يستدل على
معرفة الغيب بمقادمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاء،
إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وأدّعى بها المعرفة.
قوله: «فسألة لم تقبل له».

(١) أخرجه مسلم في السلام/باب تحريم الكهانة وإثبات الكهان ١٧٥١/٤ دون قوله:
«فصدقه» وقد أخرج هذه الزيادة الإمام أحمد في مسنده ٦٨/٤، ٣٨٠/٥.

.....

ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً،
ولكنه ليس على إطلاقه فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:
القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجرداً فهذا حرام؛ لقول النبي ﷺ من أتى
عراضاً...^(١) فإن ثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على
خرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله، فهذا كفر؛ لأن تصديقه
في علم الغيب تكذيب للقرآن.

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره، هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل
أن يأخذ بقوله فهذا لا يأس به، ولا يدخل في الحديث.
وقد سأله النبي ﷺ ابن صياد فقال: «ماذا خبرات لك؟» قال الدخ فقال:
«حسناً فلن تعدو قدرك»^(٢) فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره له، فأخبره به
لأجل أن يختبره.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور، وهذا
قد يكون واجباً أو مطلوباً.

وإبطال قول الكهنة لاشك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجباً، فصار
السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت
عليه الأدلة الشرعية الأخرى.

وقد أخبر شيخ الإسلام عنهم، أن الجن يستخدمون الإنس في أمور،
والكهان يستخدمون الجن، ليأتواهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب

(١) سبق ص (٤٨)

(٢) أخرجه البخاري في الجihad/باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ٣٧٤ / ٢ ومسلم في
الفتن/باب ذكر ابن صياد ٤٤٢٢ / ٤ من حديث ابن عمر.

.....
ما يضيفون. وخدمة الجن للإنس ليست محمرة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنسان في أمور لمصلحة الإنسان، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة؛ بل لأنّه يحبه في الله والله، ولا شك أنّ من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنّه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنسان لهم فيها لا يرضي الله عز وجل؛ إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنّهم ربّا يخدمون الإنس لأمر حرم من زنا أو لواط! لأن الجنية قد تستمتع بالإنساني بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربّا أن الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤن على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخطبهم، وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: «كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوف ما يكون لحماً، وكل بعرة فهي علف لدوابكم»^(١) وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئي من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها فقالوا: ابحثي لنا عنه، فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إيل الصدقة^(٢).

قوله: «فصدقه»:

ليست في صحيح مسلم، بل الذي في مسلم: «فسأله لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» والظاهر: أن المؤلف إما أن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ

(١) أخرجه مسلم في الصلاة/باب الجهر بالقراءة في الصبح ٣٣٢/١ من حديث ابن مسعود.

(٢) آكام المرجان في أحكام الجن ص (٣٨).

.....
«صدقه»، أو أن المؤلف عزاه إلى مسلم باعتبار أصله، فأخذ من مسلم،
«فأسأله»، وأخذ من أحد «صدقه».

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»:

نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أولاً؟^(١)

نقول: نفي القبول إما أن يكون بقوات شرط، أو لوجود مانع، ففي
هاتين الحالين يكون نفي القبول نفياً للصحة، كما لو قلت من صل بيغير وضوء،
لم يقبل الله صلاته، ومن صل في مكان مغضوب، لم يقبل الله صلاته عند من
يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلّق بقوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من
نفي القبول نفي الصحة، وإنها يكون المراد بالقبول المنفي، إما نفي القبول
النام أي لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وثبات المثبتة.
وإما أن يراد به أن هذه السيدة التي فعلتها تقابل تلك الحسنة في الميزان،
فسقطت بها، ويكون وزرها موازياً لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت
كأنها غير مقبولة. وإن كانت مجرئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها
قوبل بالسيئة فأسقطتها.

ومثله قوله ﷺ: «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»^(٢).

(١) آكام المرجان في أحكام الجان ص (٣٨).

(٢) أخرجه أحد ٣٥/٢، والترمذمي في كتاب الأشربة/باب ما جاء في شارب الخمر ٦/١٣٩،
وقال: «حديث حسن» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرج الإمام أحمد في مستنه ٢/١٧٦، ١٩٧، ١٨٩، وأبن ماجه في كتاب الأشربة/باب
من شرب الخمر لم تقبل له صلاة ٢/١١٢٠ نحوه من حديث عبد الله بن عمرو.
وكذا أخرج أبو داود في الأشربة/باب النبي عن المسكر ٤/٧٦ نحوه من حديث ابن عباس
رضي الله عنهما.

وقوله: «أربعين يوماً»:

هذه لا يمكننا أن نعللها، وأنا لا أعلم علتها؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمته. فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بها لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له ببا تعرف حكمته، وصحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن ما لا نعرف حكمته كون الإنسان يتقاد له، وهو لا يعرف الحكمة دليل على كمال الانقياد، والتعبد لله عز وجل، فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذًا له وقبولاً. فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه. ولكن سبيلنا أن تكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: «وما كان مؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»^(١).

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله؛ إلا ما استثنى كالقسم الثالث والرابع؛ لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم. وهو في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمدٍ ﷺ» رواه أبو داود^(١).

قوله: «من أتى كاهن».

تقدّم معنى الكاهن^(٢) وأنهم كانوا رجالاً في أحياط العرب تنزّل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار النساء.

قوله: «فصدقه» أي نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني تثبيته وتحقيقه. فقال هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «بما يقول»:

«ما» عامة في كل ما يقول حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد».

أي: بالذى أنزل، والذى أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل قال تعالى: «وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين»^(٣) وقال تعالى: «قل نزله روح القدس من ربك»^(٤) وهذا نعرف أن القول الراجح في

(١) أخرجه أحادى ٤٠٨/٢، ٤٧٦، والبخاري في التاريخ الكبير ١٦/٣، ١٧ وأبو داود في الطبرى/باب في الكاهن ٤/٤، ٢٢٥، والترمذى في الطهارة/باب في كراهة إتیان الحائض ١/١٦٤ وقال: «لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثر عن أبي عبيدة المحبسي عن أبي هريرة... وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده».

وآخرجه ابن ماجة في الطهارة/باب النبي عن إتیان الحائض ١/٢٥٩ والدارمى ١/٢٠٩، وابن الجارود ٢٠٧، والعقيلي ١/٣١٨، والطحاوى في شرح معانى الآثار ٣/٤٤، والبيهقي في السنن ٧/١٩٨، والحاكم ١/٨ وصححه على شرط الشعدين.

والحديث صححه الألبانى في الإرواء ٧/٦٨.

(٢) (٤٧) (٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢، ١٩٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

ال الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى ، وأما لفظه فمن الرسول ﷺ ، لكنه حكاہ عن الله ؛ لأننا لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سندًا من القرآن ؛ حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل . ولأنه لو كان من كلام الله لفظاً لوجب أن تثبت له أحكام القرآن ؛ لأن الشرع لا يفرق بين المترائلين ، وقد علم أن أحكام القرآن لا تطبق على الحديث القدسي ، فهو لا يتبع بتلاوته ، ولا يقرأ في الصلاة ، ولا يعجز لفظه ، ولو كان من كلام الله لكان معجزاً ؛ لأن كلام الله لا يناله كلام البشر ، وأيضاً باتفاق أهل العلم - فيما أعلم - أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية ، فلا يصح أن يقال : إنه سمع كلام الله .

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله ، وهذا هو الصحيح ، وللعلماء في ذلك قولان : هذا أحدهما ، والثاني أنه من قول الله لفظاً .
فإن قال قائل : كيف تصحرون هذا ، والنبي ﷺ ينسب القول إلى الله ، ويقول : قال الله تعالى . ومقول القول هو هذا الحديث المسوقة ؟

قلنا : هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم . قال موسى ، قال فرعون ، قال إبراهيم . . . مع أنها نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ، ولا قولهم ، لأن لغتهم ليست اللغة العربية ، وإنما نقل نقاًلاً عنهم ويدل هذا أن القصص في القرآن مختلف بالطول والقصر والألفاظ ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى . ومع ذلك ينسبها إليهم كما قال تعالى : «إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بِرَاءٌ مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرْتُنِي»^(١) وقال عن موسى :

(١) سورة الزخرف ، الآياتان : ٢٦ ، ٢٧ .

وللأربعة، والحاكم وقال:

﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله﴾^(١) وقال عن فرعون: ﴿قال للملائكة حوله إن هذا الساحر عليه﴾^(٢).

قوله: «بها أنزل على محمد».

ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه متصل أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله؛ لأن التزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «كفر بها أنزل على محمد»:

وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾^(٣) وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات فالذى يصدق الكاهن في علم الغيب، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة وإن كان جاهلاً، ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره كفر دون كفر.

قوله: «وللأربعة والحاكم».

الأربعة هم أبو داود والنسائي والترمذى وابن ماجه. والحاكم ليس من أهل السنن، لكن له كتاب سمي صحيح الحاكم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٥.

صحيح على شرطها عن أبي هريرة: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بها يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(١) ولا يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً^(٢).

قوله: «صحيح على شرطها»:
أي شرط البخاري ومسلم، لكن قول على شرطها هذا على ما يعتقد
وإلا فقد يكون الأمر على خالق ذلك.
ومعنى قوله على شرطها: أي أن رجاله رجال الصحيحين، وأن ما
اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.
ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخاري ومسلم؛
لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال:
إن هذا الحديث على شرطها، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا
السائل، فيكون البخاري ومسلم عليها وتركا الحديث من أجلها.

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٩/٢، والحاكم في المستدرك ١/٨ وصححه على شرطها، والبيهقي ١٣٥/٨.

وقال الشارح الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص (٤٠٩): «قال العراقي في أماليه: حديث صحيح، وقال الذهبي: إسناده قوي، وعلى هذا فعزوه المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يبرره أحد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ فإنه عزاه في الفتح إلى أصحاب السنن والحاكم فوهم، ولعله أراد الذي قبله». وانظر فتح الباري ٢١٧/١٠، فيض القدير ٢٣/٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٥) والبزار كما في كشف الاستار عن زوايد البزار ٤٤٣/٢.

قال المنذري في الترغيب ٤/٣٦: «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً» وقال المبسوطي في المجمع ٥/١١٨: «ورجال الكبير والبزار ثقات»، وقال الحافظ في الفتح ٢١٧/١٠: «إسناده جيد».

.....
قوله : «صحيح» : يقولون : الحاكم من يتساهل بالتصحيح ، ولهذا قالوا لا عبرة بتصحيح الحاكم ، ولا بتوثيق ابن حبان ، ولا بوضع ابن الجوزي ، ولا بإجماع ابن المنذر .

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة ، لأن كلمة لا عبرة أي لا يلتفت إليه ، وإنها لا يؤخذ مقبولاً في كل حال ، مع أن تدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله ، ووجدت أنه دائماً إذا نقل الإجماع ، يقول إجماع من تحفظ قوله من أهل العلم ، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه ؛ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولكتنا مع ذلك إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع ، فقد يكون هذا القول إجماعاً . أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله فإن قوله هذا لا يكون إجماعاً ولا يوثق به ، ولا نحكم بأنه إجماع .

مثاله لو قال رجل لم يدرس إلا المذهب الخبلي ؛ في مسألة ، وقال هذا إجماع من تحفظ قوله من أهل العلم . فإن قوله هذا ليس نقلأً للإجماع ؛ لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم .

قوله : «من أتى عرافاً أو كاهناً» : «أو» يحتمل أن تكون للشك ، وتحتمل أن تكون للتنبيه ، فالحديث الأول بلفظ عراف ، والثاني بلفظ كاهن ، والثالث جمع بينهما ، فتكون «أو» للتنبيه .

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه ؛ لأن كثرة الأدلة مما يقوى المدلول ، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به ثم جاء آخر وأخبرك به ازدادت توثقاً وقوة . وهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين .

وظاهر صنيع المؤلف : أن حديث أبي هريرة : «من أتى عرافاً أو كاهناً»

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد^(١) ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى - إلى آخره»^(٢).

أنه موقف؛ لأنَّه قال عن أبي هريرة، ولكنه لما قال في الذي بعده «مثله موقفاً»، ترجح عندنا أنَّ الحديث الذي قبله مرفوع.

قوله: «ليس منا». تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنَّها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.
قوله: «مرفوعاً». أي إلى النبي ﷺ.

قوله: «تطير»:

التطير هو: التشاوم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأنَّ العرب كانوا يتشاءمون، أو يتغافلون بها. وقد سبق ذلك^(٣).
ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله شيء، تركه وتشاءم. فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وما دمت أنت تعلم أنَّ في هذا الأمر خيراً فغامر فيه، ولا تشاءم؛ لأنَّك لم توفق فيه لأول مرة. فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثانية مرة

(١) أخرجه البزار كما في الترغيب ٤/٣٣، ومجمع الروايند للهيثمي ٥/١١٧، وقال المنذري: «إسناده جيد»، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة».

(٢) قال الهيثمي في مجمع الروايند ٥/١١٧: «روايه البزار والطبراني في الأوسط وفيه زعامة بن صالح وهو ضعيف».

وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٣: «إسناده حسن».

(٣) ص (٣١)

أو ثالث مرة، ويقال إن الكسائي - إمام النحو - طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار، وتجاوزته. فقال - سبحانه الله - هذه النملة تكابر هذه النواة، حتى تجحث، إذن أنا سأكابر علم النحو حتى أنجح فكابر فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: «أو تُطير له». بالبناء للمفعول أي أمر من يتغیر له، مثل: أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الغلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك؛ لأنظر هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «من تطير» يشمل من تغیر لنفسه، أو تغیر لغيره.

وقوله: «أو تكهن أو تكهن له».

سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل^(١)، يقول: سيكون كذلك وكم أوربا أن قوله يقع بهذا متكون، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قوله تكهن بأن فلانا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم، على أمر مباح وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور، يظن أن الكهانة كلها مباحة بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إياه.

قوله: «أو تكهن له»:

أي طلب من الكاهن أن يتكون له، كأن يقول: للكاهن ماذا يصيّبني غداً، أو في الشهر الغلاني، أو في السنة الغلانية. وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «أو سحر أو سحر له». تقدم تعريف السحر؛ وتقدم بيان أقسامه^(٢).

(١) ص (٤٧). (٢) ص (٦).

قال البعوي : العراف : الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك .
وقيل : هو الكاهن ، والكافر هو الذي يخبر عن الغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يخبر عنها في الضمير .

قوله : «أو سُحر له» .

أي طلب من الساحر أن يسحر له ، ومنه النشرة عن طريق السحر ، فهذا دخلة فيه ، وكانوا يستعملونها على وجوه متعددة . منها أنهم يأتون بطلست فيه ماء ، ويصبون فيه رصاصاً ، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر ، أي : تكون صورة الساحر في هذا الرصاص ، ويسمونها العامة عندنا «صب الرصاص» وهذا من أنواع السحر المحرم ، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله^(١) .

الشاهد من هذا الحديث :

قوله : «ومن أتى كاهناً . . . إلخ» قوله : «ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد من حديث ابن عباس . . . إلخ» فيكون هذا مقوياً للأول .

قوله : «قال البعوي : العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات . . .» .

العراف : صيغة مبالغة فاما أن يراد بها الصيغة ، وإما أن يراد بها النسبة . وهو الذي يدعي معرفة الأشياء ، وليس كل من يدعي معرفة يكون عرافاً ، لكن من يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب ، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها .

وظاهر كلام البعوي رحمه الله : أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضي ؛ لأن مكان المسروق ماض قد سرق ، وكذلك الضالة قد حصل

(١) سبق ص (٥٨)

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرماں ونحوهم من يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»^(١).

الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، وهذا قال المؤلف رحه الله وقيل: هو الكاهن.

والكافن هو الذي يخبر عن الغيبات في المستقبل.

قوله: «وَقَيْلٌ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْغَيْبِ»:
أي أن تضرر شيئا فتقول: ما أضررت؟ فيقول: أضررت كذا وكذا.
أو الغيبات في المستقبل، تقول ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأة؟ متى يقدم ولدي وهو لا يدري؟
فهذا من الكهانة.

فالعلماء في تعريف العراف فقيل هو: الذي يدعى معرفة الأمور بمقدمة يستدل بها على مكان المسرور والضالة ونحوها، فيكون شاملًا لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عنها في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكافن هو الذي يخبر عن الغيبات في المستقبل، أو الذي يخبر عنها في الضمير.

قوله: «وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمَةَ»:
هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية ولكنه - والله أعلم - كان مشغولاً بالجهاد

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٢٦/١١، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٣٩.

العلمي مع قلة الشهوة، والا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولداً مدفون إلى جانبه في دمشق، فهذا غير صحيح.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذه، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتفاعه. وعلى كل حال فشيخ الإسلام ساق هذا القول، وارتفاعه ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمالي والمنجم ونحوهم، فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي؛ لأن عندنا عموماً معنوياً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموماً لفظياً، وهو مادل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملًا، ودلالته على النظير يسمى عموماً معنوياً، لاتفاقهما في العلة الشاملة لهذا وهذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاثة حالات:

الحالة الأولى: أن يستخدمهم في طاعة الله، كان يكون له نائبًا في تبليغ الشرع، فمثلاً إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقي منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعاً فهذا لا يbas به، بل إنه قد يكون أمراً محظوظاً أو مطلوباً، وهو من الدعوة إلى الله عز وجل، والجن حضروا للنبي ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم متذرين^(١)، والجن فيهم الصالحة والعباد والزهد والعلماء؛ لأن المنذر لا بد أن يكون عالماً بما ينذر، عابداً مطيناً لله سبحانه في الإنذار.

(١) كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكُمْ نَفَرَّا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾** (سورة الزخرف، الآية ٢٩).

الحالة الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل: أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حراماً، كما لو كان الجن لا يساعده في أمره إلا إذا ذبح له، أو سجد له، أو ما أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر ففعل، فذهب الجن، ثم رجع، فقال إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبل الصدقة في المكان الفلافي^(١)، فهذا استخدام في أمر مباح.

الحالة الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وتروعهم، وما أشبه ذلك، فهذا حرم، ثم إن كانت الوسيلة شركاً صار شركاً، وإن كانت وسليته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجن الفاسق يالف هذا الأنسي الفاسق، ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثما وعدوانا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ورد ذلك عنه عليه السلام^(٢) وهي: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» الآية. قوله: «يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم» الواو هنا ليست عطفاً،

(١) سبق ص (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الوكالة (باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فاجازه الموكل ٤/١٤٩).

ولكنها للحال، يعني والحال أنهم ينتظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «ما أرى من فعل ذلك». ويجوز بفتح الممزة بمعنى أعلم وبالضم بمعنى ما أظن.

وقوله: «أباجاد». هي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضطبع... وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن تعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا يأس به. وما زال أناس يستعملونها، حتى العلماء يورخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمة الله في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم: جد بالرضا واعطى المنى من ساعدوا في ذا البنا تاريخه حين انتهت قوله المنيب اغفر لنا والشهر في شوال يا رب تقبل سعينا فقوله: «اغفر لنا» لو عدناها صارت ١٣٦٢هـ.

وقد اعنى بها العلماء في العصور الوسطى، حتى في القصائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويورخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.
الثاني: محروم، وهو كتابة «أباجاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلعها وغروبها وينتظرون في النجوم، ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض، إما على سبيل العموم كالجدب والمرض وال الحرب، وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا، وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الواقع في الأرض.

.....
.....
.....

وقوله : «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق» :

قوله : «خلاق» أي : نصيب .

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم ، لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر ، إذ لا ينفي النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين ، وإن كان له ذنب عذب بقدر ذنبه ، أو تجاوز الله عنها ، ثم صار آخر أمره إلى نصبيه الذي يجده عند الله .

ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا ، وذلك أننا إن حكمنا بکفرهم ، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون ، فإن تابوا ، وإلا قتلوا كفاراً .

وإن حكمنا بعدم كفرهم ، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر ، أو قلنا أنهم لا يكفرون ، لأن المسألة فيها خلاف ، فإنه يجب قتلهم لرفع مفسدتهم ومضررتهم - حتى وإن قلنا بعدم كفرهم ، لأن أسباب القتل ليست مخصصة بالكفر فقط ، بل للقتل أسباب متعددة ومتعددة قال تعالى : «إِنَّمَا جَزَاءَ الَّذِينَ يَحْرَبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادُوا أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصْلَبُوا أَوْ تُنْقَطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خَلَافٍ أَوْ يَنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ»^(١) فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهם فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام .

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام :

الأول : أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية ، سواء كانت عامة ، أو خاصة فهو حرم إن اعتقاد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور ، أو أن

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣٣ .

لها شركا فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقاد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج عن الملة. ولكن يسمى كفراً، لقول النبي ﷺ - «على إثر سهام كانت من الليل - هل تدرؤن ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(١).

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله^(٢):

الثاني: أن يتعلم علم النجوم، ليستدل بحركاتها وسيرها على الفضول وأوقات البذر والمحصاد والغرس، وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعمل بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات ووجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية، أو فرض عين.

(١) يأتي ص (١٢٧).

(٢) ص (٣٦).

فيه سائل :

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن، **الثانية:** التصریح بأنه کفر، **الثالثة:** ذکر من تکهن له. **الرابعة:** ذکر من تطیر له، **الخامسة:** ذکر من سحر له

فيه سائل :

الأولى: لا يجتمع تصدقیک الكاهن مع الإيمان بالقرآن: يؤخذ من قوله: «من أتی کاهنا فصدقه بما يقول، فقد کفر بما أنزل على محمد». ووجہه أنه کذب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر.

الثانية: التصریح بأنه کفر:

تؤخذ من قوله: «فقد کفر بما أنزل على محمد».

الثالثة: ذکر من تکهن له:

تؤخذ من حديث عمران بن حصین حيث قال: «ليس منا» أي: أنه كالکاهن في براءة النبي ﷺ منه.

الرابعة: ذکر من تطیر له: تؤخذ من قوله: «أو تطیر أو تطیر له».

الخامسة: ذکر من سحر له:

تؤخذ من قوله: «أو سحر أو سحر له».

وأتی المؤلف بذكر من تکهن له، أو سحر له، أو تطیر له؛ لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الکهان، وهذا في المنطیرین، وهذا في السحرة، فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك فهو مثلهم في العقوبة.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد،

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعرف.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم؛ إلا على حسب الحالة التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك^(١).

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعرف:

وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم :

القول الأول: أن العراف هو الكاهن فهـا متراـدانـ، فلا فرق بـيـنـهـاـ.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور، فهو أعم من الكاهن؛ لأنـهـ يـشـمـلـ الكـاهـنـ وـغـيـرـهـ، فـهـمـاـ منـ بـابـ الـعـامـ وـالـخـاصـ.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عـمـاـ فيـ الضـمـيرـ، أوـ عـنـ المـغـيـبـاتـ فيـ المـسـتـقـبـلـ.

فالعرف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل، فـهـمـاـ مـتـبـاـيـنـانـ؛ فـالـظـاهـرـ أـنـهـ مـتـبـاـيـنـانـ.

(١) ص (٦٤).

باب ما جاء في النشرة

تعريف النشرة :

في اللغة: بضم النون فُعلَة من النشر وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور، يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

أما حكمها، فهو يتبيَّن مما قاله المؤلِّف رحمه الله، وهو من أحسن

البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه
فضل كبير لمن ابتعى به وجه الله، لكن في القسم المباح منها.

لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث

لا يأنس إلا بمن استعطف عليه.

وأحياناً يكون أمراضاً نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عن تنفسه عنه
من الناس وأحياناً يكون أمراضاً عقلية، فالسحر له تأثير إما على البدن، أو
العقل، أو النفس.

قوله: «النشرة»:

أَلْ لِلْعَهْدِ الْذَّهْنِيِّ أَيْ : الْمُعْرُوفَةُ عِنْدَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي
الْجَاهِلِيَّةِ ، وَذَلِكَ طَرِيقٌ مِّنْ طُرُقِ حَلِ السُّحُورِ وَهِيَ عَلَى نُوَعَيْنِ :

الْأُولُّ : أَنْ تَكُونَ بِسُحُورِ .

الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ بِاستِخْدَامِ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنْ كَانَ لَا يَصْلُ إِلَى حَاجَتِهِ
مِنْهُمْ إِلَّا بِالشُّرُكِ ، فَهُوَ شُرُكٌ أَوْ مُعْصِيَةٌ عَلَى حَسْبِ الْحَالِ ، وَإِنْ كَانَ بِسُحُورِ

عن جابر: أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد بسنده جيد وأبو داود^(١) وقال: سئل أحد عنها فقال ابن مسعود يكره هذا كله.

فإن كان بالأدوية والرقى والعقد والنفث، وما أشبه ذلك، فهو حرم ولا يصل إلى الشرك، وإن كان باستخدام الشياطين فهو كالأول.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طست فيه ماء، ويصيرون عليه رصاص، ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الرصاص، فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة فقال: إن بعض الناس أجازها فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طست، وأنه يغوص فيه، وأنه يبدو وجهه، فنرفض يده وقال: ما أدرى ما هذا؟ ما أدرى ما هذا؟ فكانه رحمه الله توقف في الأمر.

فقد يكون من الشياطين، وقد يكون من غير الشياطين، وأجاز بعض أهل العلم هذا النوع، والصحيح: أنه حرم.
قوله: «رواه أحد بسنده جيد وأبو داود».

سنداً أبي داود إلى أحد متصل؛ لأنَّه قد حدَّثه وأدركه.
قوله: «فقال ابن مسعود يكره هذا كله»:
أجاب رحمه الله يقول الصحابي، وكأنَّه ليس عنده أثر صحيح عن الشيء
في ذلك، وإلا ما استدل به.

وال المشار إليه في قوله: «يكره هذه كله» كل أنواع النشرة، حتى ولو

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢٩٤/٣، وأبو داود في الطب/باب في النشرة ٢٠١/٤ وسكت عنه، وحسنه الحافظ في الفتح ٢٣٣/١٠.

وقال الطبشي في مجمع الزوائد ١٠٢/٥: «رواه البزار والطبراني في الأوسط إلا أنه قال: ذكروا أنها من عمل الشيطان» ورجال البزار رجال الصحيح».

وفي البخاري عن قتادة «قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيجعل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فاما ما ينفع فلم ينه عنه^(١).

كانت - على رأي ابن مسعود - التهائم المعلقة، وما أشبهها - فإنه يكره ذلك^(٢).
وقوله: «يكره».

الكرابة عند المتقدمين يراد بها التحرير، وعند المتأخرین خلاف الأولى، فلا تظن أن لفظ المكرر في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرین، بل هو مختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا﴾^(٣) إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محمرة ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾^(٤) ولا شك أن المراد بالكرابة هنا التحرير.

وهذا الحديث بين فيه الرسول ﷺ حكم النشرة، وأنها من عمل الشيطان، وهذا يعني عن قوله إنها حرام، بل هذا أشد من قوله إنها حرام؛ لأن ربطها بعمل الشياطين يقتضي تقبیحها، والتغیر عنها، فهي محمرة ودلالة النصوص على التحرير ليس أن تقول هذا حرام فقط؛ بل إذا ذكرت العقوبات، أو قرنت بأمر مكرر عند الله دل ذلك على أنه محرم.

قوله: «رجل به طب»:

أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طبا من باب التفاؤل، كما سمي اللدغة سليما والكسير جبيرا.

قوله: «أو يؤخذ عن امرأته»:

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الحزم في الطب / باب هل يستخرج السحر ٤/٤٨، وانظر فتح الباري ١٠/٢٣٢.

(٢) انظر باب: ما جاء في الرقي والتهائم.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.
قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:
أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل
قول الحسن فيتقرب الناشر والمتشر إلى الشيطان بها يجب فيبطل عمله
عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات
المباحة فهذا جائز.

أي يجس عنها فلا يصل إلى جاعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.
والعجب أنه مشتهر عند الناس، أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد
عقدة عند العقد، فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم فقال إذا شبك
أحدهم بين أصابعه عند العقد، حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له
أصلاً، والحقيقة أن التشبيك ينبغي أن يكون ربطاً بين الزوجين.
ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجه، ويطلبون العلاج.
وقد ذكر بعض أهل العلم أن العلاج أن يطلقها، ثم يراجع، فینفك
السحر.

لكن لا أدرى هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح، فالطلاق هنا جائز؛ لأنه
طلاق للاستبقاء فيطلق كعلاج، ونحن لا ننفي بشيءٍ من هذا، بل نقول: لا
نعرف عنه شيئاً.

و«أو» في قوله: «أويؤخذ» يحتمل أنها للشك. أي: أو قلت يؤخذ،
ويحتمل أن تكون للتتوسيع: أي: أي سأله عن أمررين عن المسحور وعن الذي
يؤخذ عن امرأته.

قوله: «أيجعل عنه أو يتشر»:

لا شك أن «أو» هنا للشك لأن الحل هو النشرة.

قوله: «لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح»:

كأن ابن المسبب رحمة الله قسم السحر إلى قسمين: ضار ونافع.
 فالضار حرم قال تعالى: «وَيَعْلَمُونَ مَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ»^(١)،
 والنافع لا يأس به، وهذا ظاهر ما روی وهذا أخذ أصحابنا الفقهاء فقالوا:
 يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل
 السحر بالسحر، وحملوا، ماروی عن ابن المسبب، بأن المراد به مالاً يعلم عن
 حاله هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر فلا يحل، ولا شك أن
 هذا حل لكلام ابن المسبب على معنى قد يكون هو المراد، وقد يكون المراد
 غيره، وأنه يرى رحمة الله الجواز. ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسبب
 ومن فوق ابن المسبب من ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فليس معنى ذلك أن
 يكون جائزًا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنّة، وقد سئل الرسول
 ﷺ عن النشرة؟ فقال: «هُيَّا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»^(٢) ولا عجب أن يخطيء أحد
 من الصحابة، أو من التابعين في أمر من الأمور، ويكون في ذلك معدوراً.
 فعلى رأي هؤلاء يكون حل السحر بالسحر على ثلاثة أقسام، وهو ما
 ذكره الشيخ سليمان في شرحه.

الأول: أن يكون بالسحر، وهذا حرام.

الثاني: أن يكون بدواء مباح أو قرآن أو أدعية مباحة، وهذا جائز،
 ويستدل لذلك بعموم قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا»^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سبق ص (٧٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٩.

(٤) قال ابن القيم رحمة الله في زاد المعاد ٤/ ١٢٧: «وَالْقَلْبُ إِذَا كَانَ مُتَكَبِّرًا مِنَ اللَّهِ مَغْمُورًا بِذَكْرِهِ، وَلَهُ مِنَ التَّوْجِيهَاتِ وَالدُّعَوَاتِ وَالآذْكَارِ وَرَدَ لَا يَخْلُ بِهِ يَطَابِقُ فِيهِ قَلْبُهُ لِسَانُهُ كَانَ هَذَا =

وإذ أعلمنا أن في هذا العمل منفعة، فإننا نفعه، لأن الأدوية الحسية يعلم أنها دواء إما بطريق الوحي أو بالتجارب.
فالذي بطريق الوحي مثل قول النبي ﷺ: «الكماء من المن وما زها شفاء للعين»^(١) وكذلك العسل كما قال تعالى: «فيه شفاء للناس»^(٢).

= من الأسباب التي تمنعإصابة السحر.
وقال: ص (١٢٤): «ومقصود ذكر هديه في علاج هذا المرض - أي - السحر - وقد روى عنه فيه نوعان:
أحدهما: - وهو أبلغها - استخراجه وإبطاله، كما صرحت به، أنه سار ربه سبحانه في ذلك فدل عليه فاستخرجه من بثرة، فكان في مشط ومشاطة وجُفْ طلعة ذكر، فلما استخرجه ذهب مابه حتى كأنها أنشطة من عقال.
والنوع الثاني: الاستفراغ في محل الذي يصل إليه أثر السحر، فإن للسحر تاثيرًا في الطبيعة، فإذا ظهر أثره في عضو وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جداً، وقد ذكر أبو عبيدة في كتاب غريب الحديث بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليل أن النبي ﷺ، «احتجم على رأسه يقرن حين طب». = ومن الرقى النافعة في علاج السحر قراءة آيات السحر في سورة الأعراف، ويومنس، وطه في ماء ثم تصب على رأس المسحور.
وهناك نوع آخر، وهو: أن يدق سبع وروقات من سدر أخضر بين حجرين أو نحوهما، ثم يصب عليها ما يكفيه للغسل من الماء، ثم يقرأ فيه: آية الكرسي، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وأيات السحر في سورة الأعراف، ويومنس، وطه، ثم يشرب من هذا الماء، ويغسل بالباقي، ويذهب عنه ما به إن شاء الله، وقد جرب كثيراً وفعي بذلك الله، وهو جيد لمن حبس عن زوجته.

(١) أخرجه البخاري /باب المن شفاء للعين ٤، ٣٨٠، ومسلم في الأشريه /باب فضل الكماء ١٦١٩/٣ من حديث سعيد بن زيد.

(٢) سورة التحول، الآية: ٦٩.

.....
وأما التي بالتجارب، فكثيرة جداً. فالمستعملة الآن غالباً من التجارب.

الثالث: ما لا يعلم هل هو المباح أو المحرم؟ وحملوا كلام ابن المسب على هذا النوع. الذي لا يعلم هل هو من المباح، أو من المحرم؟ فقالوا: مadam أنه نافع، ونحن في شك من دخوله في الحرام، فإنه يرتفع عنه الشك، ويحكم ببابحته؛ لأن القاعدة الشرعية أن ما لم يكن الأمر فيه واضحاً، فإن الحاجة تبيحه.

فالذى اجتنابه من باب الورع، فالحاجة تبيحه لعدم القطع بالتحريم. ابن القيم رحمه الله يرى أن النشرة نوعان، ويحمل كلام ابن المسب على الثاني المباح.

فيه مسائل : الأولى : النهي عن النشرة ، الثانية : الفرق بين
النبي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن النشرة :

تؤخذ من قوله ﷺ : « هي من عمل الشيطان » وهذا ليس فيه صيغة نهي ،
لكن فيه ما يدل على النبي ؛ لأن طرق إثبات النبي ليست الصيغة فقط ، بل
ذم فاعله ، وقوله : هذا من عمل الشيطان ، وتقبع الشيء ، وما أشبه ذلك يدل
على النبي .

الثانية : الفرق بين النبي عنه والمرخص فيه :

تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله ، وتفصيله .

إشكال وجوابه :

ما الجمع بين قول الفقهاء رحهم الله يجوز حل السحر بالسحر ، وبين
قوتهم يجب قتل الساحر ؟

الجواب : عندهم أن الساحر لا يكفر لكن يجب قتله ، ولكن على تقدير
أن هذا الساحر لم تستطع قتله ، أو أن ولاة الأمور أبقوه ، أو ما أشبه ذلك .
أو يقال : إن الساحر الذي لا يضر ، وإنما ينفع الناس يُقى إن قلنا بجواز
عمله هذا ، فلا وجه لكونه يقتل ، وهذه المسألة تحتاج إلى تحرير أكثر .

باب ما جاء في التطير

تعريف التطير :

في اللغة: تفعل مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتقاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر هل يذهب يميناً أو شماليّاً، أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن أقدم أوفيها الشاوم أحجم وتركه.

أما في الاصطلاح: الشاوم بمرئي أو مسموع وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصها مثل الصلاة لغة الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت فقل: التطير هو الشاوم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً.

أو مسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لأخر يا خسران، أو يا خائب فيتشاءم.

أو معلوم: كالشاوم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات فهذه لا ترى ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن التطير قطع توكله على الله واعتمد على غيره.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، فـأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل لك، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة قال

وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُون﴾^(١).

تعالى: ﴿إِيَّاكُمْ نَعْبُدُ وَإِيَّاكُمْ نَسْتَعِين﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُهُ وَتَوَكُّلُ عَلَيْهِ﴾^(٣) وهذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي ﷺ تزوجها في شوال ويني بها في شوال وكانت أحظى نسائه إليه^(٤) وأححبهن إليه. وكانت العرب يتشاركون في هذا الشهر، ويقولون إذا تزوج في شوال فإنه لا يفلح وهذا لا حقيقة له. إذن فالطيرة محرمة وهي منافية للتوحيد كما سبق، والتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يمحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا التطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما ت يريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله عز وجل ولا تسيء الظن بالله عز وجل. قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾:

هذه الآية نزلت في موسى وقومه في قومهم: ﴿وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةً يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾^(٥) قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ومعنى: ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أنه إذا جاءهم البلاء والجذب والقطن قالوا هذا من موسى وأصحابه فأنبأ لهم الله هذه العقيدة بقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(٤) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢٣).

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.

وقوله: «**قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**»^(١).

قوله: «ألا إنها طائرهم عند الله»:

«ألا»: أدلة استفتاح تفيد التبيه والتوكيد و«إنها» أدلة حصر.

وقوله: «طائر» مبتدأ و«عند الله» خبر والمعنى: أنها يصيّبهم من الجدب والقطط ليس من موسى وقومه ولكنه من الله فهو الذي قدره ولا علاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء والعياذ بالله يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: «ولكن أكثرهم لا يعلمون»:

فهم في جهل فلا يعلمون أن هناك إلهاً مدبراً، وأن ما أصابهم من الله، وليس من موسى وقومه.

قوله: «**قالوا طائركم معكم**»:

أي قال الذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: «**واضرب لهم مثلا أصحاب القرية**»^(٢) الآيات.

فالحال ذلك ردأ على قوله: «إنا نظرنا بكم»^(٣) أي تشاهمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدللونا على الخير بل على الشر وما فيه هلاكنا.

قوله: «**قالوا طائركم معكم**»:

أي مصاحب لكم فما يحصل لكم، فإنه منكم ومن أعمالكم، ولا منافاة بين هذه الآية والتي قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المُقدِّر لهذا الشيء هو الله، والثانية تبين سببه وهو أنه منهم، فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) إن

(١) سورة يس، الآية: ١٩.

(٢) سورة يس، الآية: ١٣.

(٣) سورة يس، الآية: ١٨.

.....

كان هناك شؤم، فهو معهم مصاحب لكم ملازم لكم؛ لأن أعمالكم توجب ذلك، كما قال الله تعالى: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» [الأنفال] يستفاد من الآيتين: أن التطير كان معروفاً من قبل العرب وفي غير العرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

ثم أن هؤلاء الذين تطيروا هل تطيرهم حقيقة أو للتمويه؟ الجواب: تطيرهم هذا ليس حقيقة، بل هو للتمويه. فهم ليسوا الذين جلبو لهم الشر، ولكن الذي جلب لهم الشر هو أعمالهم، فقدر الله عليهم ما يسألهم جزاء سيئة بمثلها.

قوله: «إِنْ ذَكَرْتُمْ بِلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مَسْرُوفُونَ»:

ينبغي أن تقف على قوله: «ذكرتم» لأنها جملة شرطية، وجواب الشرط عذوف تقديره: إن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا فلا تصلها بها بعدها.

وقوله: «بِلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مَسْرُوفُونَ»:

«بل» هنا للإضراب الإبطالي، أي بل أنتم ما أصابكم ليس منكم، بل هو من اسرافكم.

وقوله: «مسروفون»: أي متتجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا إليه.

قوله: «لا عدو»: لا نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنه نفي للجنس كله، فنفي الرسول ﷺ العدو.

والعدو: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية، يكون أيضاً في الأمراض المعنوية الخلقية، وهذا أخبر ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكبير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كربه^(١).

(١) أخرجه البخاري في الذبائح / باب الملك (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة / باب استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨) عن أبي موسى رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخر جاه^(١) وزاد مسلم «ولا نوء ولا غول»^(٢).

فقوله: «لا عدوى» يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

قوله: «ولا طيرة» اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطير مثل الخيرة اسم مصدر اختار قال تعالى: «وما كان مؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»^(٣) أي: الاختيار أو التخيير. واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولذلك نقول كلامته كلاماً بمعنى كلامته تكليماً، وسلمت عليه سلاماً بمعنى سلمت عليه تسليماً. لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سموه اسم مصدر، والطيرة تقدم أنها هي التشاوئ بمرئي أو مسموع أو معلوم^(٤).

قوله: «ولا هامة»:

الهامنة فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها داء يصيب المريض، ويتنتقل إلى غيره وعلى هذا التفسير

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب لا هامة ٤/٤٧، ومسلم في السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٣.

(٢) في الموضع السابق ٤/١٧٤٤، فقد أخرج حديث أبي هريرة بزيادة «ولا نوء» ومن حديث جابر بن زيد: «ولا غول».

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٤) ص (٧٧).

يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثانى: طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل؛ فإن هذه الهامة تأتى إلى أهله، وتنعق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثاره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون بصورة الهامة. وبعض العرب يقولون: الهامة هي الطير لكنهم يتشاءمون بها. فإذا وقعت على بيت أحدهم، ونعيت قالوا: إنها تنعى به ليموت. ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله - بلا شك - عقيدة باطلة.

وقيل: إن الهامة دودة يزعمون أنها تخلق من روح المقتول، وأنها تطير وتصبح؛ حتى يقاد من القاتل، وكل هذا من أمور الجاهلية لا حقيقة له. أما إذا كانت الهامة مرضًا في البطن ينتقل إلى الصحيح؛ فقولنا فيها كقولنا في «لا عدوى».

قوله: «ولا صفر»:

قيل: إنه شهر صفر كانت العرب يتشاءمون به.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

وقيل: أنه نهى عن النسبيّة، وكانوا في الجاهلية ينسئون؛ فإذا أرادوا في الأشهر الحرم القتال استباحوها وأخرجو الحرمة إلى شهر صفر، وهذه النسبة التي ذكرها الله، بقوله تعالى: ﴿فَيَحْلُوا مَا حِرَمَ اللَّهُ﴾^(١) وهذا القول ضعيف، وبضعفه أن الحديث في سياق التطهير، وليس في سياق التغیر، والأقرب أن صفر يعني الشهر، أي: لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأذمان يقدر فيه الخير، ويقدر فيه الشر.

(١) سورة التوبه، الآية: ٣٧.

وهذا النفي في هذه الأمور الأربع ليس نفياً للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتاثير، فالمؤثر هو الله، فما كان سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفياً للتاثير بنفسه وليس به. فقوله: «لا عدوى»: العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ: «لا يورد مرض على مصح»^(١) أي: لا يورد صاحب الإبل المريضية على صاحب الإبل الصحيحة؛ ثلاثة تنتقل العدوى.

وقوله ﷺ: «فر من المجدوم فرارك من الأسد»^(٢):

والجذام مرض خبيث معد بسرعة ويختلف صاحبه حتى قبل: إنه الطاعون، فالامر بالفارار؛ لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات للتاثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمر حتمياً بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي ﷺ بالفارار وأن لا يورد مرض على مصح من باب تحبب الأسباب، لأن من باب تأثير الأسباب نفسها، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبع لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سبباً للبلاء لقوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»^(٣) ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قبل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى قال رجل: يا رسول الله الإبل تكون صحيحة مثل الطباء فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال:

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام / باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٣.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطب / باب الجذام ٤/٣٧، وانظر فتح الباري ١٥٨/١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

النبي ﷺ فمن أعدى الأول؟^(١) يعني أن المرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل فكذلك إذا انتقل بالعدوى فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فجرب الأول ليس سببه معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم لكن لوشاء الله تعالى لم يجرب، وهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيما يموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

فإنسان يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجدوم؛ فأخذ بيده وقال له: «كل من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ»^(٢) لقوة توكله ﷺ. فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدى.

وهذا الجموع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث. وأدعى بعضهم النسخ، فمنهم من قال: إن الناسخ قوله «لا عدوى» والنسخ قوله: «فر من المجدوم»^(٣) «ولا يورد مرض على مصح»^(٤)، وبعضهم عكسه، والصحيح أنه لا نسخ؛ لأن من شروط النسخ تعدد الجمع، وإذا أمكن وجب،

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب لاصفر ٤/٣٩، ومسلم في السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب/باب في الطيرة ٤/٢٣٩ وسكت عنه، والترمذى في الأطعمة/باب في الأكل مع المجدوم ١١١/٦ وقال: «غريب»، وابن ماجة في الطب/باب الجذام ١١٧٢/٢، وابن جرير في تهذيب الأثار ٨٥، والطحاوى في شرح معانى الأثار ٣٠٩/٤، وابن حبان (١٤٣٣)، وابن السفي في عمل اليوم والليلة (٤٦٥) والحاكم ١٣٦/٤ وصححه ووافقه الذهبي من حديث جابر.

(٣) سبق ص (٨٣).

(٤) سبق ص (٨٣).

الجمع وجب الرجوع إليه؛ لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعفاءها أولى من إبطال أحدهما؛ لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه ليس بمنسوخ.

وقوله: «ولا صفر»:

فيه ثلاثة أقوال سبقت، وبيان الراجح منها^(١).

والأرمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله عز وجل؛ فهو كغيره من الأرمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أربع ذلك وقال: انتهى في صفر الخير، فهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان وقولنا: إنه شهر خير فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم رجب المعظم بناء على أنه من الأشهر الحرم.

وهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تتنق قال: خيرا إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تتنق كبقية الطيور.

فهذه الأربعـة التي نفـاها الرسـول ﷺ بين وجـوب التـوكل عـلـى الله وصـدق العـزـيمـة، وـلا يـضـعـفـ المـسـلمـ أـمـامـ هـذـهـ الـأـمـورـ؛ لأنـ الإـنـسـانـ فـيـ هـذـهـ الـأـمـورـ لـيـخـلـوـ مـنـ حـالـيـنـ:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك، فيكون حينئذ قد علق أفعاله بها لا حقيقة له ولا أصل له.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول لكن

(١) ص (٨٢).

يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأمور التي نفها الرسول ﷺ مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله عز وجل.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل؛ فإذا نظر ذكر النار تشاءم وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب، فهذا مثل عمل الجاهليين الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقاً، فالأسباب المعلومة الظاهرة تقى أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سبباً بل نفها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل ربنا عليك توكلنا.

قوله: «لا نوء»

واحد الأنواء، والأنواء هي: منازل القمر وهي ثمان وعشرون متزلاً؛ كل متزلاً لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية؛ وهي: أيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية؛ وهي: أيام الشتاء. وأجرى الله العادة أن المطر في الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء؛ أما أيام الصيف فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاركون بالأنواء، ويتفاعلون بها، فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاعلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، وهذا إذا امطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية جهل.

ألسنا أدركنا هذا النوع بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً

.....
ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له فقولنا طلع هذا النجم ، كقولنا طلعت الشمس ، فليس
له إلا طلوع وغروب ، والنوء وقت تقدير ، وهو يدل على دخول الفصول فقط .
وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي ،
وهذا وإن كان قد يكون سبباً حقيقياً ، ولكن لا يفتح هذا الأمر للناس ، بل
الواجب أن يقال : هذا من رحمة الله ، هذا من فضله ونعمه قال تعالى : ﴿أَلمْ ترَ
أَنَّ اللَّهَ يُزَجِّي سَحَابًا ثُمَّ يَوْلِفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رَكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خَلَالِهِ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا الَّذِي يَرْسِلُ الرِّياْحَ فَتَبَرُّ سَحَابًا فَيَسْطِهِ فِي السَّمَاءِ
كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾ .
فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف
الإنسان عن تعليقه بربه .

فذهبت أنواع الجاهلية ، وجاءتنا المنخفضات الجوية ، وما أشبه ذلك من
الترهات التي تصرف الإنسان عن ربه سبحانه وتعالى .
 قوله : «ولا غول» : جمع غُولَة أو غُولَة ، ونحن نسميها باللغة العامية
(الهولة) ؛ لأنها تهول الإنسان .

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين
بالوان مفزعة مخيفة ، فتدخل في قلوبهم الروع والخوف ، فتجدهم يكتثرون
ويستحررون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا ، وهذا لا شك أنه
يضعف التوكيل على الله ، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على
الإنسان بقدر ما يستطيع قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ

(١) سورة النور ، الآية : ٤٣ .

وَهُمَا عَنْ أَنْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدُوٌّ وَلَا طَيْرٌ
وَيُعَجِّبُنِي الْفَأْلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ قَالَ الْكَلْمَةُ الطَّيِّبَةُ»^(١).

آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارٍّ لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٢).

وَهُذَا الَّذِي نَفَاهُ الرَّسُولُ ﷺ هُوَ تَأْثِيرُهَا فَلَا يَهْمُكُمْ لِأَنَّهَا خَوْفُكُمْ، فَلَا
تَلْفَتُوا إِلَيْهَا، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالتَّنْفِي نَفْيُ الْوُجُودِ، وَأَكْثَرُ مَا يَتَنَاهُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ
الْأَمْرَاتِ إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مَعْلَقًا بِهَا؛ أَمَّا إِنْ كَانَ مَعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ غَيْرِ مِبَالِهِ، فَلَا
تَضُرُّهُ وَلَا تَعْنِيهُ عَنْ جَهَةِ قَصْدِهِ.

قَوْلُهُ: «لَا عَدُوٌّ وَلَا طَيْرٌ»: تَقْدِيمُ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: «وَيُعَجِّبُنِي الْفَأْلُ»: أَيْ يُسْرِفُ، وَالْفَأْلُ بِيَنِيهِ بِقَوْلِهِ: «الْكَلْمَةُ
الْطَّيِّبَةُ».

«فَالْكَلْمَةُ الطَّيِّبَةُ» تَعْجَبُهُ لِمَا فِيهَا مِنْ إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى النَّفْسِ
وَالْأَنْبَاطِ، وَالْمُضِيُّ قَدْمًا لِمَا يَسْعِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الطَّيْرَةِ بِلَهُ
مَا يَشْجُعُ الْإِنْسَانَ لِأَنَّهَا لَا تَؤْثِرُ عَلَيْهِ بِلَتَزِيدُهُ طَمَانِيَّةً وَإِقْدَامًا وَإِقْبَالًا.

وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ: الْكَلْمَةُ الطَّيِّبَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَأَنَّ الْكَلْمَةُ الطَّيِّبَةُ فِي
الْحَقِيقَةِ تَفْتَحُ الْقَلْبَ وَتَكُونُ سَبِيلًا لِحُبُّ الْخَيْرَاتِ كَثِيرًا؛ حَتَّى إِنَّهَا تَدْخُلُ الْمَرءَ فِي جَلَةِ
ذُوِّ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ جَمِيعُ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ بَيْنَ مَحْذُورِينَ وَمَرْغُوبٍ؛ فَالْمَحْذُورَانِ هُمَا

(١) أَخْرَجَهُ البَخَارِيُّ فِي الْعَلَمِ / بَابُ الْفَأْلِ ٤/٤٦، وَمُسْلِمُ فِي السَّلَامِ / بَابُ الطَّيْرِ وَالْفَأْلِ ٤/١٧٤٥ - ١٧٤٦ مِنْ حَدِيثِ أَنْسٍ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْمَوْاضِعِ السَّابِقَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ، الْآيَةُ: ١٠.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل وهذا من حسن تعليم النبي ﷺ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر حوله ما يكون مرغوباً، وهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين أو بالعكس، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثلوبة وهكذا.

قوله: «عن عقبة بن عامر».

صوابه عن عروة بن عامر كما ذكره في التيسير وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قوله: «ذكرت الطيرة عند رسول الله»: وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها.

قوله: «أحسنها الفأل»:

سبق أن الفأل ليس من الطيرة^(٢)، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيها يوجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإنما فيهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمعتير به وضعف

(١) أخرجه أبو داود في الطب/باب في الطيرة ٤/٢٣٥، وسكت عنه وابن السنى (٢٩٤) والبيهقي ١٣٩/٨.

وقال النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص (٨٠٦): «رواه أبو داود بإسناد صحيح». وقال المذري في مختصر سنن أبي داود ٥/٣٧٩: «عروة هذا قيل فيه: القرشي، وقيل فيه: الجهمي، وقال أبو القاسم الدمشقي: ولا صحة له نصوح، وذكر البخاري وغيره: أنه سمع من ابن عباس فعل هذا يكون الحديث مرسلاً». (٢) ص (٨٨)

.....
.....

توكله على الله ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً، فالشبه بينها هو التأثير في كل منها.

قوله : «ولا ترد مسلماً»

يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته فليس بمسلم .

قوله : «فإذا رأى أحدكم ما يكره» فحيثئذ قد ترد على قلبه الطيرة ويبتعد عن هذا الشيء ، ولا يقدم عليه ، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال : فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات . . . إلخ .

قوله : «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت»

وهذا هو حقيقة التوكل وقوله : «اللهم» يعني يا الله ، وهذا بنيت على الضم على أنها منادي علم ؛ بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعرف على الإطلاق ، والميم عوض عن الياء المحذوفة ، وصارت في آخر الكلمة تبركاً بالابتداء باسم الله سبحانه وتعالى ، وصارت مبهاً لأنها تدل على الجمع ؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله .

قوله : «لا يأتي بالحسنات إلا أنت»

أي لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجد لها للعبد إلا الله وحده لا شريك له ، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب ؛ لأن خالق هذه الأسباب هو الله ، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله ، صار الموجد حقيقة هو الله .

والمراد بالحسنات : ما يستحسن المرء وقوعه ، ومحسن في عينه .

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية كالصلوة والزكاة وغيرها ؛ لأنها تسر المؤمن ، ويشمل الحسنات الدنيوية كالمال والولد ونحوها قال تعالى : «إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا

وهم فردون^(١)) وقال تعالى في آية أخرى: «إِن تمسكُمْ حسنةً تسوّهم وإن
تصبّكم سبّةً يفْرَحُوا بِهَا»^(٢).

وقوله: «إِلا أنت»: فاعل يأتي لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلا أنت»:

السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مالاً، ولا يدفعها إلا
الله، ولذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى؛ حتى المشركون إذا
ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين.
ولا ينافي هذا أن يكون دفعها بأسباب، فمثلاً لورأى رجلاً غريقاً فأنقذه
فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا
الله. وبمقتضى هذه العقيدة فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل
دفع السيئات إلا من الله، وهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون
الله الحسنات ويسألون دفع السيئات قال تعالى: «رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرْيَةً
طَيِّبَةً»^(٣) وقال تعالى عن أيوب «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مُسْتَهْزَأْتُ
أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(٤) وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً.

قوله: «وَلَا حُوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»: فيها وجهاً:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، والباء تكون بمعنى في، يعني
إلا في الله وحده ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون حول والقوة المنفيان
الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست
بكاملة. فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٠. (٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٢٠. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذى وصححه^(١). وجعل آخره من قول ابن مسعود^(٢).

الثانى: أن الحول والقوة مضاد إلى الإنسان والباء هنا للاستعانة أو للسببية، أي لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله عز وجل، وهذا المعنى أصلح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها، إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاهم الله من الحول والقوة.

فإن صح الحديث فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت».

وأما هذه الأشياء فلا تأثير لها.

«ولا حول ولا قوة إلا بك» فأنت صاحب الحول والقوة، وكل الأمور لا تكون إلا بك وحدك.

قوله: «مرفوعاً» أي إلى النبي ﷺ.

قوله: «الطيرة شرك الطيرة شرك»:

(١) أخرجه أحاديث ٤٠٠، ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠، وأبوداود في الطب / باب في الطيرة ٤ / ٢٣٠، وسكت عنه، والترمذى في السير / باب ماجاه في الطيرة ٥ / ٣٣٦ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الطب / باب من كان يعجبه الف قال ٢ / ١١٧٠، والطحاوى في شرح معانى الآثار ٤ / ٣١٢، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم ١٧ / ١، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٨ / ١٣٩، والبغوي في شرح السنة ١٢ / ١٧٧.

(٢) قوله: «وما منا...» إلخ هذه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه انظر: الترمذى ٥ / ٣٣٧.

هاتان الجملتان مؤكّد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللغظي .

وقوله : «شرك» :

أي : أنها من أنواع الشرك ، وليست الشرك كله وإنما لقال الطيرة الشرك .
وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة ، أو أنها نوع من
أنواع الشرك ؟

نقول : هي نوع من أنواع الشرك ك قوله عليه السلام : «الثبات في الناس هما بهم
كفر»^(١) أي ليس الكفر المخرج عن الملة وإنما لقال «هما بهم الكفر» .

لكن في ترك الصلاة قال : «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك
الصلاحة»^(٢) فقال الكفر ، فيجب أن نعرف الفرق بين (ال) المعرفة أو الدالة على
الاستغراق ، وبين خلو اللفظ منها ، فإذا قيل : هذا كفر فالمراد أنه لا يخرج من
الملة ، وإذا قيل : هذا الكفر فهو المخرج من الملة .

إذا تطير إنسان بشيء رأه أو سمعه ، فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرجه من
الملة لكنه أشرك من حيث أنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً ،
وهذا يضعف التوكيل على الله ويؤهّل العزيمة وبذلك يعتبر شركاً من هذه
الناحية والقاعدة : (أن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً فإنه
بشر).

= والترغيب ٤ / ٦٤ ، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ٢ / ٢٣٤ ، وموارد الظيان ص (٣٤٥) ،
ونفع الباري ١٠ / ٢١٣ .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب ٨٢ / ١ من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١ / ٨٨ من حديث
جابر رضي الله عنه .

وهذا نوع من الإشراك مع الله إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونياً، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتضرر أن هذا فاعل بنفسه دون الله فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد.

قوله : «وما منا»

منا جار و مجرور خبر لمبدأ مخدوف، وهذا المبدأ إما أن يكون قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلاً، أي : وما منا أحد إلا تضرر، أو يكون المبدأ مخدوفاً بعد (إلا) أي وما منا إلا متضرر.

والمعنى : ما من إنسان يسلم من التضرر، فالإنسان يسمع شيئاً في الشاء، أو يبدأ في فعل فيجد أوله ليس بالسهل في الشاء و يتذكره، ولكن الله يذهبه بالتوكل .

والتوكل : صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله .

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به لأنه سبحانه يقول : «ومن يتوكل على الله فهو حسبي» .

قوله : «وجعل آخره من قول ابن مسعود» : وهو قوله : (وما منا إلا ... الخ) .

وعلى هذا يكون موقفاً وهو مدرج في الحديث ، والمدرج : أن يدخل أحد الرواية كلاماً في الحديث من عنده بدون بيانه؛ ويكون في الإسناد والمعنى أكثره في المتن ، وقد يكون في أول الحديث ، وقد يكون في وسطه ، وقد يكون في آخره وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث : قول أبي هريرة رضي الله عنه : «أسبغوا

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»^(١).

الوضوء ويل للأعذاب من النار»^(٢) فقوله: «أسبغوا الوضوء» من كلام أبي هريرة، وقوله: «ويل للأعذاب من النار» من كلام الرسول ﷺ.
ومثال ما كان في وسطه قول الزهرى فى حديث بدء الوحي: «كان رسول الله ﷺ يتحنث فى غار حراء والتحنث التعبد»^(٣). ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذى ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة وفيه: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»^(٤) فهذا من كلام أبي هريرة.
قوله: «من» شرطية وجواب الشرط «فقد أشرك» واقتران الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة وحيثند يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف
اسمية طلبية وبجامد وبها وقد وبلن وبالتتنفيس

(١) أخرجه البخاري في الوضوء / باب غسل الأعذاب ١/٧٤، ومسلم في الطهارة / باب وجوب غسل الرجلين ١/٢١٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي / باب حدثنا يحيى بن يكرب ١/١٤، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ، ١/١٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء / باب فضل الوضوء ١/٦٥، ومسلم في الطهارة / باب استحباب إطالة العزة ١/٢٤٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٢٠، وأبي وهب في الجامع ص (١١٠)، والطبراني كما في المجمع ٥/١٠٥، وأبي السنى في عمل اليوم والليلة (٢٩٣).

وقال الهيثمى في جمجم الزوائد ٥/١٠٥: «وفيه ابن هبعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات».

وقال الشارح في تيسير العزيز الحميد ص (٤٣٩): «وفيه ابن هبعة».

.....

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته» الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بها تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.
قوله: «فقد أشرك».

إن اعتقاد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه فهو شرك أكبر، وإن اعتقاده سبباً فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب وهي: «أن كل من اعتقاد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً فهو شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كوناً أو شرعاً فالشرعى: كالقراءة والدعاة، والكونى: كالأدوية التي جرب نفعها».

قوله: «فِيهَا كُفَّارَةٌ ذَلِكُ»:

أي ما كفاراة هذا الشرك أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفاراة قد تطلق على كفاراة الشيء بعد فعله وقد تطلق على الكفاراة منه قبل الفعل؛ وذلك لأن الاستيقاظ مأخذ من الكفر وهو الستر والستر واقٍ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

قوله: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ».

يعني فأنت الذي يدرك الخير المباشر كالنطر والنبات، وغير المباشر كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سبباً، وإنما فكل الخير من الله عز وجل.

وقوله: «لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ»: هل الخصر هنا حقيقي أو إضافي؟ الجواب: هذا الخصر حقيقي فالخير كله من الله سواء كان مباشرةً أم بواسطة.

وقوله: «لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ».

أي : الطيور كلها ملوك فهـي لا تفعل شيئاً وإنـا هي مسخرة قال تعالى : «أولم يروا إلى الطير فوقـهم صـافـات ويـقـبـضـنـ ما يـمـسـكـهـنـ إـلاـ الرـحـنـ إـنـهـ بـكـلـ شـيـءـ بـصـيرـهـ»^(١) وقال تعالى : «ألم يروا إلى الطير مـسـخـرـاتـ فيـ جـوـ السـماءـ ماـ يـمـسـكـهـنـ إـلاـ اللهـ إـنـ فـيـ ذـلـكـ لـآـيـاتـ لـقـومـ يـؤـمـنـونـ»^(٢) فـالـهـمـ أـنـ الطـيرـ مـسـخـرـ بـإـذـنـ اللهـ ، فـالـهـ تعالىـ هوـ الـذـيـ يـدـبـرـهـ وـيـصـرـفـهـ وـيـسـخـرـهـ يـذـهـبـ يـمـيـنـاـ وـشـهـاـلـاـ ، وـلـاـ عـلـاقـةـ لـهـ بـالـحـوـادـثـ .

وـعـتـحـمـلـ أـنـ المـرـادـ بـالـطـيرـ هـنـاـ مـاـ يـتـشـاءـمـ مـنـ الإـنـسـانـ فـكـلـ مـاـ يـجـدـ ثـلـلـإـنـسـانـ مـنـ التـشـاؤـمـ وـالـحـوـادـثـ الـمـكـروـهـ ، فـإـنـهـ مـنـ اللهـ كـمـاـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : «أـلـاـ إـنـاـ طـائـرـهـ عـنـدـ اللهـ»^(٣) .

لـكـنـ سـبـقـ لـنـاـ أـنـ الشـرـ فـيـ فـعـلـ اللهـ لـيـسـ بـوـاقـعـ بـلـ الشـرـ فـيـ الـمـقـعـولـ لـاـ فـيـ الـفـعـلـ .

فـيـكـونـ قـوـلـهـ : «لـاـ طـيرـ إـلاـ طـيرـكـ» مـقـابـلـاـ لـقـوـلـهـ : «لـاـ خـيـرـ إـلاـ خـيـرـكـ» .
قـوـلـهـ : «لـاـ إـلـهـ غـيـرـكـ» : «لـاـ نـافـيـةـ لـلـجـنـسـ وـإـلـهـ» بـمـعـنـىـ : مـأـلـوـهـ ،
كـغـرـاسـ بـمـعـنـىـ مـغـرـوسـ ، وـفـرـاشـ بـمـعـنـىـ مـفـرـوشـ ، وـمـأـلـوـهـ هـوـ الـمـعـبـودـ عـبـةـ
وـتـعـظـيـمـاـ يـتـأـلـهـ إـلـيـهـ إـلـيـهـ مـحـبـةـ لـهـ وـتـعـظـيـمـاـ لـهـ .
فـإـنـ قـيلـ : إـنـ هـنـاكـ آـلـهـ دـوـنـ اللهـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : «فـيـأـغـتـتـ عـنـهـمـ آـهـتـهـمـ

(١) سورة الملك، الآية: ١٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنه : «إنها الطيرة
ما أمضاك أو ردك»^(١).

التي يدعون من دون الله من شيء^(٢) أجيب : أنها وإن عبدت من دون الله
فليست آلة حقاً؛ لأنها لا تستحق أن تعبد من دون الله فلهذا نقول لا إله إلا
الله .

يستفاد من هذا الحديث :

- ١ - أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته ، وإنما يتوكى على الله ولا
يالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مبادرته للفعل أول مرة ، فإن بعض
الناس إذا حصل له ما يكره في أول مبادرته الفعل شاءم ؛ وهذا خطأ ، لأنه
مادامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية فلا تهتم بها حديث .
- ٢ - أن الطيرة نوع من الشرك لقوله : «من رده الطيرة عن حاجته فقد أشرك» .
- ٣ - أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة فإن ذلك لا يضر كما سبق في
حديث ابن مسعود : «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»^(٣) .
- ٤ - أن الأمور بيد الله خيرها وشرها .
- ٥ - انفراد الله بالألوهية كما انفرد بالخلق والتدبر .

قوله : (إنها الطيرة) : هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حسراً أي : ما
الطير إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه ، ولا ريب أن
السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك ، لكن إذا وقعت في القلب

(١) أخرجه أحمد ٢١٣/١ ، وقال ابن مفلح في الأداب ٣/٣٧٧ : «رواه أحد من روایة
محمد بن عبدالله بن علاء وهو مختلف فيه ، وفيه انقطاع» وقال الشيخ سليمان ص (٤٤٠) :
«وهكذا رواه أحمد وفي إسناده نظر» .

(٢) سورة هود ، الآية : ١٠١ .

(٣) سبق ص (٩٢) .

.....
ولم ترده ولم يلتفت لها فلنها لا تصره لكن عليه أن لا يستسلم بل يدافع إذ الأمر
كله بيد الله.

قوله: «ما أمضاك أو ردك»: أما ما ردك فلا شك أنه من الطيرة؛ لأن
التطير يوجب الترک والتراجع.

وأما ما أمضاك فلا يخلو من أمرین:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاھه أو عدم
نجاھه بالتطير، كما لو قال سأزجر هذا الطير فإذا ذهب إلى اليمين فمعنى ذلك
اليمين والبركة فيقدم فهذا لا شك أنه تطير، لأن التفاؤل بمثيل انطلاق الطير
عن اليمين غير صحيح؛ لأنه لا وجه له إذا الطير إذا طار فإنه يذهب إلى الذي
يرى أنه وجهته، وهنا اعتمد على سبب لم يجعله الله سبباً وهو حركة الطير.

الثاني: أن يكون سبب المضي كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تسيير
هذا الأمر له، فإن هذا فأل وهو الذي يعجب النبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه
دون الله فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه علم أن هذا من
الأسباب واعتقد أنه سبب من الأسباب التي يسرها الله سبحانه له فهذا من
الفأل.

والحديث في سنته مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.

فيه مسائل :

الأولى : التنبية على قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله»^(١) مع قوله : «طائركم معكم»^(٢). الثانية : نفي العدوى . الثالثة : نفي الطيرة . الرابعة : نفي الاهامة . الخامسة : نفي الصفر . السادسة : أن الفال ليس من ذلك بل مستحب .

فيه مسائل :

الأولى : التنبية على قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله» مع قوله : «طائركم معكم» أي لكي يتتبه الإنسان فإن ظاهر الآيتين التعارض ، وليس كذلك فالقرآن والسنّة لا تعارض بينها ولا تعارض في ذاتها إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب وقد سبق بيان الجمع أن قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله» أن الله هو المقدر ذلك وليس موسى ولا غيره من الرسل وأن قوله : «طائركم معكم» من باب السبب أي أنت سببه .
الثانية : نفي العدوى .

وقد سبق أن المراد بتفصيلها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سبباً للعدوى وانتقالها .

الثالثة : نفي الطيرة أي : نفي التأثير لا نفي الوجود .

الرابعة : نفي الاهامة ، وقد سبق تفسيرها وهي كما سبق مرض يعدي ، أو طير .

الخامسة : نفي الصفر وهي كما سبق إما شهر صفر ، أو داء في البطن .

السادسة : أن الفال ليس من ذلك بل مستحب :

تؤخذ من قول النبي ﷺ : «يعجبني الفال»^(٣) وكل ما أعجب النبي ﷺ

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٣١ .

(٢) سورة يس ، الآية : ١٩ .

(٣) سبق ص (٨٩) .

السابعة: تفسير الفأل. **الثامنة:** أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراحته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل. **النinthة:** ذكر ما يقول من وجده. **العاشرة:** التصریح بأن الطیرة شرك. **الحادية عشرة:** تفسیر الطیرة المذمومة.

فهو حسن قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التیامن في تعلمه وترجله وظهوره وفي شأنه كلها»^(١).

السابعة: تفسیر الفأل، فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسیر على سبيل المثال لا على سبيل المحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراحته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل، أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له، فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل لقول ابن مسعود «وما من إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»^(٢).

النinthة: ذكر ما يقول من وجده: وسبق أنه شيئاً أن يقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله».

أو يقول: «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

العاشرة: «التصریح بأن الطیرة شرك» وسبق أن الطیرة شرك، لكن بتفصیل فإن اعتقاد تأثيرها بنفسها فهو شرك أكبر وإن اعتقاد أنها سبب فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسیر الطیرة المذمومة، أي ما أمضاك أو ردرك.

(١) أخرجه البخاري في الوضوء / باب التیامن في الوضوء والنیل ٧٥/١، ومسلم في الطهارة / باب التیامن في الطهارة ٤٤٦/١.

(٢) سبق ص (٩٢).

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : «خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيه وكلف ما لا علم له به»^(١) انتهى .

التنجيم : تفعيل من النجم ، ومعنى نجم أي تعلم علم النجوم أو اعتقاد تأثير النجوم .

وعلم النجوم : ينقسم إلى قسمين :

١ - علم التأثير . ٢ - علم التسir .

فاللول : علم التأثير :

وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أ - أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور ، فهذا شرك أكبر ، لأن من ادعى أن مع الله خالقا فهو مشرك شركاً أكبر ، فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مُسخراً .

ب - أن يجعلها سبباً يدعى به علم الغيب فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا لأن النجم الفلامي صار كذا وكذا مثل أن يقول : هذا الإنسان ستكون حياته شقاء ، لأنه ولد في النجم الفلامي وهذا حياته ستكون سعيدة ، لأنه ولد في النجم الفلامي ، فهذا اتخاذ تعلم النجوم

(١) علقة بصيغة الجزم البخاري في بدء الخلق / باب في النجوم ٤٢٠ / ٢ .

وسيلة لادعاء علم الغيب ودعوى علم الغيب كفر خرج عن الملة لأن الله يقول: «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله»^(١) وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والاستثناء، فإذا ادعى علم الغيب فقد كذب القرآن.

جـ- أن يعتقدوا سبباً لحدوث الخير والشر فهذا شرك أصغر، أي أنه إذا وقع شيءٌ نسبه إلى النجوم ، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه . فإن قيل : يتৎفض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده»^(٢) فمعنى ذلك أنها علامات إنذار .

الحلواني: من وجهين

الأول: أنه لا يسلم أن للكسوف تأثيراً في الحوادث والعقوبات من الجدب والقطح والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: «إنه لا ينكسفان موت أحد ولا حياته»^(٣) لا في ما مضى ولا في المستقبل وإنما يخوف الله بها العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن همَا تأثيراً فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب أننا لا نسلم أصلاً أن لها تأثيراً في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه، فالحديث ينص على التخويف.

(١) سورة النمل الآية: ٦٥

(٣٠٢) اخرجه البخاري في الكسوف / باب الصدق في الكسوف ١/٣٢٨، ومسلم في الكسوف / باب صلاة الكسوف ٢/٦١٨.

الثاني: علم التسيير ،

وهذا ينقسم إلى قسمين :

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية فهذا مطلوب ، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبا ، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة فالنجم الفلافي يكون ثلث الليل قبله ، والنجم الفلافي يكون ربع الليل قبلة فهذا فيهفائدة عظيمة .

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية ، فهذا لا يأس به وهو نوعان :

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات كمعرفة أن القطب يقع شمالي ، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالي ، وهكذا فهذا جائز قال تعالى : «**وعلمات وبالنجم هم يهتدون**»^(١) .

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفضول ، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر فهذا كرهه بعض السلف ، وأباحه آخرون .

والذين كرهوه قالوا : يخشى إذا قيل طلع النجم الفلافي فهو وقت الشتاء أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح .

والصحيح عدم الكراهة كما سيأتي إن شاء الله^(٢) .

قوله : «**خلق الله هذه النجوم لثلاث**» :

اللام للتعليل أي : لبيان العلة والحكمة .

قوله : «**لثلاث**» : ويجوز لثلاثة ، لكن الثلاث أحسن أي : **لثلاث حكم** هذا حذف تاء التأنيث من العدد .

(١) سورة النحل ، الآية : ١٦ .

(٢) انظر من (١٠٨) .

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء قال تعالى: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين»^(١). لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد هذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا الله ف تكون كأنها غابة محلة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمراء، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مرصعة في السماء أو نقول لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء قال تعالى: «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون»^(٢) أي يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حوطها في آخر الشهر وعند قرب الفجر غطاها فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان. إذن هي أفلال متفاوتة في الارتفاع والتزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: «وزينا السماء الدنيا»؟ قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجليلة، وليس

(١) سورة الملك، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

على جدرانه فالناظر إلى القصر من بُعد يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجوما للشياطين أي لشياطين الجن وليسوا شياطين الأنس؛ لأن شياطين الأنس لم يصلوها لكن شياطين الجن وصلوها فهم أقدر من شياطين الأنس وهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم «والشياطين كل بناء وغواص»^(١) أي لسلیمان: «وآخرین مقرنین فی الأصفاد»^(٢) وقال تعالى: «قال عفريت من الجن أنا آتیک به قبل أن تقوم من مقامك»^(٣) أي من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم للملكة سبأ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: «وَأَنَا كُنْتَ نَقْدِعْ مِنْهَا مُقَاعِدَ لِلْسَمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْنَا يُجْدَلْهُ شَهَادَةً رَصِدًا»^(٤)

والرجم : الرمي .

الثالثة: علامات يهتدى بها تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسِبَلًا لِعِلْكُمْ تَهتَدُونَ وَعِلْمَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهتَدُونَ﴾^(٥).

فالعلمات: تشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامات كالجبال والأنهار والطرق.

والعلامة الأفقيه قوله تعالى : « وبالنجم هم يهتدون ».

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتم به، ولا يختص بنجم معين؟

(٢١) سورة ص، الآيات ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة التمل ، الآية : ٣٩.

^(٥) سورة النحل، الآية: ١٦.

٤) سورة الجن ، الآية : ٩

وكره قنادة تعلم منازل القمر.

لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات سواء جهات القبلة أو المكان براً أو بحراً.

وهذا من نعمة الله أن جعل أشياء علوية لا يحجب عنها شيء، وهي النجوم لأنك في الليل لا تشاهد جبالاً ولا أودية ولا رملاً، وهذا من تسخير الله قال تعالى: «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه»^(١).

قوله: «وكره قنادة تعلم منازل القمر»:

اعلم أن الكراهة في القرآن والسنّة وكلام السلف المتقدمين يراد بها التحرير قال تعالى: «وقضى ربكم ألا تعبدوا إلا إيمانه»^(٢) ثم ذكر منبيات كثيرة للتحرير ثم قال: «كل ذلك كان سببه عند ربكم مكر وهاه»^(٣) وقد تكون فيما هو أكبر من المحرم وهو الشرك كما في قوله: «وقضى ربكم...» الآية^(٤). أما الكراهة عند عامة متاخرى الفقهاء، فالمراد: غير المحرم؛ لأن المحرم: ما نهى عنه على سبيل الإلزام بالترك، والكراهة: ما نهى عنه لا على سبيل الإلزام بالترك. فيفرقون بين المحرم والمكره.

وبناء على هذه القاعدة في كلام السلف يكون المراد بالكراهة في كلام قنادة التحرير.

وقوله: «تعلم منازل القمر»: يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الأكيليل فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة لأن كل ليلة لها منزلة حتى يتم [٢٨] وفي [٢٩] [٣٠] لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم أي: يخرج النجم الفلاني في اليوم

(١) سورة الحجّ، الآية: ١٣. (٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣. (٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

ولم يُرِّخص ابن عبيدة فيه ذكره حرب عنهم، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر

الفلاني وهذه النجوم جعلها أوقاتاً للفصول لأنها [٢٨] نجماً منها [١٤] بيمانية [١٤] شماليّة فإذا حلّت الشمس في المنازل الشماليّة صار الحر، وإذا حلّت في الجنوبيّة صار البرد، ولذلك كان من علامات دنو البرد خروج سهيل وهو من النجوم البيمانية.

قوله: «ولم يُرِّخص فيه ابن عبيدة»: هو سفيان بن عبيدة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراء.

قوله: «وذكره حرب»: من أصحاب أحمد روى عنه مسائل كثيرة.

قوله: «إسحاق»: هو إسحاق بن راهويه.

والصحيح: أنه لا يأس بتعلم منازل القمر؛ لأنّه لا شرك فيها إلا إن تعلّمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد وأنّها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك أما مجرد معرفة الوقت بها، هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء؟ فهذا لا يأس به.

قوله: «الجنة»: هي الدار التي أعدّها الله لأوليائه المتّقين، وسميت بذلك لكثرت أشجارها، لأنّها تجنّ من فيها أي تسّر.

قوله: «مدمن خمر»: هو الذي يشرب الخمر كثيراً. والخمر حده الرسول

(١) أخرجه أحاديث ٣٣٩ / ٤، وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١) وأبويعل والطبراني كما في المجمع ٥ / ٧٤ قال المفيضي: «رواه أحاديث وأبويعل والمفيضي والطبراني ورجال أحاديث وأبي يحيى بن ثقات». وأخرجه الحاكم أيضاً ١٤٦ وقال: «صحّح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قاطع الرحم ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه^(١)

﴿بِقَوْلِهِ: «كُلُّ مَسْكُرٍ خَرٌ»^(٢) وَمَعْنَى «أَسْكَرٌ» أَيْ غَطَى الْعُقْلَ وَلَا يَسِّرُ كُلُّ ما
غَطَى الْعُقْلَ فَهُوَ خَرٌ، فَالبَيْنَجُ مثلاً لِيُسِّرُ بِخَمْرٍ، وَإِذَا شُرِبَ دُهْنًا فَأَغْمَى عَلَيْهِ
فَلَيْسَ ذَلِكَ بِخَمْرٍ، وَإِنَّمَا الْخَمْرُ الَّذِي يَغْطِي الْعُقْلَ عَلَى وَجْهِ الْلَّذَّةِ وَالْتَّرْبُّ
فَتَجُدُ الشَّارِبُ يَحْسَنُ أَنَّهُ فِي مِنْزَلَةِ عَظِيمَةٍ وَسَعَادَةٍ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:
وَنَشَرَهَا فَتَرَكَنَا مَلُوكًا وَأَسْدًا مَا يَهْتَهَا السَّلَاءَ
وَقَالَ حَزَنَةُ النَّبِيِّ^(٣): «وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبْدُ أَبِي»^(٤) فَالَّذِي يَغْطِي الْعُقْلَ
عَلَى سَبِيلِ الْلَّذَّةِ مُحْرَمٌ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمَنْ اسْتَحْلَمَ فَهُوَ كَافِرٌ، إِلَّا إِنْ كَانَ
نَاسًا بِبِادِيَّةٍ بَعِيدَةٍ، أَوْ حَدِيثَ عَهْدِ بِالْإِسْلَامِ وَلَا يَعْلَمُ الْحُكْمَ الشَّرِيعِيَّ فِي
ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ وَلَا يَكْفُرُ بِمُجْرِدِ إِنْكَارِهِ تَحْرِيمِهِ.

قوله: «قاطع رحم»:

الرحم: هم القرابة قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أُولَى
بِعِضٍ﴾^(٥) وليس كما يظنه العامة والد الزوج، وبعضهم يسميه عمًا، وبعضهم
يسميه خالاً وهذا خطأ؛ لأن هذه تسمية غير شرعية ويترتب عليها حكم
شرعى.

ومعنى قاطع الرحم أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب
والسنة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصْلُونَ مَا أَمْرَاهُ بِهِ أَنْ يَوْصِلَ﴾^(٦) ومنه الأرحام

(١) أخرج مسلم في الأشربة / باب بيان أن كل مسكر خر ١٥٨٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

(٢) أخرج البخاري في فرض الخمس / باب فرض الخمس ٣٨٥ / ٢، ومسلم في الأشربة / باب تحريم الخمر ١٥٦٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٥. (٤) سورة الرعد، الآية: ٢١.

.....
وَمَا جَاء مُطْلِقًا غَيْر مُقِيد فَإِنَّه يَتَبع فِيهِ الْعُرْف كَمَا قِيلَ :
وَكُل مَا أَتَى وَلَم يَحْدُد بالشَّرْع كَالْخَرْز فِي الْعُرْف احْدَد^(١)

فالصلة في زمن الجوع والفقير: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام
دائماً، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.
وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب و بعيد، فأقربهم يجب له من الصلة
أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى، قسم من الأقارب
يرى أن لنفسه حقاً لابد من القيام به، ويريد أن تصل دائماً، وقسم آخر يقدر
الظروف وينزل الأشياء منازلها فهذا له حكم، وذلك له حكم.
والقطيعة يرجع فيها إلى العرف إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة وهي : ما
لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا في أمة تشتت وتقطعت عرى صلتها
كما يعرف الآن في البلاد الغربية، فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول لابد من
صلة فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة فلا يمكن
أن نجعل هذه الشريعة التي أمر الله بها رسوله.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة وليس صلة
لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله إنما الوسائل كما قال الرسول ﷺ:
«من إذا قطعت رحمه وصلها»^(٢) هذا هو الذي يريد وجه الله ، والدار الآخرة.

(١) انظر منظومة الشارح حفظه الله ص (٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب / باب ليس الوسائل بالكاف، ٩٠/٤ عن
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وهل الرحم حق الله أو للأدمي؟ الظاهر: أنها حق للأدمي وهي حق الله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: «ومصدق بالسحر»:

ساق المؤلف رحمة الله هذا الحديث في باب التنجيم؛ لأنَّه يرى أنَّ المراد بالسحر هنا نوع من التنجيم، لأنَّه سبق «أنَّ من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»^(١) فحمل رحمة الله السحر على التنجيم، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم سيحدث كذا وكذا وصدق به فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنَّ صدق بعلم الغيب لغير الله قال تعالى: «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله»^(٢).

فإن قيل لماذا لا يجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

أجيب: أنَّ المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد، وأما المصدق بأنَّ للسحر تأثيراً فلا يلحقه هذا الوعيد إذ لا شك أنَّ للسحر تأثيراً لكنَّ تأثيره تخبيط، مثل: ما وقع من سحرة فرعون حيث سحرُوا أعين الناس حتى رأوا الرجال والعنسي كأنَّها حبات تسعى، وإنْ كان لا حقيقة له وقد يسحر الساحر شخصاً فيجعله يحب فلاناً ويبغض فلاناً فهو مؤثر قال تعالى: «فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه»^(٣) فالتصديق بتأثير السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنَّه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأنَّ السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً فلا شك في دخوله في الوعيد لأنَّ هذا لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وقوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة».

(١) سبق من (٣٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٠٢.

.....

هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟ الجواب: لا لأن هناك غيرهم لا يدخلون الجنة، فهذا الحديث لا يدل على الحصر.
وهل هؤلاء كفار؟ لأن من لا يدخل الجنة كافر؟
اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على
أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون هو كافر والمعتزلة يقولون هو في منزلة بين المترzin، وتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار فيجررون هذا الحديث على ظاهره، ولا يتذمرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان، فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطبيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها بل يقال هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت، فمثلاً قوله تعالى: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً»^(١) هذه الآية من نصوص الوعيد فنؤمن بها ولا نتعرض لمعناها، ومعارضتها للنصوص الأخرى ونقول هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الرجز.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

القول الرابع : أن هذا نفي مطلق ، والنفي المطلق يحمل على المقيد ، فيقال لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعني لا يسبقه عذاب ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم ، ثم مرجعهم إلى الجنة ، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضاً ، وبلاتم بعضها بعضاً ، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة ، فتقيد النصوص بعضها ببعض .

وهناك احتمال أن من كانت هذه حاله حري أن يختتم له بسوء الخاتمة فيموت كافراً فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه وحيثذا لا يقى في المسألة إشكال ؛ لأن من مات على الكفر فلن يدخل الجنة وهو مخلد في النار وربما يؤيده قوله ﷺ : «لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمأ حراماً»^(١) فيكون هذا قولًا خامساً .

الشاهد من هذا الحديث :

قوله : «ومصدق بالسحر» لأننا إن فسرنا السحر بعلم النجوم فالامر ظاهر ، وإن قلنا : عام فعلم النجوم داخل فيه .

(١) أخرجه البخاري في الدبات (٦٨٦٢) .

فيه مسائل :

الأولى: الحكمة في خلق النجوم . **الثانية:** الرد على من زعم غير ذلك . **الثالثة:** ذكر الخلاف في تعلم المنازل . **الرابعة:** الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل .

فيه مسائل :

الأولى: الحكمة في خلق النجوم : وهي ثلاثة :

- أنها زينة للسماء .
- ورجوماً للشياطين .
- وعلامات يهتدى بها .

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمه ، إنما التنجيم الذي يستدلون به على الحوادث الأرضية هذا لا شك أنه كذب .

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك :

لقول قنادة : «من تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به» .

ومراد قنادة في قوله : «غير ذلك» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية ، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة فهو أمر محتمل .

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل : سبق ذلك وال الصحيح جوازه^(١) .

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ، ولو عرف أنه باطل : من صدق بشيء من التنجيم أو غيره بلسانه ولو اعتقاد بطلانه بقلبه فإن عليه هذا الوعيد كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل ؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به ويتعلمون وبهمارسته !

(١) انظر ص (١٠٨) .

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواع

الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار طلب المغفرة . والاستعانة طلب المعونة والاستعاذه طلب العوذ ، والاستهداء طلب الهدایة ؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب وقد لا تدل على الطلب بل تدل على المبالغة في الفعل ، مثل: استكبر أي بلغ في الكبر غايته وليس المعنى طلب الكبر والاستسقاء بالأنواع: أي أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواع ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر وله صورتان:

الأولى: أن يدعوا الأنواء بالسقيا كأن يقول يا نوء كذا أسلينا أو أغثنا وما أشبه ذلك فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله ، ودعا غير الله من الشرك الأكبر قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًاٌ أَخْرَى لَا بِرْهَانَ لِهِ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّمَا لَا يَفْلُحُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ اللَّهُ فَلَمْ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُ وَلَا يُضُرُّكُ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النبي عن دعاء غير الله وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها فهذا شرك أكبر في الربوبية ، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة وهو متضمن للشرك في الربوبية ؛ لأنه لم يدعها إلا وهو

(١) سورة المؤمنون، آية: ١١٧.

(٢) سورة يومن ، الآية: ١٠٦.

وقول الله تعالى: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ»^(١).

يعتقد أنها تفعل وتحصي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً، والله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بمحضه ولا بقدرته فهو مشرك شركاً أصغر.

قوله: «وَتَجْعَلُونَ»: أي تصيرون وهي تنصب مفعولين الأول (رزق)، والثاني: (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثانٍ والتقدير وتحصيون رزقكم كونكم تكذبون.

والمراد بالرزرق هنا: ما هو أعم من المطر أي شكره. أي: تحصيون هذا الرزق الذي يستوجب الشكر «أنكم تكذبون» أي تحصيون رزقكم كونكم تكذبون.

قوله: «رِزْقَكُمْ»: الرزق هو العطاء وما المراد به هنا؟

يمحتمل شيئاً:

الأول: سياق الآية يدل على أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله قال: «فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْاقِعِ النَّجُومِ وَإِنَّهُ لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ لَا يَمْسِي إِلَّا الْمَطْهُورُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَفَهُدُوا هَذَا الْحَدِيثُ أَنْتُمْ مَدْهُنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ»^(٢) أي تخافونهم فتداهنونهم وتحصيون شكر ما رزقكم الله به من الحديث من العلم والوحى أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزرق المطر وقد روى في ذلك حديث عن النبي ﷺ

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ - ٨٣.

لكته ضعيف^(١) إلا أنه صع عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية أن المراد بالرزرق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء^(٢) وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقاعدة: في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد، لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر من ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك سواء قلنا المراد بالرزرق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب.

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، فالعاشي حقيقة حاله أنه مكذب لما رتب الله على هذه المعصية من العقوبة وهذا وعظ عمر بن عبد العزيز الناس يوماً فقال: «أيها الناس إن كنتم مصدقين فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين فأنتم

(١) أخرجه الإمام أحمد أحد ١٠٨، ٨٩/١، والترمذى في التفسير / ومن سورة الواقعة ٣٥/٩: وقال: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث إسرائيل، وروى سفيان عن عبد الأعلى هذا الحديث بهذا الإسناد ولم يرفعه».

وأخرجه أيضاً ابن جرير ٦٦٢/٢٧، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/٣٠٠ وأورده في الدر المثوض ١٦٣/٦ وعزاه لابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه وغيرهم، عن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) بيان ص (١٢٧).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة».

هلكى» وهذا صحيح فالذى يصدق ولا يعمل أحق، والمكذب هالك فكل إنسان عاشر نقول له الآن: أنت بين أمرين إما أنك مصدق بما رتب على هذه المعصية أو مكذب، فإن كنت مصدقاً فانت أحق كيف لا تعمل ولا تخاف، وإن كنت غير مصدق فالبلاء أكبر فانت هالك كافر.

قوله: «أربع في أمتي»:

الفائدة من قوله «أربع» ليس الخصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم ويثبت الحفظ.

قوله: «من أمر الجاهلية»: أمر هنا بمعنى شأن أي من شأن الجاهلية، وهو واحد الأمور وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: «من أمر الجاهلية»: إضافتها إلى الجاهلية لا شك أن الغرض منها التقبیح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل ولا بآن فعله من أفعال الجاهلية فالغرض من الإضافة هنا أمران: ١ - التنفير. ٢ - وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحق بالإنسان إذ ليست أهلاً بأن يرعايتها الإنسان أو يعتنى بها فالذى يعتنى بها جاهل.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبلبعثة، لأنهم كانوا على جهل وضلالة عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، وهذا يسمون بالأمين والأمي هو

الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم كان أمه ولدته الآن .
لكن لما بعث فيهم هذا النبي قال تعالى : ﴿لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مَبِينٍ﴾^(١) . فهذا من عظيمة أنه فيهم
النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأمور السامية :
١ - يتلو عليهم آيات الله .
٢ - ويزكيهم ويظهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها .
٣ - ويعلّمهم الكتاب .
٤ - والحكمة .

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بوحدة منها لوزنتها عند من
يعرف قدرها ، ثم بين الحال من قبل قال : ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ
مَبِينٍ﴾ و«إن» هذه ليست نافية بل مؤكدة فهي مخففة من الثقلية يعني وأنهم كانوا
من قبل لفِي ضلال مبين .

إذن المراد بالجاهلية ما قبلبعثة ، لأن الناس كانوا فيها على جهل
عظيم ، وقد سبق لنا أمثلة كثيرة تدل على جهلهم في حقوق الله وحقوق عباد
الله .

فجهلهم مشتمل للجهل في حقوق الله وحقوق عباده ، فمن جهلهم
أنهم ينصبون النصب ويعبدونها من دون الله ، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يعبر
بها ، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر .
قوله : «لا يتركوهن» :

المراد لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع بأن يكون كل

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤ .

واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيله، وقد تخلو بعض القبائل منها جمِيعاً إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير، لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء قد تقع وليس غرضه أن يؤخذ بها قال ﷺ: «التركين سن من كان قبلكم اليهود والنصارى»^(١) أي فاحذروا وأخبار ﷺ أن الظعينة تخرج من صناعه إلى حضرموت لا تخشى إلا الله^(٢) أي بلا حرم وهذا خبر عن أمر واقع وليس معناه أنه حكم بالشرع.

قوله: «أمي»: أي أمة الإجابة.

قوله: «الفخر بالأحساب»:

الفخر: التعالي والتعاظم، والباء للسبية أي يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف، وسُؤدد كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر في الحقيقة يكون بتوقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد

(١) سبق ٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب / باب علامات النبوة ٢/٥٣١.

ولفظه: «حتى يسير الراكب من صناعه إلى حضرموت لا تخشى إلا الله»، وأخرج البخاري من حديث عدي بن حاتم في الموضع السابق ٢/٥٢٧: «فإن طالت بك حياة لترى الظعينة ترخل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله».

تواضعًا للحق وللخلق والله لم يمدح من يتعاظم إذا رأى نفسه قال تعالى: «كلا
إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»^(١).

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية فلا يجوز لنا أن نفعله وهذا
قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى»^(٢) وأعلم أن كل
ما ينسب إلى الجاهلية فهو مذموم ومنهي عنه.
قوله: «الطعن بالأنساب»:

الطعن: العيب، لأن وخذ معنوي كوخز الطاعون في الجسد، وهذا
سمى العيب طعنة.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرباته فيطعن في نسبة كأن
يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور - وهو شيء في فرج المرأة
يقطع عند ختان النساء.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم»: أي نسبة المطر إلى النجوم مع اعتقاد أن
الفاعل هو الله عز وجل، أما إن اعتقاد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحب
أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: «والنياحة على الميت»: هذا هو الرابع والنياحة: هي رفع الصوت
بالبكاء على الميت قصداً، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل التوحيد كنح الحمام.
والندب: تعداد محسنات الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية - ولا بد أن تكون في هذه الأمة - وإنما كانت
من أمر الجاهلية:
* إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

(١) سورة العلق، الآية: ٦، ٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيمة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» رواه مسلم^(١).

* أ ومن الجهة التي هي السفة وهي ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمور هي :

١ - أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢ - أنها تسخط من قضاء الله وقدره، واعتراض عليه.

٣ - أنها تهيج أحزان غيره. وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله وهو من علمائنا الحنابلة أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: «يا أيها العزيز إن له أبواً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إن انسراك من المحسنين»^(٢) فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهيج الأحزان.

٤ - أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنائحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة.

قوله: «إذا لم تتب قبل موتها»

أي: إن تابت قبل الموت تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تکفره إلا التوبة وأن الحسنات لا تمحوها؛ لأنه من كثائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: «تقام يوم القيمة وعليها سربال من قطران»:

أي تقام من قبرها.

(١) أخرجه مسلم في الجنائز / باب التشديد في النائحة ٦٤٤/٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٨.

والسربال: الثوب السابع كالدرع والقطaran معروف ويسمى «الزفت»
وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: «وعليها درع من جرب»:

الجرب: مرض معروف يكون في الجلد يؤرق الإنسان وربما يقتل
الحيوان. والمعنى أن كل جلدها يكون جرحاً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطaran
وجرب زاد البلاء، لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به فكيف ومعه قطaran؟
والحكمة أنها لما لم تغط المصيبة بالصبر غطيت بهذا الغطاء سربال من
قطaran ودرع من جرب فكانت العقوبة من جنس العمل.

ويستفاد من الحديث :

- ١ - ثبوت رسالته ص لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوق.
- ٢ - التنفير من هذه الأشياء الأربع الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب،
والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.
- ٣ - أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه في الآخرة وكل ذنب عليه
الوعيد في الآخرة فهو من الكبائر.
- ٤ - أن كبائر الذنوب لا تکفر بالعمل الصالح لقوله: «إذا لم تتب».
- ٥ - أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها»
ولقوله تعالى: «وليس التوبة للذين يعلمون السينات حتى إذا حضر
أحدهم الموت قال إني تبت الآن»^(١).
- ٦ - أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، ومن أهل العلم من قال إنه داخل
تحت المشيئة، إن شاء الله عزبه وإن شاء غفر له.
ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة وأنه لابد

(١) سورة النساء، الآية: ١٨.

ولهمَا عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله صلاة الصبح بالحدبية على إثر ساء كانت من الليل فلما انصرف أقبل

أن يعاقب وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: «إن الله لا يغفر أن يشرك به»^(١) فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر^(٢) وهذا نعرف عظم سيئة الشرك قال ابن مسعود رضي الله عنه «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»^(٣).

لأن الخلف بغير الله من الشرك، والخلف بالله كاذباً من كبائر الذنوب وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧ - ثبوت الجزاء والبعث.

٨ - أن الجزاء من جنس العمل.

قوله: «صلى لنا»:

أي إماماً، لأن الإمام يصلى لنفسه ولغيره، وهذا يتبعه المأمور وعليه إذا دعا بدعاء يخص به نفسه إذا كان مما يؤمن عليه كدعاء القنوت فلا يجوز كأن يقول: «اللهم اهدني فيمن هديت» وهم يقولون أمين لأنه يصلى لهم، وقيل إن اللام بمعنى الباء وهذا قريب وقيل: إن اللام للتعميل. أي صلى لأجلنا.

قوله: «صلاة الصبح بالحدبية»

أي صلاة الفجر والحدبية: فيها لغتان التخفيف وهو أكثر، والتشديد وهي اسم بشر سمي بها المكان. وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حدبية،

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة) ص (١٤٦) وانظر أيضاً جامع الرسائل ٢٥٤/٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٤٦٩/٨، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢) قال المنذري في الترغيب ٦٠٧/٣، واهشمي في مجمع الروايات ٤/١٧٧: «ورواه رواة الصحيح».

على الناس فقال: هل تدرؤن ماذا قال ربكم؟

والأكثر على أنها اسم بشر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الخل وبعضه في الحرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمراً فصده المشركون عن البيت وما كانوا أولياؤه إن أولياؤه إلا المتقون ويسمى الآن الشمسي.

قوله: «على إثر سماء كانت من الليل».

الإثر معناه العقب، والأثر ما ينبع عن السير.

قوله: «سماء»: المراد المطر، وهو على رأي المجازيين مجاز مرسل علاقته المحلية فغير بال محل عن الحال.

قوله: «كانت من الليل»:

«من» لابتداء الغاية هذا هو الظاهر - والله أعلم - ومحتمل أن تكون بمعنى في للظرفية.

قوله: «فلما انصرف»:

أي من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: «أقبل على الناس».

قوله: «هل تدرؤن ماذا قال ربكم»:

الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سبق عليهم، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «هل تدرؤن»: أي هل تعلمون.

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا الخاصة تختص بهذا المؤمن.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا

قوله: «قالوا الله ورسوله أعلم»:

فيه إشكال نحوية لأن «أعلم» خبر عن اثنين وهي مفرد فيقال: إن اسم التفضيل إذا نوى به معنى «من» وكان عبارةً من ألل والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكرة.

وفيء أيضاً إشكال معنوي وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: «ما شاء الله وشئت قال أجعلتني الله ندا»^(١).

فيقال: إن هذا أمر شرعى وقد نزل على الرسول ﷺ.

وأما إنكاره على من قال: ما شاء الله وشئت، فلأنه أمر كوني والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

قوله: «أعلم»: أي أنا لا نعلم.

قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»:

(مؤمن) صفة لوصوف مذوق أي عبد مؤمن، عبد كافر.

(١) أخرجه أحد /٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٢٤٧، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ٥/٢٦٩، وابن ماجة بنحوه في الكفارات / باب النبي أن يقال ماشاء الله وشئت ١/٢٦٨٤ وابن السنى في عمل اليوم والليلة (٦٧٢)، والطحاوي في المشكّل ١/٩٠، والطبراني في الكبير (١٣٠٥)، (١٣٠٦) وأبو نعيم في الخلية ٤/٩٩، والبيهقي ٣/٢١٧. وقال أبو حفص سيري في الزوائد: «في إسناده الأجلح بن عبد الله مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان والعجلي، وباقى الإسناد ثقات». وقال الشيخ سليمان في التيسير ١/١٢٠: «فقد ثبت أن النبي ، ﷺ، لما قال له رجل . . . الحديث.

بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال:
مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب^(١).

وأصبح : من أخوات كان واسمها «مؤمن»، وخبرها «عبادي» أي أصبح عبد كائن من عبادي .

ويجوز أن يكون «أصبح» فعل ماضي ناقص واسمها ضمير الشأن أي أصبح الشأن ، فعبادي خبر مقدم ، و«مؤمن» مبتدأ مؤخر أي أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

قوله : «فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته» :
أي قال بلسانه وقلبه ، والباء للسببية ، والفضل العطاء والزيادة .
والرحمة صفة من صفات الله ، يكون بها الانعام والإحسان إلى الخلق .

وقوله : «مؤمن بي وكافر بالكوكب» :
لأنه نسب المطر إلى الله ولم ينسبة إلى الكوكب ، ولم ير تائراً في نزوله ، بل
نزل بفضل الله .

قوله : «وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» الباء للسببية ، وكافر بالله ؛ لأنه انكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً فتعلقت نفسه بهذا السبب ونبي نعمة الله ، وهذا الكفر لا يخرج من الملة ؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل .
وقال : «مطرنا بنوء كذا» ولم يقل : أنزل علينا المطر نوء كذا ، لأنه لو قال كذلك لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد ، وبه نعرف خطأ من قال : إن المراد بقوله : «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد ؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لقال : أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا : به وعلى هذا فالباء في قوله بنوء كذا للسببية .

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١) .

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله الله، لكن النوء هو السبب فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة. والمراد بالكوكب النجم وكانوا ينسبون المطر إليه ويقولون إذا سقط النجم الفلامي جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلامي جاء المطر وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت وإنما نسبة سبب. فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- ١ - نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.
- ٢ - نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.
- ٣ - نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله مطرنا بنوء كذا أي جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته.

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول مطرنا بنوء كذا ويجوز مطرنا في نوء كذا، وفرقوا بينهما أن الباء للسببية وفي للظرفية ومن ثم قال أهل العلم: إنه إذا قال مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث من قال: مطرنا بنوء كذا، والباء للسببية أظهر منها للظرفية وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى: «إنكم لتمرتون عليهم مصيحين وبالليل»^(١) لكن كونها للسببية، أظهر والعكس بالعكس فـ (في) للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية كما في قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة». والحاصل: أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتحلّم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتي سببية فهذا جائز، ومع ذلك فال الأولى أن يقال لهم قولوا: في نوء كذا.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٣٧، ١٣٨.

وَهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ
صَدَقَ نُوءِ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ»^(۱): «فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاعِدِ
النَّجُومِ

قوله: «وَهُمَا»:

الظاهر: أنه سبق قلم، وإنما فالحديث في مسلم وليس في
الصحيحين^(۲).

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم
قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكانه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو أنزل
بسبيبه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت - «وقيل أن يخلف نوءه» أو «هذا نوء
صادق». وهذا لا يجوز وهو الذي أنكره الله عز وجل على عباده، وهذا شرك
أصغر ولو قال بإذن الله فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله.

قوله: «فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاعِدِ النَّجُومِ»:

اختلف في «لا» فقيل: نافية والمنفي مذوف، والتقدير: لا صحة لما
تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة أقسم بمواعيد النجوم إنه
لقرآن كريم.

فأقسى لا علاقة لها بـ «لا» إطلاقاً وهذا له بعض الوجه. وقيل: إن
المنفي القسم فهي داخلة على أقسم أي لا أقسم ولكن أقسم على أن القرآن قرآن
كريم؛ لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم وهذا ضعيف جداً.

وقيل: إن «لا» للتتبية، والجملة بعدها مثبتة لأن «لا» بمعنى انته أقسم

(۱) أخرجه مسلم في الإيمان / باب بيان كفر من قال مطر بالنوء ۸۴ / ۱.

(۲) وأشار إليه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (۴۶۱).

بمواقع النجوم . . . وهذا هو الصحيح .

فإن قيل ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه قال تعالى: ﴿ولَئِنْ أَتَيْتُ الَّذِينَ أَوْتَيْتُمُوهُمْ كُلَّاً
آيَةً مَا تَبِعُوا قَبْلَتَكُمْ﴾^(١) أجيب أن الفائدة من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب والقرآن نزل بلسان عربي مبين.
الثاني: أن المؤمن يزداد يقيناً من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرْضِيْ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىْ قَالَ
أَوْلَمْ تَؤْمِنَ قَالَ بَلِّيْ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَ قَلْبِيْ﴾^(٢).

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكانه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنبيه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذا الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنبيها له بها وتنبيها على عظمتها.

وقوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم»:

الله سبحانه يتحدث عن نفسه بضمير المفرد لأنه يدل على الانفراد فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع، لأنه يدل على العظمة ولا يدل على التعدد إلا بالقرائن ولا يتحدث عن نفسه بالثنى لأن المثنى محصور باثنين.

. ٢٦٠ (٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٥ .

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥ .

وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه
إلا المطهرون

والباء حرف قسم والموضع جمع موقع.
واختلف في النجوم : فقيل : إنها النجوم المعروفة ، فيكون المراد بمواضعها
مطالعها ومقاربها .

وأقسم الله بها لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانظام
البديع ، وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن المحفوظ بواسطة
الشعب ، فإن السماء عند نزول الوحي مثلت حرساً شديداً وشهياً .

وقيل : إن المراد آجال نزول القرآن ومنه قوله : «نزل القرآن منجيا» وقول
الفقهاء : يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلاً بنجمتين فأكثر ، فيكون الله أقسم
بموقع نزول القرآن وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة وهي أنه : إذا كان المعين لا
يتنافيان تحمل الآية على كل منها والا طلب المرجح .

قوله : «إنه لقسم لو تعلمون عظيم» : «قسم» خبر إن وهذا القسم أكد
الله عظمته بياناً واللام تنويها بالقسم عليه وتعظيمه .

وقوله : «لو تعلمون» مؤكد ثالث كأنه قال ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا
تجهلوه فهو أعظم من أن يكون بسيطاً ، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه ، فلو تعلمون
حق العلم لعرفتم عظمته فانتبهوا .

قوله : «القرآن» : مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل ،
ويعنى اسم المفعول فعل الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها
الكتب السابقة من المصالح والمنافع قال تعالى : «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق
مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهما نحن عليه»^(١) وعلى الثاني يكون بمعنى

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

المجموع؛ لأنَّه جمُوع مكتوب.

قوله: «كريم»: يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير. ويطلق على الشيء البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ: «إياك وكرائم أموالهم»^(١) أي البهي منها والحسن وهذا كمال في الذات، وهذا المعنى موجودان في القرآن فالقرآن لا أحسن منه بذاته قال تعالى: «وَعَنْتَ كُلَّمَا رَبَكْ صَدِقًا وَعَدْلًا»^(٢).

والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية قال تعالى: «فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهَهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا»^(٣) فهو سلاح لمن تمسك به ولكن يحتاج إلى أن تتمسك به بالقول والعمل والعقيدة، فلا بد أن يصدق العقيدة العمل قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضِيقَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقُلُوبُ»^(٤) ووصف الله القرآن في آية أخرى بأنه مجيد والمجد صفة العظمة والعزة والقوة والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لم تمسك به.

قوله: «في كتاب مكنون»:

كتاب فعال بمعنى مفعول مثل فراش بمعنى مفروش، ومثل غراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب.

والمحفوظ قال تعالى: «كَأَنَّهُنْ يَبْصِرُونَ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٢٦ / فتح، ومسلم في المساقاة ٣/ ١٢١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٣٤، ومسلم في المساقاة / باب أخذ الحلال ٣/ ٢١٩ من حديث التعبان بن بشير رضي الله عنهما.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٤٩.

واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة^(١) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مَكْرُمَةٍ مَرْفُوعَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . . .﴾^(٢) فقوله: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» يرجع أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة لأن قوله: ﴿لَا يَمْسِهِ إِلَّا الْمَطَهُورُونَ﴾ أي الملائكة يوازن قوله: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ». وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: «لَا يَمْسِهِ إِلَّا الْمَطَهُورُونَ»:

الضمير يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شيء وهو بالرفع «لَا يَمْسِهِ» باتفاق القراء وإنما نبهنا على ذلك لدفع قول من يقول إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن أي نهي أن يمس القرآن إلا ظاهر والأية ليس فيها ما يدل على ذلك بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون وهذا قال الله: ﴿إِلَّا الْمَطَهُورُونَ﴾ باسم المفعول ولم يقل: «إِلَّا الْمَطَهُورُونَ» ولو كان المراد المطهورون لقال ذلك، أو قال إِلَّا المتطهرون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْبُّ التَّوَابِينَ وَيَحْبُّ الْمَطَهُورِينَ﴾.

المطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى وهم الملائكة طهروا من الذنب وأدنسها قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ﴾^(٣).

(١) انظر: إعلام الموقعين ١/٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١١ - ١٥.

(٣)

**تنزيل من رب العالمين أفهمها الحديث أنت مدهنون وتجعلون رزقكم
أنكم تكذبون**»^(١).

قال تعالى: «يسبحون الليل والنهار لا يفترون»^(٢) وقال تعالى:
«بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»^(٣) وفرق
بين المطهر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهر الذي كمله غيره
وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد به الكتب التي في
أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم
للقرآن، وأن من تن jes قلبه بالمعاصي كان أبعد فهـاً عن القرآن؛ لأنـه إذا كانت
الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسـها إلا هؤلاء المطهـرين
فكـذلك معانـي القرآن.

فاستـبـطـ شـيخـ الإـسـلـامـ منـ هـذـهـ الـآـيـةـ أـنـ الـمـعـاـصـيـ سـبـبـ لـعدـمـ فـهـمـ الـقـرـآنـ
كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: «كـلـاـ بـلـ رـانـ عـلـىـ قـلـوـبـهـ مـاـ كـانـواـ يـكـسـبـونـ»^(٤) وـهـمـ الـذـينـ قـالـ
الـهـ فـيـهـ: «إـذـاـ تـتـلـ عـلـيـهـ آـيـتـناـ قـالـ أـسـاطـيرـ الـأـوـلـينـ»^(٥) فـهـمـ لـاـ يـصـلـونـ إـلـىـ
مـعـانـيـهـ وـأـسـارـهـ؛ لـأـنـ رـانـ عـلـىـ قـلـوـبـهـ مـاـ كـانـواـ يـكـسـبـونـ.

وقد ذـكـرـ بـعـضـ أـهـلـ الـعـلـمـ: أـنـ يـنـبـغـيـ لـمـنـ اـسـفـتـنـ أـنـ يـقـدـمـ بـيـنـ يـدـيـ
الـفـتـوـيـ الـاسـتـغـفـارـ لـحـوـأـثـرـ الذـنـبـ مـنـ قـلـبـهـ حـتـىـ يـتـبـيـنـ لـهـ الـحـقـ وـاـسـتـبـطـهـ مـنـ قـوـلـهـ
تعـالـىـ: «إـنـاـ أـنـزـلـنـاـ إـلـيـكـ الـكـتـابـ بـالـحـقـ لـتـحـكـمـ بـيـنـ النـاسـ بـيـاـ أـرـاكـ الـهـ وـلـاـ تـكـنـ
لـلـخـائـنـ خـصـيـاـ وـاسـتـغـفـرـ الـهـ إـنـ الـهـ كـانـ غـفـورـاـ رـحـيـماـ»^(٦).

قولـهـ: «تنـزـيلـ منـ ربـ الـعـالـمـينـ»:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠ - ٨٢ - ٨١.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٢٦ - ٢٧.

(٣) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٨١ - ٨٢.

(٥) سورة القلم، الآية: ١٥.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

خبر ثان لقوله: «إنه» وهو كقوله: «وإنه لتنزيل رب العالمين»^(١)
وك قوله: «تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته»^(٢). فهو خبر مكرر
مع قوله: القرآن.

وتتنزيل أي منزل فهي مصدر بمعنى منزل من رب العالمين أنزله الله على
قلب النبي ﷺ؛ لأنَّه محلَّ الوعي والحفظ بواسطة جبريل قال تعالى: «وإنه
لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين».

وقوله: «من رب العالمين»: أي خالقهم ويستفاد من الآية ما يلي:

١ - أن القرآن نازل لجميع الخلق، ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ - أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك فهو الحكم بينهم.

٣ - أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى:
«تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته» علم أنَّ القرآن رحمة
للعباد أيضاً وربوبية الله مبنية على الرحمة قال تعالى: «الحمد لله رب
العالمين الرحمن الرحيم»^(٣) وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه فهو رحمة

٤ - .

٤ - أنَّ القرآن كلام الله؛ لأنَّه إذا كان الله أنزله فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله
السلف رحهم الله وهو غير مخلوق؛ لأنَّ جميع صفات الله حتى الصفات
الفعالية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٣ - ٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ - ٣.

قلنا: لا لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله، فهو غير مخلوق كالكلام وإنما وإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾^(١) وهو مخلوق وقال تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواجا﴾^(٢) والأنعام مخلوقة، فإذا كان المنزل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها لزم أن يكون غير مخلوق لأنه من صفات الله.

قوله: «أفبهذا الحديث أنتم مدهنون»:

الاستفهام للإنكار والتوبیخ والحديث: القرآن.

والدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله، والمعنى: أن تذهبون بهذا الحديث وتختلفون وتستخفون لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمَن معه القرآن أن يتصدِّع به وأن يبينه ومجاهد به قال تعالى: ﴿وجاهدُهُم بِهِ جهاداً كِبِيراً﴾^(٣).

قوله: «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»

أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف، أي: تجعلون شكر رزقكم أي: ما أعطاكم الله من أي شيء من المطر ومن إنزال القرآن أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر فإ أنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى تجعلون شكركم تكذبوا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة
علي له في مثلها يحب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦.

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، وإن شكر في ثانية فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبداً قال تعالى: «وإن تعدوا نعمة الله لا تمحصوها»^(١).

قوله: «أنكم تكذبون»:

«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول يجعلون الثاني، أي تصيرون شكركم تكذيباً، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحياً كذب خبره ولم يمثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبة إلى غير الله قال هذا من النوع أو هذا من عملي كما قال قارون: «إنا أوتينا على علم عندي»^(٢).

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الواقعة. **الثانية:** ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية. **الثالثة:** ذكر الكفر في بعضها. **الرابعة:** أن من الكفر ما لا يخرج من الملة. **الخامسة:** قوله : «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الواقعة : وهي قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوكُمْ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِيْبُونَ﴾ وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية : وهي الطعن بالأنساب ، والفخر بالأحساب ، والاستسقاء بالأنواء ، والنياحة على الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها : وهي الاستسقاء بالأنواء.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة : وهي أن الاستسقاء بالأنواء ببعضه كفر ، وببعضه ليس بكفر ، وقد سبق بيان ذلك .

الخامسة: قوله : «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة : أي : أن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به ، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء ، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً . مثال ذلك : رجل غرق في ماء وكان عنده رجل قوي فنزل وأنقذه ، فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه ، ولو لا أن الله أمر أمراً قدرياً وأمراً شرعاً أن ينقدك هذا الرجل ما حصل إنقاذه فأنت تعتقد أن هذا سبب محض .

أما إن غرق وسر الله له فخرج فقال : إن الولي الفلاني أنقذني فهذا

السادسة: التفطن للإيهان في هذا الموضع. السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع. الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا». التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أندرون ماذا قال ربكم». العاشرة: وعيد النائحة.

شرك أكبر؛ لأن سبب غير صحيح ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء.

السادسة: التفطن للإيهان في هذا الموضع:
وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع:
وهو نسبة المطر إلى النوء فيقال: هذا بسبب النوء الفلاقي، وما أشبه ذلك.

الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا»:
وهذا قريب من قوله: «مطرانا بنوء كذا»؛ لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذه وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أندرون ماذا قال ربكم»:

وذلك أن يلقى العالم على المتعلم السؤال لأجل أن يتتبه له وإنما فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله؟ لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر فقال: أندرون ماذا قال ربكم؟ وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

العاشرة: وعيد النائحة:
وذلك بقوله: «إذا لم تتب قبل موتها نقام يوم القيمة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» وهذا وعيد عظيم.

باب قول الله تعالى

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّهُمْ كَحْبَ اللَّهِ﴾^(١).

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾

جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة ويمكن أن يعني بهذه الترجمة باب المحبة^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥

(٢) قال شيخ الإسلام في جموع الفتاوى ١ / ٩٥ : «اعلم أن عركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة لذاتها، لأنها تردد في الدنيا والأخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة . . . والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه / وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتتبه له، فإنها لا تصح له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبد الله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده حبة تبعه على طلب محبوبه، فما شيء يحرك القلوب؟
قلنا: يحركها شيئاً:

أحداها: كثرة الذكر للمحوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.
والثاني: مطالعة آلات ونعماته . . . فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسمى عليه من النعم الباطنة من الإيان
= وغيره، فلابد أن يشير عنده باعثاً.

.....
وأصل الأفعال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب إما لحب منفعة أو لدفع مضره، فإذا عمل شيئاً فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة إذ لو تعبدت بدون حبّة صارت عبادتك قشرًا لا روح فيها، فإذا كان الإنسان في قلبه حبّة الله وللوصول إلى جنته فسوف يسلك الطريق الموصى إلى ذلك.
ولهذا لما أحب المشركون آهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: حبّة عبادة؛ وهي التذلل والتعظيم وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمثل أمره ويحترم نبيه، وهذه خاصة بالله فمن أحب مع الله غيره حبّة عبادة فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: حبّة ليست بعبادة، وهذه أنواع :

النوع الأول: المحبة لله وفي الله وذلك بأن يكون الجالب لها حبّة الله من أشخاص كالأئباء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين.
ومن أعماله: كالصلة والزكاة وأعمال الخير، وما أشبه ذلك. ومن أزمان رمضان وأيام العشر وغيرها، ومن أمثلة المساجد والكعبة وجبل أحد وغيرها.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو حبّة الله.

= وكذلك الحروف تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، ونحوه.
وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو.

.....
النوع الثاني: محبة إشفاق ورحة، وذلك كمحبة الولد والصغرى
والضعفاء والمرضى.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة كمحبة الإنسان لوالده
ولعلمه ول الكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام والشراب والملبس والمركب
والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول والباقي من قسم المباح، إلا إذا اقتنى
بها ما يقتضى التبعد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم،
وإذا اقتنى بها أن يتبعه الله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة،
وكذلك يحب ولده محبة شفقة وإذا اقتنى بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح
هذا الولد صارت عبادة^(١).

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٩٥ - ٩٧):

«أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل النائه والتبعيد له، بل هي
حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه . . . ومن تفريعها وتكميلها
الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من
الأشخاص والأعمال، ويولي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.
أما اتخاذ أنداد من الخلق بمحبهم كحب الله، فيقدم طاعتهم على طاعة الله، ويجهج بذلك
ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله: وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال
والأزمنة والأمكنة، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لأنهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملوك،
وهي أصل الشرك وأساسه.

=

وكذلك المحبة الطبيعية كالأكل والشرب والملابس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة وهذا «حب للنبي ﷺ النساء والطيب»^(١) من هذه الدنيا فحب إله النساء لأن ذلك مقتضى الطبيعة وما يترتب عليه منصالح العظيمة، وحب إله الطيب لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر ولأن الطيبات للطبيين والله طيب لا يقبل إلا طيبا.

فهذه الأشياء إذا اخزتها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٢) وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد وهذا أمر متفق عليه.

قوله: «ومن الناس»: «من» تبعيضية وهي خبر مقدم «ومن يتحذّر» مبتداً مؤخر.

قوله: «أنداداً»: جمع ند وهو الشبيه والنظير.

قوله: «يحبونهم كحب الله»: أي في كيفية ونوعه.

وفي الكيفية أي القوة والشدة حتى إن بعضهم يعظم عبوبه ويغار له أكثر

وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع مابلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونکاح ولباس عشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة فإن أعادت على حبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتتوسل بها إلى مالا يحبه الله دخلت في النهيات، ولا بقيت من أقسام المباحات».

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥، والنثاني في عشرة النساء / باب حب النساء ٧/٦١. وفي تعليق الألباني في المشكاة ١٤٤٨/٣: «إسناده حسن».

(٢) أخرجه البخاري في بده الوجي / باب كيف كان بده الوجي ١٣/١، ومسلم في الإمارة / باب قوله، ﷺ: إنما الأعمال بالنيات ١٥١٥/٣.

.....
ما يعظم الله ويغافر الله، فلو قيل احلف بالله لخلف وهو كاذب ولم يبال، ولو
قيل: احلف بالندل لم يخلف وهو كاذب، وهذا شرك أكبر.

وقوله: «كحب الله»: للمسيرين فيها قولان:

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها أي يحبونهم كحبهم
للله، والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله فيجعلونها شركاء الله في المحبة،
لكن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء الله، وهذا هو الصواب.

الثاني: أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين.

أي كحب المؤمنين لله، فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله عز
وجل. وهذا وإن احتمله اللفظ لكن السياق يأبه، لأنه لو كان المعنى ذلك
لكان منافقاً لقوله تعالى - فيما بعد - : «والذين آمنوا أشد حباً لله».

وكانت محبة المؤمنين لله أشد؛ لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك فمحبة
المؤمنين أشد من حب هؤلاء الله.

فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظراً
لقوله: «أشد حباً لله» فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئاً وأحد هما حال
منه تماماً، ومنه قوله تعالى: « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا وأحسن
مقيلاً»^(١) مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى: «آله خير أما
يشركون»^(٢) والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة ولكنها من باب
مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٩.

وقوله: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم
وعشيرتكم وأموال افترضتموها وتجارة تخشون كсадها ومساكن ترضونها
أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربيصوا حتى يأتي الله
بأمره»^(١).

مناسبة الآية لباب العجبة :

منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة وهذا يوجد في بعض العباد وبعض الخدم، فبعض العباد يعظمون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله قال تعالى: «وَقَالُوا رَبُّنَا إِنَّا أَطْعَنَا سَادَتْنَا وَكِبَرَاءْنَا فَأَضْلَلُنَا السَّبِيلُ رَبُّنَا أَنَّهُمْ ضَعَفَيْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»^(٢).

قوله: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم»:
«آباؤكم» اسم كان، ويأتي الآية مرفوع معطوف عليه وخبر كان «أحب إليكم من الله ورسوله» والخطاب في قوله: «قل» للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: «آباؤكم» الأمة.

والامر في قوله: «فتربيصوا»: يراد به التهديد.
أي: انتظروا عقاب الله، ولهذا قال: «حتى يأتي الله بأمره» بإعلان هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الشأنة على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.
فدللت الآية على: أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العباد إذا فضلت على محبة الله صارت سبباً للعقوبية.
ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يحمل أوامر الله لأوامر والده، فهو

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧، ٦٨.

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

يحب أباء أكثر من ربه .

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله ، لكن له شاهد في الجوارح ، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال : «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» فالجوارح مرآة القلب .

فإن قيل : المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكتها وهذا يروى عن النبي ﷺ أنه قال : «اللهم إن هذا قسمٌ فيها أملك فلا تلموني فيها لا أملك»^(١) وكيف للإنسان أن يحب شيئاً وهو يبغضه وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكناً؟ .

أجيب : أن هذا إيراد ليس بوارد ، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس إما لسبب ظاهر أو لإرادة قاهرة ، فمثلاً : لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك فتكرره هذا السبب ، أو بالعزيمة القوية فمثلاً يحب أمراً كشرب الدخان فصار عنده عزيمة فأبغضه .

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ : «واه يا رسول الله إنك لأحب إلى من مالي وولدي وكل شيء إلا نفسي ، فقال النبي ﷺ : ومن نفسك قال : الآن

(١) أخرجه أحد في المسند ١٤٤/٦ ، وأبوداود في النكاح / باب في القسم بين النساء ٦٠١/٢ والترمذى في النكاح / باب في التسوية بين الفرائير ٤/١٠٧ ، والنسائي في عشرة النساء / باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٧/٦٤ ، وابن ماجه في النكاح / باب القسمة بين النساء ١/٦٣٣ .

والدارمي ٦٧/٢ ، وابن حبان وصححه (٤١٩٢) والحاكم ١٨٧/٢ وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

ورجع الترمذى إرساله فقال : «رواية حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة مرسلاً أصح» .
وانظر تحفة الأشراف ١١/٤٧١ رقم (١٦٢٩٠) ، وجامع الأصول ١١/٥١٤ ، ونبيل الأوطار ٦/٣٧٢ .

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخر جاه^(١).

والله إنك أحب إلى من كل شيء حتى من نفسي^(٢) فقد تغيرت محنة عمر رضي الله عنه.

وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير وينتقل.
وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرره ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب فتعدو محنته.

قوله: «لا يؤمن»:

هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود «أي نفي الأصل».

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب إلا إذا خلا القلب من حبة الرسول ﷺ إطلاقاً، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.
قوله: «من ولده»: يشمل الذكر والأنثى ويدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بمحبة أبيه.

قوله: «ووالده»: يشمل أباه وجده وإن علا وأمه وجدته وإن علت.

قوله: «والناس أجمعين»: يشمل أخواته وأعوانه وأبناءهم وأصحابه ونفسه؛ لأنه من الناس فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان / باب حب الرسول، ٣٦٠، من الإيمان ٢٢/١، ومسلم في الإيمان / باب وجوب حب رسول الله، ٣٧٠، أكثر من الأهل ٦٧/١.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان / باب كيف كانت يمين النبي ، ٢١٦، ٤/٤ من حديث عمر رضي الله عنه.

وحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء، فرسوله أحب إليك من كل خلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبلیغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الاعمال.

الرابع: أنه سبب هدایتك وتعلیمك وتوجیهك.

الخامس: لصبره على الأذى في تبلیغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث ما يليه:

١ - وجوب تقديم حبة الرسول ﷺ على حبة النفس.

٢ - فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

٣ - أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماليه وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: «إن شائقك هو الأبت»^(١) أي مبغضك قالوا وكذلك من أبغض شريعته ﷺ فهو مقطوع لا خير فيه.

٤ - جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم لقوله ﷺ: «أحب إليه من ولده ووالده...» فأثبتت أصل المحبة وهذا أمر طبيعي لا ينكره أحد.

٥ - وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدماً على كل أحد حتى على نفسك، فمثلاً أنت تقول شيئاً وتهواه وتفعله فيأتي إليك رجل ويقول لك هذا

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

يخالف قول الرسول ﷺ . فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك فأنت تتنصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ ، وهذا قال بعضهم :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
لو كان حبك صادقاً لأطعنه
إذا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل
الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعية من باب
أولى، ومن بعدهم قال الله تعالى: «وما كان ملؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله
رسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»^(٣).

(١) قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل ٢/٢٥٨: «والذنوب تنقص من حبة الله تعالى بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحنة ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب، «حدث حمار الذي كان يشرب الخمر، وكان النبي ﷺ يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبي ﷺ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله...» فكما أن المحنة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات، وكمال المحنة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصي تنقص المحنة، وهذا معنى قول الشțيل لما سئل عن المحنة؟ فقال ماغفت به جاري فلان:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه إلخ أبيبتين
وقال في ص (٢٨٤) : «والعبادة تجمع كمال المحبة، وكمال الذل، فالعبد محظوظ خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى عبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظلم، فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كان عبوب لغير الله ومعظم لغير الله فقيه شوب من العبادة كما قال النبي ، ﷺ ، في الحديث الصحيح :
«تعس عبد الدرهم، تعس عبد الديناه »

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

لَكُنْ إِذَا وَجَدْنَا حَدِيثًا يُخَالِفُ الْأَحَادِيثُ الْأُخْرَى الصَّحِيحَةَ أَوْ مُخَالِفًا لِقَوْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَجَهْوَرِ الْأُمَّةِ فَالْوَاجِبُ التَّثْبِيتُ وَالثَّانِي فِي الْأُمْرِ؛ لَأَنَّ اتِّبَاعَ الشَّذْوَذِ يُؤْدِي إِلَى الشَّذْوَذِ.

وَهَذَا إِذَا رَأَيْتَ حَدِيثًا يُخَالِفُ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْأُمَّةِ أَوْ مُخَالِفًا لِالصَّحِيحَةِ الَّتِي - كَالْجَبَالِ - فِي رِسُولِهِ فَلَا تَرْدِهِ، بَلْ يُجَبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرَاجِعَ وَتَطَالَعَ فِي سُنْدِهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْأُمْرُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ فَإِنَّهُ لَا يَبْأَسُ أَنْ يُخَصِّصَ الْأَقْوَى بِأَضَعَفِهِ مِنْهُ إِذَا كَانَ حَجَّةً وَيمْكُنُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ الْمُضَعِّفُ مُخَالِفًا لِقَوْلِ جَهْوَرِ الْأُمَّةِ لَكُنَّ الْمَهْمَّةُ التَّثْبِيتُ فِي الْأُمْرِ وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَنْفَعُكَ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي ذُكِرَتْ أُخْرِيًّا، وَتَرَكَهَا الْأَقْدَمُونَ وَصَارَتْ مَحْلُ نَقَاشٍ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّهُ يُجَبُ اتِّبَاعُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، وَيَقَالُ أَيْنَ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ؟ وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ لَكَانَتْ مَنْقُولَةً بِاقْيَةً مَعْلُومَةً مُثْلِمًا ذَكَرَ أَنَّ إِنْسَانًا إِذَا لَمْ يَطْفُ طَوَافَ الإِفَاضَةِ قَبْلَ أَنْ تَغْرِبَ الشَّمْسُ يَوْمَ الْعِيدِ فَإِنَّهُ يَعُودُ مُحْرَماً فَإِنَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ^(١) وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ سُنْدِهِ الصَّحِيحَ لَكُنَّهُ ضَعِيفٌ وَشَاذٌ وَهَذَا لَمْ يُذَكَّرْ أَنَّهُ عَمِلَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ مِنَ الْتَّابِعِينَ، إِلَّا فَالْأُمَّةُ عَلَى خَلَافَتِهِ فَمَثَلُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ يُجَبُ أَنْ يَتَحَرَّى إِنْسَانٌ فِيهَا وَيَتَثْبِتُ، وَلَا نَقُولُ إِنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صَحِيقَةً.

(١) اخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ / بَابُ الْإِفَاضَةِ فِي الْحِجَّةِ ٥٠٨/٣، وَقَالَ الْمَنْذُريُّ فِي مُنْصُرِ السَّنَنِ ٤٢٨/٢: «فِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَقَدْ تَقْدِمُ الْكَلَامُ عَلَيْهِ»، وَانْظُرْ تَهْذِيبَ السَّنَنِ لَابْنِ الْقَيْمِ ٤٢٧/٢.

وَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كَنْ فِيهِ وَجَدَ بِهِنْ حَلاوةَ الْإِيَّانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَا سَوَاهُمَا، وَأَنْ يَحْبُّ الْمَرءُ لَا يَحْبُّ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يَكُرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكُرِهُ أَنْ يَقْذَفَ فِي النَّارِ»^(١).

مناسبة هذا الحديث للباب :

مناسبة هذا الحديث ظاهرة إذ محنة الرسول ﷺ من محنة الله.

قوله: «ثَلَاثٌ مَنْ كَنْ فِيهِ»:

أي ثلاث خصال وكن بمعنى وجدن فيه.

واعراب «ثلاث» مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن

مالك:

ولا يجوز الابتداء بالتنكرة ما لم تفده^(٢)

وقوله: «من كن فيه»: «من» شرطية و«كن» أصلها كان فتكون فعلًا ماضياً ناسخاً والنون اسمها وفيه خبرها.

قوله: «وَجَدَ بِهِنْ»: وجد فعل ماض، في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: «وَجَدَ بِهِنْ حَلاوةَ الْإِيَّانِ»:

الباء للسببية، وحلاوة مفعول وجد، وحلاوة الإيان: ما يجلده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليس مدركة باللوعاب والقفر فالقصد بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

(١) أخرجه البخاري في الإيان / باب حلاوة الإيان ١/٢٢، ومسلم في الإيان / باب خصال من اتصف بين وجد حلاوة الإيان ١/٦٦.

(٢) الفتاوى ابن مالك ص (١٦).

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث :

قوله : «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» :

الرسول محمد ﷺ وكذا جميع الرسل يجب محبتهم .

قوله : «أحب إليه» :

أي أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولد ووالده وزوجه .

فإن قيل لماذا جاء الحديث بالواو «الله ورسوله» وجاء الخبر لها جميعا

«أحب إليه مما سواهما»؟

فالجواب : لأن محبة الرسول ﷺ من محبة الله ، وهذا جعل قوله : أشهد
أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ركناً واحداً ، لأن الإخلاص لا يتم إلا
بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي ﷺ .

الخصلة الثانية :

قوله : «وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله» :

قوله : «وأن يحب المرء» : المراد به الرجل ، ويشمل الرجل والمرأة .

قوله : «لا يحبه إلا الله» : اللام للتعميل أي : من أجل الله ؛ لأنه قائم
بطاعة الله عز وجل .

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة : يحبه للدنيا ، ويحبه للقرابة ، ويحبه
للزماله ، ويحب المرء زوجته للشهوة منها وغيرها ، ويحب من أحسن إليه ، لكن
إذا أحببت هذا المرء الله فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان .

الخصلة الثالثة :

قوله : «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن
يُقذف في النار» :

هذه الصورة في كافر أسلم فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى . . .^(١) إلى آخره.
وعن ابن عباس رضي الله عنها قال: «من أحب في الله وأبغض

منه كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.
فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار فإن هذا من أسباب حلاوة الإيمان.

قوله: «وفي رواية لا يجد أحد حلاوة الإيمان».
أني المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجдан حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم وهذه عن طريق المنطوق ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

قوله: «من أحب في الله».
من شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة «فإنما تناول ولاية الله بذلك».

و«في» يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية.
ويحتمل أن تكون للسببية لأن «في» تأتي أحياناً للسببية كما في قوله عليه السلام: «دخلت امرأة النار في هرة»^(٢) أي بسبب هرة.

وقوله: «في الله»: أي من أجله إذا قلنا إن في للسببية وأما إذا قلنا إنها للظرفية فالمعنى من أحب في ذات الله أي في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.
قوله: «وأبغض في الله»: البعض الكره، أي أبغض في الله أو في ذات الله إذا رأى من يعصى الله كرهه.

(١) أخرجه البخاري في الأدب / باب الحب في الله ٤/٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة / باب في سعة رحمة الله ٤/٢١١٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الله، ووالى في الله، وعادى في الله فإنما تنال ولية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» رواه ابن جرير^(١).

وفرق بين «في» التي للسيبة و«في» التي للظرفية فالسيبة الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو في ذات الله عز وجل فيبغض من أبيضه الله ومحب من أحبه.

قوله: «ووالى في الله»:

الموالاة هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: «وعادى في الله»:

المعاداة ضد الموالاة أي يتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

قوله: «فإنما تنال ولية الله بذلك»: هذا جواب الشرط أي يدرك الإنسان ولية الله يصل إليها؛ لأنّه جعل محنته وبغضه ولولاته ومعاداته لله.

وقوله: «ولية»: يجوز في الواو وجهان الفتح والكسر، قيل: معناها واحد وقيل بالفتح بمعنى النصرة قال تعالى: «مالكم من ولايتم من شيء». وبالكسر بمعنى الولاية على الشيء.

قوله: «بذلك»: الباء للسيبة والشار إليه الحب في الله والبغض فيه والموالاة فيه والمعاداة فيه.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) عن ابن عباس موقوفاً، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/٣١٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، والطبراني في الكبير (١٣٥٣٧) عن ابن عمر موقوفاً.

ومداره على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف مختلط. تهذيب التهذيب ٤٦٧/٨ ، تقريب التهذيب ١٣٨/٢ .

وهذا الأثر موقوف لكنه بمعنى المرفوع.

فمعنى الحديث أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلوته ولذته حتى يكون كذلك ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يواли أعداء الله فيرى أعداء الله يشركون بربه ويکفرون به ويدعون به النكائص والعيوب ثم يواлиهم ومحبهم فهذا لو صل وقام الليل كله وصام النهار كله فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءاً بمحبة الله وموالاته وعلى العكس من ذلك يكون مملوءاً ببغض أعداء الله ومعاداتهم وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتحب أعداء الحبيب وتدعى حبّاله ما ذاك في إمكان
وقال الإمام أحمد رحمه الله : «إذا رأيتُ النصارى أغمض عيني كراهة أن
أرى بعيبي عدو الله».

هذا الذي يجد طعم الإيمان أما - والعياذ بالله - الذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ فهو خارج عن الإسلام مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِينَكُم﴾^(١) قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢) قوله: ﴿وَمَنْ يَتَعَنَّ فِي الدِّينِ فَأُولَئِكَ فِي الظُّلْمِ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) وإن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين^(٤) ولكثرة اليهود والنصارى والوثنيين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر ولا يدرى أن غير المسلم عدو الله عز وجل بل هو عدو له أيضاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا عَدُوِّي وَعَدُوكُمْ أُولَاءِ﴾^(٥) فهم أعداء لنا ولو ظاهروا بالصدقة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا الْيَهُودَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٣. (٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) سورة المحتagna، الآية: ١٩. (٥) سورة آل عمران، الآية: ١.

والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتوهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين^(١).

فالآن أصبحنا في محنة، وخطر عظيم؛ لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يرکنوا إلى هؤلاء ويتوادوهم وأن يحبوهم ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «أخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما»^(٢) وقال: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»^(٣) وقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»^(٤) وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس.

قوله: «وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا».

قوله: «عامة» أي أغلبية.

وقوله: «مؤاخاة الناس»: أي مودتهم ومصاحبتهم.
أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس وهو بعيد العهد فإذا كان الناس قد تغيروا في زمانه فما بالك بالناس اليوم؟ فقدت صارت مؤاخاة الناس - إلا النادر - على أمر الدنيا بل صار أعظم من ذلك يبيعون دينهم بدنياهم قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه مسلم في الجماد / باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ١٣٨٨/٣ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) انظر تلخيص الحير ٤/١٢٥ رقم (١٩١٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجماد / باب فداء هل يستشفع إلى أهل الذمة ٢/٣٧٣، ومسلم في الوصية / باب ترك الوصية ٣/١٢٥٧.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: «وتقطعت بهم الأسباب»^(١)
قال المؤذن^(٢).

رسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون»^(٣) ولما كان غالب ما يحصل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: «واعلموا أنها أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم»^(٤).

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما:
أن الله تعالى أولياء وهو ثابت بنص القرآن قال تعالى: «الله ولي الذين آمنوا»^(٥) وقال تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا»^(٦) فللله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتيسير والحفظ والتوفيق، والميزان هذه الولاية قوله تعالى: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا و كانوا يتقون»^(٧).

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقى كان الله ولياً»، والولاية سبق:
أنها النصرة والتاييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قوله تعالى: «الله ولي الذين آمنوا»^(٨) «والذين كفروا أولياؤهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٤٣/٢، والحاكم ٢٧٢/٢ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٧) سورة يومن، الآية: ٦٢.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

الطاغوت^(١)) ومن الثاني قوله تعالى: «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا...»^(٢).

والولاية التي من الله إلى العبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبر والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق فالله هو الذي يتول عباده بالتدبر والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسين»^(٣).

والولاية الخاصة: أن يتول الله العبد بعنایته وتوفيقه وهدایته وهذه خاصة بالمؤمنين قال تعالى: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»^(٤) وقال: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا و كانوا يتقوون»^(٥).

قوله: «وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «وتقطعت بهم الأسباب» قال المودة»:

الأسباب جمع سبب، وهو: كل ما يتوصل به إلى شيء.
وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.
فكما يوصل إلى شيء فهو سبب قال تعالى: «من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع»^(٦) ومنه سمي الحبل سببا؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ١٥.

وقوله : « قال : المودة » :

هذا الأثر ضعيف فإن صح عنه فإنه أخذها من قوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله »^(١) لأن الآيتين في سياق واحد فإن الله ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى : « إِذْ تَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقْطَعَتْ بَهِمُ الْأَسْبَابُ »^(٢) .

فقوله : « المودة » : أي مودة المشركين لأصنامهم ، وإلا فمودة الله تعالى لا تنقطع بالإنسان أبدا بل هي موصلة له ، وكذا مودة المؤمنين بعضهم لبعض ترفعهم في درجات التحايل في الله قال تعالى : « الْأَخْلَاءُ يُوَمِّلُ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ عَدُوٌ إِلَّا مُتَّقِنُ »^(٣) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٦ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٦٧ .

فيه سائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية:** تفسير آية براءة. **الثالثة:** وجوب محبته بكل على النفس والأهل والمال. **الرابعة:** نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

فيه سائل :

الأولى: تفسير آية البقرة: وهي قوله تعالى: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله».

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالى: «قل إن كان آباؤكم وأبناءكم... الآية».

الثالثة: وجوب محبته بكل على النفس والأهل والمال، وفي نسخة «تقديمها على النفس والأهل والمال».

ولعل الصواب وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث وأيضاً قوله: «على النفس» يدل على أنها قد سقطت كلمه تقديم أو تقديمها. وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: «قل إن كان آباؤكم وأبناءكم... أحب إليكم من الله ورسوله» ذكر الأقارب والأموال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام: سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ص: «والله إنك لأحب إلى من كل شيء إلا من نفسي» فقال له: ومن نفسك فقال: الآن أنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسي»، وقوله: «الآن» يدل على حدوث المحبة وهذا أمر ظاهر وفيه أيضاً أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى تكون أحب إليه من ولده...» لا يدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تناول ولالية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

الإيمان». لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله أي أن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاثة حالات: فالالأصل أنه نفي للوجود وذلك مثل «لا إيمان لعبد صنم» فإن منع مانع من نفي الوجود فهو نفي للصحة مثل «لا صلاة بغير وضوء» فإن منع مانع من نفي الصحة فهو نفي للكمال مثل «لا صلاة بحضور طعام» فقوله: «لا يؤمن أحدكم» نفي للكمال الواجب لا المستحب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا ينفي الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع».

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها: تؤخذ من قوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تناول ولالية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها:

وهي الحب، والبغض، والولاء، والعداء.

لأتناول ولالية الله إلا بها ولو صلى الإنسان وصام ووالي أعداء الله لا يتناول

ولالية الله قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعى حباً له ما ذاك في إمكان

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالي من عاداهم.

وقوله: «ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها» مأخوذة من قول ابن عباس:

«ولن يجد عبد طعم الإيمان . . . الخ».

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا. الثامنة: تفسير «وتقطعت بهم الأسباب». التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً. العاشرة: الوعيد على من كانت الشهانية أحب إليه من دينه.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا: الصحابي يعني به ابن عباس رضي الله عنها وقوله: «إن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا»، هذا في زمانه فكيف بزمننا.

الثامنة: تفسير قوله: «وتقطعت بهم الأسباب»:

فسرها بالملوحة وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنّة بعموماتها فإذا جاء فرد من أفراد هذا العموم فإنها يقصد به التمثيل، أي: مثل الملوحة. لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقرّبون بها إلى الله وليس بصحيحة فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

النinthة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً:

وتؤخذ من قوله تعالى: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله» وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: «والذين آمنوا أشد حباً لله» فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة، فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد على من كان الشهانية أحب إليه من دينه:

الشهانية هي قوله تعالى: «قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشائركم وأموال افترفتموها وتجارة تخشون كсадها ومساكن ترضونها».

الحادية عشرة: أن من اتَّخذ نِدًّا تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

والوعيد في قوله: «فَتَرَبَصُوا» فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتَّخذ نِدًّا تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر؛ لقوله تعالى: «يَحْبُّوْنَهُمْ كَحْبَ اللَّهِ» ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر بدليل ما لهم من العذاب.

باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يَخْوِفُ أُولَئِكَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾^(١).

مناسبة الباب لعاقبه :

المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف^(٢).

فبالمحبة يكون امثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس فلو سألت من لا يزني لماذا؟ لقال: خوفا من الله.

ولو سألت الذي يصلى لقال: طمعا في ثواب الله ومحبة له وكل منها ملازم للآخر فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمة.

وهل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أو يغلب جانب الرجاء؟ اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٢) قال شيخ الإسلام كما في الاختيارات ص (٨٥): «عمل القلب: من التوكيل، والخوف، والرجاء، وما يتبع ذلك، والصبر واجب بالاتفاق».

وقيل: في فعل الطاعة يغلب الرجاء فالذى منْ عليه لفعل هذه الطاعة سيمتن عليه بالقبول، وهذا قال بعض السلف: إذا وفقت الله للدعاء فانتظر الإجابة؛ لأن الله يقول: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم»^(١). وفي فعل المعصية يغلب الخوف لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء ولكن ليس بذلك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: «والذين يؤمنون ما آتوا وقلوهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون»^(٢) أي يخافون أن لا يقبل منهم، لكن يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى كقوله ﷺ في الحديث القدسى عن ربه: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني»^(٣).

وقيل: في حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً فائيها غالب هلك صاحبه^(٤). أي يجعلهما كجناحي الطائر، والجنحان للطائر إذا لم يكونا متساوين سقط.

وخوف الله تعالى درجات فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد/ باب: وخذلوكم الله نفسه /٤، ٣٨٤، ومسلم في الذكر والدعاة/ باب الحث على ذكر الله /٤، ٢٠٦١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قال شيخ الإسلام كما في الاختيارات ص (٨٥): «وينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فائيها غالب هلك صاحبه، ونص عليه الإمام أحمد؛ لأن من غالب خوفه وقع في نوع من البأس، ومن غالب رجاؤه وقع في نوع من الأمان من مكر الله».

يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه.

والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله، وهذا ما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم.

ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عنها نهى الله عنه.

والخوف أقسام :

الأول : خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع وهو ما يسمى بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله سبحانه، فمن أشرك مع الله غيره فهو مشرك شرك أكبر، وذلك مثل : من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم كما يفعله بعض عباد القبور يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله^(١).

الثاني : الخوف الطبيعي والجلي، فهو إن حمل على ترك واجب أو فعل حرم فهو حرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مباحاً، فمثلاً من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك الصلاة مع وجوبها فهذا الخوف حرم والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعل حرم فخافه، وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به فهذا خوف حرم لأنه يؤدي إلى فعل حرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثم هرب

(١) قال السعدي في القول السديد ص (٩٨) : «فإن كان الخوف والخشية خوف تالمه وتبعده وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعوا إلى طاعة باطنية وخوف سري يجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه من الله».

.....
منها ونجا بنفسه فهذا خوف مباح، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه^(٣٠).

وهناك ما يسمى بالوهم، وليس بخوف مثل أن يرى ظل شجرة تهتز فيظن أن هذا عدو يتهدده، فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك بل يطارد هذه الأوهام لأنها لا حقيقة لها وإذا لم تطاردها فإنها تهلك.

مناسبة الخوف للتوجيه: أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد.

قوله: «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه».
«إنما ذلكم»: صيغة حصر للمشار إليه من خوف المشركين.
«ذلكم»: «ذا» مبتدأ و«الشيطان» يحتمل أن يكون خبر المبتدأ، وجملة «يخوف» حال من الشيطان.
ويحتمل أن يكون «الشيطان» صفة «الذلكم» أو عطف بيان، و«يخوف» خبر المبتدأ والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياءه.

و«يخوف» تنصب مفعولين الأول مذوق، وتقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني «أولياءه».

ومعنى يخوفكم أي يوقع الخوف في قلوبكم منهم وأولياءه أي أنصاره

(١) القسم الثالث: أن يترك ما يجب عليه من جهاد، وأمر معروف، وهي عن منكر لغير عذر خوفاً من بعض الناس لهذا حرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكتاب التوحيد، وهذا سبب نزول الآية: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم». حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص (٢٤٤).

(٢) وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة فمن أعلى مراتب الإيمان.

الذين ينصرن الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك فكل من نصر الفحشاء والمنكر فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر في التوحيد وما يتعلق به فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك.

وقوله: «يخوف أولياءه»: من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها حيث قالوا:
«إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»^(١) وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين وهو الجهاد فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فيخوفه الشيطان ليصدوه عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان في نفسك الخوف فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدري الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل فكم من داعية صدّع بالحق ومات على فراشه، وكم من جبان قتل، وانظر إلى خالد ابن الوليد كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، ومadam الإنسان قاتل بأمر الله فليتّق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون.

قوله: «فلا تخافوه»: لا نهاية، وأهاء ضمير يعود على أولياء الشيطان، وهذا النبي للتحريم بلاشك، أي: بل امضوا فيها أمرتكم به وفيها أوجبته عليكم من الجهاد ولا تخافوا هؤلاء وإذا كان الله مع الإنسان فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكّل التام وهذا قال تعالى: «إن كتم مؤمنين» وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه وهذا ما وقع فيه كثير من الناس وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو انكلوا على الله وخافوه قبل كل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

وقوله: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهددين»^(١).

شيء خافهم الناس وهذا قيل في المثل: من خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقى الله اتقاه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء». ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك فهو مناف لأصله وإلا فهو مناف لكتمه.

قوله: «إنما» أداة حصر والمراد بالعبارة المعنية والحسبية؛ لأن الذي يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر في الحقيقة أنه لم يعمرها لعدم انتفاعه بهذه العبارة، فالعبارة النافعة الحسية والمعنية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وهذا لما افتخرا المشركون بعبارة المسجد الحرام قال تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً لأنها موضع عبادته.

قوله: «من آمن بالله»:

«من» فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور وهي :

* الإيمان بوجوده.

* وربوبيته.

* وألوهيته.

* وأسمائه وصفاته.

وال يوم الآخر: هو يوم القيمة وسمى بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به

(١) سورة التوبه، الآية: ١٨.

النبي ﷺ ما يكون بعد الممات مثل فتنة القبر وعذابه ونعمته .
لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قiamته وارتحل إلى دار
الجزاء .

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر
يجعل الإنسان إلى العمل، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجراً حله ذلك على
العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل إذ كيف يعمل
لشيء وهو لا يؤمن به !؟
قوله : «أقام الصلاة» :

أي أتي بها على وجه قويم لا نقص فيه، والإقامة نوعان: إقامة واجبة
وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات .
وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتي بالواجب
والمستحب .

قوله : «أٰتى الزكاة» :
«أٰتى» تنصب مفعولين الأول هنا الزكاة . والثاني: مخدوف تقديره
مستحقها .

والزكاة هي: المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف
مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمه الله عز وجل .

قوله : «وَلَمْ يَخْشِ إِلَّا اللَّهُ» .
في هذه الآية حصر طريقه الإثبات والنفي .

«لم يخش» نفسي «إلا الله» إثبات المعنى أن خشيته انحصرت في الله عز
وجل فلا يخشى غيره .

والخشية نوع من الخوف لكنها أخص منه والفرق بينهما:

.....
١ - أن الخشية تكون مع العلم بالمخزي وحاله ، كقوله تعالى : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عَبَادِهِ الظَّالِمُونَ»^(١) والخوف قد يكون من الجاحد .

٢ - أن الخشية تكون بسبب عظمة المخزي بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف .

قوله : «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ» .

قال ابن عباس : «عسى من الله واجبه»^(٢) . وجاءت بصيغة الترجي لثلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف ، وهذا كقوله تعالى : «إِلَّا الْمُسْتَضْعِفُونَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ لَا يُسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا»^(٣) فالله لا يكلف نفساً إلّا وسعها فالذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً لا يعذبون .

الشاهد من الآية :

قوله : «وَلَمْ يَخْشِ إِلَّا اللَّهُ» وهذا قال تعالى : «فَلَا تَخْشُوا النَّاسَ وَاخْشُونَ»^(٤) ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل .

ومن أراد أن يصحح هذا المسير فليتأمل قول الرسول ﷺ : «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ،

(١) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .

(٢) أخرجه البيهقي ١٣/٩ ، وأورده السيوطي في الدر المثمر ٥٨٧/١ ، وفي الإنegan ص ٢١٤ .

واسناده صحيح . انظر صحيفة علي بن أبي طالب ص (٧٣ - ٧٢) .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٩٨ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .

وقوله : «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أودي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله - الآية»^(١).

ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(٢).

قوله : «ومن الناس» جار ومحروم خبر مقدم و«من» تبعيضية.

وقوله : «من يقول» : من مبتدأ مؤخر.

والمراد بهؤلاء من لا يصل الإيمان إلى قرار قلبه فيقول آمنا بالله لكنه إيمان مستطير كقوله تعالى : «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه»^(٣) على حرف : أي على طرف . فإذا امتحنه الله بما يُقدر عليه من إذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله .

قوله : «إذا أودي في الله» .

«في» للسببية أي بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه .

ويجوز أن تكون «في» للظرفية على تقدير «إذا أودي في شرع الله» أي إذاء في هذا الشّرع الذي تمسك به .

قوله : «جعل فتنة الناس» :

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ١٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١/٢٩٣، ٣٠٧ ، والترمذى في صفة القيمة / باب ولكن ياخذلة ساعة وساعة ٨/٢٠٣ وقال : «حسن صحيح» ، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد (٦٣٥) ، والطبراني في الكبير (١٢٩٨٨)، (١٢٩٨٩)، (١١٤١٦)، (١١٤١٣)، (١١٥٦٠)، وأبو نعيم في الخلية ١/٣١٤ ، وأخبار أصفهان ٢/٢٠٤ .

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (١٦١) : «وبكل حال فطريق حشن التي خرجها الترمذى حسنة جيدة» ، وانظر المشكاة ٣/١٤٥٩ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ١١ .

.....

جعل: صير والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسمى فتنة؛ لأن الإنسان يفتتن به فيُصد عن سبيل الله كما قال تعالى: «إن الذين فتتوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا»^(١). وأضاف الفتنة إلى الناس من باب إضافة المصدر إلى فاعله. قوله: «كعذاب الله».

معلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله بموافقة أمره، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله فيفر من إيدائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب، فحيثما يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيدائهم كعذاب الله ففر منه بموافقة أمرهم فالآية موافقة للترجمة. وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد قال تعالى: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة»^(٢). وقوله تعالى: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لـ الله وإنا إليه راجعون»^(٣).

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر فيكفر ويرتد أحياناً - والعياذ بالله - وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله عز وجل في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً، فليكن المسلم على

(١) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٥٦ - ١٥٥.

حضر فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبع به تحقق الإيمان قال تعالى: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبليوا أخباركم»^(١). قوله: «الآية»: أي إلى آخر الآية وهي قوله تعالى: «ولشن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين». كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله: «أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين»: قيل في مثل هذا السياق أن الواو عاطفة على مذوف يقدر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها، أي: وليس الله.

وقوله: «أعلم» محروم بالفتحة لأنه منع من الصرف للوصفية وزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور العالمين أي بما في صدور الجميع فالله أعلم بما في نفسك منك وأعلم بما في نفس غيرك لأن علم الله عام.

وكلمة: «أعلم» اسم تفضيل. وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم: «أعلم» بمعنى عالم وذلك فراراً من أن يقع التفضيل بين الخالق والملائكة، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ فيه فساد المعنى؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون الله، ولا تدل على التفاضل فالله عالم والإنسان عالم.

(١) سورة محمد، الآية: ٣١.

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتكم الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهة كاره»^(١).

وأما تحريف اللفظ فهو ظاهر حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك.

والصواب أن «أعلم» على بابها وأنها اسم تفضيل وإذا كانت اسم تفضيل فهي دالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق.

وقوله: «بها في صدور العالمين»:

المراد بالعالمين كل من سوى الله؛ لأنهم علم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه وهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «إني قد أؤتيت جدلاً ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا لخرجت منهم بعذر لكن لا أقول شيئاً تعذرني فيه فيفصحني الله فيه»^(٢).

الشاهد من الآية :

قوله: فإذا أودي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: «إن من ضعف اليقين»:

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/٦٠، ٤١/١٠، والبيهقي في شعب الإيمان ١/١٥١، ١٥٢ وقال: «محمد بن مروان ضعيفة».

وقال الشيخ سليمان رحمه الله في التفسير ص (٤٩٠): «قلت: ضعيف، ومعناه صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / باب حديث كعب بن مالك ٣/١٧٦، ومسلم في التوبة / باب حديث توبة كعب ٤/٢١٢٠.

«من» للتبييض والضعف ضد القوة ويقال: ضعف أو ضعف وكلاهما بمعنى واحد.

قوله: «أن ترضي الناس بسخط الله»:

أن ترضي: اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم «من ضعف اليقين» والتقدير:
إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين^(٤).

قوله: «بسخط الله» الباء للعوض يعني أي تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله فتستبدل هذا بهذا، فهذا من ضعف اليقين.

واليقين أعلى درجات الإيمان ، وقد يراد به العلم كما تقول تيقت هذا الشيء أي علمته يقينا لا يعتريه الشك ، فمن ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخطة الله إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله ، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه وقد يكون خالياً من هذا المدح ولا يبين ما فيه من عيوب ، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة ، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها وتحترز منها ولا بأس أن تذكر له حامده تشجيعاً إذا أمن في ذلك من الغرور.

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله»:

(١) قال شيخ الإسلام كما في جمجمة الفتاوى ١/٥١: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبره، فإذا أرضيتم بسخط الله لم نكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى مافي أيديهم من الدنيا فيترك القيام به بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصدق به وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضي الله نصرك ورزقك وكفالك مؤتيمهم، فإن رضاهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين».

.....

الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.
ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنّه يشمل المدح.
وَارْزَقَ اللَّهُ عَطَاءً اللَّهُ أَيْ إِذَا أَعْطَوكَ شَيْئاً حَدَّتْهُمْ وَنَسِيتَ الْمُسْبِبَ وَهُوَ
اللَّهُ، وَالْمَعْنَى أَنْ تَجْعَلَ الْحَمْدَ كُلَّهُ لَهُ مُتَنَاسِباً بِذَلِكَ الْمُسْبِبِ وَهُوَ اللَّهُ فَالَّذِي
أَعْطَاكَ سَبِبَ فَقَطْ، وَالْمَعْطَى هُوَ اللَّهُ فَالْقَدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ عَلَى الْعَطَاءِ كُلَّهَا مِنَ اللَّهِ.
أَمَّا إِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِسَبِبِ هَذَا الرِّزْقِ ثُمَّ
شَكَرَتِ الَّذِي أَعْطَاكَ، فَلَيْسَ هَذَا دَاخِلًا فِي الْحَدِيثِ بَلْ هُوَ مِنَ الشَّرْعِ لِقَوْلِهِ
سَيِّدُ الْجَنَّاتِ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَفُوهُ إِنْ لَمْ تَجْدُوا مَا تَكَافَفُونَهُ بِهِ فَادْعُوا لَهِ
حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(١).

إِذْنُ الْحَدِيثِ لَيْسَ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنْ كُلِّ وِجْهٍ، فَلِمَرَادِ الْحَمْدِ أَنْ تَحْمِدُهُمْ
الْحَمْدُ الْمُطْلَقُ نَاسِيًّا الْمُسْبِبَ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ كَأَنَّكَ
نَسِيَتِ الْمَنْعِمَ الْأَصْلِيِّ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي لَهُ النَّعْمَةُ الْأُولَى وَهُوَ سَفَهٌ أَيْضًا؛
لَاَنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ أَنَّ الَّذِي أَعْطَاكَ هُوَ اللَّهُ فَالْبَشِّرُ الَّذِي أَعْطَاكَ هَذَا الرِّزْقَ لَمْ
يَخْلُقْ مَا أَعْطَاكَ، فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مَا بِيْدِهِ وَهُوَ الَّذِي عَطَفَ قَلْبَهُ حَتَّى أَعْطَاكَ
أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا مَعَهُ طَفْلٌ فَأَعْطَى طَفْلَهُ أَلْفَ درَهمٍ وَقَالَ لَهُ أَعْطَهَا فَلَانَا
فَالَّذِي أَخْذَ الدِّرَاهِمَ يَحْمِدُ الْأَبَّ؛ لَاَنَّهُ لَوْ حَدَّ الطَّفْلَ فَقَطْ لَعِدَ هَذَا سَفَهًا؛ لَاَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْدَادٌ /٢٦٨، ٩٩، ١٢٧، ١٢٧، وَالْبَخَارِيُّ فِي الْأَدْبِ الْمُفَرِّدِ (٢١٦)، وَأَبُو دَاوُدُ فِي الزَّكَاةِ /
بَابُ عَطِيَّةٍ مِنْ سَأَلَ اللَّهَ يَالَّهَ ٢/٣١٠، وَالثَّانِي فِي الزَّكَاةِ / بَابُ مِنْ سَأَلَ يَالَّهَ ٥/٨٢،
وَالْطَّبَرَانيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٣٤٦٥)، (١٣٤٦٦)، (٢٠٧١)، وَابْنُ حِيَانَ (٢٠٧١)، وَالْحَاكِمُ ١/٤١٢،
وَصَحَّحَهُ عَلَى شَرْطِهِمَا وَوَافَقَهُ الْذَّهَبِيُّ، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحَلْيَةِ ٩/٥٦، وَالْبَيْهَقِيُّ ٤/١٩٩.
وَالْحَدِيثُ صَحَّحَهُ الْحَاضِطُ فِي تَخْرِيجِ الْأَدْكَارِ كَمَا فِي الْفَتْرَاحَاتِ الْرِّبَانِيَّةِ ٥/٢٥٠، وَحَسَنَهُ
السَّخَاوِيُّ فِي الْفَتوْحَاتِ ٧/١٢١.

الطفل ليس إلا مرسلًا فقط وعلى هذا فنقول: إنك إذا حذتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثاء فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حذتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله عز وجل فهو حق وصحيح.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتوك الله»:

هذه عكس الأولى فمثلاً لو أن إنساناً جاء إلى شخص يوزع دراهم فلم يعط فسبه وشتمه، فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشاً لم يكن. لكن من قصر بواجب عليه فيلزم لأجل أنه قصر بالواجب لا لأجل أنه لم يعط، فلا يلزم من حيث القدر؛ لأن الله لو قدر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «ما لم يؤتوك»: علامه جزمه حذف الباء، والمفعول الثاني ممحوظ لأنه فضلة والتقدير: ما لم يؤتكه.

قوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهة كاره»

هذا تعليل لقوله: «أن تحمدهم وأن تذمهم».

ورزق الله: عطاوه لكن حرص الحريص من سببه بلاشك، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي كما لو وجد ركازاً في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

فهذا الحديث لا يمنع من فعل الأسباب.

وقوله: «ولا يرده كراهة كاره»: أي أن رزق الله إذا قدر للعبد فلن يمنعه عنه كراهة كاره، فكم من إنسان حسد الناس لكن الله يعطيه الرزق.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضي عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه^(١).

قوله: «من التمس رضا الله بسخط الناس»:
التمس: طلب ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر «التمسوها في العشر»^(٢).
وقوله: «رضي الله»: أي أسباب رضاه. وقوله: «بسخط الله» الباء للعوض أي أنه طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضا، وجوب الشرط: «رضي الله عنه وأرضي عنه الناس».
قوله: «رضي الله عنه وأرضي عنه الناس»:
هذا ظاهر فإذا التمس العبد رضا ربها بنية صادقة رضي الله عنه، لأنه أكرم من عبده وأرضي عنه الناس، وذلك بها يلقي في قلوبهم من الرضا عنه، لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء.

وظاهر الحديث حتى لو كان الناس من أقرب الناس إليك.

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»:
التمس: طلب أي طلب ما يرضي الناس ولو كان يسخط الله فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيس قصده وهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

(١) أخرجه ابن حبان بهذا النقوط (١٥٤٢)، وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (١٩٩) والترمذى في الزهد / باب من التمس رضا الله بسخط الناس ١٣٢/٧، والبغوى في شرح السنة ٤١٠/١٤، وأبو نعيم في الحلية ١١٨/٨، وابن حبان (١٥٤١).

(٢) أخرجه البخارى في فضل ليلة القدر / باب تحرى ليلة القدر ٦٤/١ من حديث ابن عباس رضي الله عنها.

مناسبة الحديث للترجمة :

قوله: «ومن التمس رضا الناس»: أي خوفاً منهم حتى يرضوا عنه.

فيستفاد من الحديث ما يلي:

١ - وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذي ينفع ويضر.

٢ - أنه لا يجوز أن يتلمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان.

٣ - إثبات الرضا والسخط لله، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل فينكرون ذلك قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم فاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق فنرد عليهم بأمرير بالمنع ثم النقض:

فالممنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله عز وجل كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول - للأشاعرة - أنتم أثبتتم الله عز وجل الإرادة، وهي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضره والرب عز وجل لا يليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق نقول: والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقىسة عقلية وهذه الأقىسة باطلة

لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق والنصوص باطلة وهذا ممتنع.

الثاني: أنها تقول على الله بغير علم؛ لأن الذي يبطل ظاهر النص يؤوله

.....
إلى معنى آخر فيقال له: ما الذي أدرك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله في النفي والإثبات نفي الظاهر وأثبت ما لم يدل عليه.

الثالث: أن فيها جنابة على النصوص حيث اعتقدوا أنها دالة على التشبيه؛ لأنه لم يعط إلا لهذا السبب فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفر أو ضلال.

الرابع: أن فيها طعناً بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول هذه المعانى التي صرفة النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟ فإن قالوا: لا يعلمون فقد اتهموهم بالقصور وإن قالوا: يعلمون ولم يبيتواها فقد اتهموهم بالتجصيص.

فلا تستوحش من نص دل على صفة أن ثبتها لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما:

التمثيل - والتكييف . فإذا أثبت الله لنفسه قدمًا أو هرولة، فلا تستوحش من إثبات ذلك لأن الذي نقل هذا رسول الله ﷺ وهو:
- أصدق الخلق .
- وأعلمهم بما يقول .
- وأبلغهم .
- وأنصح الخلق للخلق .

فمن أنكر صفة الله وقال هذا تقشعر منه الجلد، فيقال هذا لا يقشعر منه إلا جلد إنسان في قلبه مرض ، أما الذين آمنوا فتقشعر منه جلودهم ثم تلين إلى ذكر الله ، ونحن لم نكلف إلا بها بلغنا والله يريد لعباده البيان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُنَذِّرُ مَنْ يَرِيدُ﴾

الله ليبين لكم^(١) فهو لا يريد أن يعمي عليهم الأمر فيقول إنه يغضب ولا يغضب ويقول: إنه يهروه وهو لا يهروه هذا خلاف البيان.
فالواجب على المؤمن أن يؤمن بما جاء عن الله على مراد الله، لكن جاء عن الله الإثبات والنفي قال تعالى: ﴿فَلَا تضْرِبُوا لِلأَمْثَال﴾^(٢) وقال: ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) وإذا صرفت هذا المعنى الفاسد عن النصوص فقد أثبتَ النص على ما يليق بالله.

(١) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية آل عمران. الثانية: تفسير آية براءة. الثالثة: تفسير آية العنكبوت. الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى. الخامسة: علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث.

فيه مسائل :

الأول: تفسير آية آل عمران:

وهي قوله تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الظِّيَاطُونَ يَخْفَى أُولَاءِهِ فَلَا يَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

الثانية: تفسير آية براءة:

وهي قوله تعالى: «إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدُ اللَّهِ مِنْ أَمْنِ يَاَشِدَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ وَأَقَامَ الصَّلَاةُ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشِ إِلَّا اللَّهُ فَعُسِّيَ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ» فالخشية يجب أن تكون لله.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت:

وهي قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَ بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جُعِلَ فِتْنَةُ النَّاسِ كَعِذَابِ اللَّهِ» وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

تؤخذ من الحديث: «إِنَّمَا ضَعْفَ الْيَقِينِ...» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث:

وهي أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتكم الله

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض . **السابعة:** ذكر ثواب من فعله . **الثامنة:** ذكر عقاب من تركه .

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض تؤخذ من قوله في الحديث: «من التمس...» الحديث.

السابعة: ذكر ثواب من فعله: وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه .
وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس ولا ينال مقصوده .

خلاصة الباب :

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه، فالعقاب له وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله انقلب عليه الأحوال ولم ينل مقصوده بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس^(١).

(١) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٥١: «والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم الله فترجو الله فيهم، ولا ترجوهم في الله، وتحاف الله فيهم، ولا تحافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لملائكتهم، وتكتف عن ظلمهم خوفاً من الله لامتهم، كهاجء في الآخر: «أرج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وخف الله في الناس ولا تخاف الناس في الله» أي لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لارجاء مدحهم ولا خوفاً منهم، بل ارج الله، ولا تخفهم في الله فيها ثأر وتندر، بل افعل ما أمرت وإن كرهوه» .

باب قول الله تعالى

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتُوكِلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) الآية

مناسبة هذا الباب لما قبله :

هي أن الإنسان إذا أفرد الله سبحانه بالخروف، فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروره ولا يعتمد على غيره.

تعريف التوكل :

التوكل: هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في جلب المطلوب، وزوال المكرور مع فعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف ولا بد من أمرتين:
الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.
الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.^(٢)

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(٢) ولفضيلة الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كلام نفيس حول الأسباب المشروعة والممنوعة وضوابطها جاء فيه: «وكل سبب لم يأذن به الله باطل مضر لتخذه فلا يتعاطى، وإذا حقق المؤمن أن الله سبحانه رب كل شيء وخلقه ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنبات.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ بِهِ أَرْضٌ بَعْدَ مَوْبِدٍ وَبِئْرٍ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾
وجعل الشمس والقمر سبيلاً لما يخلقها بها، والدعاء سبيلاً لما يحصل للمدعوه له أو عليه،
والدواء سبيلاً لذهب الداء، قد تبه على ذلك النبي ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: «لَمْ يَنْزَلْ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شَفَاءً» - يعني دواء - علمه من علمه، وجهله من جهله، رواه الإمام أحمد في مستنده من حديث أسامة بن شريك وفي لفظ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضْعِفْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شَفَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا قَالُوا: يَارَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْفَرْمُ». وهذا يعم داء القلب والروح والبدن، أرشد

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب نقص توكله على الله ، ويكون قدحاً في كفاية الله فكانه جعل السبب وحده هو العمدة فيها يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكرور.

العربيون لما شكوا له الوخم ووجع البطن أن يلحقوا إيل الصدقة فيشربوا من أبوابها وألبانها وجعل الجهل داء ودواه سؤال العلماء.

قال رسول الله، ﷺ، في قصة صاحب الشجة: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألكوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي سؤال». كما أن وجود الداء سبب للألم، روى مسلم في صحيحه من حديث سهل بن حنيف عن النبي، ﷺ، أنه قال: «العين حق ولو أن شيئاً سابق القدر لسبقته العين وإذا استغلتم فاغسلوا». وكذا السحر قال تعالى: «وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» . فهو سبب لألم الفؤاد، ويوجب البغض والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للإحراق، والسكنين سبب للقطع، والحليل سبب لإظهار الماء في الدلو، وأكل الطعام سبب لذهب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهب ألم العطش، والكدر بالاجتهاد في تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الربح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته، ومعصيته سبب لسخطه وانتقامه، فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر، ولا يتكل عليها إذ في إنكارها نقص في العقل، وفي الإنكار عليها شرك في الدين، وكل من الإنكار والإنكار متن شرعاً، لكن قد يختلف المسبب عنه مع قيام السبب، إذ الضار والنافع والمعطي والممانع هو الله وحده. قال تعالى: «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ» . وقال تعالى: «وَمَا رَمَتْ إِذْ رَمَتْ وَلَكِنَ اللَّهُ رَمَى» . وكتختلف إحراق النار عن إبراهيم، عليه السلام، حين وضع فيها، وحده السكين حين أمرها الخليل على حلقوم ولده إسماعيل، عليهما السلام، ولا محيس عن الأخذ في الأسباب، فليس المتوكل من فتح للسارق الباب، ولا من قال أنا متوكل أستغني عن الطعام والشراب . قال أفضل الأحباب من سأله أيعقل الناقة أم يتتكل؟! قال: «اعقلها وتوكل» . وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرضاً على فعل الأسباب، فقد أمر باطفاء السراج والتسمية وإغلاق الأبواب، ونفض الفرش وطي الثياب، وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين، وهذا

* * * * *

ومن جعل أكثر اعتقاده على الله ملغيًا للأسباب فقد طعن في حكمته الله
لأن الله جعل لكل شيء سببًا فمن اعتمد على الله اعتقاداً عجرداً كان قادحاً في

الباب لا يخصه العادون من سنت المرسلين، فالأخذ فيها لا ينافي التوكل لأن الانقطاع عن جميع الخلق، وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده. وحيثند فلا بد أن يعرف فيها ثلاثة أمور:

أحداها: أنها لا تستقل بالطلوب، بل تعاطى عن غير ركون إليها، ومع هذا فلها مواطن، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموضع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ماشاء كان وإن لم يشا الخلق، وما لم يشا لم يكن وإن شاء الخلق.

الثاني: أنه غير جائز اعتقاد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في إثباته آثماً في اعتقاداته.

الثالث: أن الأفعال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً، إما استحباباً أو مأذوناً فإن العبادات مبناتها على التوفيق، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله مالم ينزل به سلطاناً، وأن يقول على الله بلا علم، فيدعو غير الله بها لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وإن ظن ذلك سبب في حصول غرضه لاعتقاده أن ذلك المدعاو يشفع له فيما دعاه فيه، لأنه جنس ما اعتقد الأولون في آثمتهم، وكذلك لا يجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول ما يطلب به من أغراض دنياه أو ثواب آخراء على زعم اعتقاده، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذ المقيدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، والرسول، ﷺ، إنما بعث لتحصيل المصالح وتنكيلها وتعطيل المقاصد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة وما نهى عنه فمفسدته راجحة، **«ومن لم يجعل الله له نوراً فهو له من نور»**.

من ذلك: قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شيء من أمعنته الدنيا أو القرب الذي ملك من ملوكها، قال تعالى: **«واجتبوا قول الزور حفظكم الله غير شركين به»**. وكل شرك زور ولا عكس وقال تعالى: **«ولا ترکوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»**.

.....
حكمة الله لأن الله حكيم يربط الأسباب بمسبياتها كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج.

= ومنه: التداوي بالمحرمات فلم يجعل الله الشفاء فيها حرمه، بل نزعه عنه وأوهنه، والبدع التي ليست من شريعة الإسلام في شيء، بل هي من شعب الشرك الظاهرية، كأئمة أضرحة القبور لا يحل استعمالها أدوية، ولا تعاطيها لما في استعمالها من الاعتقادات الباطلة، والمقاصد في الدين الظاهرية، فهي أشبه بما فعله المشركون الأولون بأهليهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتسمح بها في كل مشهد خاص وعام.

ومنه: ما اعتقد به بعض الأغبياء الجهلاء وعوام الضلال دعوتهم بدعاهم تحيثاً وتشيشاً ودعوتهم في الشدائدين بأسماء أصحاب الكهف، وشمسيخ وغيرهم، وبالدعوات المجهولات يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات، وأنه من الإنجيل والتوراة، فكل هذا من تلبيس إبليس على هؤلاء الجنود الذين اختاروه واختارهم؛ فلست ملتزمين في شريعتنا - ملة الإسلام - بتلك الأدعية في الصباح والمساء، ولم يقل أحد من العلماء الأدباء، بل الأغبياء السفهاء من الفcasاص اختاروها لتعزيز العوام وجمع الخطام، فلم يعاملوا الله بالإخلاص، قال الله تعالى: «وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا». وأما الأسماء المنفي عنها، فإن الشيطان يظهر تأثيرات ويوري تلبيسه فيها منافع ظاهرة في أكثر الأحيان وهي حسرات، بل قد يكون التلفظ بتلك الكلمات كفراً لا يعرف معناها بالعربية. قال تعالى: «مَا فرطنا في الكتاب من شيء». وكل واسطة أو وسيلة نهى الشارع عنها لا يجوز المحاذفة في جلب نفع أو كشف ضر.

قال سبحانه وتعالى: «وَلَا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك...» الآية. وقال تعالى: «وَإِن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو». وقال تعالى: «فَلَا تدع مع الله أحداً». قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم ويعهم أشركوا، فأمر الله المسلمين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله، فلا تسجدوا عليها لغيره في كل ماريد إبداءه من خير ينفعه أو ضر يضره. قال تعالى: «لَهُ دُعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا

والنبي ﷺ أعظم المتكلمين ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب . فالنبي ﷺ
كان يأخذ الرزق في السفر ، ولا خرج إلى أحد ظاهر بين درعه أي ليس درعين
اثنين^(١) ، ولا خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق^(٢) ، ولم يقل سأذهب مهاجراً
وأتوكل على الله ولن أصطحب معي من يدلني الطريق ، وكان ﷺ يتنبئ بالحر ،
والبرد ، ولم ينقص ذلك من توكله .

ويذكر عن عمر رضي الله عنه أن قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا
زاد فجيء بهم إلى عمر فسألهم فقالوا : نحن المتكلمون على الله : فقال : لستم
المتكلمين بل أنتم المتواكلون .

والتوكل نصف الدين وهذا نقول في صلاتنا : «إياك نعبد وإياك

كما يحيى إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال» . وقال تعالى :
من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه^(٣) . أي لا أحد ، فلا يدعاني سبحانه أحد ، ولا يستقل سواه
تعالى بها أراده ، ولا يعطي لما منعه ، فهذه الأسباب التي تتخذ وسائل وسائل في الجلب
والدفع الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده منفيه بالأيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، إلا
أسباباً وردت عن الله أو رسوله كالتوحيد والصلة بحضور قلب وخشوع ، وذلك وانكسار ،
والدعاء والاستغفار بعد الإقلال عن الذنب والنند على فعله والعزم على إلا يعود إليه ،
والاعمال الصالحة من صدقة وصلة رحم وطاعة الله وتقواه ، فهي الأسباب في جلب الخير
ودفع الشر ، كما صرخ به القرآن الكريم والسنّة .

التوضيح عن توحيد الخلاق للشيخ سليمان ص ١٦٩ - ١٧٢

وانظر أيضاً كلام ابن القيم في باب من الشرك ليس الحلقة .

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤٤٩/٣ ، وأبو داود في الجهاد / باب في ليس الأربع ٧١/٣ ولم يجزم
سفيان بسماحته هذا الحديث .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة / باب استجرار المشركين ٢ / ١٣٠ من حديث عائشة رضي الله
عنها .

نستعين^(١)، فنطلب من الله العون اعتناداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: «فاعبده وتوكل عليه»^(٢)، وقال تعالى: «عليه توكلت وإليه أتنيب»^(٣)، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو ووكل إلى نفسه وكل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكلاً على الله فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل وأنت لا تشعر حين تقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن نصال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة ونسى ما وراء ذلك فيقوتنا ثواب عظيم وهو ثواب التوكل، كما أنت لا توفق إلى كمال العبادة كما هو الغالب سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها.

هذا عن منزلة التوكل وأنه من منازل السائرين إلى الله.

وهذا في الحقيقة لا يعتمد الإنسان عليه إلا وهو يعتقد أن هناك سبيباً خفياً يوجب جلب المنفعة أو دفع المضر وهذا هو الشرك الأكبر.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك وهذا من الشرك الأصغر وقال بعضهم: من الشرك الخفي مثل اعتماد كثير من الناس على المالية في الراتب وهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقاره فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب بل جعله فوق السبب.

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨٨.

الثالث: أن يتوكل على شخص فيها فوض إليه التصرف فيه كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه وهذا لا شيء فيه؛ لأنه اعتمد عليه وكأنه يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه^(١)، ووكل أبو هريرة على الصدقة^(٢)، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية^(٣)، وهذا بخلاف القسم الثاني لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك.

وما سبق يتبيّن أن التوكيل من أجل المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطفحاً له في جميع شئونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية». لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية لأنهم يقولون إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثم نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق وبه تجتمع جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العبادين.

قوله: «وعلى الله فتوكلوا»، (على الله) متعلقة بقوله: (توكلوا) وتقديم المعمول يدل على الحصر أي على الله لا على غيره، «فتوكلوا» أي اعتمدوا والفاء حرف عطف معطوفة على الجملة التي قبلها وهي: «قال رجلان من

(١) أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبي ﷺ ٨٩٢/٢ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب/ باب حذّنا محمد بن المثنى ٥٣٩/٢.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ . الآية.

الذين يخالفون أنعم الله عليهما﴾ . الآية.

ويحتمل أن تكون لتحسين اللفظ لأن الفاء قد تأتي زائدة إعراباً لتحسين اللفظ، ويريد هذا أن لدينا حرف عطف وهو الواو ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين فتكون لتحسين اللفظ كقوله تعالى: ﴿بِلَّهُ فَاعْبُدْ﴾ والتقدير ﴿بِلَّهُ أَعْبُدْ﴾ .

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿إِن﴾ شرطية وفعل الشرط ﴿كُنْتُم﴾ وجوابه قيل: إنه مخدوف دل عليه ما قبله وتقدير الكلام إن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التراكيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق، فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح لأن الأصل عدم الحذف.

وقول أصحاب موسى: في هذه الآية، يفيد أن التوكيل من الإيمان ومن مقتضياته كما لو قلت: إن كنت كريماً فأكرم الضيف. فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكيل إلا إن حصل اعتماد على غير الله وشرك أكبر، فيتنفي كله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى، ما المؤمنون إلا هؤلاء. وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحداها: قوله: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى مثال ذلك: رجل هم بمعصية فذكر الله وقيل له: اتق الله فإن كان مؤمناً فإنه سيخاف وهذا هو علامة الإيمان.

الوصف الثاني:

قوله: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾، وفي هذا دليل على أن الإنسان قد يتتفع بقراءة غيره أكثر مما يتتفع بقراءة نفسه كما أمر الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «أني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأ عليه من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جتنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾^(١)، قال: «حسبك» فنظرت فإذا عيناه تذردان^(٢).

الوصف الثالث:

قوله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يعتمدون على الله لا على غيره وهم مع ذلك يعملون الأسباب وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع:

قوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاحة: اسم جنس تشمل الفرائض والنواقل.

الوصف الخامس:

قوله: ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ ﴿من﴾ للتبعيض فيكون الله يمدح من

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير / باب فكيف إذا جتنا من كل أمة بشهيد ٣/٢١٧، ومسلم في صلاة المسافرين / باب فضل استماع القرآن ١/٥٥١.

وقوله: ﴿يأيها النبي حسبك الله﴾ الآية^(١)

أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون للجنس فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب أن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل على الله في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر^(٢)، أما إن كان أهله في حاجة، أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله فلا ينبغي أن ينفق ماله كله.

قوله: ﴿يأيها النبي﴾ المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة، وبوصف الرسالة، فحينما يأمره أن يبلغ ينادييه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة فالغالب أن ينادييه بوصف النبوة قال تعالى: ﴿يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾^(٤)، ﴿والنبي﴾ فعيل بمعنى ، مفعول ، ومفعول أي مُنبِّئ ، وَمُنبِّي ، والرسول ﷺ مُنبِّئ من قبل الله ، وَمُنبِّي لعباد الله قوله: ﴿حسبك الله﴾ أي كافيك. والحسب ، الكافي ومنه قوله: أعطى درهماً فحسب وحسب خبر مقدم والله مبتداً

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة / باب الرخصة في ذلك - أي خروج الرجل من ماله - ٣١٣/٢ ، والترمذى في المناقب / باب الصديق ينفق كل ماله ٧٧/٩ والدارمى ٣٩١/١ وقال الترمذى : حسن صحيح .

وأخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة من طريق آخر ٣٦٠/١

(٣) سورة التحريم ، الآية: ١.

(٤) سورة الطلاق ، الآية: ١.

مؤخر والمعنى ما الله إلا حسبك ويجوز العكس، ويكون المعنى ما حسبك إلا الله.

قوله: «ومن اتبعك من المؤمنين» من: اسم موصول مبنية على السكون، وفي عطفها رأيان لأهل العلم، قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين و«من» معطوفة على الله، لأنه أقرب ولو كان العطف على الكاف في حسبك لوجب إعادة الجار وهذا كقوله تعالى: «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين»^(١)، فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسباً له هنا كما كان الله حسباً له.

وهذا ضعيف والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قوله عطف عليه لكونه أقرب ما كان ليس ب صحيح فقد يكون العطف على شيء سابق حتى إن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانياً: قوله لوعطف على الكاف لوجب إعادة الجار وال الصحيح أنه ليس بلازم قال ابن مالك: إذ قد أتى في النظم والثر الصحيح مثينا.

ثالثاً: استدلاهم بقوله تعالى: «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين». فالتأييد لهم غير كونهم حسبي لأن معنى كونهم حسبي أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه وبينهما فرق.
رابعاً: أن الله سبحانه حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه قال تعالى: «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.

وقوله: «ومن يتوكل على الله فهو حسبي»^(١).

رسوله^(٢)، وقال تعالى: «قل حسبي الله عليه يتوكل المتكلون»^(٣)، فكما أن التوكل على غير الله لا يجوز فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسباً، ولو كان لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله وهو الذي عليه يتوكل المتكلون.

خامساً: أن في قوله: «ومن اتبعك» ما يمنع أن يكون الصحابة حسباً للرسول ﷺ وذلك لأنهم تابعون فكيف يكون التابع حسباً للمتبوع؟ هذا لا يستقيم أبداً، فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: «حسبك» أي وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعاً أنت ومن اتبعك.

قوله: «ومن يتوكل على الله فهو حسبي» جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله فإن الله يكفيه مهاراته ويسير له أمره فالله حسبي ولو حصل له بعض الأذية فإن الله يكفيه الأذى فلا يبلغ الغاية، والرسول ﷺ سيد المتكلين ومع ذلك يصييه الأذى ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله حسبي فالنتيجة لم اعتمد على الله.

والآية تفيد بمفهومها: أن من توكل على غير الله خذل؛ لأن غير الله لا يكون حسباً كما نقدم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه وصار موكلًا إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله.

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة التوبه، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حَسِبْنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم حين ألقى في النار، و قالها محمد ﷺ حين قالوا له: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعْتُكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا»^(١) الآية رواه البخاري ، والنسائي ^(٢).

قوله : قالها محمد ﷺ حين قالوا له «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعْتُكُمْ» وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه ، فلقي ركباً فقال لهم : إلى أين تذهبون؟ قالوا : نذهب إلى المدينة ، فقال : بلغوا حمداً وأصحابه أنا راجعون إليهم فقاضون عليهم فجاء الركب إلى المدينة فبلغوهم ، فقال رسول الله ﷺ ومن معه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وخرجوا في نحو سبعين راكباً حتى بلغوا حراء الأسد ، فكان أن أبو سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين حيث اعتمدوا عليه . قوله : «قَالَ لَهُمْ النَّاسُ» أي الركب .

قوله : «إِنَّ النَّاسَ» أبو سفيان ومن معه وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذي أريد به المخصوص .
قوله : «حَسِبْنَا» أي كافينا .

قوله : «نَعْمَ الْوَكِيلُ» نعم فعل ماض ، (الوكيل) فاعل والمخصوص مخدوف تقديره هو أي الله ، والوكيل : المعتمد عليه سبحانه ، والله سبحانه يطلق عليه اسم وكيل وهو أيضاً موكل ، والوكيل في مثل قوله تعالى : «نَعْمَ الْوَكِيلُ»

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٣ .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير / باب تفسير سورة آل عمران ٢١١/٣ ، ولعله في سنن النسائي الكبرى .

فيه مسائل: الأولى: أن التوكل من الفرائض. الثانية: أنه من شروط الإيمان. الثالثة: تفسير آية الأنفال. الرابعة: تفسير الآية في آخرها. الخامسة: تفسير آية الطلاق. السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائدين.

وقوله تعالى: «وكفى بالله وكيلًا»^(١)، وأما الموكل ففي مثل قوله تعالى: «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»^(٢).

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيها يحتاج إلى الاستئذة فيه، فليس توكيلاً سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون.

واستدلال ابن عباس في الحديث لقصة إبراهيم، فنقول: إنه قال قولًا لا مجال للرأي فيه فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس من يروى عن بنى إسرائيل، فيحتمل أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا وقرنه لما قاله الرسول ﷺ ما يبعد أن يكون أخذه من بنى إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: «وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ الْوَكِيلُ».

الأولى: أن التوكل من الفرائض:

ووجه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

كتم مؤمنين)، وسبق تفسيرها.

الثانية: أنه من شروط الإيمان:

تؤخذ من قوله تعالى: «إن كتم مؤمنين» وسبق تفسيرها.

الثالثة: تفسير آية الأنفال:

وهي قوله تعالى: «إنا المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...»

الأية. والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، والا فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتتصف بهذه الصفات لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها:

وهي قوله تعالى: «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين».

أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح على ما سبق.

الخامسة: تفسير آية الطلاق:

وهي قوله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبي» وقد سبق تفسيرها.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه السلام، ومحمد ﷺ

في الشدائيد وهي: «حسينا الله ونعم الوكيل»

وفي الباب مسائل غير ما ذكر المؤلف منها: زيادة الإيمان لقوله تعالى:

«فزادتم إيماناً».

ومنها: أنه عند الشدائيد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل

الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قبل لهم إن الناس قد

جعوا لكم فاخشوهم ولكنهمفوضوا الأمر إلى الله، وقالوا حسينا الله ونعم

الوكيل.

باب قول الله تعالى

﴿أَفَأَمْنَا مَكْرُ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١)

قوله: ﴿أَفَأَمْنَا﴾: الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمْنَ أَهْلَ الْقَرْيَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا بَيْانًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمْنَ أَهْلَ الْقَرْيَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا ضَحْنًا وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمْنَا مَكْرُ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢).

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمان لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام؛ قوله: ﴿ضَحْنًا وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضاً على كمال الأمان والرخاء وعدم الضيق، لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفي رغد، ومقيرون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم غافلون عن ذكر خالقهم، فهم في الليل نوم وفي النهار لعب، وبين الله عز وجل أن هذا مكره بهم وهذا قال: ﴿أَفَأَمْنَا مَكْرُ اللَّهِ﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فالذى يمن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رايع وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع وأمنك من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٩٧، ٩٨، ٩٩.

خوف، وكساك من عري فلا تظن أنك رابع وأنت مقيم على معصية الله بل
أنت خاسر.

قوله: **﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاشُورُونَ﴾** الاستثناء للحصر؛ وذلك لأن ما قبله
مفرغ له، فالقوم فاعل ، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: **﴿أَفَأَمْنَوْا مَكْرَهُ اللَّهِ﴾** دليل على أن الله مكرًا، والمكر هو:
التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر ومنه ما جاء في الحديث:
«الحرب خدعة»^(١)، فإن قيل كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟
قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على
خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق فلا يجوز أن تقول: إن الله
ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحًا مثل قوله تعالى: **﴿وَيَمْكِرُونَ**
وَيَمْكِرُ اللَّه﴾^(٢)، وقال تعالى: **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ**
لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣)، ومثل قوله تعالى: **﴿أَفَأَمْنَوْا مَكْرَهُ اللَّه﴾**^(٤)، ولا تنفي عنه هذه
الصفة على سبيل الإطلاق بل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها وفي
المقام التي لا تكون مدحًا لا يوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله بها فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.
وأما الخيانة فلا يوصف الله بها مطلقاً، لأنها ذم بكل حال إذ إنها مكر في

(١) أخرجه البخاري في الجهاد / باب الحرب خدعة / ٢، ٣٦٦، ومسلم في الجهاد / جواز الخداع
في الحرب / ٣، ١٣٦٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

وقوله : ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(١):

موضع الاتهام ، وهو مذموم قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكُمْ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ فَمَكَنْ مِنْهُمْ﴾^(٢) ، ولم يقل خانهم .
وأما الخداع فقال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَخْادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٣) ،
والمكر من الصفات الفعلية ؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه .

ويستفاد من هذه الآية :

- ١ - الخذر من النعم التي يجلبها الله للعبد ؛ لثلا تكون استدراجاً ؛ لأن كل نعمة فللها عليك وظيفة شكرها وهي القيام بطاعة النعم ، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم فاعلم أن هذا من مكر الله .
- ٢ - تخريم الأمان من مكر الله وذلك لوجهين :
الأول : أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب .
الثاني : قوله تعالى : ﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .

قوله : ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ﴾ (من) اسم استفهام ؛ لأن الفعل بعدها مرفوع ،
ثم إنها لم يكن لها جواب ، والقنوط : أشد اليأس ؛ لأن الإنسان يقتنط ويعد
الرجاء والأمل بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروره .
قوله : ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ : هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف
والتقدير (من رحمة ربها إياه) .

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

.....

قوله: «إلا الضالون»، إلا: أداة حصر؛ لأن الاستفهام في قوله: «ومن يقتنط»، مراد به النفي، و«الضالون» فاعل يقتنط، والمعنى لا يقتنط من رحمة الله إلا الضالون. والضال: فاقد الهدایة التائهة الذي لا يدرى ما يحب لله سبحانه مع أنه سبحانه قریب الخير، وهذا جاء في الحديث: «عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»^(١)، وأما معنى الآية فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة: بغلام عليم قال لهم: «أبشرتوني على أن مسيي الكبر فهم بشرؤن، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين»، قال ومن يقتنط من رحمة ربه إلا الضالون»^(٢).

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله عز وجل، وذلك من وجهين.

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قادر لم يستبعد شيئاً على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه وهذا كان القاطع من رحمة الله ضالاً.

ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه، أو كشف مكروره، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها فتجاه الله

(١) أخرجه أحادي ٤/١١، ١٢، ٦٤/١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤/١، وقال في الرواية: ٦٤/١: «وكتب ذكره ابن حبان في الثقات وباقى رجاله بهم مسلم».

(٢) سورة الحجر، الآيات: ٥٤ - ٥٦.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال:
«الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله»^(١).

سبحانه إما بعمل سابق، مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: «فَلَوْلَا
أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْبِحِينَ لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبَعْثَرُونَ»^(٢).
وقد ينجو بعمل لاحق وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر^(٣)، وليلة
الأحزاب^(٤)، وكذلك أصحاب الغار^(٥).

وتبيّن ما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان بين الخوف فلا
يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمة الله، فالآمن من مكر الله ثلم في
جانب الخوف، والقنوط من رحمة الله ثلم في جانب الرجاء.

قوله: «الكبائر» جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل
على أن الذنوب تنقسم إلى: صغائر وكبائر وقد دلّ على ذلك القرآن قال تعالى:

(١) أخرجه البزار كافي كشف الأستار (١٠٦)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ١/٤٨٥،
والطبراني كما في المجمع ١/١٠٤، في الدر المثور ٢/١٤٧، وقال الهيثمي ١/١٠٤: «رواه
البزار والطبراني ورجاهم موثقون».

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي / باب قصة عروة ٣/٨٣، ومسلم في الجهاد / باب الإمداد
بالملاذ في غزوة بدر ٣/١٣٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي / باب غزوة الخندق ٣/١١٨، ومسلم في الجهاد / باب
استحباب الدعاء بالنصر ٣/١٣٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في البيوع / باب إذا اشتري شيئاً لغيره ٢/١١٦، ومسلم في الذكر
والدعا / باب قصة أصحاب الغار ٤/٢٠٩٩.

﴿إِن تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تَهْوِنُ عَنْهُ نَكْفُرُ عَنْكُمْ سِيَّنَاتِكُمْ﴾^(١) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْغَوَّاثِ﴾^(٢) ، وَالْكَبَائِرُ لَيْسَ عَلَى دَرْجَةٍ وَاحِدَةٍ فَعُضُّهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضِهَا .

واختلف العلماء هل هي معدودة أو محدودة؟ فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعدها ويتم النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال:
«كل ما رتب عقوبة خاصة سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بقوات
محمود أو بحصول مذموم»، وهذا واسع جدًا يشمل ذنوبياً كثيرة.

ووجه ما قاله: أن المعاishi قسمان: قسم ثبٰي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعايبة مكفرة بفعل الطاعات كقوله عليه السلام: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(٣)، وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة^(٤)، والوضوء من تكثير الخطاباً^(٥)، فهذه من الصغائر.

وَقْسَمَ رَبُّ عَلَيْهِ عِقْوَبَةً خَاصَّةً كَاللَّعْنِ أَوِ الْغَضْبِ أَوِ التَّبْرِيِّ مِنْ فَاعِلِهِ
أَوِ الْحَدِّ فِي الدُّنْيَا أَوِ نَفْعِهِ الْإِيَّانِ وَمَا أَشْبَهُ ذَلِكَ، فَهَذِهِ كَبِيرَةٌ تَخْتَلِفُ فِي مَرَاتِبِهَا.

^{٣١}) سورة النساء، الآية:

٣٢- الآية، سورة التحريم:

(٣) آخرجه مسلم فی الطهارة / باب الصلوات الحسنية . . . ٢٠٩ من حديث أبي هريرة.

٤) أخرج البخاري في العمرة/باب وجوب العمرة وفضلها ١٥٣٧

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة/ باب الصلوات الخمس ٢٠٩ من حديث أبي هريرة.

وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله» رواه عبد الرزاق^(١).

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط ولذلك نقصت بركة علمهم . قوله: (الشرك بالله) ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»^(٢) وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقاً.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بالوهبيته، أو بأسائه وصفاته . قوله: (اليأس من روح الله) الروح قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيذ، وهو من كبائر الذنوب لنتائجها السيئة.

قوله: «الأمن من مكر الله»، بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: «والذين كذبوا بآياتنا سنتدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين»^(٣).

وظاهر هذا الحديث: الحصر وليس كذلك؛ لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمان من مكر الله، أو اليأس من روح الله فاراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظهره

(١) أخرجه عبد الرزاق ٤٥٩/١٠ ، ٤٦٠ ، وابن جرير ٥/٢٦ ، والطبراني في الكبير ٨٧٨٣ ، ٨٧٨٤ ، وال熹شبي في مجمع الزوائد ١٠٤/١ .

(٢) سبق ص (١٢٤) .

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢ .

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية الأعراف ، الثانية : تفسير آية الحجر ،
الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله ، الرابعة : شدة الوعيد في
القنوط .

التعارض يحمل كل واحد منها على الحال المناسب لثلا يتهم التعارض بين
النصوص الشرعية .

قوله : «الإشراك بالله» : هذا أكبر الكبائر ، لأنه اتهاك لأعظم الحقوق
وهو حق الله تعالى الذي أوجدك وأعدك وأمدك ، فلا أحد أكبر عليك نعمة من
الله تعالى .

قوله : «الأمن من مكر الله» ، سبق شرحه .

قوله : «القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله» ، المراد بالقنوط أن
يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب ، والمراد باليأس هنا أن يستبعد
الإنسان زوال المكروره ، وإنما قلنا ذلك لثلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود .
والخلاصة : أن السائر إلى الله يعتريه شيطان يعوقنه عن ربه وهم الأمن
من مكر الله والقنوط من رحمة الله ، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب
تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه ،
وأما الأمن من مكر الله فتجد الإنسان مقيناً على المعاصي مع توافر النعم عليه ،
ويرى أنه على حق فلاشك أن هذا استدراج .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .
وهي قوله تعالى : «أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم

الخاسرون) وقد سبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية الحجر.

وهي قوله تعالى: (ومن يقنت من رحمة ربه إلا الضالون) وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

وذلك بأنه من أكبر الكبائر كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه»^(١)

الصبر:

في اللغة: الحبس، ومنه قوله: «قتل صبراً»، أي محبوساً مأسوراً.
وفي الاصطلاح: حبس النفس، وذلك بحبس القلب عن التسخط
المحرم، واللسان عن القول المحرم، والجوارح عن الفعل المحرم.
أقسام الصبر ثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله قال تعالى: «وأمر أهلك بالصلة واصطب
عليها»^(٢)، وقال تعالى: «إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم
ربك»^(٣)، وهذا يشمل الصبر على الأوامر؛ لأنَّه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه
فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال تعالى: «واصبر نفسك مع الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشي يریدون وجهه»^(٤)، وهذا صبر على طاعة الله.
الثاني: الصبر عن معصية الله كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة
العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكان لها فيه العزة والقوة والسلطان عليه ومع

(١) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة الإنسان، الآيات: ٢٣ - ٢٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

ذلك صبر وقال: «رب السجن أحب إلى ما يدعوني إليه وإنما تصرف عني
كيدهن أصبو إليهم وأكون من الباهلين»^(١). فهذا صبر على معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله: قال تعالى: «فاصبر لحكم ربك»^(٢)
فيدخل في هذه الآية حكم الله القدر، ومنه قوله تعالى: «فاصبر كما صبر
أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم»^(٣) لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة
وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «مرها فلتصبر
ولتحتسب»^(٤).

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلىها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن
معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإنما فـيكون
الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فتن الإنسان
مثلاً بأمرأة جحيلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل
شاب ذو شهوة فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلـي
الإنسان مائة صلاة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمعصية يكون الصبر عليها أشق من الصبر على
الطاعة فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل
من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) أخرجه البخاري في الجناز / باب قول النبي ﷺ: «يعدب الميت بعض يكاه أهله عليه
٦٣٥/٢، ومسلم في الجناز / باب البكاء على الميت ٣٩٥/١

.....
.....

وَهَذَا يَنْدُفعُ إِلَيْرَادِ الْذِي يُورِدُهُ بَعْضُ النَّاسِ وَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا التَّرْتِيبُ فِي نَظَرٍ، إِذْ بَعْضُ الْمَعَاصِي الصَّبْرُ عَلَيْهَا أَشَقُّ مِنْ بَعْضِ الطَّاعَاتِ، وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْأَقْدَارِ الصَّبْرُ عَلَيْهَا أَشَدُ، فَنَقُولُ: نَحْنُ نَذَكِرُ الْمَرَاتِبَ مِنْ حِيثِ هِيَ بَقْطَعُ النَّظَرِ عَنِ الصَّابِرِ.

وَكَانَ الصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَةِ أَعُلُّ؛ لَأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِلَزَاماً وَفَعْلًا، فَتَلْزَمُ نَفْسَكَ الصَّلَاةَ فَتَصْلِي وَالصَّومَ فَتَصُومُ وَالْحَجَّ فَتَحْجُجُ . . . فَفِيهِ إِلَزَامٌ وَفَعْلٌ، وَحِرْكَةٌ فِيهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَشْقَةِ وَالْتَّعْبِ، ثُمَّ الصَّبْرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ؛ لَأَنَّ فِيهِ كَفَأً فَقْطًا أَيِّ إِلَزَاماً لِلنَّفْسِ بِالْتَّرْكِ، أَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْأَقْدَارِ فَلَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ لِيُسْـ باخْتِيَارِ الْعَبْدِ فَلَيْسَ فَعْلًا وَلَا تَرْكًا، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ الْمَحْضِ.

وَخَصَّ الْمُؤْلِفُ رَحْمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْبَابِ الصَّبْرَ عَلَى الْأَقْدَارِ اللَّهُ؛ لَأَنَّهُ مَا يَتَعْلَقُ بِتَوْحِيدِ الرَّبُوبِيَّةِ؛ لَأَنَّ تَدْبِيرَ الْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ عَلَيْهِمْ مِنْ مَقْنَصِيَاتِ رَبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: «عَلَى الْأَقْدَارِ اللَّهُ» جَمِيعُ قَدْرِ وَتَطْلُقِ عَلَى الْمَقْدُورِ وَعَلَى فَعْلِ الْقَادِرِ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِفَعْلِ الْقَادِرِ فَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ الرَّضَا وَالصَّبْرُ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْمَقْدُورِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَيُسْـتَحْبِـ لِ الرَّضَا.

مَثَلُ ذَلِكَ: قَدْرُ اللَّهِ عَلَى سِيَارَةٍ شَخْصٌ أَنْ تَحْرُقَ، فَكُونُ اللَّهِ قَدْرًا أَنْ تَحْرُقَ هَذَا قَدْرًا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَرْضَى بِهِ، لَأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرَّضَا بِاللَّهِ رَبِّيَا. وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَقْدُورِ الَّذِي هُوَ احْتِرَاقُ السِّيَارَةِ فَالصَّبْرُ وَاجِبٌ، وَالرَّضَا مُسْـتَحْبٌ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَى القَوْلِ الْمَرْجُعِيِّ.

وَالْمَقْدُورُ قَدْ يَكُونُ طَاعَاتٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَاصِي، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ الْمَحْضَةِ فَالطَّاعَاتُ يَجِبُ الرَّضَا بِهَا، وَالْمَعَاصِي لَا يَجُوزُ الرَّضَا بِهَا مِنْ حِيثِ هِيَ

قال علقة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله
فيرضى ويسلم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله
ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة
على الميت»^(١).

مقدور أما من حيث كونها قدر الله فيجب الرضا بقدر الله بكل حال ولهذا قال ابن القيم:

فلذاك نرضاك نرضى بالقضاء ونسخط المضي حين يكون بالعصيان
فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية فعله الرضا؛ لأن
الله هو الذي قدر هذا وله الحكمة في تقاديره، وإذا نظر إلى فعله فلا يجوز له أن
يرضى؛ لأنه معصية وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.
قوله: «ومن يؤمن بالله»، (من) اسم شرط جازم وفعل الشرط «يؤمن»،
وجوابه «يهد». .

قوله: «يهد قلبه» هذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب فإذا اهتدى
القلب اهتدى الجوارح لقوله ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح
الجسد كله وإذا فسحت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٢).

قوله: «قال علقة» هو من أكابر التابعين.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ٨٢/١.

(٢) سبق.

لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر فهو مناف للصبر الواجب.
وهذه الجملة هي الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع.

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على ما قدر الله عليه، وقد يؤدي إلى الكفر قال تعالى: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصحابه خير أطهان به وإن أصحابه فتنه انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة»^(١)، وقد يكون باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح كلطم الخدود وشق الجيوب ونتف الشعر، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مر مذاقه لكن عواقبه أحلى من العسل
فيري الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله وليس
وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا وهو أعلى من ذلك وهو أن يكون الأمران عنده سواء، لأنه
رجل يسع في القضاء والقدر أيتها يتزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل
أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها فالكل عنده سواء؛ لأن قلبه ميت
بل تمام رضاه بربه سبحانه وتعالى يتقلب في تصرفات الرب عز وجل ولكنها
عنده سواء إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا
والصبر.

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

.....

وتفسیر علامة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، وهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

قوله: «الثبات» مبتدأ، وسough الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «بهم كفر» الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من» أي هما منهم كفر، ومحتمل أن تكون بمعنى «في» أي هما فيهم كفر.

قوله: «كفر» أي هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافراً كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان كالحياء والشجاعة والكرم أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بخلاف قول رسول الله ﷺ بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة»^(١) فإنه هنا أتى بأدلة على الحقيقة فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة بخلاف مجيء «كفر» نكرة فلا يدل على الخروج عن الإسلام^(٢).

قوله: «الطعن في النسب»، أي العيب فيه، أو نفيه فهذا عمل كفر.

قوله: «البياحة على الميت» أي أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ٨٨/١ عن جابر رضي الله عنه.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٨، ٢٠٩.

**وَهُمَا عَنْ أَبْنَى مُسْعُودَ مَرْفُوعًا: «لِيْسَ مَنَا مِنْ ضَرَبَ الْخَدْدُودَ،
وَشَقَّ الْجَيْوَبَ، وَدَعَا بِدُعَوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).**

الرابعة: الشكر وهو أعلى المراتب وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة وذلك يكون في عباد الله الشاكرين، فإذا عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سياته وربها لزيادة حسنته شكر الله على ذلك قال ﷺ: «ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفر له بها حتى الشوكه يشاكلها»^(٢)، كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

قوله: «مرفووعاً إلى النبي ﷺ».

قوله: «من ضرب الخدود» العموم يراد به الخصوص.

قوله: «من شق الجيوب»، هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس.
وذلك عند المصيبة تسخطاً وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: «وَدَعَا بِدُعَوَى الْجَاهِلِيَّةِ»: دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه،
وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية) لأنها مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة مثل قوله: وويله، وانقطاع ظاهراً.

ومن الأولى أن يرجع عموم الحديث، والقرينة لا تخصصه فيكون المقصود بالدعوى التي منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة لأنها غالباً ماتكون عند المصائب، وإن لمثله هدم البيوت وكسر القبور.

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم ٩٩/١.

(٢) أخرجه البخاري في المرضني / باب كفارة المرض ٤/٢٣، ومسلم في البر والصلة / باب ثواب المؤمن ٤/١٩٩٢ م.

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعده خيراً عجل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيمة»^(١).

وهذه الثلاثة من الكبائر، لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.
ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادلة، مثل: ضرب الأب لابنه وكذلك شق الجيب لأمر تراه.

قوله: «إذا أراد الله بعده الخير»: الله يريد بعد الخير والشر، ولكن الشر المراد به الله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»^(٢)، ولكن الله يريد الشر لحكمة وحيثند يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «عجل له العقوبة في الدنيا».

العقوبة: مواجهة المجرم بذنبه. وسميت بذلك لأنها تعقب الذنب، ولكنه لا يقال: إلا في الشر.
وقوله: «عجل له العقوبة في الدنيا» كان ذلك خيراً؛ لأنه يزول ويتهي.

(١) أخرجه الترمذى في الزهد / باب ما جاء في الصبر على البلاء ١٢٣/٧، وقال: «حسن غريبة، والبيهقى في الأسماء والصفات ص ١٥٤، والبغوى في شرح السنة ٢٤٥/٥، والحديث له شاهد من حديث عبد الله بن مغفل، وأiben عباس وعمار بن ياسر، رضي الله عنهم، فهو صحيح بمجموع طرقه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل ١/٥٣٤.

ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». وهناك خير أولى وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ قال: «خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة خير نسبي لا مطلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ مَنْ يَشَاء﴾^(١).

والعقوبة لها أنواع كثيرة:

منها ما يتعلق بالدين وهي أشدتها، لأن العقوبات الحسية قد يتتبه لها الإنسان أما هذه فلا يتتبه لها إلا من وفقه الله وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُولُوا فَاعْلَمُ أَنَّهَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم﴾^(٢).

ومنها: العقوبة بالنفس وذلك كالأمراض.

ومنها: العقوبة بالأهل كفقدانهم أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال كنفظه أو تلفه وغير ذلك.

قوله: «وإذا أراد بعده الشر أمسك عنه بذنبه».

«أمسك» فعل: يوصف الله بالإمساك؛ لأن أفعال الله لا نهاية لها، وكل فعل يفعله الله يوصف به قال تعالى: ﴿وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقْعُدْ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَإِذْنُه﴾^(٣).

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٥.

قوله: «حتى يواف به يوم القيمة» أي يوا فيه الله به يوم القيمة وهو الذي يقوم به الناس من قبورهم الله رب العالمين.

وسمى بيوم القيمة ثلاثة أسباب:

١ - قيام الناس من قبورهم لقوله تعالى: «يوم يقوم الناس لرب العالمين»^(١).

٢ - قيام الأشهاد، لقوله تعالى: «إنا لنتصر رسالتنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد»^(٢).

٣ - وقيام العدل، لقوله تعالى: «ونضع الموزين القسط ليوم القيمة»^(٣).
والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لثلا يجزع فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطيء أن يقول: أنا لم أخطيء فهذه تزكية فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة فإن هذه المصيبة لا تلaci ذنباً تكرهه لكنها تلaci قلياً تمحصه فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أو لا؟ وهذا كان أخشى الناس لله عز وجل وأنقاهم محمد ﷺ يوعك كما يوعك رجالن منا^(٤)، وذلك لبيان أعلى درجات الصبر فينال

(١) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى / باب شدة المرض ٤/٥٤، ومسلم في البر والصلة / باب ثواب =

.....

مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع ومع هذه الشدة كان ثابت القلب ، ودخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وهو يستاك فامده بصره ، يعني ينظر إليه فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك فقالت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه نعم . فأخذت السواك وقضمهه وآلتنه وعلكته للرسول ﷺ فأعطته إياه فاستن به ، قالت عائشة مارأيته استن استناناً أحسن منه ، ثم رفع يده وقال : « في الرفيق الأعلى »^(١) فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين صبر الله ، وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات .

فمن أصيب بمصيبة فحدثه نفسه أن مصابيه أعظم من معايبه فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه فليحذر هذا . ومع ذلك لو فرض ذلك فإنه خير له ، ليتل بذلك درجات الصابرين .

ومن ذلك يتضح لنا أمران :

- ١ - أن إصابة الإنسان بالمصاب تعتبر تكيراً لسيئاته ، وتعجلاً للعقوبة في الدنيا وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة .
- ٢ - قد تكون المصائب أكبر من المعايب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين ، والصبر من الإيمان بمتزلة الرأس من الجسد .

= المؤمن ٤ / ١٩٩١ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في المغازي / باب مرض النبي ﷺ / ٣ / ٨٢

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». حسن الترمذى^(١).

قوله: «إن عظم الجزاء من عظم البلاء» أي ينقابل عظم الجزاء مع البلاء فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله وأنه لا يظلم أحداً.

قوله: «وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم» أي اختبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية كالأمراض وفقدان الأهل، أو بما يقدر عليهم من الأمور الشرعية قال تعالى: «إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنتيلاً فاصبر لحكم ربك»^(٢)، فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله كما في الحديث: «ورجل دعوه امرأة ذات منصب وجحال فقال إني أخاف الله»^(٣) فهذا جزاؤه أن الله يظلمه في

(١) أخرجه الترمذى في الزهد / باب ما جاء في الصبر على البلاء ١٢٣/٧ ، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في الفتن / باب الصبر على البلاء ٢/١٣٣٨ ، والبغوى في شرح السنة ٢٤٥/٥.

وإسناده حسن، انظر المشكاة ١/٤٩٣ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٦).

(٢) سورة الإنسان، الآيات: ٢٣ ، ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان / باب من جلس في المسجد يتضرر الصلاة ٢/١٤٣ ، ومسلم في الزكاة / باب إخفاء الصدقة ٢/٧١٥.

ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قوله: «فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» (من) شرطية والجواب «فله الرضا» أي فله الرضا من الله، وإذا رضي الله عن شخص أرضى الناس عنه جميعاً، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله وهذا واجب، بدليل قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا (فعليه السخط) مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: «من عمل صالحاً فلتفسه ومن أساء فعليها»^(١).

قال بعض العلماء: إن اللام بمعنى عل كقوله تعالى: «أولئك هم اللعنة وعلم سوء الدار»^(٢)، أي عليهم اللعنة.
وقال آخرون: إن اللام على ماهي عليه، فتكون للاستحقاق أي صار عليه السخط باستحقاقه له ف تكون أبلغ من (عل) كقوله تعالى: «أولئك هم اللعنة» أي حلت عليهم باستحقاقهم لها وهذا أصح.

إثبات المحبة والبغض والرضا لله عز وجل، وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئة الله تعالى؛ لأن إذا في قوله: «إذا أحب قوماً» للمستقبل فالحرب محدث فيه من: الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض ولا يحبه أو يبغضه من الأزل، وعلى هذا فقد يكون هذا الشخص في

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية التغابن ، الثانية : أن هذا من الإيمان بالله . الثالثة : الطعن في النسب . الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . الخامسة : عالمة إرادة الله بعده الخير . السادسة : إرادة الله به الشر . السابعة : عالمة حب الله للعبد . الثامنة : تحريم السخط . التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

يوم من الأيام عبواً إلى الله وفي آخر مبغضاً إلى الله ؛ لأن الحكم يدور مع علته . وأما الأعمال فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها ، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات فيزولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته ، والسخط بالعقوبة أو إرادتها ، قالوا : لأنها تقتضي النقص ومشابهة المخلوقين . والصواب : ثبوتها لله عزوجل على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران :

- ١ - إثباتها على حقيقتها وظاهرها .
- ٢ - الخذر من التمثيل أو التكيف .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن :

وهي قوله تعالى : «**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**»^(١) ، وقد فسرها علماء كما سبق تفسيراً مناسباً للباب .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

(١) سورة التغابن ، الآية : ١١ .

.....
المشار إليه بقوله (هذا) هو الصبر.

الثالثة: الطعن في النسب:

وهو عيبه وهو من الكفر لكنه لا يخرج من الملة.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية؛ لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبيده الخير:
وهو أن يعجل له الله العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر:
وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد:
وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط يعني من البلاء.
لقوله ﷺ: «ومن سخط فله السخط».

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء:
لقوله ﷺ: «من رضي فله الرضا».

باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: «**قُلْ إِنَّمَا بَشَرٌ مِّثْكُمْ يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ**» الآية^(١).

المؤلف رحمه الله تعالى، أطلق الترجمة فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه.

تعريف الرياء:

مصدر راء يرائي ، أي: عمل عملاً يراه الناس ويقال مراءة كما يقال: جاهد مجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأء رأء الله به، ومن سمع سمع الله به»^(٢).

والرياء خلق ذميم وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: «وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً»^(٣).

والرياء يبحث فيه في مقامين:

المقام الأول: في حكمه:

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعمله غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر فقال: «مثل يسير

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرفاق / باب الرياء والسمع ٤/١٩١، ومسلم في الزهد / باب تحريم

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢. الرياء ٤/٢٢٨٩.

الرياء» وهذا يدل على أن الرياء كثيره قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثاني : في حكم العبادة إذا خالطها الرياء وهو على ثلاثة أوجه :
الأول : أن يكون الباعث على العبادة مرأءة الناس من الأصل كمن قام يصلِي
من أجل مرأءة الناس ولم يقصد وجه الله فهذا شرك والعبادة باطلة مع ما في
ذلك من التحرير كما سبق .

الثاني : أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها بمعنى أن يكون الحامل له في أول
أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة .
فإن كانت العبادة لا يبني آخرها على أولها فأولها صحيح بكل حال
والباطل آخرها .

مثال ذلك : رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين
وراء في الخمسين الباقية فالأولى حكمها صحيح والثانية باطلة .

أما إذا كانت العبادة يبني آخرها على أولها فهي على حالين :
أ - أن يدفع الرياء ولا يسكن إليه بل يعرض عنه ويكرهه فإنه لا يؤثر
 شيئاً لقول النبي ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَجَوَّزُ عَنْ أَمْيَّ مَا حَدَثَ بِهِ أَنفُسُهَا مَلَّمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»^(١) .

مثال ذلك : رجل قام يصلِي ركعتين مخلصاً لله وفي الركعة الثانية أحسن
بالرياء فصار يدفعه فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً .
ب - أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدفعه فحيثند تبطل جميع العبادة؛ لأن
آخرها مبني على أولها، ومرتبط به .

مثال ذلك : رجل قام يصلِي ركعتين مخلصاً لله وفي الركعة الثانية طرأ عليه

(١) أخرجه البخاري في الأئمَّة / باب إذا حنت ناصيًّا ٤/٢٢٢، ومسلم في الإيمان / باب تجاوز
الله عن حديث النفس ١١٦/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه فاطمأن لذلك ونزع إليه فبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطأ بعد انتهاء العبادة فإنه لا يؤثر عليها شيئاً اللهم إلا أن يكون فيه عدوان كالمن والأذى بالصدقة فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلًا لأجر الصدقة فيبطلها قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذْى»^(١).

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضًا أن يسر الإنسان بفعل الطاعة في نفسه بل ذلك دليل على إيهانه قال ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَةٌ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَةٌ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(٢) وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «تَلِكَ عَاجِلٌ بِشَرِّيِّ الْمُؤْمِنِ»^(٣).

قوله: «فَلَمَّا أَنَا بَشَرٌ مُثْلُكُمْ»: يأمر الله نبيه أن يقول للناس إنها أنها بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية وأنه ليس ربًا ولا ملكاً، وأكد هذه البشرية بقوله: «مُثْلُكُمْ»، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية. قوله: «يَوْحِي إِلَيْهِ».

الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء ومنه قوله تعالى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْمَحَارَبِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِحُوا بَكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٨/١، ٢٦، والترمذني في الفتنة / باب ماجاه في لزوم الجماعة ٦/٣٣٣ و قال: «حسن صحيح غريب من حديث عمر رضي الله عنه».

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة / باب إذا أثني على الصالح ٤/٢٠٣٤.

(٤) سورة مريم، الآية: ١١.

.....
وفي الشرع: إعلام الله بالشرع
والوحي هو الفرق بيننا وبينه بِلَّا فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء
والرسل.

قوله: **﴿إِنَّمَا إِنْهَكُمْ إِلَّا هُدًى﴾**.

هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل **﴿يُوحِي﴾** وفيها حصر طريقه
﴿إِنَّمَا﴾ فيكون معناها ما **إِنْهَكُمْ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ**، وهو الله فإذا ثبت ذلك فإنه
لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة، ولذلك قال تعالى بعد هذا: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لَقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةَ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**^(١).
فقوله تعالى: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لَقَاءَ رَبِّهِ﴾**.

المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمن أن يلقى ربها، والمراد
باللقي هنا الملاقة الخاصة؛ لأن اللقيا على نوعين:
الأول: عامة لكل إنسان قال تعالى: **﴿بِإِيمَانِهِ إِنَّمَا كَادِحُ إِلَى رَبِّهِ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾**^(٢)، ولذلك قال مفرعاً على ذلك: **﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يُسِيرَآ﴾**^(٣) **﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهِيرَةِ﴾**^(٤)
الآية^(٤).

الثاني: الخاصة بالمؤمنين وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية،
وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.
فقوله: **﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾**، الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر
هنا للإشارة أي من كان يريد أن يلقى الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه
فليعمل عملاً صالحاً.

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠. (٣) سورة الانشقاق، الآية: ٧.

(٤) سورة الانشقاق، الآية: ٦. (٤) سورة الانشقاق، الآية: ١٠.

والعمل الصالح : ما كان صواباً خالصاً .
وهذا وجه الشاهد من الآية :

فالخالص : ما قصد به وجه الله ، والدليل على ذلك قوله ﷺ : «إِنَّمَا^(١)
الأَعْمَالَ بِالنِّيَاتِ»^(١) .

والصواب : ما كان على شريعة الله والدليل على قوله ﷺ : «مَنْ عَمِلَ
عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌ»^(٢) .

ولهذا قال العلماء : هذان الحديثان ميزان الأعمال فال الأول : ميزان الأعمال
الباطنة . والثاني : ميزان الأعمال الظاهرة .

قوله : «وَلَا يُشْرِكُهُ» لا : نافية والمراد بالنفي الإرشاد .

قوله : «بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» خص العبادة لأنها خالص حق الله ، ولذلك
أتنى بكلمة «رب» إشارة إلى العلة فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحد في
خلقك فيجب أن تكون العبادة له وحده ولذلك لم يقل : «لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ
الله» ، فالإضافة إلى الرب من باب التعليل .

وقوله : «أَحَدًا» نكره في سياق النبي ، فتكون عامة لكل أحد .

وجه الشاهد من الآية :

أن المرائي أشرك بالعبادة أحداً مع الله .

وفي هذه الآية دليل على ملاقاة الله تعالى ، وقد استدل بها بعض أهل
العلم على ثبوت رؤية الله ؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة .

(١) أخرجه البخاري (١) ، ومسلم ١٥١٥/٣ .

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بتصنيف الجزم في البيوع / باب النجاش ٢ / ١٠٠ ، ومسلم موصولاً في
الأقضية / باب نقض الأحكام ٣ / ١٣٤٣ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: «أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركته». رواه مسلم.^(١)

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يستحق أن يعبد؛ لأن حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

قوله: «قال الله تعالى» النبي ﷺ يرويه عن ربه ويسمى هذا النوع بالحديث القدسي.

قوله: «أنا أغني الشركاء عن الشرك»

قوله: «أغني» اسم تفضيل، وليس فعلًا ماضياً، وهذا تضاف إلى شركاء.

يعني إذا كان بعض الشركاء يستغنى عن شركته مع غيره، فالله أغني الشركاء عن المشاركة.

فالله لا يقبل عملاً له فيه شرك أبداً، وإنما لا يقبل إلا العمل الحالص وحده، فكما أنه الخالق وحده فكيف يكون الخالق لك وحده وبعد ذلك تصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ فهذا ليس عدلاً وهذا قال الله عن لقمان: «إن الشرك لظلم عظيم»^(٢)، فالله الذي خلقك وأعدك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأمدك بها تحتاج إليه، ثم تذهب وتتصرف شيئاً من حقه إلى غيره فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

(١) أخرجه مسلم في الزهد / باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخواف عليكم
عندى من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى. قال: الشرك الخفي، يقوم
الرجل فيصلني فيزبن صلاته لما يرى من نظر رجل إليه». رواه أحمد^(١)

قوله: «عملأ»: نكرة في سياق الشرط فتعم أي عمل من صلاة أو صيام
أو حجج أو جهاد أو غيره.

قوله: «تركته وشركه»: أي لم أتبه على عمله الذي أشرك فيه.
وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك
يحيط بالأعمال إذا مات عليه.

والمراد «بشركه»: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن
الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه كمن أشرك نبياً أو ولياً فإن الله لا يترك
ذلك النبي والولي.

ويستفاد من هذا الحديث :

- ١ - بيان غنى الله تعالى لقوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك».
- ٢ - بيان عظم حق الله وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله في حقه.
- ٣ - بطلان العمل الذي صاحبه الرياء، لقوله: «تركته وشركه».
- ٤ - تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب وما
أوجب الغضب فهو حرام.
- ٥ - أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله ولم يزل الله ولا
يزال فعالاً.

قوله: «ألا»: أداة عرض، والغرض منها تنبية المخاطب فهو أبلغ من

(١) أخرجه أحد ٣٠، وابن ماجه في الزهد / باب الرياء والسمعة ١٤٠٦/٢، وقال في =

عدم الإتيان بها.

قوله: «بها هو» ما اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: «أخوف عليكم عندي» أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمة المؤمنين يخاف عليهم كل الفتنة، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء عجاهدتها على الإخلاص». وقال النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبله»^(١)، ولا يكفي مجرد اللفظ بها بل لا بد من إخلاص وأعمال يتبعها الإنسان لله عز وجل.

قوله: «المسيح الدجال» وصفه ﷺ بعيدين.

أحدهما: حسي وهو أن الدجال أعور العين اليمنى كما قال النبي ﷺ: «والله لا يخفى عليكم أنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى»^(٢). والثاني: معنوي وهو الدجال فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملائم له وهو الدجال والكذب والتسمية، فلا أكذب منه وهو رجل من بني آدم ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته يخرجه ليفتن الناس، وفتنته عظيمة إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

= الزوائد: «إسناده حسن، وكثير بن زيد، وربيع بن عبد الرحمن مختلف فيما بينها، وأخرجه الحاكم ٤/٣٢٩ وصححه.

(١) أخرجه البخاري في العلم / باب الحرص على الحديث ٥٢/١ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء / باب واذكر في الكتاب مريم ٤٨٨/٢، ومسلم في الفتن / باب ذكر الدجال ٤/٢٢٤٧ من حديث ابن عمر.

وال المسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة لأن النبي ﷺ أمر أمه أن يتعمدوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفتة متناقض ولا يمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لا تبعده؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله، فالذى جعل هذا النظام هو الله، وهو القادر على أن يغيره متى شاء، في يوم القيمة تكون الشمس، وتتکدر النجوم، وتتشظى السماء كل ذلك بكلمة «كن» ورد هذه الأحاديث بمثيل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره قال تعالى: ﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرِهِ﴾^(١). فالذى نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ومحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله على كل شيء قادر، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم، ليتميّز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتنى الله بنى إسرائيل بالحitan يوم سبّتهم شرعاً ويوم لا يسبّتون لأنّائهم، ومثل ما ابتنى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حرم تناله أيدهم ورحمهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلي الله أفراداً الناس بأشياء يمتحنهم بها قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حِرْفٍ فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَانَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾^(٢).

قوله: «الشرك الخفي» الشرك قسمان خفي وجلـيـ.

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحج ، الآية: ١١.

فاجلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت.
أو بالفعل: مثل الانحناء لغير الله تعظيمها.

والخفي: ما كان في القلب مثل الرياء^(١) لأنه لا يبين إذ لا يعلم ما في

(١) وهناك أمور تعتبر من مسائل الرداء الدقيقة منها:
أولاً: ماذكره الغزالى في الإحياء ٣٠٥/٣٠٦: «وأنخفى من ذلك إن يختفي - أي العامل بالطاعة - بحيث لا يrides الااطلاع، ولا يُسرّ بظهور عطاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدأ به بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتقرير، وأن يبتدا عليه، وأن ينثعلوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر فيه مقصراً نقل ذلك على قلبه، وووجد استبعاداً في نفسه كأنه يتضخم الاحتراز مع الطاعة التي أخفها مع أنه لم يطلع عليه، لوم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهمماً لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قمع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحيط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون».

وثانياً: أن يجعل الإخلاص لله وسيلة لأحد المطالب الدنيا لا غاية وقدراً.
قال شيخ الإسلام: «حكى أن أبي حامد الغزالى بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت بنياب الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوماً، فلم يتفسر شيء فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنها أخلصت للحكمة ولم تخلص لله، ثم قال شيخ الإسلام: وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكافئات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إيه أو غير من المطالب قد عرف أن ذلك يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص وإرادة وجهه كان متناقضاً، لأن من أراد شيئاً لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذلك، والأول يراد لكونه وسيلة إليه، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالماً أو عارفاً أو ذا حكمة، أو صاحب مكافئات وتصرفات ونحو ذلك، فهو هنا لم يrides الله، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى» =

القلوب إلا الله ويسمني أيضاً «شرك السرائر» وهذا هو الذي بينه الله بقوله: «**يَوْمَ تُبَلَّى السَّرَّائِرُ**^(١)»، لأن الحساب يوم القيمة على السرائر قال تعالى: «أَفَلَا يعلم إذا بعث رحمة في القبور وحصل ما في الصدور»^(٢)، وفي الحديث الصحيح: «فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر وي فعله أنه يلقى في النار حتى تندلى أقواب بطنه فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر وي فعله»^(٣).

قوله: «يقوم الرجل فيصلبي فيزين صلاته»، يتساوی في ذلك الرجل والمرأة والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللقب: أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: «فيزين صلاته»، أي يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

= درء تعارض العقل والنقل ٦٦/٦ =

وثالثها: قال ابن رجب رحمه الله في شرح حديث: «ما ذهب جائعان»: وهو هنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح، قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: كفى بالنفس اطراه أنت تذمها على الملاك أنك تزيد بذمها زيتها، وذلك عند الله سمه.

(١) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٢) سورة العاديات، الآيات: ٩، ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في بده الخلق / باب صفة النار ٢/٤٣٦، ومسلم في الزهد / باب عقوبة من يأمر بمعروف ولا يفعله ٤/٢٢٩٠.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الكهف، **الثانية:** الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيءٌ لغير الله. **الثالثة:** ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى. **الرابعة:** أن من الأسباب: أنه تعالى خير الشركاء. **الخامسة:** خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء. **السادسة:** أنه فسر ذلك بأن يصلِّي المرءُ لله لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

قوله: «لما يرى من نظر رجل إليه»: «ما» موصولة، وحذف العائد أي للذى يراه من نظر رجل وهذه هي العلة لتحسين الصلاة فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل وهذا شرك.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الكهف: وسبق الكلام عليها.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا أدخلته شيءٌ لغير الله: وذلك لقوله: «تركته وشركه» وصار عظيماً لأنَّه ضاع على العامل خساراً، وفحوى الحديث تدل على غضب الله عز وجل من ذلك.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى: يعني الموجب للرد هو كمال غنى الله عز وجل عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل لكن العمل الصالح يقبله ويثنيه عليه.

الرابعة: أن من الأسباب: أنه تعالى خير الشركاء: أي من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً، أي: الله خير الشركاء، فلا ينزع من جعل شريكأ له فيه.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء: وذلك لقوله ﷺ:
«ألا أخربكم بها هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال». وإذا كان يخاف
ذلك على أصحابه فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى^(١).

- (١) لما كان الرياء من أسباب حبوب العمل، ومقت الله، وأنه من المهلكات، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته، وهذا شيء من علاج الرياء:
- أ - معرفة أنواع التوحيد، وتحقيقها، والتعبد لله تعالى بأسراه الحسنى، وصفاته العل، فإن معرفة الله بأسراه وصفاته تنقى القلب من الضعف، فإذا علم العبد أن الله وحده هو الذي ينفع ويضر طرح من قلبه الخوف من الناس حيث زين له الشيطان تزين عبادته أمامهم خشية ذمهم، وطمعاً في ثناهم، ومتى علم أن الله سميح بصير يعلم خاتمة الأعين وما تخفي الصدور طرح مراقبة الناس وأطاع الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه.
 - ب - أن يعلم المكلف على يقينه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر تفضل وإحسان إليه لا معاوضة.
 - ج - مشاهدته لمن الله عليه وفضله وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه، فكل خير فهو مجرد فضل الله ومنت.
 - د - مطالعة عيوبه وآفاته، وقصصه في عمله، وما فيه من حظ النفس، ونصيب للشيطان.
 - هـ - خوف مقت الله تعالى.
 - و - الإكثار من العبادات غير المشاهدة، وإنفاذهما كقيام الليل، وصدقه السر، والبكاء من خشية الله.
 - ز - تذكر الموت وسكتاته، والقبر وأهواهه، واليوم الآخر.
 - ح - معرفة الرياء ومداخله ومخايشه حتى يحترز منه.
 - ي - التنظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة.
 - كـ - دعاء الله بالخلاص من هذا الداء، ومن ذلك حديث أبي موسى مرفوعاً رضي الله عنه، =

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء الله، لكن يزينها لما يرى من نظر
رجل إليه: وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء فيكون أخوف علينا عند رسوله
صلوات الله عليه من المسيح الدجال.
ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي صلوات الله عليه على أمته من المسيح الدجال لأن
المقام في الرياء لا فيها يخافه النبي صلوات الله عليه على أمته^(١).

= وفيه: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغرك لما لا نعلمه»،
أخرجه الإمام أحمد ٤٠٣/٤، وغيره.

كـ - مصاحبة أهل الإخلاص والتقوى.

(١) وهناك أمور لا تعد من الرياء منها:

أـ - تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند كل خروج، وكذلك كل تحمل لأجلهم.

بـ - كتمان الذنوب وعدم إظهارها.

جـ - النشاط في العبادة عند رؤية العابدين.

دـ - إذا عمل العمل لأجل الله، ثم ألقى الله الثناء له في قلوب المؤمنين ففرح لم يضره ذلك،
ولم يعد ذلك من الرياء.

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى: «من كان ي يريد الحياة الدنيا وزينتها نور إليهم أعلم فيهما»^(١) الآية.

قوله: «من الشرك»: من للتبعيض أي بعض الشرك.

قوله: «الدنيا» مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضارف إلى فاعل، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضارفاً إلى فاعله أو مفعوله فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن فإذا قلنا: باب من الشرك أن ي يريد الإنسان بعمله الدنيا، فالإنسان فاعل وإرادة مصدر مضارف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله، أخص من هذا الباب، وهذا أعم وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعاً مستقلاً عن الباب الذي قبله وهذا هو الظاهر؛ لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة فيقال هو عابد، ولا يريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءة، بل يعبد الله

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

مخلصاً له ولكنه يريد شيئاً من الدنيا كالمال والمرتبة والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك فهو يريد بعمله نفعاً في الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة^(١).

(١) قال القرافي رحمه الله في الفروق ٣/٢٢ : «الفرق الثاني والعشرون والمائة بين قاعدة الرياء في العبادة، وبين قاعدة التshireek فيها.

اعلم أن الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى في طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان في تلك العبادة فالرياء: أن يعمل العمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو يعظامهم فيصل إليه نعمهم أو يندفع به ضررهم. وأما مطلق التshireek كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد وليحصل له المال من الغنيمة فهذا لا يضره ولا يجرم عليه بالإجماع، لأن الله جعل له هذا في العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع، أو يعظمه الإمام فيكثر عطاوه من بيت المال هذا ونحوه رباء وحرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد أشرك، ولا يقال لهذا: رباء بسبب أن الرياء أن يعمل لرباه غير الله من خلقه.

وكذلك من حج واشرك في حجه غرض المتجزء، وكذلك من صام ليصبح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التي ينافيها الصوم، ولا يقدح هذا في صومه، بل أمر به صاحب الشرع في قوله: «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباقة فليتزوج، ومن لم يستطع فعله بالصوم فإنه له وجاء» أي قاطع فأمر الرسول، ﷺ، بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحاً لم يأمر به، ﷺ، في العبادة.

فهذا الأعراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هي تشيرك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك ولا للتعظيم، ولا يمنع أن هذه الأعراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تبردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب».

وقال العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام ١/١١٧: «إن قبل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه في الركوع شركاً في العبادة أم لا؟ قلت: ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين لما فيه من الإعانت على إدراك الركوع، وهي قربة أخرى، =

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا :

- ١ - أن يريد المال كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن أو حج ليأخذ المال .
- ٢ - أن يريد المرتبة كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته .
- ٣ - أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه كمن تعبد الله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ، ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك .
- ٤ - أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير وهناك أمثلة كثيرة .

= والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٠٩) :

«وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها، فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمناً فإن ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص .
وأما من عمل الله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تماماً لكنه يأخذ على عمله جعلاً معلوماً يستعين به على العمل والدين كالجعارات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يربت على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية ملئ يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إثبات العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقد أدى إلى ما حصل له معيناً على قيام الدين، وهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفقير وغيرها جزءاً كبيراً من يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة» .

تفبيه :

هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟ والجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعاً مثل من أذن ليأخذ الراتب ومن حج ليأخذ المال فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية بل اخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقوق النافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكليات، وأما بالنسبة للمرتبة فإنها لا تهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنين حسن الدنيا والآخرة فلا شيء في ذلك؛ لأن الله يقول: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

فإن قيل من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه خلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيب: أنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً فلم يقصد مراءة الناس ومدحهم بل قصد أمراً مادياً، فإخلاصه ليس كاملاً؛ لأن فيه شركاً ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بل أراد شيئاً دنيئاً أقل من الرياء.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال ولكن

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢، ٣.

لايصل من أجل هذا الشيء هذه مرتبة دنية .

أما طلب الخبر في الدنيا بأساليبه الدنيوية كالبيع والزراعة فهذا لاشيء فيه والأصل أن لا يجعل في العبادات نصيباً من الدنيا . وقد سبق البحث في حكم العبادة وإذا خالطها الرياء في باب الرياء .

ملاحظة :

بعض الناس عندما يتكملون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية .

فمثلاً يقولون في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب ، وفي الصيام فائدة وإزالة الرطوبة وترتيب الوجبات .

والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل ؛ لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه بل ذكر أن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر .

وعن الصوم أنه سبب للتقى ، فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدينية ثانية لكن عندما نتكلم عند عامة الناس فإننا نخاطبهم بالتواحي الدينية ، وعندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي فإننا نخاطبه بالتواحي الدينية والدنيوية ولكل مقام مقال .

قوله : «من كان يريد الحياة» أي البقاء في الدنيا .

قوله : «وزينتها» أي المال ، والبنين ، والنساء ، والحرث ، والأنعام ، والخيل المسمومة . كما قال الله تعالى : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسمومة والأنعام والحرث ذلك متع الحياة الدنيا»^(١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية : (١٤) .

قوله : **«نُوفٌ إِلَيْهِمْ»** ، فعل مضارع معتل الآخر مجروم بحذف حرف العلة - الياء - لأنه جواب الشرط .

والمعنى : أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا ، ومن ذلك الكفار لا يسعون إلا للدنيا وزيتها ولذلك عجلت لهم طيابتهم في حياتهم الدنيا كما قال تعالى : **«وَيَوْمَ يَعْرَضُ الظِّنَنَ كُفَّارُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيَابَكُمْ فِي حَيَاكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا»**^(١) .

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش فقال : ما يبيك ؟ قال : يا رسول الله كسرني وقصر يعيشان فيها يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال فقال رسول الله ﷺ : **«أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا لَهُمْ طَيَابَهُمْ»**^(٢) ، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم صار أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا .

قوله : **«وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْسُون»** البخس النقص أي لا ينقصون مما يجازون فيه ; لأن الله عدل لا يظلم فيعطون ما أرادوا .

قوله : **«أُولَئِكَ»** المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزيتها .

قوله : **«لَيْسُ هُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا نَارٌ»** فيه حصر طريقه النفي والإثبات وهذا يعني أنهم لم يدخلوا الجنة لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة . والعياذ بالله .

(١) سورة الأحقاف ، الآية : (٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم / باب الغرفة والعلبة المشرفة ٢ - ١٩٩ / ١٩٧ - ١٩٩ ، ومسلم في الطلاق / باب في الإيلاء واعتزال النساء ٢ / ١١٥ - ١١٨ .

.....
.....
.....

قوله: «وَجَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» الحبوط الزوال والترك أي زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

قوله: «وَيَاطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» باطل خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات، والمبتداً «ما» في قوله «ما كان يعملون» فثبتت الله أنه ليس هؤلاء إلا النار وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: «مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْسُونَ». مخصوصة بقوله تعالى: «مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ مِنْ نَرِيدَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا»^(١).

فإن قيل لماذا لا نجعل آية الإسراء حاكمة على آية هود، ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء من يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب أن هذا المعنى لا يستقيم لأمرتين:

أولاً: أن القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخصر مقدم على الأعم وأية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وفي إليه العمل وأعطي ما أراد أن يعطى أما آية الإسراء فهي خاصة: «عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ مِنْ نَرِيدَ»^(١)، ولا يمكن أن يحکم بالأعم على الأخضر.

الثاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء، لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين فيكون عموم آية هود مخصوصاً بأية

(١) سورة الإسراء، الآية: (١٨).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقض، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقية كان في الساقية إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع»^(١).

الإسراء، فالامر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

وأختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١ - قيل: نزلت في الكفار لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا فكل من شاركهم في شيء من ذلك ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢ - وقيل نزلت في المترفين لأنهم لا يعملون إلا للدنيا فلا ينفعهم يوم القيمة.

٣ - وقيل: نزلت فيمن يريده مالاً بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول لقوله تعالى: «أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون»^(٢).

قوله: «تعس» بفتح العين أو كسرها أي خاب وهلك.

(١) أخرجه البخاري في الجهد / باب الحراسة في الغزو ٣٢٧ / ٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١٦.

.....

قوله : «عبدالدينار» الدينار من الذهب ، والدينار الإسلامي زنته مثقال ، وساه عبد الدينار ، لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه ، وقدمه على طاعة ربه ، ويقال في عبدالدرهم ما قيل في عبدالدينار . والدرهم هو النقد من الفضة وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أ عشر المثقال فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل .

وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يبين أن من الناس من يعبد الدنيا أي يتذلل لها ويخضع لها ، وتكون منه وغايته فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت وهذا سمي النبي ﷺ من هذا شأنه عبادها ، وهذا من يعني بجمع المال من الذهب والفضة .

قوله : «تعس عبد الخميصة تعس عبدالخميصة» وهذا من يعني بمظاهره وأثنائه ؛ لأن الخميصة كساء جميل والخميصة فرش وثير ، ليس له هم إلا هذا الأمر فإذا كان عابداً هذه الأمور ، لأنه صرف لها جهوده وهمة ، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئاً من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا فهذا أعظم ؟

قوله : «إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط» يحتمل أن يكون المعطى هو الله فيكون الإعطاء قديراً أي إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره ، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله كان يقول : لماذا كنت فقيراً وهذا غنياً؟ وما أشبه ذلك فيكون ساخطاً على قضاء الله وقدره لأن الله منعه .

والله سبحانه وتعالى يعطي ويمعن لحكمة ، ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب .

والواجب على المؤمن أن يرضي بقضاء الله وقدره إن أعطى شكر وإن منع

صبر .

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الشرعي أي إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي وإن لم يعط سخط، وكلا المعنين حق، وهو يدلان على أن هذا الرجل لا يرضي إلا لله ولا يسخط إلا له وهذا سياه الرسول ﷺ عبداً له.

قوله : «تعس وانتكس» تعس أي خاب وهلك ، وانتكس : أي انتكست عليه الأمور بحيث لا تيسر له فكلما أراد شيئاً انقلب عليه الأمور خلاف ما يريد وهذا قال :

قوله : «وإذا شيك فلا انتقش» أي إذا أصابته شوكة ، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه .

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل وأنه في تعasse وانتكاس وعدم خلاص من الأذى ، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حالة ، لأنه لا يتم إلا للدنيا فدعا عليه أن يهلك وأن لا يصيب من الدنيا شيئاً وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه ، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة حتى أصبح لا يرضي إلا لله ولا يسخط إلا له .

قوله : «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله» هذا عكس الأول فهو لا يتم للدنيا ، وإنما يتم للآخرة فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله . و «طوبى» فعلٌ من الطيب وهي : اسم تفضيل أطيب للمنكر ، وطوبى للمؤتمن ، والمعنى أطيب حال تكون لهذا الرجل .

وقيل : إن طوبى شجرة في الجنة والأول أعم كما قالوا في ويل الكلمة وعيد . وقيل : وادٍ في جهنم ، والأول أعم .

وقوله : «آخذ بعنان فرسه» أي عسك بمقدور فرسه الذي يقاتل عليه . قوله : «في سبيل الله» ضابطه أن يقاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلدأ

إسلامياً فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل حياة لنفسه أو ماله أو أهله فإن النبي ﷺ قال: «من قتل دون ذلك فهو شهيد».

قوله: «أشعث رأسه مغيرة قدماء» أي رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله فهو لا يهم بحاله ولا يدنه ما دام هذا الأمر ناجحاً عن طاعة الله عز وجل، وقدماء مغيرة من السير في سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله. أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفاً فليس له هم فيه.

قوله: «إن كان في الحراسة فهو في الحراسة وإن كان في الساق فهـو في الساق»، الحراسة والساق ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساق أن يكون في مؤخرته وللمجملين معنـيـان:

- ١ - أنه لا يبالي أين وضع إن قيل له احرس حرس، وإن قيل له كـن في الساق كان فيها فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المـحل كـمـقدمـ الجيش مـثـلاً.
- ٢ - إن كان في الحراسة أدى حقها وكذا إن كان في الساق، والحديث صالح لـمعـيـنـينـ، يـحـمـلـ عـلـيـهـماـ جـيـعاـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

قوله: «إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع» أي هو عند الناس ليس له جـاهـ ولا شـرـفـ حتىـ إنـ استـأـذـنـ لمـ يـؤـذـنـ لهـ، وـهـكـذـاـ عـنـدـ أـهـلـ السـلـطـةـ ليسـ لهـ مـرـتـبـةـ فإنـ شـفـعـ لمـ يـشـفـعـ، وـلـكـنـهـ شـفـيعـ عـنـدـ اللهـ وـلـهـ المـنـزـلـةـ العـالـيـةـ، لأنـهـ يـقـاتـلـ فـيـ سـبـيـلـهـ.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضره.

والاستئذان طلب في الدخول، أو غيره.

وال الحديث قسم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هـمـ إـلـاـ الـدـنـيـاـ، إـمـاـ لـتـحـصـيلـ الـمـالـ، أـوـ لـتـجـمـيلـ الـحـالـ، فـقـدـ

فيه مسائل :

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة. **الثانية:** تفسير آية هود. **الثالثة:** تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميسة.

استعبدت قلبه حتى أشغله عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

١ - أن الناس قسمان كما سبق.

٢ - أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة بخلاف الجازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة، ولم ينس نصيبيه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣ - أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألا تكون همه المراتب بل يكون همه القيام بما يجب عليه إما في الحراسة أو الساقية أو القلب أو الجنب حسب المصلحة.

٤ - إن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله عز وجل فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ: «طوبى له»، ولم يقل إن سألاً لم يعط بل لاتهمه الدنيا حتى يسأل عنها لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة.

فيه مسائل :

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة:

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي: وإن لم يعط سخط.
الخامسة: قوله: «تعس وانتكس». السادسة: قوله «إذا شيك فلا
انتقض». السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

وهذا من الشرك لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا فيطغى على
قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة والحزم والإخلاص أن يجعل عمل
الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود: وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميسة. وهذه
ال العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل
بالإخلاص لأنّه جعل في قلبه عبادة زاحت عبادة الله عزوجل وبعده أعمال الآخرة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط.

هذا تفسير لقوله ﷺ: «عبدالدينار، عبد الدرهم، عبد الخميسة، عبد
الخميسة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط». وهذه عالمة عبوديته لهذه الأشياء
أن يكون رضاه وسخطه تابعاً لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقض».

يمحتمل أن تكون الجملة الثلاث خبراً أو دعاء، وسيق شرح ذلك.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

فقوله في الحديث: «طوبى لعبد» يدل على الثناء عليه وأنه هو
الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش
والراتب.

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحرير ما حمل الله أو تحليل ما حرم فقد اتخذهم أربابا

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول:
قال رسول الله ﷺ ، وتقولون قال أبو بكر وعمر»^(١)

قوله: «من أطاع العلماء»، «من» يحتمل أن تكون شرطية بدليل قوله: «فقد اتخاذهم»؛ لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة أي: «باب الذي أطاع العلماء».

وقوله: «فقد اتخاذهم» خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم وعلى الأول تقرأ «باب» بالتنوين، وعلى الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله.

وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له وهذا الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»^(٢) فجعل الله طاعته مستقلة وطاعة رسوله مستقلة وطاعة أولي الأمر تابعة، وهذا

(١) أخرجه بنحوه أحمد ٣٣٧/١، والخطيب في الفقيه والمنقحة ١٤٥/١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢٢٩/٢، وابن حزم في حجة الوداع ص (٢٦٨ - ٢٦٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ما جيء بالفعل «وأطيعوا» فلا طاعة لخلق في معصية الخالق.
وأولوا الأمر هم أولوا الشأن وهم العلماء؛ لأنه يسند إليهم أمر الشرع
والعلم به ، والأمراء لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضاه ، وإذا استقام
العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل
الإرشاد والدلالة ، والأمراء أهل الإلزام والولاية .

قوله في تحريم ما أحل الله وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون
إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام ، وكلاهما خطأ ، ومع ذلك فإن
تحليل الحرام أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبيّن تحريمه فهو
مبني على الأصل وهو الحل ورحمة الله سبحانه سبقت غضبه فلا يمكن أن نحرم
إلا ما تبيّن تحريمه ، ولأنه أصيق وأشد والأصل أن تبقى الأمور على الحل
والسعة حتى يتبيّن التحريم .

أما في العبادات فيشدد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبيّنه الشرع .
والأصل في الأشياء حل ، والمنع عبادة إلا بإذن الشارع^(١) .

قوله : «أرباباً» جمع رب وهو المتصرف المالك .
والمتصرف نوعان تصرف قدرى ، وتصرف شرعى .
فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله فقد اخذهم أرباباً من دون
الله باعتبار التصرف الشرعي لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً
يعمل به .

قوله : «حجارة من السماء» أي من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم؛ ونزول

(١) أصول الفقه وقواعد، ص: (٢).

الحجارة من النساء ليس بالأمر المستحيل بل هو ممكن قال تعالى في أصحاب الفيل : «وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل»^(١) ، وقال تعالى في قوم لوط : «إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر»^(٢) . والحاصل : الحجارة تحصيهم من النساء .

قوله : «ونقولون قال أبو بكر وعمر» ، أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب قال النبي ﷺ : «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا» . رواه مسلم^(٣) ، وروي عنه ﷺ أنه قال : «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»^(٤) . وقال ﷺ : «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهدىين من بعدي تسكوا بها وعضوا عليها بالنواজذ»^(٥) ، ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصاً في رأيه ، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقوتها قول الرسول ﷺ ، فإن يوشك أن تنزل عليه حجارة من النساء ، فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن

(١) سورة الفيل ، الآيات : (٣ ، ٤) .

(٢) سورة القمر ، الآية : (٣٤) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد / باب قضاء الصلاة الثالثة ٤٧٢ / ١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في كتاب فضائل الصحابة ١٨٦ / ١ ، وفي المسند ٣٩٩ / ٥ والبخاري في الكتبى ص (٥٠) ، والترمذى في المناقب / باب في مناقب أبي بكر وعمر ٩ / ٢٧٠ ، وقال : حديث حسن » ، وابن ماجة في المقدمة ١ / ٣٧ ، وابن سعد ٢ / ٣٣٤ ، والحميدى ١ / ٢١٤ ، والخطيب في الفقيه والمتفقه ١ / ١٧٧ ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٢٢٣ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٢٦ ، ١٢٧ ، وأبو داود في السنة / باب في لزوم السنة ٥ / ١٣ - ١٥ ، والترمذى في العلم / باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدعة ٧ / ٣١٩ وقال : «حسن صحيح» ، وابن ماجة في المقدمة ١ / ١٥ ، والدارمي (١٩٦) ، وابن حبان - موارد (١٠٢) ، وأبي نوعيم في الضعفاء ص (٤٦) وقال : «حديث جيد صحيح من حديث الشاميين» .

وقال أحمد بن حنبل: «عجبت لقوم عرروا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلِيَحْذِرُ الَّذِينَ يَخْالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)، أَتَدْرِي مَا الفتنة؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك».

هو دون أبي بكر وعمر والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض، فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى، والتعصب المذهبي الذي ليس مبنياً على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشاً إذا قيل له قال رسول الله ﷺ قال: لكن في الكتاب الفلاي كذا وكذا فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْبَتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢)، أما صاحب الكتاب فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق فإنه يدعى له بالملغرة والرحة إذا أخطأ ولا يقال إنه معصوم يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

قوله: «عجبت» العجب نوعان:

الأول: عجب استحسان كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن في تعلمه وترجله وظهوره وفي شأنه كله».

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٥.

الثاني: عجب إنكار كما في قوله تعالى: «**فَبَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ**^(١)»،
والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.
قوله: «**الإِسْنَادُ**»: المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه،
أي عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله.
قوله: «**يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سَفِيَّانَ**»، أي سفيان الثوري؛ لأنَّه صاحب
المذهب المشهور ولهم أتباع لكتابهم اندثروا.
فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به
الحديث.

قوله: «**فَلَيَحْذِرُ**» الفاء عاطفة واللام للأمر وهذا سكت وجزم الفعل
بها، لكن حرك بالكسر لالتقاء الساكين.

قوله: «**عَنْ أَمْرِهِ**» الضمير يعود للرسول ﷺ بدليل أول الآية قال تعالى:
«لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لَوْاً ذَرَ الذِّينَ يَخْالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ»^(٢).

فإن قيل: لماذا عدى الفعل (بعن) مع أن (يخالف) يتعدى بنفسه؟
أجيب: أن الفعل ضمن الإعراض أي يعرضون عن أمره زهداً فيه
 وعدم مبالاة به.

و (أمره): واحد الأوامر وليس واحد الأمور لأن الأمر هو الذي يخالف
فيه، وهو مفرد مضاد فيعم جميع الأوامر.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.

وعن عدي بن حاتم : (أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿اخذوا أخبارهم ورهبانيهم أرباباً من دون الله﴾^(١)) الآية : فقلت له : إنما لسنا نعبد لهم ، قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلوه ؟ فقلت : بل ، قال : فتلك عبادتهم ». رواه أحمد والترمذى وحسنه^(٢).

قوله : «اخذوا» الضمير يعود للنصارى ، لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلها بل ادعوا أنه ابن زانية وحاولوا قتله ، وادعوا أنهم قتلوا ، ومحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارى جيئاً ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها .

قوله : «أخبارهم ورهبانيهم» ، الأخبار جمع حبر وحبر ، وهو العالم الواسع العلم ، والرهبان جمع راهب وهو العابد الزاهد .

قوله : «أرباباً من دون الله» : أي مشاركين الله عز وجل ، في التشريع ، لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع .

(١) سورة التوبة ، الآية : (٣١) .

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير القرآن / تفسير سورة التوبة ٨/٢٤٨ ، وقال : «غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيب بن أعين ليس بمعرفة في الحديث» ، وابن جرير ١٠/٨٠ ، ٨١ ، والبيهقي ١١٦/١٠ ، والمزي في تعذيب الكمال ٢/١٠٩ ، وانظر الدر المشور / للسيوطى ٣/٢٣٠ .

وقد حست شيخ الإسلام في الإيمان ص (٦٤) .

.....
.....

قوله: «والمسيح ابن مريم» أي: اتخذوه إلهاً مع الله بدليل قوله تعالى:
﴿وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِنَّهَا وَاحِدَة﴾ والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع
الأوامر واجتناب النواهي^(١).

قوله: **﴿إِنَّهَا وَاحِدَة﴾** هو الله عز وجل، وإله أي مألوه معبد مطاع،
وليس بمعنى آله أي قادر على الاختراع، فإن هذا معنى فاسد ذهب إليه
المتكلمون أو عامتهم فيكون معنى **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾** على هذا القول لا رب
إلا الله وهذا ليس بالتوحيد إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم
رسول الله ﷺ موحدين لأنهم يقولون لا رب إلا الله قال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾**^(٢)، وهذه إحدى
القراءتين وهي سبعية.

قوله: **﴿سَبَّحَنَهُ عَمَّا يَشْرُكُونَ﴾** «سبحان» اسم مصدر وهي معمول أو

(١) قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في معنى هذه الآية في الفتاوى ٧/٧٠: «هؤلاء الذين اتخذوا
أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل
الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبدل فيعتقدون تحليلاً ما حرم الله
وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر وقد جعله
الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره في خلاف
الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم
في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل
الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف».

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

مفعول لفعل مخدوف وجوباً تقديره يسبح سبحانًا أي تسبيحاً؛ لأن اسم المصدر بمعنى المصدر فسبحان مفعول مطلق عاملها مخدوف وجوباً وهي ملزمة بالإضافة إلى مضمير كما في الآية: «سبحانه» أو إلى مظاهر كما في «سبحان الله».

والتسبيح : التز zieh الله عن كل نقص ولا يحتاج أن نقول ومائة المخلوقين؛ لأن المائة نقص، ولكن إذا قلناها فذلك من باب زيادة الإيضاح حتى لا يظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى تز zieh الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مائة المخلوقين.

وقوله : «عما يشركون» أي مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان فهو منه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

وقوله : «عما يشركون»، هذا من البلاغة في القرآن لأنها جاءت محتملة أن تكون «ما» مصدرية فيكون المعنى عن شركهم، أو موصولة ويكون المعنى سبحان الله عن الذين يشركون به وهي صالحة للأمررين فتكون شاملة لهما؛ لأن الصحيح جواز استعمال المشترك في معنيه إذا لم يكن بينهما تعارض . فيكون التز zieh عن الشرك وعن المشترك به.

قوله : «إنا لستنا نعبد هم» أي لا نعبد الأحبار والرهبان ، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم ، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان ، وأما بالنسبة للمسيح ابن مريم فلأنهم يعبدونه بدليل قوله : «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرموه ويخلون ما حرم الله فتحلونه».

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبداً؛ لأنه رسول الله فما أحله فقد أحله الله ، وما حرمه فقد حرمه الله وقد حاول بعض الناس أن يعلل الحديث

.....

هذا المعنى مع ضعف سنته، والحديث حسن الترمذى والألباني وآخرون
وضعفه آخرون.

ويحاب عن التعليل المذكور بأن قول عدي لسنا نعبدهم يعود على
الأحاديث والرهبان، أما عيسى ابن مريم فالمعلوم أنهم يعبدونه.
وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام وكلامها حرام؛ لقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَنْصُفُ الْكَذِبُ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفَرَّوْا
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ . . .﴾^(١).

قوله: «فتلك عبادتهم» ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة،
وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا
كان في طاعة الله فهي عبادة الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله كما لو أمرك
بالصلوة فصلحت فلا تكون قد عبدت أبوك بطاعتكم له، ولكن عبدت الله؛
لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو
امتثال لأمر الله.

ويستفاد من الحديث:

- ١ - أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.
 - ٢ - أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله فهي
عبادة الله.
 - ٣ - أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً.
-

(١) سورة النحل، الآية: ١١٦.

واعلم أن اتباع العلماء أو النساء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتبعهم في ذلك راضياً بقوتهم مقدماً له ساختاً لحكم الله، فهو كافر، لأن كره ما أنزل الله فأحبط الله عمله ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله فهو كافر.

الثاني: أن يتبعهم في ذلك راضياً في حكم الله وعانياً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد ولكن لهوى في نفسه اختياره كان يريد مثلاً وظيفة، فهذا لا يكفر ولكنه فاسق.

الثالثة: أن يتبعهم جاهلاً فيظن أن ذلك حكم الله فينقسم إلى قسمين:
أ - أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفترط أو مقصري فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب - أن لا يكون عالماً ولا يمكنه التعلم فيتبعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق وهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان مدعوراً بذلك ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أن من أفتي بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه»^(١) ولو قلنا بإئمته بخطأ غيره للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتلال خطته.

فإن قيل لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟ أجيب: إننا لو قلنا بکفرهم لزم

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٣٢١، ٣٦٥، وأبو داود في العلم / باب التوقي في الفتيا ٤/٦٦، وابن ماجة في المقدمة / باب اجتناب الرأي ١/٢٠، والدارمي في المقدمة ١/٥٣، والحاكم في العلم ١/١٢٦ وقال: «صحيح عل شرط الشعدين ولا أعرف له علة»، ووافقه الذهبي.

.....

من ذلك تكبير كل صاحب معصية يعرف أنه عاصٌ لله ويعلم أنه حكم
الله^(١).

(١) وقال الشيخ محمد بن إبراهيم في رسالته تحكيم القوانين ص (٨ - ٥): «فانظر كيف سجل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسق، ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنها في تفسير هذه الآية من روایة طاووس وغيره يدل أن الحكم بغير ما نزل الله كافر إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة.

أما الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع:

أحدها: أن يمجّد الحكم بغير ما نزل الله أحقيّة حكم الله ورسوله.. وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً عموماً عليه، أو انكر حرفأً مما جاء الرسول، **ﷺ**، قطعاً فإنه كافر بالحكم الناقل عن الملة.

الثاني: إلا يمجّد **الغير** ما نزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول، **ﷺ**، أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند النزاع، إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجد من الحوادث... وهذا لا ريب أنه كفر.

الثالث: إلا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكنه اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً بالحكم الناقل عن الملة لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخلق.

الرابع: إلا يعتقد كون حكم الحكم بغير ما نزل الله مائلاً لحكم الله ورسوله... لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذى قبله لا اعتقد جواز ماعلم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لاحكامه، ومشافة الله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرشاداً وتأصيلاً وحكماً وإزاماً،

فاتحة :

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

- ١ - قال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ»^(١).
- ٢ - وقال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ»^(٢).
- ٣ - وقال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ»^(٣).

واختلف أهل العلم في ذلك:

فقيل إن هذه الأوصاف لم يوصف واحد، لأن الكافر ظالم لقوله تعالى:

ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملحق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي، والقانوني البريطاني وغيرها من القوانين... فـأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله، بعد هذه المناقضة، السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها «سلامهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به... عند النزاع بقاءً على أحكام الجاهلية واعراضًا ورغبة عن حكم الله ورسوله.

وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الله، فقد تقدم أن تفسير ابن عباس رضي الله عنها لقول الله عز وجل في قوله رضي الله عنه: «كفر دون كفر»... وذلك بأن تحمله شهونه وهواء على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانية المدحى، وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الله فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة، فإن معصية سماها الله كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

.....
.....
«والكافرون هم الظالمون»^(١)، وفاسق لقوله تعالى: **«وأما الذين فسقوا فماواهم النار»**^(٢)، أي كفروا.

وقيل إنها لموصفين متعددين، وإنها على حسب الحكم:
فيكون كافرا في ثلاثة أحوال :

- أ - إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: **«أفحكم الجاهلية يبغون»**^(٣) فكل ما خالف حكم الله فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لايجوز الحكم بغير ما أنزل الله، فال محل والميغ للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحرير الحبز أو اللبن.
- ب - إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

ج - إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قوله تعالى: **«ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»**^(٤) فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: **«أليس الله بأحلكم الحاكمين»**^(٥)، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكם الحاكمين فمن أدعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن الأحكام فهو كافر؛ لأنه مكذب للقرآن.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٥) سورة التين، الآية: ٨.

ويكون ظالماً :

إذا اعتقاد أن الحكم [بغير] ما أنزل الله أحسن الأحكام وأنه أنفع للعباد والبلاد وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حله البعض والحد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم.

ويكون فاسقاً :

إذا كان لهوى في نفسه، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رشى إياها، أو لكونه قريباً، أو صديقاً، أو يطلب من ورائه حاجة وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق وإن كان أيضاً ظالماً لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم^(١). والراجح: هو القول الثاني أي أن هذه الأوصاف لموصوفين متعددين بحسب الأحوال.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين شرعية مع علمه بحكم الله، وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين فهو كافر؛ لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر فمعنى ذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

(١) قال القرطبي في تفسيره: «إن حكم به - أي بغير ما نزل الله - هوى ومعصية، فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين».

وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة: «أما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً، لكن عصى واتبع هواه فهذا يمتنع أمثاله من العصاة».

وقال ابن القيم في مدارج السالكين: «إن اعتقاد وجوب الحكم بما نزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر».

.....
ولكن قد يكون الواضح له معدوراً مثل أن يغرس به كأن يقال إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون إن مسألة المعاملات لا دخل للإسلام فيها، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس فهذا لاشيء فيه. وهذا لاشك في خطأه فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الله. وما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها فالشرع كامل من جميع الوجوه قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾^(١). وكيف يقال: إن المعاملات ليست من الشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولو لا نظام الشرع لفسد الناس.

وأنا لا أقول نأخذ بكل ما قاله الفقهاء لأنهم قد يصيرون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ومحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم وهذا قصور، أو نقص التدبر وهذا تقصير. أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق فلا بد أن يصل إليه حتى في المعاملات قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

القرآن^(١)، وقال تعالى: «أَفَلَمْ يَدْبِرُوا الْقَوْلَ»^(٢)، وقال تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مبارِكٌ لِيَدْبِرُوا آيَاتِهِ»^(٣)، وقال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ»^(٤)، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه فإن القرآن بيته.

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وادعى أنها من المصالح المرسلة فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق، ومن الشرع، وإن لم يعتبرها فليس مصالح ولا يمكن أن تكون كذلك وهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع فهو مصلحة وما نفاه فليس بمصلحة وما سكت عنه فهو عفو.

ومصالح المرسلة توسيع فيها كثير من الناس فادخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها كعيد ميلاد الرسول فزعموا أن فيه شحذاً للهم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه والذي لا يحيي قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحيي قلبه بساعة يوتى فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ، وهذه مفسدة وليس بمصلحة.

فالصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار، فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.

(٣) سورة (ص)، الآية: ٢٩.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

أولئك العلماء توسع فيها، وعليه فإنها تفاصي بالمعيار الصحيح فإن اعتبرها الشرع قبلت وإنما قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم: أنه يجب على الإنسان أن يتنقى ربه في جميع الأحكام فلا يتسرع في البت بها خصوصاً في التكبير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة ويطلقون بدون تفكير ولا رويه مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له عاد ذلك إلى قائله، وتکفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة فيكون مباح الدم والمال ويترب على جميع أحكام الكفر، وكذا يجب لا نجني في تکفير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين فالمعين يحتاج الحكم بتکفيره إلى أمرين:

- ١ - ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.
 - ٢ - انطباق شروط التکفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مکفر فإن كان جاهلاً فإنه لا يکفر، وهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم وهذا إقامة حد وليس بکفر والتحرز من التکفير أولى وأحرى.
- قال تعالى: ﴿لَذِلِّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَضْلِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يَبْيَنَ اللَّهُمَّ مَا يَتَّقُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَضْلِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يَبْيَنَ اللَّهُمَّ مَا يَتَّقُونَ﴾^(٣)، ولا بد مع توفر الشروط من عدم الموضع فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يکفر لقوله

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة التوبه، الآية: ١١٥.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النور. **الثانية:** تفسير آية براءة. **الثالثة:** التنبية على معنى العبادة التي أنكرها عدي. **الرابعة:** تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحد بسفيان. **الخامسة:** تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

تعالى : «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»^(١) ولقول الرجل الذي وجد ذاته في مهلكه : «اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»^(٢).

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النور:

وهي قوله تعالى : «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»^(٣).

الثانية: تفسير آية براءة، وهي قوله تعالى : «اخذوا أحبارهم ورهبانيهم أرباباً

(١) سورة التحل ، الآية: ١٠٦ .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات / باب التوبة ١٥٤/٤ ، ومسلم في التوبة / باب في الحصن على التوبة ٤/٢١٠٣ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) سورة النور ، الآية: ٦٣ .

من دون الله^(١)) الآية وقد سبق ذلك.

الثالثة: التنبية على معنى العبادات التي أنكرها عدي؛ لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود، والذر وما أشبهه لكن بين **لهم** المراد من عبادتهم هي طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحد بسفيان: أي إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يعارض قول النبي ﷺ بقولها؟ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقولها؟ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقولها؟ فهو أشد وأقبح، وكذلك مثل الإمام أحد بسفيان الثوري وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: **﴿فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يَخْالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾** الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... إلخ. يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال.... وهذا لا شك أنه أشد من معارضته قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر، ثم قال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين» أي يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكون بمنزلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين»: وهو الطاعة والاتباع، فأطاع الجاهل في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله كما يوجد في

(١) سورة التوبه، الآية: ٣١.

بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئاً فصاروا يعبدون بهذا المعنى ، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله .

وهذا في زمان المؤلف فكيف بزماننا؟ وقد قال النبي ﷺ فيها رواه البخاري : «لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»^(١) ، وقال النبي ﷺ للصحابة : «ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»^(٢) ، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم .

والناس لا يحسنون بالتغيير؛ لأن الأمور تأتي رويداً رويداً ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء لوجد التغيير الكبير المزعج - نسأل الله السلامة - فعلينا الحذر وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمني وأن يصان ، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أبداً منها كانت منزلته ، وأن الواجب أن نكون عباد الله عز وجل تذللاً وتبعداً وطاعة .

(١) أخرجه البخاري في الفتن / باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه ٣١٥/٤ ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) سبق ٢١١/١ .

باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا
مِنْ قَبْلِكُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أَمْرَوْا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ
وَيَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَضْلِلُهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١). الآيات.

هذا الباب له صلة قوية بما قبله؛ لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء
والآراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من
أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرِ﴾ الاستفهام يراد به التقرير والتعجب من حاهم والخطاب
للنبي ﷺ.

قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ هذا يعني أن يكون الخطاب
للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا؛ لأنهم لم يؤمنوا بل يزعمون ذلك وهم
كاذبون.

والذي أنزل إلى النبي ﷺ الكتاب والحكمة قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٢)، قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون
أنهم آمنوا بذلك لكن أفعالهم تكذب أقوالهم حيث يريدون أن يتحاكموا إلى
الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

قوله: ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ صيغة مبالغة من الطغيان ففيه اعتداء وبغي.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠، وما بعدها من الآيات.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

والمراد به هنا كل حكم خالف حكم ورسوله ، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله . أما الطاغوت بالمعنى الأعم فقد حده ابن القيم بأنه : «كل ما تجاوز العبد به حده من معبد أو متبع أو مطاع». وقد تقدّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد^(١) .

قوله : «وقد أمروا أن يكفروا» أي أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمر ليس فيه لبس ولا خفاء ، فمن أراد التحاكم إليه فهذه الإرادة على بصيرة إذ الأمر قد بين لهم .

قوله : «وي يريد الشيطان» جنس يشمل شياطين الإنس والجن .

قوله : «أن يضلهم ضلالاً بعيداً» أي يوقعهم في الضلال بعيد عن الحق ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة ولكن بالتدریج .

فقوله : «بعيداً» أي ليس قريباً لكن بالتدریج شيئاً فشيئاً حتى يوقعهم في الضلال بعيد .

قوله : «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول» ، أي قال لهم الناس أقبلوا : «إلى ما أنزل الله» من القرآن «وإلى الرسول» نفسه في حياته وسته بعد وفاته ، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته .

قوله : «رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً» .

الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر بدليل قوله : «تعالوا» فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده .
والمعنى كأنها تشاهدتهم .

(١) ٢٢/١

وقوله: «يصدون عنك صدوداً» يعرضون عنك إعراضاً.

وقوله: «رأيت المنافقين» إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق؛ لأن المؤمن حقاً لا بد أن ينقاد

لأمر الله ورسوله.

الثالثة: التنبية؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان

عنه فإذا تغير حصل له انتباه.

وقوله: «رأيت المنافقين» جواب «إذا». وكلمة «صد» تستعمل لازمة،

أي توصيف للشخص يتعداه إلى غيره، ومصدرها صدود، ومتعددة أي صدود

غيره، ومصادرها صد.

وقوله: «فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك
يختلفون باهـ إن أردنا إلا إحساناً و توفيقاً».

الاستفهام هنا يراد به التعجب أي كيف حا لهم إذا أصابتهم مصيبة.

والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعين:

فالدنيوية مثل: الفقر والجدب، وما أشبه ذلك فيأتون يشكون إلى النبي

فِيَوْلُونَ: أصَابَتْنَا هَذِهِ الْمُصَاصَبُ وَنَحْنُ مَا أَرْدَنَا إِلَّا إِلَّا إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم خافوا وقالوا: يارسول الله ما

أردن إلا الإحسان والتوفيق.

قوله: «بِمَا قَدْمَتْ أَيْدِيهِمْ» الباء هنا للسيبة. و«ما» اسم موصول

وـ«قدمت» صلته والعائد مخلوق تقديره بما قدمته أيديهم، وفي اللغة العربية

يطلق هذا التعبير ويراد به نفس الفاعل أي بما قدموه من الأعمال السيئة.

.....
.....

وقوله: «إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً» «إن» بمعنى: «ما» أي ما أردنا إلا إحساناً بكوننا نسلم من الوضيعة والعار، وتوفيقاً بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان أي نمسي معكم ونمسي مع الكفار وهذه حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا أن نحسن النجح والسلوك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم» توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من التفاق والمكر والخداع فالله علام الغيوب قال - تعالى - : «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه»^(١) ، بل الله أعلم بك بما فيك قال تعالى: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه»^(٢) ، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه، وهذا قبل لأعرابي: «بم عرفت ربك؟» قال: «بنقض العزائم وصرف الأهم».
فإِنْسَانٌ يَعْزِمُ عَلَى الشَّيْءِ ثُمَّ لَا يَدْرِي إِلَّا وَعَزِيزُهُ مُنْقَضٌ بِدُونِ سَبِبٍ ظَاهِرٍ.

قوله: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.
قوله: «وَعَظِيمُهُمْ» أي ذكرهم وخوفهم لكن لا يجعلهم أكبر همك ، فلا تخافهم وقم بما يجب عليك من الموعظة ، تقوم عليهم الحجة.

قوله: «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» .

اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببلوغ أي قل لهم قوله بلغاً في أنفسهم أي يبلغ في أنفسهم.

الثاني: أن المعنى انصحهم سراً

الثالث: أن المعنى قل لهم في أنفسهم أي في شأنهم وحالمهم قوله بليغاً في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعانى الثلاثة؛ لأن اللفظ صالح لها جميعاً ولا منافاة بينها. وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التتبه لها وهي أن المعانى المحتملة للأية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض فإنه يؤخذ بجميع المعانى.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاءه على وجه مؤثر،
وكان النبي ﷺ إذا خطب أحرث عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى
كأنه منذر جيشاً يقول صبحكم ومساكم^(١).

الثاني: أن تكون ألفاظه جزءاً مترابطة محدودة بالموضوع .
 الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان بأن يكون كلامه سليم التركيب موافقاً للغة العربية مطابقاً لمقتضى الحال .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن هذه الآيات تطبق تماماً على أهل التحرير والتأويل في صفات الله لأن هؤلاء يقولون إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول يعرضون ويصدون ويقولون نذهب إلى فلان وفلان وإذا اعترض عليهم قالوا نريد الإحسان والتوفيق وأن

(١) أخرجه مسلم في الجمعة / باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٢/٢ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

قوله: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»^(١) قوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»^(٢)

نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع، ذكره رحمه الله في الفتوى الحموية.

قوله: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض»:
الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي فهي من أكبر الفساد في الأرض
قال تعالى: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليديفهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون»^(٣)، وقال تعالى: «وما أصابكم من مصيبة فيها كسبت أيديكم ويعفو عن كثير»، وقال تعالى: « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون»^(٤)، وقال تعالى: « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لکفرا نعنه سيناثتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم»^(٥).

(١) سورة البقرة، الآية: ١١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٥) سورة المائدة، الآيات: ٦٥ - ٦٦.

.....
.....

قوله : **«إِنَّا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»** وهذه دعوى من أبطل الدعاوى حيث قالوا ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح .

قوله : **«أَلَا إِنَّمَا هُمُ الْمُفْسِدُونَ»** ، **«أَلَا»** أداة استفهام ، والجملة مؤكدة بأربع مؤكّدات وهي : **«أَلَا»** و**«إِنَّ»** وضمير الفصل **«هُمْ»** والجملة الإسمية ، فالله قابل حصرهم بأعظم منه فهو لاء الدين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم .

مناسبة الآية للباب :

ظاهرة ، وذلك أن الحكم بغير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض .

قوله : **«وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ»** يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق .

قوله : **«بَعْدَ إِصْلَاحِهِمْ»** : من قبل المصلحين ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم ، والوقوف ضد دعوة السلف ، وضد من ينادي بأن يكون الحكم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وقوله : **«بَعْدَ إِصْلَاحِهِمْ»** : من باب تأكيد اللوم والتوبیخ إذ كيف يفسد الصالح ؟ وهذا غایة ما يكون من الوقاحة والجحود والشر ؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح ، وإن كان المطلوب من الجميع هو الإصلاح بعد الفساد .

وقوله: «أفحكم الجاهلية يبغون» الآية^(١) وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(٢)، قال النووي: حديث صحيح رواه في كتاب الحجة بأسناد صحيح^(٣).

مناسبة الآية للباب :

أن الحكم بما أنزل الله إصلاح والحكم بغير ما أنزل الله إفساد. قوله: «أفحكم الجاهلية يبغون»: الاستفهام للتوضيح، و«حكم» مفعول مقدم «يبغون» وقدم لإفاده الخصر والمعنى: أفلابيغون إلا حكم الجاهلية. و«يبغون» يطلبون، والإضافة في قوله: «حكم الجاهلية» تحمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحکامها معروفة ومنها: الباحائر والسوائب، وقتل الأولاد وغيرها.

ثانيها: أن يكون المعنى أفحكم الجهل الذي لا يبني على العلم يبغون سواء كانت عليه الجahلية السابقة أم لم تكن وهذا أعم.

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة^(١٥)، والخطيب في التاريخ ٤/٣٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/٢١٢، وابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٨. وانظر كلام ابن رجب على سند الحديث في جامع العلوم والحكم ص (٣٣٨).

(٣) الأربعون النووية حديث رقم (٤١).

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبير والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع فهو جهل. والجهالة هي العمل بالخطأ سفهاً لا جهلاً قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾^(١)، وأما من يعملسوء بجهل فلا ذنب عليه لكن عليه أن يتعلم.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا﴾ ﴿مِن﴾ اسم استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أحسن من الله حكماً، وهذا النفي مشرب معنى التحدى فهو أبلغ من قول: ﴿لَا أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا﴾ لأنه متضمن للنفي وزيادة.

وقوله: ﴿حَكْمًا﴾ تميز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مهم في هذا المبهم وميزة.

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها فain الحسن في ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسدين: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا يَدْعِيَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، وهذا الحسن في حكم الله ليس مبيناً لكل أحد. كما قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٦.

يوقنون》， وكلما ازداد إيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله ، وكلما نقص إيمانه ويفقهه ازداد جهلاً لحسن أحكام الله ، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضاً وعلى هذا فإنه يتبيّن قوّة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفة بحسن أحكام الله الكونية والشرعية .

وقوله : «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» خبر لا يدخله الكذب إطلاقاً ، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص . وقالوا : «كل من عند ربنا»^(١) .

قوله : «لا يؤمن أحدكم» أي إيماناً كاملاً إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ فإنه يتغافل عنه الإيمان بالكلية ، لأنه إذا كره ما أنزل الله فقد حبط عمله لكتفه ، قال تعالى : «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبطت أعماهم»^(٢) .
قوله : «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» الهوى بالقصر هو الميل ، وبالد وهو الريح ، والمراد الأول .

و (حتى) للغاية ، والذي جاء به النبي ﷺ ، هو القرآن والسنة .
إذا كان هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ لزم من ذلك أن يوافق تصديقاً بالأخبار ، وامتثالاً للأوامر .

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوى على هوى الضلال لا على هوى الإيمان
قال تعالى : «أفرأيت من اخذ إلهه هواه»^(٣) ، وقال تعالى : «وابعوا

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٧.

(٢) سورة محمد ، الآية : ٩.

(٣) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

وقال الشعبي : «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد ، عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة ، فيتحاكموا إليه فنزلت **﴿أَلم تر إلى الذين يزعمون﴾**^(١) الآية^(٢) .

أهواههم^(٣) ، وغيرها من الآيات الدالة ، على ذم من اتبع هواه ، ولكن إذا كان الهوى تبعاً لما جاء به النبي ﷺ مموداً وهو من كمال الإيمان .

وقد سبق بيان أن من اعتقد أن حكم غير الله مساو لحكم الله ، أو أحسن ، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير الله فهو كافر .
وأما من لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ فإن كان كارهاً فهو كافر ، وإن لم يكن كارهاً ولكن آثر محنة الدنيا على ذلك فليس بكافر ، لكن يكون ناقص الإيمان .

قوله : «قال النووي حديث صحيح» صححه النووي وغيره ، وضعفه جماعة من أهل العلم منهم ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» ولكن معناه صحيح .

قوله : «وقال الشعبي» أي في تفسير الآية .

قوله : «رجل من المنافقين» هو من يظهر الإسلام وبطنه الكفر وسمي

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٠ .

(٢) أخرجه ابن حجر ٩٧ / ٥ عن الشعبي مرسلأ .

(٣) سورة محمد ، الآية : ١٤ .

منافقاً من النافقاء وهي جحر البروع ، والبروع له جحر له باب وله نافقاء -
أي يخفر إلى الأرض ويُخفر إلى أعلى فإذا بقي شيءٌ قليل بحيث يتمكن من دفعه
برأسه توقف - فإذا حجر عليه من الباب خرج من النافقاء .

قوله : «ورجل من اليهود» اليهود هم المتنسبون إلى دين موسى عليه
السلام ، وسموا بذلك إما من قوله : ﴿إِنَّا هَدَنَا إِلَيْكُ﴾ أي رجعنا ، أو نسبة إلى
أبيهم يهودا ولكن بعد التعرّيب صارت بالدال .

قوله : «إِلَى مُحَمَّدٍ» أي النبي ﷺ ولم يذكره بوصف الرسالة ؛ لأنهم
لا يؤمنون برسالته ويزعمون أن النبي الموعود به سيأتي .

قوله : «عرف أنه لا يأخذ الرشوة» تعليل لطلب التحاكم إلى النبي ﷺ .
والرشوة : مُثُلَّةُ الراء فيجوز الرشوة ، الرشوة ، والرشوة ، وهي : المال
المدفوع للتوصّل إلى شيءٍ .

قال أهل العلم : لا تكون حرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصّل بها إلى
باطل أو دفع حق ، أما من بذلها ليتوصّل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها
باطلاً عن نفسه فليس حراماً على البادل أما على آخرها فحرام .»

قوله : «فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهنمة» كأنه صار بينهما خلاف وأبى
المنافق - والله أعلم - أن يتحاكمها إلى النبي ﷺ .

والكافر : من يدعى علم الغيب في المستقبل ، وكان للعرب كهان تنزل
عليهم الشياطين بخبر النساء ، فيقولون : سيحدث كذا وكذا فربما أصابوا مرة
من المرات ، وربما أخطأوا ، فإذا أصابوا ادعوا علم الغيب فكان العرب
يتحاكمون إليهم ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَلمْ ترْ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾
الأية .

وقيل: «نزلت في رجلين اختصاً فقال أحدهم: نترافق إلى النبي ﷺ وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهم القصة فقال للذى لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله»^(١).

قوله: «رجلين» مبهمين فيحتمل أن يكونا من المسلمين المؤمنين، وتحتمل أن يكونا من المسلمين المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

قوله: «إلى كعب بن الأشرف» وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: «أكذلك» خبر لم يبدأ مخوف، التقدير: أكذلك الأمر.

قوله: «ضربه بالسيف» الضارب عمر.

وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، وهذا قتله عمر رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ؟

أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام وقد قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(٢).

(١) علقة الواحدى فى أسباب التزول ص (١٠٧ ، ١٠٨)، والبغوى فى تفسيره ١/٥٥٢ . وقد أشار الإمام الشیخ محمد بن عبد الوهاب إلى شعنه بقوله: «وقيل...، وانظر تيسير العزيز ص (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخارى فى الجهد / باب لا يعذب بعذاب الله ٤/٣٦٣ من حديث ابن عباس.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت، **الثانية:** تفسير آية البقرة: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض». **الثالثة:** آية الأعراف: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها» **الرابعة:** تفسير: «أفحكم الجahلية يبغون» **الخامسة:** ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى. **السادسة:** تفسير الإيهان الصادق والكاذب. **السابعة:** قصة عمر مع المنافق، **الثامنة:** كون الإيهان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

فيه مسائل :

الأولى: «تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت». وهي قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بها أنزل إليك». وقوله: «وما فيها من الإعانة على الطاغوت» أي أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك فيشمل كل ماتجاوز به العبد حده من متبع أو معبد أو مطاع، فالاصنام والأمراء والحكام الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.

الثانية: تفسير آية البقرة: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إننا نحن مصلحون» ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها». وقد سبق.

الرابعة: تفسير: **﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾** وقد سبق ذلك ، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع ، وأضيف للجاهلية للتغير منه وبيان قبحه وأنه مبني على الجهل والضلال .

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى ، وقد سبق .

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب : فالإيمان الصادق يستلزم الإزعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله ، والإيمان الكاذب ما سوى ذلك .

السابعة: قصة عمر مع المنافق : حيث جعل عدوه عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحاً لقتله لرده ، وأقدم على قتله لفترة غيرته فلم يملك نفسه .

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ : وهذا واضح من الحديث .

باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب وهذا كفر بلا شك، ولو أن أحداً أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة مثل أن يقول ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه أو ليس له عين فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل وهو أن لا يذكرها ولكن يتأوّلها إلى معنى يخالف ظاهرها وهذا نوعان:

الأول: أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لا يوجب الكفر.

الثاني: أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول المراد بقوله تعالى: «تُحْرِي بِأَعْيُّنَا»^(١)، تُحْرِي بِأَرْاضِنَا، فهذا كافر لأن نفاهَا نفياً مطلقاً فهو مكذب.

ولو قال في قوله تعالى: «بَلْ يَدَاهُ مِبْسُطَتَانٌ»^(٢)، المراد بيديه السموات والأرض فهو كفر أيضاً لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر ومكذب، لكن إن قال المراد باليد النعمة أو القوة فلا

(١) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

يُكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة قال الشاعر:
وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب
فقوله: (من يد) أي من نعمة؛ لأن المانوية يقولون إن الظلمة لا تخلق
الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: (من الأسماء) جمع اسم واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السمو
وهو الارتفاع ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.
وقيل: من السمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه،
والراجح أنه مشتق من كليهما.

والمراد بالأسماء هنا: أسماء الله عز وجل، وبالصفات صفات الله عز
وجل، والفرق بين الإسم والصفة أن الإسم ما تسمى به الله والصفة ماتتصف
به.

البحث في أسماء الله :

المبحث الأول :^(١)

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليس أعلاماً مخصوصة فهي من حيث
دلالتها على ذات الله تعالى أعلام ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها
هذا الاسم أو صفات، بخلاف أسمائنا فالإنسان يسمى ابنه محمدأً وعليأً دون أن
يلحظ معنى الصفة فقد يكون اسمه عليأً وهو من أوضاع الناس أو عبد الله وهو
من أكفر الناس بخلاف أسماء الله؛ لأنها متضمنة للمعاني فالله هو العلي لعلو
ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة وهكذا.

(١) انظر باب احترام أسماء الله تعالى.

ودلالة الاسم على الصفة تقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تضمن وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام وهي دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بِيَنْهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١)، فعلمنا القدرة من كونه خلق السموات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك؛ لأن الخلق لابد فيه من علم فمن لا يعلم لا يخلق وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه.

المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما اختلف لفظه واتفاق معناها، والمتبادر: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله عز وجل؛ لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع، وغير معنى البصير، وهكذا.

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست مخصوصة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: «اللهم إني عبدك ابن عبدك وابن أمتك - إلى أن قال - أسلوك بكل اسم هو لك سميته به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»^(١)، وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحضور.

وأما قوله ﷺ: «إن الله تسعه وتسعين اسمها من أحصاها دخل الجنة»^(٢)، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة قوله: «من أحصاها» تكميل للجملة الأولى، وليست استثنائية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله، فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة بل معناه أن هذه المائة معدة لهذا الشيء.

(١) أخرجه أحادي ٣٩١/١، ٤٥٢، وابن حبان (٢٣٧٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والحاكم ٥٠٩/١ وقال: «صحيف على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سباعه من أبيه»، وأخرجه أيضاً البهقي في الأسماء ص(٦). والحديث صححه ابن القيم كما في بداع الفوائد ١٦٦، وحسنه الحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربانية ٤/١٣.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد / باب إن الله مائة اسم إلا واحد ٤/٤٨٢، ومسلم في الذكر والدعا / باب في أسماء الله تعالى ٤/٢٠٦٣، من حديث أبي هريرة.

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق فيجب علينا أن نؤمن به أسماءً من الأسماء، ونؤمن بها تضمنه من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم متعدياً، فمثلاً السميع نؤمن بأن من أسمائه السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكماً وأثراً وهو أنه يسمع به كما قال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركم إن الله سميع بصير﴾^(١). أما إن كان الاسم غير متعد كالعظيم والحي والجليل، فثبتت الاسم والصفة لأنه لاحكم له يتعدى.

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟
إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى فهو غير الله عز وجل، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ فهو المسمى.
فمثلاً: الذي خلق السموات والأرض هو الله فالاسم هنا هو المسمى فليست «اللام - واهء» هي التي خلقت السموات والأرض، وإذا قيل اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فكتبت الله.

فالمراد الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً فضررت زيداً المكتوب في الورقة لم تكن ممثلاً؛ لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيداً قائماً، فالمراد الاسم الذي هو غير المسمى.

(١) سورة المجادلة، الآية: ١.

البحث في صفات الله ،

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ذاتية ويقال معنوية .

والثاني : فعلية .

والثالث : خبرية .

فالصفات الذاتية هي الملازمة لذات الله ، والتي لم يزول ولا يزال متضمناً بها ، مثل : السمع والبصر وهي معنوية ، لأن هذه الصفات معانٍ .

والفعلية هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشاً لم يفعلها مثل التزول إلى السماء الدنيا ، والارتفاع على العرش ، والكلام من حيث أحده ، والخلق من حيث أحده ، لا من حيث الأصل فأصل الكلام صفة ذاتية ، وكذلك الخلق .

والخبرية : هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا ، أما بالنسبة لله فلا يقال هكذا ، بل يقال صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة ، وهي ليست معنى ولا فعلاً مثل : الوجه والعين والساقي واليد .

المبحث الثاني :

الصفات أوسع من الأسماء ، لأن كل اسم متضمن لصفة ، وليس كل صفة تكون اسمًا ، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليس من أسمائه فيوصف الله بالكلام والإرادة ، ولا يسمى بالمتكلم أو المرید .

المبحث الثالث:

أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حق على حقيقته، لكن ينزعه عن التمثيل والتكييف، والتعبير بالتمثيل أحسن من التعبير بالتشبيه لوجوه ثلاثة: أحدها: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقاً بخلاف التشبيه فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح؛ لأن كل موجودين فلا بد أن يكونوا بينها قدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بها بخنسص به فـ«الحياة» مثلاً وصف ثابت في الخالق والمخلوق، وبينها قدر مشترك ولكن حياة الخالق تلبيق به وحياة المخلوق تلبيق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهاً فإذا قلنا من غير تشبيه فهم هذا البعض من هذا نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وكذلك لا يجوز أن نكيف صفات الله بل ننزعه عن ذلك فمن كيف صفة من الصفات فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده لأن المخلوق لا يحيط بالخالق قال تعالى: ﴿وَلَا يحيطُونَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿لَا تدركه الأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿لَا تَنْفَعُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. بعد قوله: ﴿قُلْ

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفِرُونَ بِالرَّحْمَنِ . . .﴾ الآية^(١).

إنما حرم رب الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . . الآية^(٢) وعاصر لأنه قال في الله بغير علم.

وسواء كان التكثيف باللسان تعبيراً أو بالجناح تقديرأً أو بالبنان تحريراً، وهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء (الكيف عجهول والسؤال عنه بدعة) وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود، فالاستواء والتزول واليد والوجه والعين لها كيفية لكننا لا نعلمها، ففرق بين أن ثبتت كيفية معينة ولو تقديرأً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب فنقول لها كيفية لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يتصور أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لانعلمه؟ أجيب: أنه متصور فالواحد منا يعتقد أن هذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفِرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ :

﴿وَهُمْ﴾: أي كفار قريش، ﴿يَكْفِرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمعنى فهم يقرون به قال تعالى: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مِنْ خَلْقِ

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

السموات والأرض ليقولن الله»^(١)، وفي حديث سهيل بن عمرو «لما أراد النبي أن يكتب كتاب الصلح في غزوة الحديبية قال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قال: أما الرحمن الرحيم، فوالله ما أدرى ما هما وامتنع أن يكتب الرحمن الرحيم وكتب باسم اللهم^(٢) وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى . وقد قال الله تعالى: «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيَّامًا تَدْعُونَ فِلَهُ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى»^(٣)، أي بأي اسم من أسمائه تدعونه فإن له الأسماء الحسنة فكل أسمائه حسنة فادعوا بها شتم من الأسماء ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش . وفي الآية دليل على أن من أنكر اسمًا من أسمائه تعالى فإنه يكفر لقوله تعالى: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ»^(٤)، ولأنه مكذب لله ولرسوله وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية .

قوله: (لا إله إلا هو):

خبر «لا» النافية للجنس مذوف، والتقدير: لا إله حق إلا هو، وأما المعبود بالباطل فكثير قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ»^(٥).

قوله: «عليه توكلت»:

أي عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلاً:

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط / باب الشروط في الجهاد ٢٧٩/٢، ٢٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

«ضربت زيداً» فإنه يدل على أنك ضربته ولكن لا يدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيداً ضربت» دلت على أنك ضربت زيداً ولم تضرب غيره.

قوله: «وإليه متاب»:

أي إلى الله، و«متاب» أصلها متابٍ، فحذفت الياء تخفيفاً، والمتاب
يعني: التوبة فهو مصدر ميمي أي وإليه توبتي.

والتبية: هي الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، وله شروط خمسة:

- ١ - الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراءة أحد، أو محاباة أو شيء من الدنيا.
 - ٢ - أن تكون في وقت قبول التوبة وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.
 - ٣ - الندم على ما مضى من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتنمى أنه لم يكن.
 - ٤ - الإقلاع عن الذنب، وعلى هذا فإذا كانت التوبة مظالم الخلق فلا بد من رد المظالم إلى أهلها واستحلالهم منها.
 - ٥ - العزم على عدم العودة والتوبة التي لا تكون إلا الله هي توبه العبادة، كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنى الرجوع فإنها تكون غيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نمرقة فيها صور فوقف بالباب ولم يدخل وقالت: «أتب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت»^(١) فليس المراد بالتوبة هنا العبادة؛ لأن توبه العبادة لا تكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل

(١) أخرجه البخاري في التكالب / باب دهان النساء والصبيان إلى العرس ٣٨١ / ٢، ٣٨٢.

وفي صحيح البخاري قال علي: «حدثنا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذب الله ورسوله»^(١).

الله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضاً حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه يقول ابن: أتوب.

قوله: «حدثنا الناس»: أي كلامهم بالمواعظ وغير الموعظ.
قوله: «بما يعرفون»: أي بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقوتهم حتى لايفتنوا، وهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنك لن تحدث فواماً حديثاً لا تبلغه عقوتهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(٢) وهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعهم رويداً رويداً حتى تستقر عقوتهم، وليس معنى «بما يعرفون» أي بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «أتريدون أن يُكذب الله ورسوله»:
الاستفهام للإنكار أي أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يُكذب الله ورسوله؟ لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقوتهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله لامباشرة، ولكن بواسطة القائل.

(١) أخرجه البخاري في العلم / باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ٦٢/١.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١١/١.

فإن قيل: أن ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس؟
أجيب: لا ندعه ولكن نحدثهم عن طريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن
نقلهم رويداً رويداً حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمسنوا إليه، ولا ندع مالا
تبلغه عقولهم ونقول هذا شيء مستنكر لا يتكلّم به.
ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس.
ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه
يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين ويتزل كل إنسان منزلته.

مناسبة هذا القول لباب الصفات :

المناسبة: ظاهرة لأن بعض الصفات لا تتحملها أفهم العامة، فيمكن
إذا حدثهم بها كان لذلك أثر سيء عليهم، كحديث النزول إلى السماء
الدنيا^(١)، مع ثبوت العلو، فلو حدثت العام بأنه يتزل إلى السماء الدنيا بذاته
مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذ انزل صارت السموات فوقه وصار العرش
خالياً منه وحيث لا بد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله عز وجل
ينزل نزواً لا يتأهل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله
ورحمته يقول: «من يدعوني فأستجيب له...» الحديث.

والعامي يكتفي أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله
عز وجل في هذه الساعة من الليل.

(١) أخرجه عبدالرزاق (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٥).

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك فقال ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه وهملكون عند متشابهه». انتهى^(١).

قوله : (انتفض) أي اهتز جسمه ، والرجل مبهم ، والصفة التي حدث بها لم تبين ، وبيان ذلك ليس منها ، وهذا الرجل انتفض استنكاراً هذه الصفة لا تعظيماً لله وهذا أمر عظيم صعب ، لأن الواجب على المرء إذا صع عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره .

قوله : (ما فرق) :

فيها : ثلاث روايات :

- ١ - (فرق).
- ٢ - (فرق).
- ٣ - (فرق).

فعل روایة (فرق) تكون (ما) استفهامية مبتدأ و(فرق) خبر المبتدأ، أي ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم ، لماذا لا يثبتونها الله

(١) أخرجه البخاري في التهجد / باب الدعاء والصلوة من آخر الليل ١/٣٥٦، ومسلم في صلاة المسافرين / باب الترغيب في الدعاء ١/٥٢١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وهو عند مسلم أيضاً عن حديث أبي سعيد الخدري في الموضع السابق ١/٥٢٢.

عز وجل كما أثبّتها الله لنفسه وأثبّتها له رسوله وهذا ينصب تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبّتها لنفسه.

وعلى رواية: (فرق أو فرق) بمعنى ما فرقهم كقوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فرقناه﴾^(١)، أي فرقناه و(فرق) تكون فعلًا ماضيًّا و(ما) يحتمل أن تكون نافية، والمُعنى ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ومحتمل أن تكون استفهامية والمُعنى أي شيء فرقهم يجعلهم يؤمنون بالمحكم وبهلكون عند المتشابه؟ قوله: (يمجدون رقة عند محكمه)، الرقة: الدين والقبول، و(محكمه) أي محكم القرآن.

قوله: (وَهُلُكُونْ عِنْدَ مُتَشَابِهِ)، أي متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضحت معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا كان المحكم مفرداً دون المتشابه فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل لا كذب في أخباره ولا جور في أحكامه قال تعالى: ﴿وَقَاتَ كَلْمَةَ رَبِّكَ صَدِقًا وَعَدْلًا﴾^(٢)، وقد ذكر الله الإحکام في القرآن دون المتشابه وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تَلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾^(٤).

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

.....
وإذا أفرد المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضاً في جودته وكماله ، ويصدق بعضاً ولا يتناقض قال تعالى : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾^(١) . والتتشابه نوعان :
تشابه نسي ، وتشابه مطلق .

والفرق بينهما : أن المطلق يخفي على كل أحد ، والنسبي يخفي على أحد دون أحد ، وبناء على هذا التقسيم ينبع الوقف على قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٢) ، فالوقف على (إلا الله) يكون المراد بالتشابه المتشابه المطلق ، وعلى الوصل (إلا الله والراسخون في العلم) يكون المراد بالتشابه المتشابه النسي ، وللسلف في ذلك قولان :

القول الأول : بالوقف على (إلا الله) وعليه أكثر السلف ، وعلى هذا فالمراد بالتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله ، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله ، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعدايب النار قال الله تعالى في نعيم الجنة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُ مِنْ قَرْةِ أَعْيْنٍ﴾^(٣) ، أي لا تعلم حقائق ذلك ولذلك قال ابن عباس : (ليس في الدنيا شيءٌ مما في الجنة إلا الأسماء)^(٤) .

والقول الثاني : بالوصل فقرأ (إلا الله والراسخون في العلم) ، وعلى هذا

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٣) سورة السجدة ، الآية : ١٧ .

(٤) أخرجه ابن حزم في الفصل ١٠٨/٢ ، وقال : «هذا سند غایة في الصحة» ، وقال المنذري في الترغيب ٤/٥٦٠ : «رواوه البيهقي موقوفاً بـاستاد جيد» .

فالمراد بالتشابه التشابه النسبي وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابهاً، وهذا يروى عن ابن عباس أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» ولم يقل هذا مدحًا لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه، فالقرآن معانيه كلها بينة لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم احتلال فتضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنين جيئاً فإنها تحمل عليهما جيئاً.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه فيكون من التشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: ﴿كَتَبْنَا لَكَ مِنْ قَبْلِ إِذْ لَمْ يَرَهُوا آيَاتِنَا﴾^(١)، ثم تستثنى آيات الصفات وهي أعظم وأشرف وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن يكون خفياً ويكون معنى قوله: ﴿لَمْ يَرَهُوا آيَاتِنَا﴾. أي آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول بل جميع القرآن يفهم معناه إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهما يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرأون آيات الصفات، وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية، بـ، تـ... والصواب: أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

وَلَا سَمِعْتُ قَرِيشًا رَسُولَ اللَّهِ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ
فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنَ»^(١).

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق فها أخبر الله به من أمر الغيب، فمتباينه على جميع الناس.

قوله: «وَلَا سَمِعْتُ قَرِيشًا رَسُولَ اللَّهِ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ»: أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فقال: «أما الرحمن فلا والله ما أدرى ما هو، وقالوا: إننا لا نعرف رحاناً إلَّا رحمن اليمامة فأنكروا الاسم دون المسمى فأنزل الله: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنَ»، أي بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسمًا من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة فهو كافر لقوله تعالى: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنَ».

وقوله: «وَلَا سَمِعْتُ قَرِيشًا»: الظاهر - والله أعلم - أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر صحيحاً أن ينسب لهم جميعاً، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام قال تعالى: «وَإِذَا أَخْذَنَا مِثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الْطُورَ خَذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٣/١٠١ عن مجاهد مرسلاً.

فيه مسائل : الأولى : عدم الإيمان بجحد شيءٍ من الأسماء والصفات .
الثانية : تفسير آية الرعد . الثالث : ترك التحديد بما لا يفهم السامع .
الرابعة : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم يتعمد
المنكر . الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه
أهلـه .

بقوـة^(١) ، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين .

فيه مسائل : الأولى : عدم الإيمان بجحد شيءٍ من الأسماء والصفات :
«عدم» بمعنى انتفاء أي انتفاء الإيمان بسبب جحد شيءٍ من الأسماء
والصفات ، وسبق التفصيل في ذلك .

الثانية : تفسير آية الرعد : وهي قوله تعالى : «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ»
وسبق تفسيرها .

الثالثة : ترك التحديد بما لا يفهم السامع : وهذا ليس على إطلاقه ، وقد
سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر .

الرابعة : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد
المنكر : ذكر العلة في عدم التحديد ، وهو أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به
يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ، فيكذب ويقول : هذا غير ممكن وهذا يوجد في
أشياء كثيرة كما أخبر النبي ﷺ ما يكون يوم القيمة وكما أخبر النبي ﷺ : «أَن
الْأَرْضَ يوْمَ الْقِيَامَةِ كَخْبَزَةٍ فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَتَكَفَّفُهَا بِيَدِهِ كَمَا يَتَكَفَّفُ إِلَيْهَا إِنْسَانٌ

(١) سورة البقرة ، الآية : ٦٣ .

خبيزته^(١)، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعر
وغير هذه الأمور لو حدثنا بها إنساناً عامياً لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تبين
له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثلاً نعلم الصبي شيئاً فشيئاً.

وقوله: «ولو لم يتعمد المكروه» أي: ولو لم يقصد المكروه تكذيب الله
ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله وهذا يعود بالتالي إلى رد
خبر الله ورسوله.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه: وذلك
قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة - أي ليناً - عند حكمه فيقبلونه، ويفلكون
عند متشابهه» فينكرونه.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق / باب يقبض الله الأرض يوم القيمة ٤/١٩٥، وسلم في
المذاقين / باب نزل أهل الجنة ٤/٢١٥٠.

باب قول الله تعالى :

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكِرُونَهَا ﴾^(١)

قوله : «يعرفون» : أي يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله .

قوله : «نعمـة الله» : واحدة والمراد بها الجمع فهي ليست واحدة ، بل هي لا تخصى قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾^(٢) ، والقاعدة الأصولية : أن المفرد الصفاف يعم ، والنعمة تكون بجلب المحبوبات ، وتطلق أحياناً على رفع المكرورات .

قوله : (ثم ينكرونها) :

أي ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله سبحانه ، وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة ، مثل أن يقولوا : ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة ، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله متناسين الذي خلق السبب فوجده به المسبب .

قوله : (الآية) أي إلى آخر الآية ، وهي منصوبة بفعل مذوف تقديره أكمل الآية .

قوله : «وَأَكْثُرُهُمُ الْكَافِرُونَ» أي الذين كفروا بالله عز وجل .

وقوله : «أَكْثُرُهُم» بعد قوله (يعرفون) الجملة الأولى أضافها إلى الكل ،

(١) سورة التحل ، الآية : ٨٣ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٤ .

قال مجاهد ما معناه : « هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن أبيائي »
وقال عون بن عبد الله : يقولون : « لولا فلان لم يكن كذا » وقال ابن
قتيبة : « يقولون هذا بشفاعة أهنتنا » .

والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم،
ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.

مناسبة هذا الباب للتوحيد :

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره فقد جعل معه شريكًا في الربوبية؛
لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل لهذا من وجه ، ومن وجه آخر أنه لم يقم
بالشكر الذي هو عبادة من العبادات وترك الشكر مناف للتوحيد؛ لأن الواجب
أن يشكر الخالق المنعم سبحانه وتعالى ، فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية
وبتوحيد العبادة ، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل لهذا إخلال
بتوحيد الربوبية ، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة لهذا إخلال
بتوحيد الألوهية .

قوله : « قال مجاهد » هو إمام المفسرين في التابعين عرض المصحف على
ابن عباس رضي الله عنه يقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها ، وقال سفيان
الشوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسب به ، أي كافيك ، ومع هذا
فليس معصوماً عن الخطأ .

قوله : « هو قول الرجل » هذا من باب التغليب والتشريف؛ لأن الرجل
أشرف من المرأة وإلا فالمرأة مثله .

قوله : « هذا مالي ورثته عن أبيائي » ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها ،

فلو قال لك واحد من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائي فليس فيه شيء لأنه خير حمض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملك هذا الشيء إلى السبب الذي هو الإرث متناسياً المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله عز وجل أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله عز وجل انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث فكيف تناسى المسبب للأسباب القدرة والشرعية فتضييف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إيه بعدهم، فمن هنا صار هذا القول نوعاً من كفر النعمة. أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق فلا شيء في ذلك، وهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: «أنتzel في دارك غداً؟» فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع^(١)؟ فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث. فتبين أن هناك فرقاً بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبب وهو الله عز وجل.

قوله: «وقال عون بن عبد الله: يقولون لولا فلان لم يكن كذا» إن أراد بها الخبر وكان الخبر صدقاً مطابقاً للواقع فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سبيباً خفياً لا تأثير له إطلاقاً كأن يقول: لولا الولي الفلافي ما حصل كذا كذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن هذا الولي تصرف في الكون مع أنه ميت فهو تصرف سري خفي.

(١) أخرجه البخاري في الحج / باب توريث دور مكة وبيعها ٤٨٩ / ١، ومسلم في الحج / باب التزول بمكة للحجاج ٩٨٤ / ٢ من حديث أسماء بن زيد رضي الله عنه.

الثانية: أن يضيقه إلى سبب صحيح ثابت شرعاً أو حسأً فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه أو أن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيقه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً لا شرعاً ولا حسأً فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة والقلائد التي يقال إنها تمنع العين وما أشبه ذلك؛ لأنه أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً فكان مشاركاً لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة [لولا] إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١)، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيداً لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه لكنه شرعي حقيقي وأنه أذن له بالشفاعة لعلمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضاح من النار عليه نعلان يغلي منها دماغه لا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً؛ لأنه لو يرى أن أحداً أشد منه عذاباً هان عليه بالتسلي، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي
وابن القيم - رحمه الله - وإن كان قول العالم ليس بحججة لكن يستأنس
به. قال في الميمية يمدح الصحابة:
أولئك أتباع النبي وحزبه ولولاهم ما كان في الأرض مسلم

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار / باب قصة أبي طالب ٦٢/٣، ومسلم في الإيمان / باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ١٩٤/١ من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «أن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» الحديث^(١)، وقد تقدّم: وهذا كثير في الكتاب والسنّة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقوفهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على السنّة كثيرة».

ولولاهمو كادت تُمْدِي بآهلها ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولاهمو كانت ظلاماً بآهلها ولكن هو فيها بدور وأنجم
فأضاف [لولا] إلى سبب صحيح.

قوله: «وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آهتنا»: هؤلاء أخبرت من الأولين؛ لأنهم مشركون يعبدون غير الله ثم يقولون إن هذه النعم حصلت بشفاعة آهتهم، فالعزيز مثلاً شفعت عند الله أن يتزل المطر، فهو لا أثبتوا سبباً من أبطل الأسباب، لأن الله عز وجل لا يقبل شفاعة آهتهم قال تعالى: «يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قوله^(٢) والله عز وجل لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:
١ - الشرك بهذه الأصنام.
٢ - إثبات سبب غير صحيح.

قوله: «وقال أبو العباس»: هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

قوله: «وهذا كثير في الكتاب والسنّة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى

(١) سبق ص (١٢٧).

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٩.

غيره . . . » وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذموماً؛ لأنه لو أتني إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق لما يألف :

- ١ - أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.
- ٢ - أن السبب قد لا يؤثر كما ثبت في صحيح مسلم أنه ﴿فَلَا يُنْهَا عَنِ الْأَرْضِ﴾ قال: «ليس السنة أن لا تمطروا، بل السنة أن تمطر ثم لاتنبت الأرض»^(١).
- ٣ - أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف ضعف إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

قوله: «كانت الريح طيبة» هذا في السفن الشراعية التي تجري بالرياح قال تعالى: « حتى إذا كتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها»^(٢) فكأنوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة وكان الملاح - وهو قائد السفينة - حاذقاً ألي مجيناً للقيادة.

(١) أخرجه مسلم في الفتن/باب في سخونة المدينة ٤/٢٢٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

(٢) سورة يونس، الآية: (٢٢).

فيه سائل ، الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. الثانية: معرفة أن هذا جار على السنة كثيرة. الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة. الرابعة: اجتماع الضددين في القلب.

فيه سائل :

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها وسبق ذلك.
الثانية: معرفة أن هذا جار على السنة كثيرة، وذلك مثل قول بعضهم: كانت الربيع طيبة، والملاح حاذقاً وما أشبه ذلك.
الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة، يعني إنكاراً لنفضل الله تعالى بها وليس إنكاراً لوجودها لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.
الرابعة: اجتماع الضددين في القلب: وهذا من قوله: (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيهان وحصلة كفر، وحصلة فسوق وحصلة عدالة.

باب قول الله تعالى

﴿فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)

قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره : ﴿الذِّي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعِلْكُمْ تَتَقَوَّنُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّماءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَا هُوَ فَلَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُم﴾^(٢). فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقرب له لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك ، ولا ينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك ، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسبب ، أي : فبسبب ذلك لا يجعلوا الله أنداداً .

[لا] هذه ناهية ، فلا يجعلوا له أنداداً في العبادة ، كي أنكم لم يجعلوا له أنداداً في الربوبية ، وأيضاً لا يجعلوا له أنداداً في أسمائه وصفاته ، لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله عز وجل كاشتقاق العزي من العزيز ، وتسميتهم رحم اليمامة .

قوله : (أنداداً) جمع ند وهو الشبيه والنظير ، المراد هنا : أنداد في العبادة .

قوله : (وأنتم تعلمون)

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات : ٢١ ، ٢٢ .

وقال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يافلان، وحياتي، تقول لولا كلية هذا لأنانا للصوص، ولولا البط في الدار لأتنى للصوص، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم^(١).

الجملة في موضع نصب حال من فاعل «تجعلون» أي والحال أنكم تعلمون، والمعنى: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له يعني في الربوبية؛ لأن هذا خط التقييم من هؤلاء أنفسهم يجعلون له أنداداً وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية فيجعلون له أنداداً قالوا للنبي ﷺ: «أجعل الآلة إليها واحداً إن هذا شيء عجب»^(٢)، ويقولون في تلبيةهم: «ليك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك». وهذا من سفههم فإنه إذا صار مملوكاً فكيف يكون شريكاً، وهذا نفي الله عنهم عقوفهم في قوله: «فلا تجعلوا الله أنداداً وأنتم تعلمون» إذ الأنداد بالمعنى العام - بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواماً يقررون بالربوبية - يشمل الأنداد في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

قوله: «وقال ابن عباس في الآية» أي في تفسيرها.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير ١/٥٧. وقال الشيخ سليمان في تيسير العزيز ص(٥٨٧): «ومنده جيد».

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

قوله: «هو الشرك»: هذا تفسير بالمراد لأن التفسير تفسيران:

١ - تفسير بالمراد.

٢ - تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات. فعندنا الأن وجهان للتفسير أحدهما التفسير اللغطي وهو تفسير الكلمات وهذا يقال فيه معناه كذا وكذا، والثاني التفسير بالمراد، فيقال المراد بكلذا كذا، والأخير هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباء والنظراء فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا الأنداد الشركاء أو الشرك فهو تفسير بالمراد، والمعنى يقول رضي الله عنه: «الأنداد هو الشرك» فإذا الند الشريك المشارك لله سبحانه وتعالى فيها يختص به أو فيها يحب له.

قوله: «دبب» أي أثر دبيب النمل، وليس فعل النمل.

قوله: «على صفة» وليس على تراب.

قوله: «سوداء» وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء لتلوث البياض مع كثرة التردد.

قوله: «في ظلمة الليل» وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا فنسأله أن يعين على التخلص منه وهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسى معالجتها على الإخلاص»، ويروي عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا! قيل له: كيف تخلص منه؟ قال «قولوا لله إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم ونستغفر لك ما لا نعلم»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤٠٣/٤، والطبراني في الأوسط والكبير كما في المجمع = ٢٢٣/١٠

قوله: «والله وحياتك» فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: إشراك مع الله بقوله والله وحياتك، فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقاد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة فهو شرك أكبر، وإلا فهو شرك أصغر.

قوله: «وحياتي» فيه حلف بغير الله فهو شرك.

قوله: «لولا كليّة هذا لأنّانا للصوص» كليّة تصغير كلب، والكلب ينفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «لولا كليّة هذا» يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب وهو الله عز وجل، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم فقد تقدم أنه لا بأس به وأن النبي ﷺ قال: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١)، لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال لولا كذا لحصل كذا أو ما كان

= ٢٢٤ ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال المنذري في الترغيب ١/٧٦: «ورواه إلى أبي علي مخنج بهم في الصحيح، وأبو علي وثيقه ابن حبان ولم أر أحداً جرمه»، وكذا قال الهيثمي في المجمع.

وأخرجه المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبويعلي كما في المجمع ٢٢٤/١٠، وابن السنفي في عمل اليوم والليلة (٢٨٧) من حديث أبي بكر، وفيه ليث بن أبي سليم وقد اختلف.

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) وفيه ليث بن أبي سليم مع رجل من أهل البصرة.

وأخرجه ابن حبان في المجموعين ٣٠، وأبو نعيم في الخلية ١١٢/٧ وفيه يحيى بن كثير البصري مجمع على ضعفه.

(١) سبق ص (٣١٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم^(١) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»^(٢).

كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب وهو الله عز وجل.

قوله: «لولا البط في الدار لأتى اللصوص» إذا دخل اللص البيت وفيه بط فإنه يصرخ، فيتبه أهل البيت ثم يجتبه اللصوص.

قوله: «وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت» فيه شرك لأنه شرك غير الله مع الله باللواو، فإن اعتقاد أنه يساوي الله عز وجل في التدبير والمشيئة فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقاد أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء فهو شرك أصغر.

قوله: «هذا كله شرك» المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

قوله: «وعن عمر»: صوابه عن ابن عمر.

(١) أخرجه الطيالسي (١٨٩٦)، وأحد /٢، ٣٤، ٨٦، وأبو داود في الإيّان / باب كراهة الحلف بالأياء ٥٧٠ / ٣، والترمذى في الأيّان / باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله ٢٥٣ / ٥ وحسنه، وابن حبان (١١٧٧)، والحاكم ١٨ / ١، ٤ / ٢٩٧ وصححه على شرط الشيّخين وأقره الذهبي، والبيهقي ٢٩ / ١٠.

وقال الزين العراقي في أماليه إسناده ثقّات كي في التيسير ص (٥٨٩).

(٢) سبق ص (١٢٤).

.....
قوله: «من حلف بغير الله» من شرطية فتكون للعموم.
قوله: «أو أشرك» شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث
(أشرك).

وقوله: «من حلف بغير الله» يشمل كل مخلوف به سوى الله سواء بالكعبة
أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله؛ لأن
الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا فيجوز أن تقول وعز الله لأ فعلن كذا.
قوله: «بغير الله» ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا
الاسم فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع فهو حلف بالله.

والخلف: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، بالباء أو التاء أو
الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، التاء، الواو:
الباء أعمها لأنها تدخل على الظاهر والمضرر، وعلى اسم الله وغيره،
ويذكر معها فعل القسم ومحذف، فيذكر معها فعل القسم كقوله تعالى:
«وأقسموا بالله جهد أيمانهم^(١)، ومحذف مثل قوله: **بالله لأ فعلن**، وتدخل
على المضرر مثل قوله: **الله عظيم أحلف به لأ فعلن**. وعلى الظاهر كما في
الأية، وعلى غير لفظ الجلالة مثل قوله: **بالسميع لأ فعلن**، وأما الواو فإنه لا
يذكر معها فعل القسم ولا تدخل على الضمير ومحلف بها مع كل اسم، وأما
التاء فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتحتخص بالله وربّ. قال ابن مالك: **«والباء**
للله وربّ».

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقاد أن المخلوق به مساو لله تعالى في
التعظيم والعظمة، ولا فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ﴾ .^(١) أي
الشرك الأكبر ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إن الشرك لا يغفره الله ولو
كان أصغر^(٢) لأن قوله: ﴿أَنْ يُشْرِكَ بِهِ﴾ مصدر مؤول فهو نكرة في سياق النفس
فتعم الأصغر والأكبر والتقدير: لا يغفر شركاً به أو إشراكاً به.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحاها﴾^(٣). وقوله: ﴿لَا أَقْسُمُ بِهَذَا
الْبَلْدَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَاللَّيلُ إِذَا يُغْشِي﴾^(٥)، وما أشبه ذلك من المخلوقات التي
أقسم الله بها فالجواب من وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله والله لا يسئل عما يفعل، ولوه أن يقسم
سبحانه بما شاء من خلقه وهو سائل غير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته
وحكمته، فيكون القسم بما الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على
الله عز وجل بما يقتضيه من الدلالة على عظمته.

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) انظر: الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة) ص (١٤٦).

(٣) سورة الشمس، الآية: ١.

(٤) سورة البلد، الآية: ١.

(٥) سورة الليل، الآية: ١.

وأما نحن فلا نقسم بغير الله؛ لأننا منهبون عن ذلك.
وأما مثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «أفلح وأيه إن صدق»^(١).
فالجواب من وجوه:
الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لا تثبت في
ال الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك فلا تصح نسبة إلى رسول الله
ﷺ فيكون باطلًا.
الثاني: أنها تصحيف من الرواية والأصل: «أفلح والله إن صدق».
وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات و«أبيه» تشبه «الله» إذا حذفت النقطة
السفلى.
الثالث: أن هذا مما يجري على الألسنة بغير قصد وقد قال تعالى:
«لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدْتُمُ الْأَيْمَانَ»^(٢).
وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.
الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك فيكون من
خصائصه وأما غيره فهم منهبون عنه، لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص
والتوحيد.
الخامس: أنه على حذف مضاد والتقدير «أفلح ورب أبيه».
السادس: أن هذا منسوخ، وأن النبي هو الناقل من الأصل وهذا أقرب
الوجه. ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النبي

(١) أخرجه مسلم في الإيمان / باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ٤٠/١ من
حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها^(١)؟
فالجواب عنه: أن هذا اليمين كان جارياً على المستهم فتركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه^(٢).

أما بالنسبة للوجه الأول فضعيف؛ لأن الحديث ثابت وما دام يمكن حله على وجه صحيح فإنه لا يجوز إنكاره.
واما الوجه الثاني بعيد، وإن أمكن فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: «أما وأبيك».
واما الوجه الثالث غير صحيح؛ لأن النبي وارد مع أنه كان يجري على المستهم كما جرى على لسان سعد فتهأ النبي ﷺ^(٣)، ولو صح هذا لصح أن يقال لمن فعل شيئاً اعتقد لا ينهى لأن هذا من عادته وهذا باطل.

(١) أخرجه مسلم في الجنائز / باب استئذان النبي ﷺ ربه زيارة أمه ٦٧٢ / ٢ من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) كما في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمُ الْخَمْرَ وَالْمِسْرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبَوْهُ لِعْلَمُكُمْ تَفْلِحُونَ» [سورة المائدة، الآية: ٩٠].

(٣) حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «حلفت مرة باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم انفتح عن يسارك ثلاثة ثم تعود ولا تعدد». أخرجه أحمد ١٨٣ / ١، ١٨٦، ١٨٧، والطحاوي في المشكل ١ / ٣٦٠، وعنه الأمر بالاستغفار بدلاً من التعود، وابن حبان (١١٧٨).
والحديث ضعيف كما في إرواء الغليل ١٩٣ / ٨.

وأما الرابع فدعوى التخصيص تحتاج إلى دليل، وإلا فالاصل التأسي

. 4

٤

قوله: «لأن أحلف بالله كاذبًا»: اللام لام الابتداء، و«أن» مصدرية فيكون قوله: «أن أحلف» م المؤولاً بمصدر مبتدأ تقديره لخلفي بالله.

قوله: «أحب إلى»: خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَن

⁽³⁾. تصوّموا خير لكم ».

قوله: «كاذباً» حال من فاعل أحلف.

قوله: «أحب إلى» هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانين، وهذا نادر في الكلام؛ لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتًا في المفضل وفي المفضل عليه، وأحياناً في المفضل دون المفضل عليه، وأحياناً لا يوجد في الجانين، فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبًا أهون عليه من الحلف بغيره صادقاً، فالحلف كاذبًا بالله حرم من وجوهين:

^{١)} سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

١- أنه كذب والكذب عرم للذاته.

٢ - أن هذا الكذب قرن باليمين ، واليمين تعظيم الله عز وجل ، فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص لله عز وجل حيث جعل اسمه مؤكداً لأمر كذب ، ولذلك كان الحلف بالله كاذباً عند بعض أهل العلم من اليدين الغموس التي تغمض صاحبها في الإثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقاً فهو حرام من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذباً، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا إن الحلف بالله كاذباً من اليمين الغموس؛ لأن الشرك لا يغفر قال تعالى: «إن الله لا يغفر أن يشرك به»^(١)، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك فهو أعظم الذنوب قال تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم»^(٢) وسئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم قال: «أن تجعل الله ندأً وهو خلقك»^(٣)، والشرك متضمن للكذب فإن الذي جعل غير الله شريكاً لله كاذب؛ لأن الله لا شريك له.

قوله: «لاتقولوا»: (لا) نافية وهذا جزم الفعل بعدها يحذف التاء.

قوله: «ما شاء الله وشاء فلان»: والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسوياً مشيئة الله

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٤) سورة لقمان، الآية : ١٣

^(٣) أخرجه البخاري في التفسير / باب : «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر» ٢٧١ / ٣
وسلم في الإيمان / باب كون الشرك أفعى الذنوب ٩١ / ١ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبو داود بسند صحيح^(١)، وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره: أَعُوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك. قال: ويقول لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

بمشيئة المخلوق، وهذا شرك ثم إن اعتقاد أن المخلوق أعظم من الخالق أو أنه مساول له فهو شرك أكبر، وإن اعتقاد أنه أقل فهو شرك أصغر.
قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»: لما نهى عن اللفظ المحرم بين اللفظ المباح، لأن (ثم) للترتيب والتراخي فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: (ما شاء الله فشاء فلان)، فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم) فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعليق، وتوافق (ثم) بأنها للتترتيب، فالظاهر أنها جائزة ولكن التعبير بـ (ثم)

(١) أخرجه أحد / ٥ ، ٣٨٤ / ٣٩٨ ، ٣٩٤ ، وأبو داود في الأدب / باب لا يقال: خبثت نفسي ٢٥٩ / ٥ ، والطیالسي (٤٣٠) ، والنمساني في عمل اليوم والليلة (٩٩١) ، وابن السعی في عمل اليوم والليل (٦٧١) ، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٤١) ، والطحاوي في المشكل ٩٠ / ١ ، والبيهقي في السنن ٢١٦ / ٣ ، وفي الأسماء والصفات ص (١٤٤) ، وفي الاعتقاد ص (١٥٦).

والحديث صححه النسوی في الأذکار (٣٠٨) ، وفي الرياض (١٧٤٨) . وقال الشیخ محمد بن عبد الوهاب: «بسند صحيح».

أولى، لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وأبين في إظهار الفرق بين الخالق والملائكة.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - إثبات المشيئة للعبد لقوله: (ثم شاء فلان) فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢ - أنه ينبغي لمن سد على الناس بباباً محرباً أن يفتح لهم الباب المباح لقوله: (ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)، ونظير ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعَنَا وَقُولُوا انْظَرْنَا»^(١). وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتصرّفٍ جيدٍ وأخبره الآتى به أنه آخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة قال: (لا تفعل ولكن بع الجمع بالدرارهم ثم اشتري بالدرارهم جنبياً)، أي تمرأً جيداً فارشدته إلى الطريق المباح حين نهاده عن الطريق المحرم. قوله: «عن إبراهيم النخعي»: من فقهاء التابعين، لكنه قليل البصاعة في الحديث كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قوله: «يذكره أعود بالله وبك»: العياذ: الاعتصام بالمستعاذه به عن المكرهه، واللبياذ بالشخص هو اللجوء إليه لطلب المحبوب قال الشاعر:
يامن ألوذ به فيما أمله ومن أعود به ما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضون عظماً أنت جابرته
وهذان البيتان يخاطب بهما رجلاً لكن كما قال ابن كثير رحمه الله: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع / باب إذا أراد بيع ثغر بضربيه ١٠٦/٢ ومسلم في المسافة / باب بيع الطعام مثلًا بمثل ١٢١٥/٣ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد. الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر. الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك. الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس. الخامسة: الفرق بين الواو وشم في اللفظ.

وقوله: «أعوذ بالله وبك»: هذا محروم؛ لأن جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو [الواو].

ويجوز بالله ثم بك، لأن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي ، فإن قيل سبق أن من الشرك الاستعادة بغير الله ، وعلى هذا يكون قوله أَعُوذُ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ محرماً؟ أجيب: أن الاستعادة بمن يقدر على أن يعيذك جائزه؛ لقوله ﷺ في صحيح مسلم: «من وجد ملجاً فليعذ به»^(١). لكن لو قال: أَعُوذُ بِاللَّهِ ثُمَّ بِفَلَانٍ وهو ميت فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ رَبِّنَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(٢)، ثم قال رحمة الله: والاستعادة لاتكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الاستعادة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق وهو كلام الله، والكلام تابع للمنتكلم به إن كان مخلوقاً فهو مخلوق وإن كان غير مخلوق فهو غير مخلوق.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد، وقد سبق.

(١) سبق ص ١/٢٥٦.

(٢) سبق ص ١/٢٥٤.

-
-
- الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر؛ لأن قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، نازلة في الأكبر، لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر؛ لأن النذر يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق، أو في بعض الأمور.
- الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك، حديث ابن عمر.
- الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من الممين الغموس، واليمين الغموس عند الخانبلة أن يخلف بالله كاذباً، وقال بعض العلماء - وهو الصحيح - أن يخلف كاذباً ليقطع بها مال أمرئ مسلم.
- الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ، لأن الواو تقتضي المساواة فتكون شركاً، و(ثم) تقتضي الترتيب والتراخي فلا تكون شركاً.

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآياتكم من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله». رواه ابن ماجة بسنده حسن^(١).

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله؛ لأن الحالف أكَّد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المخلوق به، فيكون من تعظيم المخلوق به أن تصدق ذلك الحالف وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله وهذا ينافي كمال التوحيد، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرتين:
الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيها إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية فإن كان الحالف موضع صدق وثقة فإنه ترضى بيمنيه، وإن كان غير ذلك فذلك أن ترفض الرضا بيمنيه،

(١) أخرجه ابن ماجة في الكفارات / باب من حلف له بالله فليرض ٦٧٩ / ١ وقال في الرواية: «رجال إسناده ثقات».

وحسنه الحافظ في الفتح ٥٣٦ / ١١.

وحسنه أيضاً الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

وصححه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٩٥٦) على شرط مسلم.

وَهَذَا مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحُرِيْصَةَ وَمُحِيْصَةَ: «تَبَرَّئُكُمْ يَهُودٌ بِخَمْسِينَ يَمِينًا قَالُوا: كَيْفَ تَرْضَى بِأَرْسُولِ اللَّهِ بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ؟»^(۱)، فَأَقْرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: «لَا»: نَاهِيَةٌ وَهَذَا جَزْمُ الْفَعْلِ بَعْدَهَا بِحَذْفِ النُّونِ وَ«آباؤُكُمْ» جَمْعٌ أَبٌ وَيَشْمَلُ الْأَبَ وَالْجَدَ، وَإِنْ عَلَا فَلَا يَجُوزُ الْحَلْفُ بِهِمْ لَأَنَّهُ شَرُكٌ وَقَدْ سَبَقَ بِيَانِهِ^(۲).

قَوْلُهُ: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلِيَصْدِقْ وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلِيَرْضِ»: هُنَّا أَمْرَانٌ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: لِلْحَالِفِ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا، وَالصَّدْقُ هُوَ: الْإِخْبَارُ بِمَا يَطْابِقُ الْوَاقِعَ، وَضَدُّهُ الْكَذْبُ وَهُوَ: الْإِخْبَارُ بِمَا يَخْالِفُ الْوَاقِعَ فَقَوْلُهُ: (مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلِيَصْدِقْ) أَيْ فَلِيَكُنْ صَادِقًا فِي يَمِينِهِ، وَهَلْ يَشْرُطُ أَنْ يَكُونَ مَطْابِقًا لِلْوَاقِعِ أَوْ يَكْفِي الظُّنُونُ؟ الْجَوابُ: يَكْفِي الظُّنُونُ فَلِمَ يَحْلِفُ عَلَى مَا يَغْلِبُ عَلَى ظُنُونِهِ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ أَمْثَلَةً.

وَقَوْلُهُ: «فَيَصْدِقُ» الْلَّامُ لَامُ الْأَمْرِ.

الثَّانِي: «مَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلِيَرْضِ»، إِذَا قَرَنْتَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ بَعْضَهُمَا بَعْضًا، فَإِنَّ الْأَمْرَ الثَّانِي يَنْزَلُ عَلَى مَا إِذَا كَانَ الْحَالِفُ صَادِقًا، لَأَنَّهُ جَمْعُ أَمْرَيْنِ أَمْرٌ مُوجَهٌ لِلْحَالِفِ، وَأَمْرٌ مُوجَهٌ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ إِذَا كَانَ الْحَالِفُ صَادِقًا وَجَبَ الرَّضَا، فَإِنْ قِيلَ إِنْ كَانَ صَادِقًا فَإِنَّا نَصْدِقُهُ وَإِنْ لَمْ يَحْلِفْ؟

أَجِيبُ: أَنَّ الْيَمِينَ تَرْبِيَهُ تَأْكِيدًا.

(۱) أَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ فِي الْأَدْبِ / بَابِ إِكْرَامِ الْكَبِيرِ ۴، ۱۱۷، وَسَلَمُ فِي الْقِسْمَةِ / بَابِ الْقِسْمَةِ ۳/۱۲۹۵ - ۱۲۹۲.

(۲) ۳۲۵.

فيه مسائل : الأولى : النهي عن الحلف بالأباء . الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى . الثالثة : وعيد من لم يرض .

قوله : (ومن لم يرض فليس من الله)؟ ، أي من لم يرض بالحلف إذا حلف له فليس من الله فهنا تبرأ منه ، فتدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب ، ولكن لا بد من ملاحظة ما سبق وقد أشرنا أن في حديث القسامه دليلاً على أنه إذا كان الحالف غير ثقة فلنك أن ترفض الرضا به ، لأنه غير ثقة لو أن أحداً حلف لك ، وقال والله إن هذه الحقيقة من خشب ، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه والشرع لا يأمر بشيء يخالف الحسن والواقع ، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسن العقل ويشهد له بالصحة والحسن وإن كان العقل لا يدرك أحياناً مدى حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع ، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن ، لأن الله تعالى يقول : «**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**»^(١) ، فإذا اشتبه عليك حسن شيء من أحكام الشرع فاتهم نفسك بالقصور أو بالتفصير ، أما أن تنتهم الشرع فهذا لا يمكن ، وما صح عن الله ورسوله فهو حق وهو أحسن الحكم .

فيه مسائل :
الأولى : النهي عن الحلف بالأباء ، لقوله : «**لَا تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ**» ، والنهي للتحريم .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠ .

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى ، لقوله: (ومن حلف له بالله فليرض) .

الثالثة: وعید من لم يرض ، لقوله: (ومن لم يرض فليس من الله) .
الرابعة: ولم يذكرها المؤلف: أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب
في غير اليمين فكيف باليمين ، وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم
وقال بعض العلماء إنها اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له هل يلزم أن يصدق أم لا؟
المسألة لا تخلو من أحوال خمسة:

الأولى: أن يعلم كذبه فلا أحد يقول إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يتراجع كذبه فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يتراجع صدقه فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية أما الأمور الشرعية في باب التحاكم فيجب أن
يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاه لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي .

باب قول ما شاء الله وشئت

عن قتيلة: «أن يهوديا أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يخلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه^(١).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد :

أن قول ما شاء الله وشئت من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقاد أن المعطوف مساو لله فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

قوله: «أن يهوديا»: اليهودي هو المتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: «إنا هدنا إليك» أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهودا بن يعقوب، فتكون النسبة من أجل النسب، وفي الأول تكون النسبة من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعاً.

(١) أخرجه الإمام أحمد أحد ٣٧١/٦، ٣٧٢، والنسائي في الأبيان / باب الحلف بالكعبة ٦/٧، والطحاوي في المشكّل ٩١/١، ٣٥٧، والحاكم ٤/٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٢١٦/٣، والمزي في تهذيب الكمال ١٦٩٤/٣، وصححه الحافظ في الإصابة

.....
قوله: «إنكم تشركون»: أي تقعون في الشرك أياها المسلمين.

قوله: «ماشاء الله وشئت»: الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويا للمعطوف عليه وهو الله عز وجل.

قوله: «والكعبة»:

الشرك هنا أنه حلف بغير الله ، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي بل أمر بتصحیح هذا الكلام فيقال: ورب الكعبه، فيكون القسم بالله.

ويقال: ما شاء الله، ثم شئت فيكون الترتيب بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق وبذلك يكون الترتيب صحيحاً أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله وأما الثاني فلأنه جعل بلفظ يتبيّن به تأثير مشيئة العبد عن مشيئة الله وأنه لا مساواة بينهما.

ويستفاد من الحديث:

١ - أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

٢ - مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبه عليه ليس محقا.

٣ - أنه ينبغي أن يغیر الشيء إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: «ورب الكعبه» ولم يقل احلفوا بالله وأمرهم أن يقولوا: «ماشاء الله ثم شئت».

فيه إشكال:

وهو أن يقال كيف لم يتبه على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم فكيف يقرهم؟ فيبقى الإشكال، لكن يجاب

وله أيضاً عن ابن عباس : «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ماشاء الله
وشتئ فقل: أجعلتني الله ندا؟ بل ما شاء الله وحده»^(١).

أن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود
الذين اتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركاً أكبر ولا يرون
عيبهم.

قوله: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ»:
الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيمًا، وأنه جعل الأمر مفوضاً لمشيئة الله
ومشيئة رسوله.

قوله: «أجعلتني الله ندا»:
الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندا
فقد أتى شيئاً عجباً.
والند هو النظير والساوي أي أجعلتني الله مساوياً في هذا الأمر.

قوله: «بل ما شاء الله وحده»:
أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء
الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بعدت.

يستفاد من الحديث :

١ - أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك ، فإن كان
يعتقد المساواة فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك فهو أصغر وإذا كان
هذا شركاً فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟ هذا أعظم لأنه ﷺ ليس

(١) سبق ص (١٢٦).

له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع ويحمل السلاح، ويحجع ويتالم ويمرض ويعطش، كبقية الناس ولكن الله فضلها على البشر لما أوحى إليه من هذا الشرع العظيم قال تعالى: **(فَلَمَّا أَتَاهُنَا أَنَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)** فهو بشر وأكده هذه البشرية بقوله: **(مِثْلُكُمْ)** ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: **(يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)**^(١) ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم وأعطاه من الكرم ومن الجود لكتها كلها في حدود البشرية أما أن تصل إلى خصائص الربوبية فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذلك فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فنزله في منزلة هو ينكرها ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فاعطيه ما يجب له، ونسأله أن يعيينا على القيام بحقه، ولتكن لا ننزله منزلة رب عز وجل.

٢ - إنكار المنكر، وإن كان في أمر يتعلق بك لقوله ﷺ: **(أَجْعَلْتَنِي لَهُ نَذَارًا)** مع أنه فعل ذلك تعظيمًا للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحني لك شخص عند السلام فالواجب عليك الإنكار.

٣ - أن من حسن الدعوة إلى الله عز وجل أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قول: **(مَا شاءَ اللَّهُ وَشَاءَ)** أرشده إلى الجائز وهو قوله: **(بَلْ مَا شاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)**.

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

ولابن ماجة عن الطفيلي أخى عائشة لأمها قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود - قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير بن الله . قالوا: وأنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله . قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته . قال: هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم . قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم . وأنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله وحده»^(١).

قوله: «كأني أتيت على نفر من اليهود»: أي رؤيا في المنام .

وقوله: «كأن» اسمها الياء ، وجملة «أتيت» خبرها.

وقوله: «على نفر»: من الثلاثة إلى التسعة .

واليهود أتباع موسى .

(١) أخرجه ابن ماجه في الكفارات / باب النبي أن يقال: ماشاء الله وشئت ٦٨٥ / ١ وقال البوصيري: «رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري».

وهو عند ابن ماجه من طريق أبي عوانة اليشكري ، وقد تابعه شعبة عند الدارمي ٢٩٥ / ٢ ، والخطيب في الموضع ٣٠٣ / ١ ، وحماد بن مسلمة عند أحاد ٧٢ / ٥ ، والطبراني في الكبير =

قوله: «لأنتم القوم» كلمة مدح كقولك هؤلاء هم الرجال.
وقوله: «عزيز هو»: رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم وهو كفر، واليهود لهم مثالب كثيرة لكن خصت هذه لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: «ماشاء الله وشاء محمد»: هذا شرك أصغر، لأن الصحابة الذين قالوا هذا لاشك أنهم لا يعتقدون أن مشيئته الرسول ﷺ مساوية لمشيئته الله، فانتقد عليهم تسوية مشيئته الرسول ﷺ بمشيئته الله عز وجل باللفظ.

قوله: «تقولون المسيح ابن الله»:

هو عيسى بن مریم وسمی مسیحا بمعنى ماسح، فهو فعال بمعنى فاعل؛ لأنك لايمسح ذا عاهة إلا بريء بإذن الله كالأكماء والأبرص.
والشیطان لعب بالنصاری فقلوا: هو ابن الله؛ لأنك أنت بدون أب ولا سبباً إذا كان في الإنجيل كما في القرآن: «فتفخنا فيها من روحنا»^(١) قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه والجزء هو الابن، وقد سبق الجواب عن هذه الشبهة.

= (٨٢١٤) والمرى في تهذيب الكمال ٢/٦٢٦، ٦٢٧، وزيد بن أبي أنيسة عند الطبراني في الكبير (٨٢١٥).

وخالف سفيان بن عيينة فآخرجه أحاديث ٣٩٣/٥، وابن ماجه ١/٦٨٥ من طريقه عن حذيفة ابن حاتم.

وكذا معمر بن راشد فآخرجه الطحاوي في المشكّل ١/٩٠ من طريقه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

وقد رجح الحافظ أن الحديث من روایة الطفیل.

انظر فتح الباري ١١/٥٤٠.

(١) سورة الأبياء، الآية: ٩١.

والروح : على الراجح عند أهل السنة ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس ، ولهذا يقبحها الملك عند الموت وتكتفن ويصعد بها ويراه الإنسان عند موته ، فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول إنها صفة ولكنه ليس كذلك ، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات ، إذا نقول لهؤلاء النصارى إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والناقة إليه وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم ، ولاشك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفاً وعظمة حتى إن بعض الشعراء يقول في معيشته :

لا تدعوني إلا يا عبدها فإنك أشرف أسمائي

قوله : «فَلِمَا أَصْبَحَتْ أَخْبَرَتْ بَهَا مِنْ أَخْبَرَتْ» : المقصود بهذه العبارة الإبهام كقوله تعالى : «فَغَشَّيْهِمْ مِنَ اليم مَاغْشِيهِمْ»^(١) والإبهام وقد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة ، وقد يكون للتحقيق حسب السياق ، وقد يراد به معنى آخر .

قوله : «هل أخبرت بها أحداً» :

سأل النبي ﷺ هذا السؤال لأنه لو قال : لم أخبر أحداً ، فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له : لا تخبر أحداً . هذا هو الظاهر ، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام لكن لما قال إنه أخبر بها صار لابد من بيانها للناس عموماً ، لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه ، بخلاف إذا كان خاصاً فهذا يخبر به من وصله الخبر .

قوله : «فَهَمَدَ اللَّهُ» : الحمد : وصف المحمود بالكمال مع المحبة - والتعظيم .

(١) سورة طه ، الآية : ٧٨ .

فيه مسائل: الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى. الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني الله ندا» فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده؟ الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يُمْنَعُنِي كذا وَكذا». الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي. السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع الأحكام.

قوله: «وَأَنْتَ عَلَيْهِ»: أي كرر ذلك الوصف.

قوله: «أَمَا بَعْدَ»: سبق أنها بمعنى منها يكن من شيءٍ بعد، أي: بعد ما ذكرت فكذا وكذا.

قوله: «يُمْنَعُنِي كذا وَكذا»:

أي يمنعه الحياة كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياة من إنكار الباطل، ولكن من أن يعني عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت عفوقة، أن الحياة الذي يمنعه ليس الحياة من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق ولكن الحياة من أن ينكر شيئاً قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار مثل الخمر بقى الناس يشربونها حتى حرمت في سورة المائدة، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لا بد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين.

قوله: «قولوا ما شاء الله وحده»: ثناهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

فيه مسائل :

الأولى: «معرفة اليهود بالشرك الأصغر»: لقوله: «إنكم لتشركون».

الثانية: «فهم الإنسان إذا كان له هوى»: أي إذا كان له هوى فهم شيئاً، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه فاليهود - مثلاً - أنكروا على المسلمين قولهم: «ما شاء الله وشئت». وهم يقولون أعظم من هذا يقولون: عزير ابن الله.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه، ولذلك تجده يحمل النصوص على ما يوافق مذهبة ويحملها من الدلالات ما لا تتحمل، كذلك أيضاً بعض العصرىين يحملون النصوص ما لا تتحمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها، فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه ثم يكون فهمه تابعاً لها، لأن يخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقدوه وهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدلت ربما يحملك اعتقادك على أن تحرف النصوص إلى ما تعتقد كمَا هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل: أن الإنسان إذا كان له هوى، فإنه يحمل النصوص ما لا تتحمله من أجل أن توافق هواه.

الثالثة: قوله ﴿أَجْعَلْتِنِي اللَّهُ نَدًا﴾: فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما

لي من ألوذ به سواك. والبيتين بعده؟

قوله: «أَجْعَلْتِنِي اللَّهُ نَدًا»: هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق...»: يشير رحمه الله إلى بيتهن للبوصيري في البردة - القصيدة المشهورة يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العم
إن لم تكن آخذنا يوم المعاد يدي عفواً ولا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرها ومن علومك علم اللوح والقلم
وهذا غاية الكفر والغلو فلم يجعل الله شيئاً، والنبي ﷺ شرفه بكونه
رسول الله، لأنَّه محمد بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يُمْنَعُ كُذَا وَكُذَا»:
لأنَّه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيءٌ من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي:

تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة
وأربعين جزءاً من النبوة»^(١) وهذا موافق للواقع بالنسبة للوحي الذي أوحى إلى
النبي ﷺ لأنَّ أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان وهذا
ستة أشهر فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي كان جزءاً من ستة وأربعين جزءاً
لأنَّ الوحي كان ثلاثة وعشرين سنة وستة أشهر.
والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن صلاح الرجل، وتأتي منظمة وليس
بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام فإنها مشوهة غير منتظمة، وذلك مثل التي قصها
رجل على النبي ﷺ قال: «إني رأيت رأسِي قد قطع وإنِّي جعلت اشتد وراءه
سعياً، فقال النبي ﷺ: لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك»^(٢)
والغالب أن المرائي المكرورة من الشيطان قال تعالى: «لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَيُسْبِّحُوا هُنَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٣)، ولذلك أرشد النبي ﷺ من رأى ما يكره
أن يتفل عن يساره، أو ينفتح ثلاثة مرات وأن يقول: «أعوذ بالله من شر

(١) أخرجه البخاري في التعبير/ باب القيد في المنام ٤/٣٠٣، ومسلم في الرؤيا ٤/١٣٧٣ من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الرؤيا/ باب لا يخرب بتلاعب الشيطان به في المنام ٤/١٧٧٦ من حديث
جابر رضي الله عنه.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

الشيطان ومن شر ما رأيت وأن يتحول إلى الجانب الآخر وأن لا يخبر أحداً^(١)، وفي رواية: «أمره أن يتوضأ وأن يصلّي»^(٢).

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام: من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان وقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا رُؤْيَا حَقٌّ»^(٣) وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شهاس، فقال للذى رأه: إنكم ستتجدون درعي تحت برمة، وعندها فرس يسترن فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس^(٤)، فنفذ أبو بكر وصيته، لوجود القرائن التي تدل على صدقها.

(١) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه: «... وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» أخرجه البخاري في التعبير/ باب الرؤيا من الله ٤/٢٩٦، وحديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصدق عن يساره ثلاثة، ولبيسأله من الشيطان ثلاثة، ولتحول عن جنبه الذي كان عليه».

آخرجه مسلم ٤/١٧٧٣.

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «... فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد، وليقمل فليصل».

آخرجه البخاري في التعبير/ باب القيد في المnam ٤/٣٠٣.

(٣) آخرجه أحمد ٤/٤٣، وأبو داود في الصلاة/ باب كيف الأذان ١/٣٣٧، والترمذني أخرج آخراً دون صفة الأذان ١/٢٣٦، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الأذان/ باب بده الأذان وقال الترمذني في المجموع ٣/٧٦: «رواه أبو داود بإسناد صحيح وروى الترمذني بعضه بطريق أبي داود».

(٤) أورده الهيثمي في جمع الزوائد ٩/٣٢١ وقال: «رواه الطبراني، ورجحه رجال الصحيح».

باب من سب الدهر فقد أذى الله

السب: الشتم والتقيح والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحسوس دون اللوم، فهذا جائز مثل أن يقول: تعينا من شدة حر هذا اليوم، أو برده وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات واللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: «هذا يوم عصيبي»^(١).

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقاد أن مع الله حالقاً لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقاد أن مع الله حالقاً فهو كافر كما أن من اعتقاد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل لكن يسبه؛ لأن مدل هذا الأمر المكره عنده فهذا محظوظ، ولا يصل إلى درجة الشرك؛ وذلك لأن سبه إياه لا يخلو إما أن يعتقد أنه هو الفاعل وهذا شرك، وأما ألاً يعتقد أن الله هو الفاعل فتكون حقيقة السب لله عز وجل لأن الله تعالى هو الذي يصرفه ويكون فيه ما أراد من خير أو من شر، فليس الدهر فاعلاً فسبه في الحقيقة يعود إلى سب الله عز وجل؛ فيكون هذا محظوظاً، وليس

(١) سورة هود، الآية: ٧٧.

وقول الله تعالى: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ . . .»^(١) الآية.

بشرى لأنَّه لم يسب الله تعالى مباشرةً.

قوله: «فَقَدْ آذَى اللَّهُ»:

لا يلزم من الأذية الضرر، فالإنسان يتاذى بساع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، وهذا أثبت الله الأذية في القرآن قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ
يُؤذِنُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعْدَهُمْ عِذَابًا مُّهِمَّا»^(٢) وفي
الحديث القدسي: «يُؤذِنُ بِيُؤذِنِي ابْنُ آدَمَ يُسْبِبُ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أَقْلَبُ اللَّيلَ
وَالنَّهَارَ»^(٣). ونفي عن نفسه التضرر قال تعالى: «إِنَّهُمْ لَنْ يَضْرُبُوا اللَّهَ شَيْئًا»^(٤)
وفي الحديث القدسي: «يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرَّى فَتَضْرُبُونِي»^(٥) رواه
مسلم.

قوله: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا»:

المراد المشركون الموافقون للدهريَّة - بضم الدال على الصحيح عند
النسبة؛ لأنَّه ما تغير فيه الحركة - والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا، فليس
هناك آخرة بل يموت بعض ويعيش آخرون هذا يموت فيدفن، وهذا يولد فيحيا،
ويقولون إنها أرحام تدفع وأرض تبلغ ولا شيء سوى هذا.

قوله: «وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ»:

(١) سورة الحاثة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٣) يأتي ص (٣٥٤).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٦.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة / باب تحرير الظلم ٤/ ١٩٩٤ من حديث أبي ذر جندب بن
جندب رضي الله عنه.

.....
أي : ليس هلا كنا بأمر الله وقدره ، بل طول السنين لمن طالت مدة ،
والأمراض والهضم والغموم لمن قصرت مدة .

قوله : «**وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ**» :

«ما» : نافية و«علم» : مبتدأ وأكد بمن فيكون للعموم ، أي ما هم علم
لا قليل ولا كثير ، بل العلم واليقين بخلاف قوله .

قوله : «**إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ**» :

«إن» : هنا نافية لوقوع «إلا» بعدها ، أي ما هم إلا يظنو .

الظن هنا بمعنى الوهم فليس ظنهم مبنيا على دليل يجعل الشيء مظنونا ،
بل هو مجرد وهم لا حقيقة له فلا حجة لهم إطلاقا وفي هذا دليل على أن الظن
يستعمل بمعنى الوهم ، وأيضا يستعمل بمعنى العلم واليقين قوله تعالى :
﴿الَّذِينَ يَظْنُونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾^(١) .

الرد على قوله بها يلي :

أولاً : قوله : «**مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**» :

هذا يرده المنقول والمعقول ، أما المنقول فالكتاب والسنة تدل على ثبوت
الآخرة ووجوب الإثبات بالاليوم الآخر ، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة
الدنيا ، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده .

وأما المعقول فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد
لإعلاء كلمة الله مع ما في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية ،
فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك ترابا لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا
عقاب ، وحكمة الله تأبى هذا قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ**
لِرَادِكُ إِلَى مَعَادٍ﴾^(٢) أي : الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة

(1) سورة البقرة ، الآية : ٤٦ .

(2) سورة القصص ، الآية : ٨٥ .

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى يؤذني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار»^(١) وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(٢).

إليه لابد أن يرددك إلى معاد تجازى عليه ومجازى عليه كل من بلغته الدعوة.
ثانياً: قوله: «وما يهلكنا إلا الدهر»:

هذا يرده المنسوق والمحسوس، فاما المنسوق فالكتاب والسنّة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل كما قال الله تعالى: «هو يحيى ويميت وإليه ترجعون»^(٣) وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: «وأححي الموتى بإذن الله»^(٤) وأما المحسوس فإننا نعلم من يبقى سينين طويلة على قيد الحياة كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشباباً يموتون في قوة شبابهم فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب :

إن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر ومن نسبها إلى الدهر فسوف يسب الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

قوله: «وفي الصحيح عن أبي هريرة... إلى آخره»:
هذا الحديث يسمى الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما

(١) أخرجه البخاري في التفسير / تفسير سورة الجاثية ٢٩١/٣، ومسلم في الأدب / باب النبي عن سب الدهر ٤/١٧٦٢.

(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق ٤/١٧٦٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل والأحاديث القدسية لا تثبت لها أحكام القرآن:

- فيجوز مسها بلا طهارة.
- ويجوز للجنب والخائض قراءتها.
- ولا تقرأ في الصلاة.
- ويصح بيعها.
- والسفر بها إلى أرض العدو.
- ولا يتبعد بتلاوتها.
- وتروى بالمعنى.

واختلف هل هي منسوبة إلى الله لفظاً ومعنى ، أو لفظاً فقط؟ .
والصحيح أنها من كلام الله تعالى ، واللفظ من الرسول ﷺ ، فاللفظ مخلوق والمعنى غير مخلوق ، إذ لو كانت من كلام الله لفظاً وكانت معجزة ؛ لأن كلامه تعالى لا يشبه كلام البشر ، وأيضاً لو كانت من كلام الله لما حصل الاختلاف في اللفاظ روایتها ؛ لأن كلامه تعالى محفوظ ، وهذا لا يزيد في القرآن ولا ينقص .

فإن قال قائل : إن النبي ﷺ ينسب القول فيها إلى الله ، وإذا نسب القول إلى قائله كان قوله لفظاً ومعنى ؟ . فالجواب : أن هذا صحيح ، وأن هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع وهنا قد منع منه مانع وهو أنه لو كان كلام الله لفظاً ومعنى لثبتت له أحكام القرآن ؛ لأن الشريعة لا تفرق بين مئتين ولا غرابة أن ينسب القول إلى قائله باعتبار معناه فإن جميع ما في القرآن من الأقوال المنسوبة إلى الرسل السابقين وأعمهم كلها منسوبة لهم باعتبار المعنى ؛ لأنها بلغة عربي وتلك الأمم السابقة ليس لسانهم عربياً ، وأيضاً فإن الله يذكر القول عن

قائله بلفظ مختلف لمناسبة أسلوب القرآن كما في قوله عن سحرة آل فرعون: «قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون»^(١) وقال في آية أخرى: «فالقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى»^(٢) فقدم هارون على موسى لتناسب رؤوس الأئي.

قوله: «قال الله تعالى»: «تعالى» من العلو وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترفعه جل وعلا عن كل نقص وسفل، فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا أي ترفع وتنتزه عنها يشرون علواً كبراً.

قوله: «بِئْدِنِي ابْنَ آدَمَ»: أي يلحق بي الأذى، فالآذية الله ثابتة ومحب علينا إثباتها، لأن الله أثبتها لنفسها، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كاذبة المخلوق بدليل قوله تعالى: «لَيْسَ كَعَمْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٣) وقدم النبي على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهם المهاولة، ويكون الإثبات حيثند على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يتأثر في صفاته كما لا يتأثر في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه فليس فيه احتمال للتلميح إذ لو كان احتمال الكفر جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيها وصف به نفسه لكان احتمال الكفر جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «ابن آدم»: شامل للذكور والإناث، وأدم هو أبو البشر خلقه الله تعالى من طين وسوأه ونفع فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعلمه من أسماء كل شيء.

اعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الأدميين نشأوا من قرد لا من طين ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٤٧ - ٤٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة ، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن ، فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً وأن لا نقره في كتب المدارس ، فمن زعم هذه الفكرة يقال له بل أنت قرد في صورة إنسان ، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله
وتزوجه ابنيه بابتيه في الخنا
علمنا بأنَّ الخلق من نسل فاجر
وأنَّ جميع الناس من عنصر الزنا
وأجابه بعض العلماء بجواب فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا ،
وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول ومثلك ، كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم له وفي غيره لغو كما جاء شرعنـا
ولكن أنا في الحقيقة يؤلـني أن يوجد هذا بين أيدي شبابـنا ، فبعض الناس
أخذوا به على أنه أمر محتمـل ، والواقع أنه لا يحتمـل سوى البطلـان والكذـب
والدسـ على المسلمين بالتشكيـك بما أخبرـهم الله به عن خلقـ آدم وبنـيه .

الثانية: أيضاً مما يحذر عنه كلمة [فـكر إسلامـي] إذ معنى هذا أنـنا جعلـنا
الإسلامـ عبارـة عن أفـكار قـابلـة للأـخذ والـرد ، وهذا خـطر عـظيم أدخلـه علينا
أعدـاء الإسلامـ من حيث لا نـشرـ.

قولـه: «يسـبـ الـدـهـرـ»: الجـملـة تـعـلـيلـة لـلـأـذـيـةـ ، أو تـفـسـيرـة لـلـأـذـيـةـ أيـ
بـكونـه يـسـبـ الـدـهـرـ أيـ يـشـتـمـهـ وـيـقـبـحـهـ وـيـلـومـهـ وـرـبـهاـ يـلـعـنـهـ -ـ والعـيـاذـ بـالـلـهـ -ـ

والـدـهـرـ: هوـ الزـمـنـ وـالـوقـتـ ، وـقـدـ سـيـقـ بـيـانـ أـقـسـامـ سـبـ الـدـهـرـ .

قولـه: «وـأـنـاـ الدـهـرـ»: أيـ مدـبـرـ الـدـهـرـ وـمـصـرـفـهـ قالـ تعالى: «وـتـلـكـ الأـيـامـ
نـداـوـهـاـ بـيـنـ النـاسـ»⁽¹⁾ وـلـقـولـهـ فـيـ الـحـدـيـثـ: «أـقـلـبـ الـلـيـلـ وـالـنـهـارـ» وـالـلـيـلـ وـالـنـهـارـ
هـمـ الـدـهـرـ .

(1) سـورـةـ آـلـ عـمـرـانـ ، الآـيـةـ ١٤٠ـ .

.....
ولا يقال بأن الله هو الدهر، ومن قال ذلك فقد جعل الخالق مخلوقاً
والمقلب مقلباً.

فإن قيل: أليس المجاز منوعاً في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟
أجيب: أن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في
الكلام محدود تقديره وأنا مقلب الدهر لأنه فسره بقوله: «أقلب الليل والنهار»
ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو
المقلب، وهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله كابن حزم رحمه الله،
فإنه قال: إن الدهر من أسمائه الله، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث،
وغفلة عن الأصل في الأسماء، فالالأصل في أسماء الله أن تكون حسنة أي باللغة
في الحسن غايته، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من
الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، وهذا لا تجده في أسماء الله تعالى أسماء
جامداً أبداً، لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن
أسماء الله كلها حسنة فيلزم من ذلك بأن تكون دالة على معانٍ، والدهر اسم
من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن وعلى هذا فيتضي أن يكون
اسم الله لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأبه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنة، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه
اسم للأوقات فلا يحمل المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحيثند فليس من
أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن ولكن مقلب الزمن هو الله وهذا قال: «أقلب
الليل والنهار».

قوله: «أقلب الليل والنهار»: أي ذواتها وما يحدث فيها، فالليل والنهار
يقلبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي

فيه مسائل : الأولى : النهي عن سب الدهر . الثانية : تسميتها أذى الله . الثالثة : التأمل في قوله : «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» . الرابعة : أنه قد يكون سابا ولو لم يقصد به بقلبه .

الأسبوع وفي الشهر وفي السنة قال تعالى : «قُلْ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ شَاءٍ وَتُنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ شَاءٍ وَتَعْزِيزُ شَاءٍ وَتَذَلِّلُ شَاءٍ يَدْكُ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(۱) وهذا أمر ظاهر ، وهذا التقليد له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر ، لأن حكمة الله أعظم من أن تخيط بها عقولنا ، وب مجرد ظهور سلطان الله عز وجل ، و تمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة ، في يتضرع ويلجأ إليه .

قوله : «وَفِي رِوَايَةِ لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» :
فائدة هذه الرواية أن فيها التصریح في النهي عن سب الدهر .

قوله : «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» :
وفي نسخة : «إِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ» والصواب فإن الله هو الدهر .
وقوله : «إِنَّ الدَّهْرَ هُوَ الدَّهْرُ» : أي فإن الله مدبر الدهر ومصرفيه ، وهذا تعليل للنبي ، ومن بلاغة كلام الله ورسوله فرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة ، ولأجل أن تتعذر العلة إلى غيرها فيها إذا كان المعلل حكما .

فيه مسائل :
الأولى : النهي عن سب الدهر : لقوله : «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ» .
الثانية : تسميتها أذى الله : تؤخذ من قوله : «يُؤذِيَنِي ابْنُ آدَمَ» .

(۱) سورة آل عمران ، الآية : ۲۶ .

الثالثة : التأمل في قوله : فإن الله هو الدهر؛ فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مقلب الدهر ومصرفه وليس معناه أن الله هو الدهر وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة : أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصد به قوله : تؤخذ من قوله : «بؤذيني ابن آدم يسب الدهر» ولم يذكر قصداً ولو عبر بقوله : أنه قد يكون مؤذياً لله ولم يقصد له لكان أوضح وأصلح ، لأن الله صرخ بقوله «يسب الدهر». والفعل لا يضاف إلا لمن قصدته.

وقد فات على المؤلف بعض المسائل منها : تفسير آية الحاثنة وقد سبق ذلك.

تم الجزء الثاني وهو الحمد
وبليه الجزء الثالث وأوله
باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

فهرس الآيات الجزء الثاني

الفاتحة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
الحمد لله رب العالمين	١٣٥	١
الرحمن الرحيم	١٣٥	٢
إياك نعبد وإياك نستعين	١٩٠-٧٨	٤

سورة البقرة

٢٨٠	١١	وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض
٣١٩	٢١	الذى خلقكم والذين من قبلكم
٧٣	٣٩	هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميماً
٣٥٣	٤٦	الذين يظلون أنهم ملائكة ربهم
٣٠٨	٦٣	وإذ أخذنا ميشاقكم ورفعنا فوقكم الطور
٢٨٣	٦٦	فجعلناها نكالاً لما بين يديها
٢٧، ٢٦، ١١٥	١٠٢	ولقد علموا من اشتراء ما له في الآخرة
١١٣، ١١١، ٤١		يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا
٣٣١	١٠٤	

الآية	رقم الآية رقم الصفحة
ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة	١٤٥ ١٣٠
ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ونقطعت بهم الأسباب	١٥٥، ١٥٦، ١٧٣
وأن تصوموا خير لكم والكافرون هم الظالمون	١٨٤ ٣٢٨
الله ولِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ربِّ أَرْضِي كَيْفَ تَحْسِي الْمَوْتَىٰ	٢٥٧ ١٥٧، ١٥٨
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ	٢٦٤ ٢٢٨

سورة آل عمران

٣٠٥-٢٨٤	٧	كل من عند ربنا
٢٤٥	١٤	زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
١٥٥	١٩	إن الدين عند الله الإسلام
٣٥٩	٢٦	قل اللهم مالك الملك
٩١	٣٨	رب هب من لدنك ذرية طيبة
٤٤، ٤٣	٤٦	ولا تنازعوا فتفشلوا
٣٥٤	٤٩	واحسي الموتى يا ذن الله
١٥٥	٨٥	ومن يتبع غير الإسلام ديناً
٩١	١٢٠	إن تمسك حسنة توهم
١٥٧	١٤٠	وتلك الأيام نداولها بين الناس
١١٩	١٦٤	لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم

الآية رقم الآية رقم الصفحة

١٩٧، ١٦٨	١٧٣	إن الناس قد جعلوكم فاخشوه
١٦٤	١٧٥	إنا ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
٣٥٢	١٧٦	إنهم لن يضروا الله شيئاً

سورة النساء

٢٠	١٠	إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً
٢٨٣، ٢٨	١٧	إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة
١٢٣	١٨	وليس التوبة للذين يعملون السيئات
١٨٢	٢٦	يريد الله ليبن لكم
٢٠٦	٣١	إن تجتبوا كبائر ما تهون عنه
١٩٣	٤١	فكيف إذا جتنا من كل أمة بشهيد
٢١٩، ١٢٤، ١٣	٤٨	إن الله لا يغفر أن يشرك به
٣٢٩، ٣٢٥		
٢٦٧	٥١	يؤمنون بالجحود والطاغوت
٢٥٥	٥٩	يا أيها الذين آمنوا أطاعوا الله
٢٨٥، ٢٧٥	٦١، ٦٠	ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا
١٩٨	٨١	وكفى بالله وكيلاً
٢٧٠	٨٢	أفلا يتذمرون القرآن
١١٢	٩٣	ومن يقتل مؤمناً متعبداً
١٧١	٩٨	إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان
١٣٤	١٠٥	إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق
٢٧٥	١١٣	وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة

الأية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة المائدة

٢٦٩، ١٥٥	٣	ورضيت لكم الإسلام دينا
١٨٥	٢٣	وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين
٦٥	٣٣	إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله
٢٦٦-١٧١	٤٤	فلا تخشوا الناس واحشون
٢٦٦	٤٥	ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الظالمون
٢٦٦	٤٧	ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الفاسقون
١٣١	٤٨	وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا
٣٣٧، ٢٨٢، ٢٦٧	٥٠	أفحكم الجاهلية يبغون
١٥٦	٥١	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء
١٥٧	٥٥	إنما ولبكم الله ورسوله والذين آمنوا
١٥٨	٥٦	ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا
٩	٦٠	وعبد الطاغوت
٢٩٠	٦٤	بل يداه مبسوطتان
٢٨٠ ٦٦-٦٥		ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا
١٤	٧٢	إنه من يشرك بالله
٣٢٦	٨٩	لا يؤاخذكم الله باللغو في أيهانكم

سورة الأنعام

١٥٨	٦٢	ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق
١٩٨	٨٩	فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً
٢٩٧	١٠٣	لاتدركه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وَتَمَتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ صَدِقًا وَعَدْلًا	١١٥	١٣٢

سورة الأعراف

٢٩٨	٣٣	قل إنما حرم رب الفواحش
٢٨٠	٥٦	وَلَا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها
٢٨٠	٩٦	ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا
٢٠١	٩٨٩٧	أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا
٢٠٢، ٢٠١	٩٩	أفأمنوا مكر الله
٥٥	١٢٨	وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا
١٠٠، ٩٧، ٧٨	١٣١	ألا إنما طائرهم عند الله
٢٠٧	١٨٢	والذين كذبوا بآياتنا سنتدرجهم

سورة الأنفال

٢٠	١٦	ومن يو لهم يومئذ ذبره إلا متخرفا
٢٧٨	٢٤	واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه
١٥٧	٢٧	يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله
١٥٧	٢٨	واعلموا أنها أموالكم وأولادكم فتنة
٢٠٢	٥٠	ويمكرون ويمكر الله
١٩٥	٦٢	هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين
١٩٤	٦٤	يا أيها النبي حسبك الله
٢١	٦٦	آلان خفف الله عنكم
٢٣	٧١	وإن يريدوا خيانتك

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض	٧٥	١٠٩

سورة التوبة

١٥	٦	وإن أحد من المشركين استجارك
١٦٩	١٨	إنما ينفع مساجد الله من آمن بالله
٢٧٣، ٢٦٠	٣١	اتخذوا أثوابهم ورهبانيم أرباباً
١٤٥	٣٤	قل إن كان آباءكم وأبناءكم
٨٢	٣٧	يحلوا ما حرم الله
٩١	٥٠	إن تصبك حسنة تسُهُّم
١٩٦	٥٩	ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله
٢٧١	١١٥	وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم

سورة يونس

٣٠٤	١	كتاب أحكمت آياته
٣١٦	٢٢	حتى إذا كتم في الفلك وجرين بهم
٣٥٤	٥٦	هو يحيي ويميت وإليه ترجعون
١٥٧	٦٢	ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم
١١٥	١٠٦	ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك

سورة هود

٣٠٤	١	تلك آيات الكتاب الحكيم
٢٤١	١٥	من كان يريد الحياة الدنيا وزريتها

الآية	رقم الصفحة	رقم الآية
أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار	١٦	٢٤٨
هذا يوم عصيّب	٧٧	٣٥١
فما أغنت عنهم آهاتهم التي يدعون من دون الله	١٠١	٩٨
فاعبده وتوكل عليه	١٢٣	١٩٠، ٧٨
عليه توكلت وإليه أنيب	١٨٨	١٩٠

سورة يوسف

رب السجن أحب إلى ما يدعوني إليه	٣٣	٢١٢
يأيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً	٧٨	١٢٢

سورة الرعد

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل	٢١	١٠٩
أولئك لهم اللعنة وهم سوء الدار	٢٥	٢٢٣
وهم يكفرون بالرحمن	٣٠	٣٠٧، ٢٩٩، ٢٩٨

سورة إبراهيم

وإن تعدوا نعمة الله لا تخلصوها	٣٤	٣١١
--------------------------------	----	-----

سورة الحجر

أبشر ثموني على أن مسني الكبر	٥٤	٤٥٤، ٥٥
ومن يقتنط من رحمة ربها إلا الضاللون	٥٦	٤٠٣

الأية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة النحل

٣٦	١٥	وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم
١٠٤	١٦	وعلامات وبالنجم هم يهتدون
٧٤	٦٩	فيه شفاء للناس
٩٧	٧٢	ألم ي BRO إلى الطير مسخرات في جو السماء
١٨٢	٧٤	فلا تضر بـوا الله الأمثال
٣١١	٨٣	يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها
٢٧٠	٨٩	ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء
١٥	٩٠	إن الله يأمر بالعدل
٥٣	١٠٢	قل نزله روح القدس من ربك
٢٧٢	١٠٦	من كفر بالله من بعد إيمانه
٢٦٣	١١٦	ولا تقولوا لما تصرف ألسنتكم الكذب

سورة الإسراء

٢٧١	١٥	وما كان معدّين حتى نبعث رسولاً
٢٤٧	١٨	من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها
١٠٧، ٧١	٢٣	وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه
٢٩٧	٣٦	ولا تقف ما ليس لك به علم
١٠٧، ٧١	٣٨	كل ذلك كان سيّه عند ربك مكرورها
١٠٤	١٠٦	وقرأنا فرقناه
٢٩٩	١١٠	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن

الآية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة الكهف

٢١١	٢٨	واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ
٣٤٢، ٢٢٩، ٢٢٦	١١٠	

سورة مریم

٢٢٨	١١	فخرج على قومه من المحراب
-----	----	--------------------------

سورة طه

٣٥٦	٧٠	فالقي السحرة سُجَدًا
٣٤٥	٧٨	فغشيم من اليم ما غشيم
٣١٥	١٠٩	يومئذ لا تنفع الشفاعة إلَّا مَنْ لِهِ الرَّحْمَنُ
٢٩٧	١١٠	وَلَا يحيطون به علماً
٢١١	١٣٢	وأمر أهلك بالصلة واصطبِّر عليها

سورة الأنبياء

١٣٤	٢٠	تزييل من رب العالمين
١٣٤	٢٧-٢٦	يسبحون الليل والنهار لا يفترون
١٠٥	٣٣	وهو الذي خلق الليل والنهار
٢٢٠	٤٧	ونضع الموزين القسط ليوم القيمة
٩١	٨٣	وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر
٣٤٤	٩١	فنبخنا فيها من روحنا

الأية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة الحج

١٦	٥	فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت
٢١٦، ١٧٣، ١٧٢	١١	ومن الناس من يعبد الله على حرف
٢٣٤		
١٥٨	١٥	من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة
٢١٩	٦٠	ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه

سورة المؤمنون

١٦٥	٦٠	والذين يؤتون ما آتوا وقلوهم وجلة
٢٧٠	٦٨	أفلم يدبروا القول
٢٦١	٨٦	قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم
١١٥	١١٧	ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به

سورة النور

٢٢	٥-٤	والذين يرمون المحسنات
٨٧	٤٣	ألم تر أن الله يزجي سحابا
٢٧٢، ٢٥٩، ٢٥٨	٦٣	فليحذر الذين يخالفون عن أمره

سورة الفرقان

١٤٤	٢٤	أصحاب الجنة يومئذ خير مسترداً
١٣٦، ١٣٢	٥٢	فلا تطع الكافرين واجاهدهم به جهاداً كبيراً

الآية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة الشعراء

٥٥	٣٤	قال للملائكة إن هذا لساحر عليّ
٢٥٦	٤٧	قالوا آمنا برب العالمين
٣٥٦	٤٨	رب موسى وهارون
١٣٥، ٥٣	١٩٢	وإنه لتنزيل رب العالمين
٥٣	١٩٣	نزل به الروح الأمين

سورة النمل

١٠٦	٣٩	قال عفريت من الجن أنا أتيك به
٢٠٢	٥٠	ومكرٌ ومحْكِراً ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون
١٤٤	٥٩	الله خير أما يشركون
١١١، ١٠٣، ٥٥	٦٥	قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله

سورة القصص

٢٥٨	٦٥	يُوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْبَتُمُ الْمُرْسَلِينَ
١٣٧	٧٨	إِنَّا أَوْتَيْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِنَا
٣٥٣	٨٥	إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ

سورة العنكبوت

١٧٢	١٠	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَ بِاللَّهِ
-----	----	--

الأية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة الروم

٢٨٠ ٤١ ظهر الفساد في البر والبحر

سورة لقمان

٣٢٩-٢٣١ ١٣ إن الشرك لظلم عظيم
٢٩٩ ٢٥ ولنن سألتهم من خلق السموات والأرض

سورة السجدة

٣٠٥ ١٧ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين
٢٦٧ ٢٠ أما الذين فسقوا فما واهم النار

سورة الأحزاب

١٢١ ٣٣ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى
١٤٩، ٨١، ٥٢ ٣٦ وما كان ملؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً
٣٥٢ ٥٧ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله
١٤٥ ٦٨-٦٧ قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا

سورة فاطر

١٧١ ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء
٨ ٣٢ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا

الأية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة يس

٧٩	١٣	واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية
٧٩	١٨	إنا نطيرنا بكم
١٠٠، ٧٩	١٩	قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم

سورة الصافات

٢٥٩	١٢	بل عجبت ويسخرون
١٣٢	٤٩	كأنهن بيض مكنون
١٢٨١٣٨١٣٧		وإنكم لتمرون عليهم مصيحيين
٢٠٥	١٤٤	فلولا أنه كان من المسيحيين

سورة ص

٣٢٠	٥	أجعل الآلة إليها واحداً
٣٠٦، ٢٧٠	٢٩	كتاب أنزلناه إليك مبارك
١٠٦	٣٨-٣٧	والشياطين كل بناء وغواص

سورة الزمر

٣٠٥	٢٣	الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً
١٩٦	٣٨	قل حسبي الله عليه يتوكل المتكلمون
١٣٦	٦٠	وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج
٢٣٤	٦٧	وما قدروا الله حق قدره

الآية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة غافر

٢٢٠	٥١	إنا لنتصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا
١٦٥	٦٠	وقال ربكم ادعوني أستجب لكم

سورة فصلت

١٣٥	٢	تنزيل من الرحمن الرحيم
١٣٥	٣	كتاب فصلت آياته
٢٢٣	٤٦	من عمل صالحًا فلنفسه

سورة الشورى

٢٥٦، ١٨٢	١١	ليس كمثله شيء وهو السميع البصير
----------	----	---------------------------------

سورة الزخرف

٥٤	٢٧-٢٦	وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء
١٥٩	٦٧	الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو

سورة الجاثية

١٠٧	١٣	وسخر لكم ما في السموات والأرض جياعاً منه
٢٨٤	٢٣	أفرأيت من اتخذ إلهه هواه
٣٥٢	٢٤	وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا

الأية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة الأحقاف

٣٩	٣	ومن أضل من يدعوه من دون الله
٢٤٦	٢٠	و يوم يعرض الذين كفروا على النار
٢١٢	٣٥	فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل

سورة محمد

٢٨٤	٩	ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله
٢٨٥	١٤	و اتبعوا آهواهم
١٧٤	٣١	ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم

سورة الحجرات

٣٤	١٣	و جعلناكم شعوباً و قبائل
----	----	--------------------------

سورة ق

٢٧٨	١٦	ولقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه
-----	----	--

سورة النجم

٢٠٦	٣٢	الذين يجتربون كبار الإثم و الفواحش
-----	----	------------------------------------

سورة القمر

٢٩١	١٤	تُجري بآعيننا
٢٥٧	٣٤	إنا أرسلنا عليهم حاصباً

الآية رقم الآية رقم الصفحة

سورة الرحمن

٤٣	٣	خلق الإنسان
٤٣	٤	علمه البيان

سورة الواقعة

١١٦	٧٥	فلا أقسم ب مواقع النجوم
١١٦	٧٦	وإنه لقسم لو تعلمون عظيم

سورة الحديد

١٣٦	٢٥	وأنزلنا الحديد
-----	----	----------------

سورة المجادلة

٢٩٥	١	قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها
٣٤٨، ٨٨	١٠	إنا النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا

سورة المتحنة

١٥٥	١	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم وعدوكم أولياء
٢١	١٠	يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات

سورة الصاف

٤٠	١٠	يا أيها الذين آمنوا هل أدل لكم على تجارة
----	----	--

الآية رقم الآية رقم الصفحة

سورة التغابن

ومن يؤمن بالله يهد قلبه ١١ ٢٢٣، ٢١١

سورة الطلاق

١٩٤	١	يا أيها النبي إذا طلقتم النساء
٢٤٤	٢	ومن يتق الله يجعل له مخرجاً
١٩٦، ٣٨	٣	ومن يتوكل على الله فهو حسبي
٢٩٣	١٢	الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن

سورة التحرير

١٩٤	١	يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك
١٣٣	٦	لا يعصون الله ما أمرهم

سورة الملك

١٠٥	٥	ولقد زينا النساء الدنيا بمصابيح
٩٧	١٩	أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات

سورة القلم

٤١	١٠	ولا تطع كل حلاف مهين
٤١	١١	هماز مشاء بنميم
١٣٤	١٥	إذا تنازع عليه آياتنا قال أساطير الأولين

الآية

رقم الآية رقم الصفحة

سورة الجن

١٠٦

٩

وأنا كنا نقد منها مقاعد للسمع

سورة الإنسان

٢١١

٢٢

إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً

٢٢٢، ٢١٢

٢٤

فاصبر لحكم ربك

سورة عبس

١٣٣

١١

كلا إنها تذكرة

١٣٣

١٢

فمن شاء ذكره

١٣٣

١٣

في صحف مكرمة

١٣٣

١٤

مرفوعة مطهرة

١٣٣

١٥

بأيدي سفرة

سورة المطففين

٢٢٠

٦

يوم يقوم الناس لرب العالمين

سورة الانشقاق

٢٢٩

٦

يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً

٢٢٩

٧

فاما من أوثق كتابه بيمنيه

٢٢٩

١٠

واما من أوثق كتابه وراء ظهره

الآية	رقم الصفحة	رقم الآية
سورة البروج		
إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات	١٠	١٧٣
سورة الطلاق		
يوم تبل السرائر	٩	٢٣٦
سورة البلد		
لا أقسم بهذا البلد	١	٣٢٥
سورة الشمس		
والشمس وضحاها	١	٣٢٥
سورة الليل		
والليل إذا يغشى	١	٣٢٥
سورة التين		
أليس الله بـأحـكمـ الـحاـكـمـينـ	٨	٢٦٧
سورة العلق		
كلا إنـ الإـنـسـانـ لـيـطـغـىـ	٦	١٢١
أنـ رـآـهـ اـسـتـغـنىـ	٧	١٢١

الآية رقم الآية رقم الصفحة

سورة العاديات

٢٣٦ ٩ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بَعْثَرَ مَا فِي الْقُبُورِ
٢٣٦ ١٠ وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ

سورة الفيل

٢٥٧ ٣ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طِيرًا أَبَابِيلَ
٢٥٧ ٤ تَرْمِيهِمْ بِحَجَارَةٍ مِّنْ سَجِيلٍ

سورة الكوثر

١٤٨ ٣ إِنْ شَاءَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

سورة الفلق

٣٧ ٤ مِنْ شَرِ النَّفَاثَاتِ فِي الْعَدْ

فهرس أحاديث الجزء الثاني

الحادي	الراوي	الصفحة
آية المنافق ثلاث	أبوهريمة	٣٣
أجاب دعوة اليهودي	أنس	١١٢
احرص على ما ينفعك واستعن بالله	أبوهريمة	١٢٦
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة		٩٤
إذا أمرتكم بأمر فأنوا منه ما استطعتم	أبوهريمة	١٦٠
إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها		٥٩
إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها	عبد الرحمن بن سمرة	٢٢٠
إذا حكم الحاكم فاجتهد	عمرو بن العاص	٢٥٤
إذا دعاك فأجبه	أبوهريمة	١١٢
إذا كان النبي وأصحابه في السفر وهبطوا وادياً	جابر بن عبد الله	٢٧٢
ازهد فيها عند الناس يحبك الناس	سهل بن سعد	١٠٨
أسألك اللهم بكل اسم هولك سميتك به نفسك		١٢
أشد الناس عذاباً يوم القيمة	عائشة	٢٠٦
اعتقها فإنها مؤمنة	معاوية بن الحكم	٣٠٦
أعوذ بوجهه	جابر	١١٧
فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني	أبوبكرة	٧٦
أغrieve رجل على الله يوم القيمة	أبوهريمة	٩
أكل من الشاة التي أهداها له اليهودية		١١٢

الحادي	الصفحة	الراوي
الآ تدع صورة إلا طمستها	٢١١	علي بن أبي طالب
إلا رقمًا في ثوب	٢٠٤	
إلا أخبركم بخير الشهداء	٢٣١	
أمرت أن أقاتل الناس	٢٥٤	ابن عمر
لم تر إلى محرز المدجلي نظر إلى أسامة بن زيد	٢٨٧	عائشة
فإنما أخذوها وشطر ماله	٢٦٤	بهز بن حكيم
عن أبيه عن جده		
إن أخنح اسم عند الله رجل تسمى بملك الأموال أبوهريرة	٧	
أنا سيد ولد آدم	٢٧٩، ١٠١	
أن تلد الأمة ربتها	٩٨	
أن تلد الأمة ربها	٩٨	
أن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى	٥١، ٤٢	أبوهريرة
إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	١٣٦	صفية بنت حبي
إن أصحاب هذه الصورة يغذبون	٢٠٤	عائشة
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب	٦٥	البراء بن عازب
إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر	١٢٠	أبوهريرة
إن أول ما خلق الله القلم	١٨٦، ١٨١	عبدادة بن الصامت
انطلقا باسم الله وبآله وعلى ملة رسول الله	٢٤٥	أنس
إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالأ	٢٦٧	أبوهريرة
إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها	٢٦٧	أبوهريرة
إن قلوب بني آدم بين إصبعين	٢٩٠	عبد الله بن عمرو
إن من عباد الله من لو أقسم	٢٦١	أنس

الصفحة	الراوي	ال الحديث
٢٥٣	ابن عمر	أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون ابن عمر
١٠٩	ابن عمر	إن الإنسان لا يزال يسأل الناس
١١٢	عائشة	أن الرسول ﷺ اشتري من يهودي طعاماً لأهله
٩٦	أبوهريرة	إن امرأة ولدت غلاماً أسود
٢١٥	عائشة	إن الملائكة لا تدخل بيتك في صورة
٦٥	جبير بن مطعم	إنها بنوهاشم وبنو عبدمناف شيء واحد
١٠١	عمر بن الأحوص	إن النساء عوان عندكم
	الجسمي	
٣٤	مقبل بن هادي	إنما كان نخوض نتحدث حديث الركب
١٩١		إن الله أمرني أن أقرأها عليك
٢٠، ١٣		إن الله تسعه وتسعين اسماً
١١٩	أبوهريرة	إن الله خلق آدم على صورته
٢٩٠	جابر	أن الله سبحانه وتعالى يكون قبل وجه المصلي
١٨٦	أنس	إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها
١٧٥		إن الله نظر إلى أهل الأرض عرّفهم وعجمهم
١٨٩		إن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين
١٩	أبوشريح	إن الله هو الحكم وإليه الحكم
١٠٣	عائشة	إنما الولاء لمن أعتق
١٤٨		إنه جرة يلقاها الشيطان
٣٣	سعد بن أبي وقاص	أنه ﷺ كان يتعدّد من الجبن
٦١	أبوهريرة	إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج من البخيل
٣٠٨	أبودر	إنى حرمت الظلم على نفسي
٩٥	سعد بن أبي وقاص	أينقض إذا جف قال نعم فنهى عنه

الحادي	الصفحة	الراوي
الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته	١٧١	
الإيمان بضع وسبعون شعبة	٢٤٧	أبوهريرة
وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت	٢٣٧	عائشة
بعثت من خير قرون بني آدم	٢٢٨	أبوهريرة
بهذا أمرتم؟ وهذا خلقتم؟	١٩٠	عبدالله بن عمرو
ابن العاص		
تعس عبد الدینار تعس عبد الدرهم	٦٤	أبوهريرة
ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم	٢٢٣	سلمان
جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال	٢٨٦	ابن مسعود
حتى يجد هارها	٩٩	زيد بن خالد الجهي
حجي واشتري طي فإن لك على ربك ما استثنيت	٩٤	ضباعية بنت الزبير
الحلف منفقة للسلعة	٢٢٢	أبوهريرة
خير أمتي قرفي ثم الذين يلوثهم	٢٢٨	عمران بن الحصين
خير الناس قرفي ثم الذين يلوثهم	٢٣٤	ابن مسعود
رب أشعث أغير مدفوع بالأبواب	٢٦٢	أبوهريرة
الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته	١٠١	عبدالله بن عمر
رجل شديد بياض الثوب	١٧٣	عمر بن الخطاب
السفر قطعة من العذاب	٢٠٧	أبوهريرة
السلام على جبريل وميكال	٨٥	
والسموات السبع في الكرسي	٢٩٨	ابن زيد عن أبيه
السيد الله	٢٧٦، ١٠٠	عبدالله بن الشخير
شر الطعام طعام الوليمة	١١١	أبوهريرة
والشر ليس إليك	١٧٧	

الراوي	الصفحة	ال الحديث
عمران بن الحصين	١٣٠	صل قائماً فإن لم تستطع فقاعدأ
أبوهريرة	٢٢٦، ١٠٣	عبدِي استطعتمتك فلم تطعموني
أبوهريرة	١٢٦	عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير
جندب بن عبد الله	٢٦٢	قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان
ابن عمر	١٦١	القدرة محبوس هذه الأمة
أبي بكره	٥	قطعت عنق صاحبك
	٥٨	قول الرسول ماعز وقد أقر بالزنا «أنكتها لا يكفي»
أبوسعيد الخدري	٢٧٩	قوموا إلى سيدكم
	٢٤٠	كان رسول الله ﷺ إذا أمر أمير جيش أو سرية أو صاه ببريدة
عمران بن الحصين	١٩٥	كان الله ولم يكن شيء قبله
	١٩٧	كان يصيّناً ذلك - يعني الحيض - فتُؤمِّر بقضاء الصيام عائشة
ابن مسعود	٢٢٦	الكب بطر الحق وغمط الناس
عبادة بن الصامت	٢٦٨	كف عليك هذا - يعني لسانه -
	٢٠٦	كلف أن ينفع فيها الروح
ابن عباس	٢١٠	كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها
أبي بن كعب	١٣٩	لا تسبوا الريح
ابن عباس	٢٤٥	ولا تغدروا ولا تغلوا
عمران بن الحصين	١٩٥	ولا نقل لواقي فعلت كذا
ابن مسعود	٨٥	لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام
بريدة	٢٨٠	لَا تقولوا للمنافق سيد
ابن عمر	١٠٣	لَا تمنعوا إماء الله مساجد الله
	١٣٣	لَا صلاة بحضره طعام
	٣٧	لَا يدخل الجنة نهام

الصفحة	الراوي	الحديث
١١٦	جابر	لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة
٩٧	أبوهريرة	لا يقل أحدكم : أطعم ربك
٨٩		لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت
٢١٣		لعن الله المتخذين عليها المساجد والسرج
١١٠	أبوأسيد	لقد عذت بعظيم
١٣٥	أبوهريرة	لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة
١٤	أبوهريرة	لن يدخل الجنة أحد بعمله
١٢٤	جابر	لو استقبلت من أمري ما استدبرت
٩٢	أنس بن مالك	اللهم أحيني ماعلمت الحياة خيراً لي
٩٢	أبوهريرة	اللهم إني أسألك بعلملك
٢١٢		فليخلقوا حبة أو شعيرة
٩٧	أبوهريرة	ليس على المسلم في عبده ولا في فرسه صدقة
١٣٤	أبوسعید الخدری	مارأيت من ناقصات عقل ودين
٢٩٨	أبودر	ما الكرسي في العرش إلا كحلفة
١٧٠	علي بن أبي طالب	ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة
٢٣٩	عبدالله بن عمرو	ما من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته
	ابن العاص	
٢١٢	علي بن أبي طالب	مر برأس التمثال فليقطع
٢٩٦	عبدالله بن عمرو	المقطعون على منابر من نور
٢٩٧	ابن العاص	
١٩٢	أبوبكر وعمر	من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً
١١٩	أبوهريرة	ومن أظلم من ذهب بخلق كخلقي
٢٢٧	ابن مسعود	من حلف على يمين هو فيها فاجر

الصفحة	الراوي	ال الحديث
١٠٧		من سأله فأعطوه
٢١٠	ابن عباس	من صوره في الدنيا
١٢٩	أبوهريرة	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
١٠٧		ملعون من سأله وجه الله
١٨٨	ابن وهب	من لم يؤمن بالقدر خيره وشره
٢٠٧	عمر	الميت يذب بالنياحة عليه
٥	معاوية	من يرد الله به خيراً
٢٦٨	سهل بن سعد	من يضمن لي ما بين رجليه
٢٦٩	جبير بن مطعم	نهكت الأنفس وجاع العيال
٨٦	عائشة	هذا جبريل يقرأ عليك السلام
٣٠٢	العباس بن عبد المطلب	هل تدرؤنكم بين السماء والأرض
٢٩١	ابن مسعود	هلك المنطعون
١٢٣	أبوكبشة	فهو بناته - فيها بالأجر سواء
١١٢		هي لها صدقة ولنا هدية
٢٨١	أنس	يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا
٧٠		يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار
٢٩٣		يجعل الله السموات على إصبع
١١٤	حكيم بن حزام	اليد العليا خير من اليد السفل
٢٩٥	ابن عمر	يطوي الله السموات يوم القيمة
٢٣٣	عمر بن الخطاب	ويفشو بينهم الكذب
٢٢٢		اليمن الكاذبة

**فهرس الجزء الثاني
من كتاب القول المفيد**

الصفحة	الموضوع
٥	باب: ما جاء في السحر
٥	تعريف السحر
٥	أقسام السحر، وحكم كل قسم
٦	كفر الساحر
٦	وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد
٧	شرح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا مِنْ اشْرَاهٍ...﴾
٨	شرح قوله تعالى: ﴿يَؤْمِنُونَ بِالْجُبْتِ وَالظَّاغُوتِ...﴾
٨	تعريف الجبт والطاغوت
٩	تعريف الكاهن
٩	شرح حديث أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات...»
١٠	فائدة الحصر في قوله ﴿السَّبْعُ الْمُوبِقات﴾
١٥	النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق
١٩-٢٦	تعريف الربا، وبيان ما يجري في الربا، وما لا يجري
١٩	تعريف اليتيم
٢٠	ما يستثنى من التولي يوم الزحف
٢١	القذف، وما يترتب عليه

الصفحة	الموضوع
٢٣	شرح حديث جندب
٢٤	أثر عمر بن الخطاب، وحفصة، وجندب في قتل الساحر
٢٦	مسائل الباب، وشرحها
٢٩	باب بيان شيء من أنواع السحر
٢٩	الجنس، والنوع
٣٠	شرح العيافة، والطرق
٣١	شرح الجبت، والطيرة
٣٤	شرح حديث ابن عباس: «من اقتبس شعبة . . .»
٣٦	أقسام علم النجوم، وحكم كل قسم
٣٧	شرح حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث . . .»
٣٩	المناسبة الحديث
٤٠	شرح حديث ابن مسعود: «ألا هل أتبئكم ما العضة؟ . . .»
٤١-٤٠	تعريف النمة، وبيان حكمها
٤٢	شرح حديث ابن عمر: «إن من البيان لسحرا»
٤٢	أقسام البيان
٤٤	المناسبة الحديث
٤٥	مسائل الباب وشرحها
٤٧	باب ما جاء في الكهان ونحوهم
٤٧	تعريف الكاهن
٤٧	ما ليس من الكهانة
٤٨	شرح حديث: «من أتى عرافاً فسأله . . .»
٤٨	تعريف العراف

الموضع	الصفحة
أقسام سؤال العراف	٤٩
استخدام الجن	٥٠ - ٤٩
شرح حديث أبي هريرة: «من أتى كاهناً...»	٥٣
شرح حديث عمران بن حصين: «ليس منا من تطير أو تطير له...»	٥٨
تعريف العراف	٦٠
تعريف شيخ الإسلام للعراف	٦١
أقسام استخدام الجن	٦٢
كتابة أبا جاد، وأقسامها	٦٤
أقسام النظر في النجوم	٦٥
مسائل الباب، وشرحها	٦٧
باب ما جاء في النشرة	٦٩
تعريف النشرة، وأقسامها	٦٩
شرح حديث جابر أن النبي ﷺ سئل عن النشرة	٧٠
قول سعيد بن المسيب	٧١
قول ابن القيم	٧١
أقسام حل السحر	٧٣
مسائل الباب، وشرحها	٧٦
باب ما جاء في التطير	٧٧
أقسام منافاة التطير للتوحيد	٧٧
أحوال المتطير	٧٨
شرح قوله تعالى: «ألا إِنَّهَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ...»	٧٨
شرح قوله تعالى: «وَقَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ...»	٧٩

الصفحة	الموضوع
	شرح حديث أبي هريرة: «لا عدوى ولا طيرة...»
٨١	تعريف العدوى، والطيرة، والهامة، والصغر
٨١	المراد بالتفى في هذه الأربعة
٨٣	تعريف النوء
٨٦	تعريف الغول
٨٧	شرح حديث عقبة بن عامر
٨٩	تعريف الفال
٨٩	تعريف السباتات
٩١	شرح حديث ابن مسعود «الطيرة شرك»
٩٢	أنواع الإدراج في الحديث، وأمثلته
٩٤	كون الطيرة شركاً
٩٦	كفارنة الطيرة
٩٦	شرح حديث الفضل بن العباس: «إنما الطيرة...»
٩٨	مسائل الباب، وشرحها
١٠٠	باب ما جاء في التجيم
١٠٢	تعريف التجيم
١٠٢	أقسام علم النجوم
١٠٢	حكمة خلق النجوم
١٠٤	حكم تعلم منازل القمر
١٠٨	شرح حديث أبي موسى: «ثلاثة لا يدخلون الجنة...»
١٠٩	خلاف العلماء في المراد بأحاديث الوعيد
١١٢	مسائل الباب، وشرحها
١١٤	

الصفحة	الموضوع
	باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواع
١١٥	تعريف الاستسقاء
١١٥	أقسام الاستسقاء بالأنواع
١١٦	شرح قوله تعالى: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ . . .»
١١٨	شرح حديث أبي مالك الأشعري
١١٨	فائدة الحصر في الأحاديث
١٢٠	تعريف الفخر بالأحساب
١٢١	تعريف الطعن بالأنساب
١٢١	تعريف الاستسقاء بالنجوم
١٢١	تعريف النياحة
١٢٤	شرح حديث زيد بن خالد
١٢٩	شرح حديث ابن عباس
١٣٣	خلاف المفسرين في المراد بالكتاب في قوله تعالى: «فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ»
١٣٨	مسائل الباب، وشرحها
١٣٨	أقسام الناس عند نزول التعمة
١٤٠	باب قول الله تعالى: «وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً . . .»
١٤١	أقسام المحبة
١٤٣	شرح قوله تعالى: «وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . .»
١٤٥	المناسبة الآية للباب
١٤٧	شرح حديث أنس: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ . . .»
١٥١	شرح حديث: «ثَلَاثٌ مَنْ كَنْ فِيهِ . . .»
١٦٠	مسائل الباب، وشرحها

الصفحة

الموضوع

١٦٤	باب قوله الله تعالى: «إنما ذلكم الشيطان...»
١٦٤	هل يغلب الرجاء أو الخوف
١٦٥	أقسام الخوف
١٦٧	شرح قوله تعالى: «إنما ذلكم الشيطان...»
١٦٩	شرح قوله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله...»
١٧٢	شرح قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا...»
١٧٥	شرح حديث أبي سعيد: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله...»
١٧٩	شرح حديث عائشة: «من التمس رضا الله بسخط الناس...»
١٨٠	المناسبة الحديث
١٨٣	مسائل الباب، وشرحها
١٨٥	باب قول الله تعالى: «وعلى الله فتوكلوا...»
١٨٥	تعريف التوكل
١٨٥	كلام الشيخ سليمان بن عبد الله في الأسباب
١٩٠	أقسام التوكل
١٩١	شرح قوله تعالى: «وعلى الله فتوكلوا»
١٩٢	شرح قوله تعالى: «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله...»
١٩٤	شرح قوله تعالى: «يا أيها النبي حسبك الله»
١٩٦	شرح قوله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسنه...»
١٩٧	شرح حديث ابن عباس
١٩٨	مسائل الباب وشرحها
٢٠١	باب قوله تعالى: «أفأمنوا مكر الله...»

الموضوع	الصفحة
شرح قوله تعالى: «أفأمنوا مكر الله....»	٢٠١
شرح قوله تعالى: «ومن يقْنَطْ من رحمة ربِّه...»	٢٠٣
تحريم القنوط من رحمة الله	٢٠٤
شرح حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: «مثُلُّ عَنِ الْكَبَائِرِ...»	١٠٥
حد الكبيرة	٢٠٦
مسائل الباب، وشرحها	٢٠٨
باب من الإيمان الصبر على أقدار الله	٢١١
أقسام الصبر، وأعلاها	٢١١
شرح قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ»	٢١٤
شرح حديث أبي هريرة: «اثتَّانٌ فِي النَّاسِ...»	٢١٥
أحوال الناس عند المصيبة	٢١٦
شرح حديث ابن مسعود: «لَيْسَ مَنْ ضَرَبَ الْخَدْوَدَ...»	٢١٧
شرح حديث أنس: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ خَيْرًا...»	٢١٨
أنواع العقوبة	٢١٩
سبب تسمية يوم القيمة بهذا الاسم	٢٢٠
شرح حديث: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءَ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ...»	٢٢٢
مسائل الباب، وشرحها	٢٢٤
باب ما جاء في الرياء	٢٢٦
تعريف الرياء، وبيان أقسامه	٢٢٦
شرح قوله تعالى: «فَلَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْكُمْ...»	٢٢٨
الشاهد من الآية	٢٣٠

الصفحة

الموضوع

٢٣١	شرح حديث أبي هريرة: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك...»
٢٣٢	شرح حديث أبي سعيد
٢٣٤	تعريف الشرك الخفي ، والجلي
٢٣٥	من دقائق أبواب الربا
٢٣٧	مسائل الباب وشرحها
٢٣٨	علاج الرياء
٢٣٩	أمور ليست من الرياء
٢٤١	باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا
٢٤١	شرح الترجمة
٢٤٢	الفرق بين هذا الباب والذي قبله
٢٤٤	التعلم في الكليات
٢٤٥	شرح قوله تعالى: «من كان يربد الحياة الدنيا...»
٢٤٨	شرح حديث أبي هريرة: «تعس عبد الدينار...»
٢٥١	أقسام الناس بالنسبة للدنيا
٢٥٢	مسائل الباب وشرحها
٢٥٥	باب من أطاع العلماء والأمراء في تحرير ما أحل الله... المراد بالعلماء والأمراء
٢٥٥	شرح أثر ابن عباس
٢٥٦	قول الإمام أحمد
٢٥٨	أقسام التعجب
٢٦٠	شرح حديث عدي بن حاتم
٢٦١	قول شيخ الإسلام

الصفحة	الموضوع
٢٦٤	أقسام اتباع العلماء
٢٦٥	كلام الشيخ محمد بن إبراهيم
٢٧٢	مسائل الباب، وشرحها
٢٧٥	باب قول الله تعالى: «ألم تر إلى الذين يزعمون...»
٢٧٥	شرح الآية
٢٧٧	فائدة الإظهار موضع الإضمار
٢٧٩	ما تكون به بлагة القول
٣٠٣	قول ابن عباس، وشرحه
٢٨٠	شرح قوله تعالى: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض...»
٢٨٠	أقسام الفساد
٢٨١	شرح قوله تعالى: «ولا تفسدوا في الأرض...»
٢٨٢	شرح قوله تعالى: «أفحكم الجاهلية يبغون»
٢٨٤	شرح حديث ابن عمر: «لا يؤمن أحدكم...»
٢٨٥	قول الشعبي، وشرحه
٢٨٨	مسائل الباب، وشرحها
٢٩١	باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات
٢٩١	أقسام الجحد
٢٩٢	مباحث في أسماء الله
٢٩٢	الأول
٢٩٣	الثاني
٢٩٤	الثالث
٢٩٥	الرابع

الصفحة	الموضوع
٢٩٦	البحث في صفات الله
٢٩٦	المبحث الأول
٢٩٦	المبحث الثاني
٢٩٦	المبحث الثالث
٢٩٨	شرح قوله تعالى: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنَ»
٣٠٠	تعريف التوبة، وشروطها
٣٠١	قول علي رضي الله عنه، وشرحه
٣٠٢	المناسبة لهذا الأثر للباب
٣٠٥	أقسام المتشابه، والفرق بينها
٣٠٨	مسائل الباب، وشرحها
٣١١	باب قول الله تعالى: «يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ...»
٣١١	شرح الآية
٣١٢	المناسبة الباب لكتاب التوحيد
٣١٢	قول مجاهد، وشرحه
٣١٣	قول عون بن عبد الله وشرحه
٣١٣	أقسام الإضافة إلى السبب
٣١٥	قول ابن قتيبة، وشرحه
٣١٥	قول شيخ الإسلام
٣١٦	إضافة النعمة إلى السبب
٣١٧	مسائل الباب، وشرحها
٣١٩	باب قول الله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا»
٣١٩	شرح الآية

الموضوع	الصفحة
قول ابن عباس في الأنداد	٣٢٠
أقسام التفسير	٣٢١
شرح حديث ابن عمر: «من حلف بغير الله . . .»	٣٢٣
حروف القسم	٣٢٤
حكم الحلف بغير الله	٣٢٥
إقسام الله بالمخلوقات	٣٢٥
الجواب عن قوله ﷺ: «أفلح وأبىه»	٣٢٦
قول ابن مسعود، وشرحه	٣٢٨
شرح حديث حذيفة: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان . . .»	٣٣٠
قول إبراهيم النخعي، وشرحه	٣٣١
مسائل الباب، وشرحها	٣٣٢
باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله	٣٣٥
المناسبة الباب	٣٣٥
أقسام الاقتتاع بالحلف بالله	٣٣٥
شرح حديث ابن عمر: «لا تحلفوا بآبائكم . . .»	٣٣٦
مسائل الباب، وشرحها	٣٣٧
باب قول ما شاء الله وشئت	٣٣٩
المناسبة الباب	٣٣٩
شرح حديث قتيبة	٣٤٠
شرح حديث ابن عباس	٣٤١
إشكال، وجوابه	٣٤٣
شرح حديث الطفيلي	٣٤٣

الصفحة	الموضوع
٣٤٥	تعريف الروح
٣٤٦	مسائل الباب، وشرحها
٣٤٨	رؤيا الصالحة
٣٥١	باب من سب الدهر فقد أذى الله
٣٥١	تعريف السب
٣٥١	أقسام سب الدهر
٣٥٢	شرح قوله تعالى: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا...»
٣٥٤	شرح حديث أبي هريرة: «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم...»
٣٥٥	أحكام الحديث القديسي
٣٥٨	الدهر ليس من أسماء الله
٣٦٠	مسائل الباب وشرحها
٣٦١	الفهارس

القول المفيد

على

كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعاً وتربياً وتصويباً، وعزا آياته
وخرج أحاديثه، ووضع فهرسه، وأشرف على طبعه

د. شيمان بن عبد الله بن محمود أبو الحيل د. خالد بن عباس بن محمد المشيقع

الجزء الثالث

دار العناية

للنشر والتوزيع



حقوق الطبع محفوظة
إرلن: إدارَة طبُعه لِتَوزيعه مجاناً
الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

والرَّفِيقَة

لِلْمَلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ
الرِّيَاضُ - صُرُب ٤٢٥٧ - الرِّجْنُ البرِيدِي ١١٥٥١
هَاتَفٌ ٤٩٣٣٣٦٨ - ٤٩١٥١٥٤ - فَاكِسٌ ٤٩١٥١٥٤

باب التسمى بقاضي القضاة ونحوه

قوله : «باب التسمى بقاضي القضاة» : أي : وضع الشخص لنفسه هذا الاسم ، أو رضاه به من غيره .

قوله : «قاضي القضاة» :

قاضي : بمعنى حاكم ، والقضاة : أي : الحكام ، و«آل» للعموم .
والمعنى التسمى بحاكم الحكم ونحوه ، مثل ملك الأموال ، وسلطان السلاطين وما أشبه ذلك ، مما يدل على النفوذ والسلطان ؛ لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء ، بخلاف العالم فهو لابزم ، ولهذا قالوا : القاضي جمع بين الشهادة ، والإلزام ، والإفتاء فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله ، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه ، وفيه أي : يخبر عن حكم الله وشرعيه ، ويلزم الخصميين بها حكم به .

مناسبة الباب لكتاب التوجيه :

إن من تسمى بهذا الاسم فقد جعل نفسه شريكا مع الله فيها لا يستحقه إلا الله ؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة ، أو حكم الحكام ، أو ملك الأموال إلا الله سبحانه وتعالى ، فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ ، وهو الذي له الحكم ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن .

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين :

١ - قضاء كوني .

٢ - قضاء شرعي .

والقضاء الكوني لابد من وقوعه، ويكون فيها أحب الله وفيها كرهه قال تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِتُفْسَدَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ»^(١) فهذا قضاء كوني متعلق بها يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقا.

وأما النوع الثاني من القضاء وهو القضاء الشرعي فمثل قوله تعالى: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالوَالِدِينِ إِحْسَانًا»^(٢). والقضاء الشرعي لا يلزم منه وقوع المقضي، فقد يقع، وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيها يحبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك.

فإن قلت: إذا أضفتنا القضاة وحصرناها بطاقة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، أو بفن معين، مثل أن يقال: قاضي القضاة في الفقه، أو قاضي قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر، أو الشام، أو ما أشبه ذلك فهل يجوز هذا؟

الجواب : هذا جائز؛ لأنه قيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقييد، فحيث لا يكون فيه مشاركة لله عز وجل، على أنه لا ينبغي أيضاً أن يتسمى الإنسان أو يسمى بذلك وإن كان جائزًا؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضي قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطراً إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأي بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه فإن هذا خطراً عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله أحداً لنفسه، أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به.

إذا قُيد بزمان، أو مكان قلنا إنه جائز، ولكن الأفضل ألا يفعل؛ لكن إن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

.....

فُيد بفن من الفنون هل يكون جائز؟ .
مقتضى التقييد أن يكون جائزًا . لكن إن قيد بالفقه، بأن قيل: (علم العلماء في الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقه في الدين»^(١) صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم في الشرع إليه، فهذا في نفسي منه شيء والأولى التزه عنه .

وأما إن قيد بقبيلة فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف حتى لا يغتر ويعجب بنفسه، وهذا قال النبي - ﷺ - للهادح: «قطعت عنك صاحبك»^(٢) .

وأما التسمي بـ [شيخ الإسلام] مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أي: أنه الشیخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام فهذا لا يمكن أن يصح إذ إن أبي بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف، لأنه أفضل الخلق بعد النبیین، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه فلا بأس بإطلاقه^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في العلم / باب من يرد الله به خيراً ٤٢/١ ، ومسلم في الزكاة / باب النبی عن المسألة ٧١٨ من حديث معاوية، رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب/باب ما يكره من النهادح ٤/١٠٢ ، ومسلم في الزهد/باب النبی عن المدح ٤/٢٢٩٦ من حديث أبي بكرة، رضي الله عنه .

(٣) وقال الشيخ بكر أبو زيد في رسالته تسمية المولود ص (٤١): «وتکرر التسمية بكل اسم، أو مصدر، أو صفة مشبهة مضاف إلى لفظ «الدين»، أو «النقطة الإسلامية»، مثل نور الدين، ضياء الدين، نور الإسلام، وذلك لعظيم منزلة هذين اللقظتين: «الدين» و«الإسلام»، فالإضافة إليها على وجه التسمية فيها دعوى فجحة تطل على الكذب، وهذا نص بعض العلماء على التحرير، والأكثر على الكراهة؛ لأن منها ما يوهم معانٍ غير صحيحة مما لا يجوز إطلاقه، =

.....

وأما بالنسبة للتسمي بـ [الإمام] فهو أهون بكثير من التسمي بـ [شيخ الإسلام]؛ لأن النبي - ﷺ - سمي إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان. لكن ينبغي أن يتبين أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع، كالأمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من له أثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه. قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا
ومن ذلك أيضاً [آية الله، حجة الله، حجة الإسلام] فإنها ألقاب حادثة
لاتتبع؛ لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله: فإن أريد المعنى الأعم فلا مدح فيه؛ لأن كل شيء آية الله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
وإن أريد المعنى الأخص أي: أن هذا الرجل آية خارقة فهذا في الغالب يكون مبالغأً فيه، والعبرة السليمة أن يقال: عالم، مفتى، قاضٍ، حاكم، إمام
لمن كان مستحقاً لذلك.

وكانت في أول حدوثها ألقاباً زائدة على الاسم، ثم استعملت أسماء، وقد يكون الاسم منها عنه من جهتين، مثل: شهاب الدين، فإن الشهاب الشعلة من النار، ثم إضافة ذلك إلى الدين، وكان التووي رحمه الله يكره تلقبيه بمحبي الدين، وشيخ الإسلام ابن تيمية يكره تلقبيه بمحبي الدين، ويقول: لكن أهلي لقبوني بذلك فأشتهر.

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملالك، لا مالك إلا الله»^(١).

قوله: «إن أخنع اسم» أي: أ وضع اسم ، والمراد بالاسم المسمى ، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملالك . لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا ، فالمملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة فجعل مرتبته فوق مرتبتهم وهذا لا يكون إلا لله عز وجل ، وهذا عقوق بتفليس قصده فصار أ وضع اسم عند الله إذ قصده أن يتعاظم حتى على الملوك ، وهذا أحبُّ اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع مثل عبد الله وعبد الرحمن ، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم .

قوله: «لا مالك إلا الله» :

وأيضاً لا مالك إلا الله - عز وجل - وهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين «ملك يوم الدين» و«مالك يوم الدين»^(٢) لكي يجمع بين الملك وعاصي السلطان ، فهو - سبحانه - ملك مالك ، ملك ذو سلطة وعظمة ، وقول نافذ ، ومالك متصرف مدبر لجميع ملكته .

فالله له الخلق والملك والتدبير ، فلا خالق إلا الله ، ولا مدبر إلا الله ، ولا مالك إلا الله قال تعالى: «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض»^(٣) فالاستفهام بمعنى النفي وقد أشرب معنى التحدي ، أي: إن وجدتموه فهاتهوه ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب / باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى ٤/١٢٩ ، ومسلم في الأدب / باب تحريم التسمي بملك الأملالك ٣/١٦٨٨.

(٢) سورة الفاتحة ، الآية: ٤.

(٣) سورة فاطر ، الآية: ٣.

قال سفيان: مثل شاهان شاه،

وقال تعالى: «إن ربك هو الخلاق العليم»^(١) فيها توکيد وحصر وهذا دليل انفراده بالخلق ، وقال تعالى: «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له»^(٢) فـ «الذين» اسم موصول يشمل كل من يُدعى من دون الله «لن يخلقوا ذبابا» وهذا على سبيل المبالغة ، وما كان على سبيل المبالغة فلا مفهوم له كثرة أو قلة.

وقال تعالى: «تبارك الذي بيده الملك»^(٣) وقال تعالى: «قل اللهم مالك الملك»^(٤) وهذا دليل انفراده بالملك وقال تعالى: «قل من يرزقكم من السراء والأرض ألم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله»^(٥) وقال تعالى: «قل من بيده ملوكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كتم تعلمون سيقولون الله»^(٦).

قوله: «قال: سفيان مثل شاهان شاه»:

وذلك أنه باللغة الفارسية يقدمون المضاف على المضاف إليه ، مثل غلام محمد يقولون: محمد غلام.

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الملك، الآية: ١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣١.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

وفي رواية «أغبظ رجل على الله يوم القيمة وأخبوه»^(١) قوله : «أخنع» يعني : أ وضع .

قوله : وفي رواية : «أغبظ رجل على الله يوم القيمة وأخبوه» :
أغبظ : من الغيظ وهو الغضب ، أي : أن أغضب شيء عند الله - عز وجل - وأخبوه هو هذا الاسم ، وإذا كان سبباً لغضب الله وخبيثاً فإنه من الكبائر .

وقوله : «أغبظ» :
فيه إثبات الغيظ لله - عز وجل - فهي صفة تليق بالله - عز وجل - كغيرها من الصفات ، والظاهر : أنها أشد من الغضب .

(١) أخرجه مسلم في الأدب / باب تحريم التسمى بملك الأملالك ٣/١٦٨٨.

فيه مسائل:

الأولى: النبي عن التسمى بملك الأملالك. **الثانية:** أن ما في معناه مثله كما قال سفيان. **الثالثة:** التفطن للتغليظ في هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه. **الرابعة:** التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

فيه مسائل :

الأولى: النبي عن التسمى بملك الأملالك: وتوارد من قول الرسول، ﷺ: «إن أخْنَعَ اسْمَهُ عِنْدَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - رَجُلٌ تُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ»، والمؤلف يقول: النبي عن التسمى . . . والنبي شرعاً لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة، بل إذا ورد الذم فيه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك فإنه يفيد النبي، وصيغة النبي هي المضارع المفرون بـ«لا» النافية مثل: لا تفعل، ولكن إذا كان هناك ذم أو وعيد أو ما أشبه ذلك فهو متضمن للنبي وزيادة.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان: والذي مثله: قاضي القضاة، وحاكم الحكماء: وشاهان شاه في الفارسية.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

أي: إذا سمينا شخصاً بقاضي القضاة، أو حاكم الحكماء وهو ليس كذلك، بل هو من أجهل القضاة، ومن أضعف الحكماء جمعنا بين أمرين، بين الكذب والوقوع في اللفظ المنبي عنه وإن كان صدقأً، وصحيح أن هذا الرجل إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه فهذا وإن كان مطابقاً للواقع لكنه واقع في المنبي عنه، هذا مع أن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه:

يؤخذ من قوله: «لا مالك إلا الله» فالرسول - ﷺ - أشار إلى العلة وهي: «لا مالك إلا الله» فكيف تقول: ملك الأملال، وهو لا مالك إلا الله، عز وجل.

الفرق بين ملك ومالك:

ليس كل ملك مالكاً، وليس كل مالك ملكاً، فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لا يكون بيده التدبير وقد يكون الإنسان مالكاً ويتصرف فيها بملكه، فالمملوك منْ ملك السلطة المطلقة لكن قد يفعل ويكون ملكاً مالكاً، وقد لا يفعل ويكون ملكاً وليس به الملك، أما المالك فهو الذي له التصرف بشيء معين كملك البيت، ومملك السيارة وما أشبه ذلك فهذا ليس بملك يعني: ليس له سلطة عامة.

ويستفاد من الحديث، أيضاً:

- ١ - إثبات صفة الغيظ لله - عز وجل - وأنه يتفضل لقوله: «أغrieve» وهو اسم تفضيل.
- ٢ . حكمة الرسول - ﷺ - في التعليم؛ لأنه لما بينَ أن هذا أعنِّي اسم وأغrieve أشار إلى العلة وهو: «لا مالك إلا الله» وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بها تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية قال ابن القيم:
العلم معرفة المدى بدلبله مذاك والتقليد يستويان فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية، أو النظرية، فالآثارية ما كان من كتاب، وسنة، أو إجماع، والنظرية: العقلية أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع.

باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

أسماء الله - عز وجل - هي : التي سمع بها نفسه ، أو سماه بها رسوله ،
ﷺ .

وقد سبق لنا الكلام فيها على مباحث كثيرة منها :
هل أسماء الله مترادة أو متباعدة ؟

وقلنا : باعتبار دلالتها على الذات مترادة ، لأنها تدل على ذات واحدة ،
وهو الله ، عز وجل ، وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التي تحملها متباعدة ،
وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمنه الآخر من باب دلالة اللزوم فمثلاً [الخلق]
يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم لكنه بالالتزام .

الثاني : هل أسماء الله مشتقة أو جامدة ؟ يعني : هل المراد بها الدلالة على
الذات فقط ، أو على الذات والصفة ؟ .

الجواب : على الذات والصفة ، أما أسماؤنا نحن فيراد بها الدلالة على
الذات فقط ، فقد يسمى حمداً وهو من أشد الناس ذما ، وقد يسمى عبد الله
وهو من أفجر عباد الله .

أما أسماء الله - عز وجل - وأسماء الرسول - ﷺ - وأسماء القرآن ، وأسماء
اليوم الآخر وما أشبه ذلك فإنها أسماء متضمنة للأوصاف .

الثالث : أسماء الله بعضها معلوم وبعضها غير معلوم لنا بدليل قول
الرسول - ﷺ - في الحديث الصحيح في دعاء الكرب : « أسألك اللهم بكل
اسم هو لك سميته به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من

.....
.....
.....

خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي (١).

ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله هل هي مخصوصة بعدد معين؟.

والجواب: غير مخصوصة، وقد سبق الكلام على ذلك والجواب عن قوله، ﴿إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخْلُ الْجَنَّةِ﴾ (٢).

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين (٣)، وهذا من حكمة إيهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية وهذا نظائر: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل، ليجتهد الناس في الطلب.

ال السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يتربّط عليه دخول

الجنة: ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظاً.

ثانياً: فهمها معنى.

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاهما، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعوا الله بها لقوله، تعالى: ﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (٤) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فاختار الاسم المناسب

(١) سبق (٢٩٤/٢).

(٢) سبق (٢٩٤/٢).

(٣) وانظر تعينها في القواعد المثل للشارح حفظه الله.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

.....
لطلوبك فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور، وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب أغرني، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء. فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالباً لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذاً أفعل ما يكون سبباً في مغفرة ذنوبك هذا هو معنى إحصائيها، فإذا كان كذلك فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب؛ لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليس بدلًا، وهذا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي - ﷺ - قوله: «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

فلا تغتر يا أخي بعملك ولا تعجب وتقول: أنا عملت بكلّي وكذا وسوف أدخل الجنة قال تعالى: «يُمْنَوْنَ عَلَيْكُمْ أَنْ أَسْلَمُوا قَلْبَهُمْ لَا تَمْنَوْنَ عَلَيْهِ إِسْلَامَكُمْ بَلَّ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ»^(٢)، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا فيجب أن نرى لله الملة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء قال تعالى: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»^(٣).

السابع: أسماء الله - عز وجل - ودلائلها على الذات والصفة جميعاً دلالة مطابقة، ودلائلها على الذات وحدها، أو على الصفة وحدها دلالة تضمن،

(١) أخرجه البخاري في الرفاق/باب القصد والمداومة ٤ / ١٨٤، ومسلم في المناقين/باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٤ / ٢١٦٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

.....
ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام.

مثال ذلك: (الخلق) دل على الذات، وهو الرب - عز وجل - وعلى الصفة وهي الخلق جيئاً دلالة مطابقة، دل على الذات وحدها، أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، دل على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله - عز وجل - لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم متعدياً: الإيمان بالاسم أسماء الله والإيمان بها تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم، فالعليم مثلاً لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله . ونؤمن بها تضمنه من صفة العلم ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك ، وهو أنه يعلم كل شيء ، وإذا كان الاسم غير متعدد فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة .

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به مثل الله ، الرحمن ، رب العالمين ، وما أشبه ذلك .

ومنها ما لا يختص به مثل الرحيم ، السميع ، العليم قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِّنْ نُطْفَةٍ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١) وقال تعالى عن النبي ﷺ : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَوِيفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢) .

(١) سورة الإنسان ، الآية : ٢ .

(٢) سورة التوبه ، الآية : ١٢٨ .

(٣) انظر أيضاً رسالة القواعد المثل للشيخ العثماني حفظه الله .

وقال ابن القيم رحمه الله في بذائع الغواند ١٥٩/١ ماملخصه :

ما يجري صفة أو خبراً عن الرب تعالى أقسام :

الأول: ما يرجع إلى الذات نفسها كالشيء ، والموجود .

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنية كالسميع ، والعليم ، والقدير .

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله كالحال ، والرزاق .

الرابع: ما يرجع للتزية المحسن، ولابد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحسن
كالقدوس، السلام.

الخامس: الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة كالمجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد
من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة
والكثرة والزيادة.

السادس: صفة تحصل من افتراض أحد الأسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على
مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد..
فإن الغني صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر.

ثم قال ابن القيم: و يجب أن يعلم هنا أمور:
أحدها: أن ما يدخل في باب الاخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته
كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته
العليا.

الثاني: أن الصفة إذا انقسمت إلى كمال ونقص فلا تدخل بمطلقها في أسمائه كالصانع
والفاعل والمربي، فلذا لم يطلق على نفسه من هذا إلا أكمله فعلاً وخبراً كقوله: «فعال لما
يريد».

الثالث: لا يلزم من الاخبار عنه بفعل مقيد أن يشتق له منها اسم، ولذا غلط من سهام
بالمعنى والمأكرا والافتراض.

الرابع: أن أسماء الحسنى أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالطابقة، ودلالة على
أحدها بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى بالالتزام.

السادس: أن أسماء الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث
الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباعدة.

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توفيقي، وما يطلق عليه من الاخبار لا
يجب أن يكون توفيقياً كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه.

الثامن: أن الإساقم إذا أطلق جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدراً
نحو السميع، البصير، القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدر ويخبر عنه بالأفعال

نحو «قد سمع الله» هذا إن كان الفعل متعدياً، فإن كان لازماً يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل كالتالي.

الناتس: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله... فالرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته فأفعاله صادرة عن كماله كمل فعل، والمخلوق فعل فكم كل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم.
الحادي عشر: أسماؤه كلها حسنة، وأفعاله صادرة عنها، فالشرع ليس إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته البائنة عنه دون فعله الذي هو وصفه.

الثاني عشر: إحصاء أسماء الله تعالى له مراتب. (وقد سبق أن بينها الشارح) حفظه الله.
الثالث عشر: أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا عد.

(وقد تكلم عليها الشارح) حفظه الله.

الرابع عشر: من أسمائه ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره وهو غالباً كالسميع والبصير ونحوهما، فيسوغ أن يدعى به ويثنى عليه وبغير عنه به مفرداً ومقترناً بغيره فنقول: ياعزيز ياحليم... .

ومنها: مالا يطلق إلا مقويناً بغيره لكون الكمال لا يحصل إلا به كالضار والمتقم والمائع، فلا تطلق إلا مقرونة بمقابلها كالضار النافع، والمتقم العفو، والمائع المعطي إذ كمال التصرف لا يحصل إلا به.

قال شيخنا في كتابه المتقد ص (١٥): «قلت: لكن لو أطلق عليه من ذلك اسم مدح لم يمتنع، فيسوغ أن يقال: العفو من دون المتقم كما ورد في القرآن الكريم، ومثله النافع والمعطي، فإن هذه الأسماء تستلزم الثناء والمدح المطلق على أن شيخ الإسلام رحمه الله يذكر تسمية الله المتقم، ويقول: إن هذا لم يرد إلا مقيداً كقوله تعالى: «إنا من المجرمين متقمنون».

الخامس عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد، كالمحي والسميع ونحوهما، فقالت طائفة: هي حقيقة في العبد بجاز في الرب، وهذا قول غلة الجهمية وهو أخبث الأقوال.

.....
قوله: «باب احترام أسماء الله»:

أي وجوب احترام أسماء الله، لأن احترامها احترام الله - عز وجل - ومن تعظيم الله - عز وجل - فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله فهذا لا يسمى به غيره، وإن سمي وجب

الثاني: أنها حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول أبي العباس الناشي. -

الثالث: أنها حقيقة فيها، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، واختلاف الحقيقةتين لا يخرجها عن كونها حقيقة فيها، وللرب تعالى ما يليق به، وللعبد ما يليق به.

السادس عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:
اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني:
اعتباره مضافاً للرب مختصاً به. الاعتبار الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مقيداً به.

السابع عشر: الصفات أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي واحداً منها، وصفات تقتضيها باعتبارين، والرب تعالى متبرئ عن هذه الثلاثة موصوف بالأول، وهكذا أسماؤه أسماء كمال فلا يقوم غيرها، وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله فله من صفة الإدراكات: العليم الخير دون العاقل الفقيه، والسمع البصير، دون السامع والبادر والناظر، ومن صفات الإحسان: البر الرحيم، دون الرفيق والشقيق، وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف.

الثامن عشر: الإلحاد في أسمائه أنواع:

الأول: أن يسمى به غيره من الأصنام.

الثاني: أن يسمى بها لا يليق بجلاله كتسميتها أباً أو علة فاعلة.

الثالث: وصفه بها ينزع عنه كقول أخبت اليهود: إنه فقير.

الرابع: تعطيلها عن معانيها وتجدد حفاظتها كقول الجهمية: إنها الفاظ مجردة لا تدل على أوصاف: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيرا.

عن أبي شريح : «أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبي ﷺ : «إن الله هو الحكم وإليه الحكم فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوفى فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين ، فقال : ما أحسن هذا فهالك من ولد؟ قلت : شريح ومسلم وعبد الله ، قال : فمن أكابرهم؟ قلت : شريح ، قال : فأنت أبو شريح» رواه أبو داود وغيره^(١).

تغيره مثل الله ، الرحمن ، رب العالمين ، وما أشبه ذلك .

الثاني : ما يصح أن يوصف به غير الله مثل : الرحيم والسميع والبصير ، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي بها ، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم مغض .

قوله : «عن أبي شريح» : هو هاني بن يزيد الكندي ، جاء وافدا إلى النبي - ﷺ - مع قومه .

قوله : «إن الله هو الحكم وإليه الحكم» : هو الحكم : أي المستحق أن يكون حاكماً على عباده ، وحاكم بالفعل يدل له قوله : «وإليه الحكم» .

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٨/٢٢٧ ، وفي الأدب ٨١١ ، وأبو داود في الأدب / باب في تغيير الاسم القبيح ٥/٤٠ ، والنمساني في القضاء / باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم ٨/٢٢٦ ، والدولابي في الكتب ١/٧٤ ، والبيهقي ١٤٥/١٠ ، عن يزيد بن مقدام بن شريح عن أبيه هاني ، أبي شريح الخزاعي . وأخرجه ابن سعد ٦/٤٩ ، والحاكم ٤/٢٧٩ من طريق قيس بن الربيع ، وفي توثيقه خلاف .

والحديث صحيحه الالباني في الإرواء ٨/٢٣٧ ، وفي تعليقه على المشكاة (٤٧٦٦) قال : «إسناده جيد» .

.....
وقوله: «إِلَيْهِ الْحُكْمُ» الخبر فيه جار و مجرور مقدم، و تقديم الخبر يفيد
الحصر وعلى هذا يكون الحكم خاصاً بالله سبحانه.

و حكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذِنَ لِي أَبِي أَوْ يُحَكِّمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ»^(١).

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين مؤمن وكافر، فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر ومنه قوله تعالى: «وَمَا اخْتَلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَيَّ اللَّهِ»^(٢).

وأما قوله: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ»^(٣) و قوله تعالى: «وَمِنْ أَحْسَنِ
مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِّقَوْمٍ يَوْقَنُونَ»^(٤) فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنَّه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعاً للمحبة والرضا والكراهة والبغضاء، والكوني عام في كل شيء.
وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: [الْحَكَمُ].

وأما بالنسبة للعدل فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ حَكَمَ عَدْلًا» ولا أعرف فيه حديثاً مرفوعاً^(٥)، ولكن قوله تعالى: «وَمِنْ أَحْسَنِ مِنْ

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٣) سورة التين، الآية: ٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٥) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في سرد الأسماء: «إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... . الْحَكْمُ الْعَدْلُ» الحديث.
وقد سبق تخرجه، وبيان ضعفه.

الله حكمه^(١) لاشك أنه متضمن للعدل بل هو متضمن للعدل وزيادة.

قوله: «فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوفى»:
هذا جواب عن سؤال الرسول - ﷺ - له، لأن الرسول - ﷺ - سأله لماذا
يكونك بهذه الكنية؟.

والكنيسة: مصدر بآب أو أم، وقال بعضهم: أو أخ أو عم أو خال.
وقد تكون للمدح كما في الحديث، وقد تكون للذم كأبي جهل، وقد
تكون لمصاحبة الشيء مثل أبي هريرة، وقد تكون مجرد علم كأبي بكر وأبي
العباس ابن تيمية، إذ ليس له ولد.

قوله: «ما أحسن هذا»: الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى
تسميه بهذا الاسم؛ لأن النبي - ﷺ - غيره.

قوله: «شريح ومسلم وعبد الله»:
الظاهر: أنه ليس له إلا ثلاثة؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر
والأنثى فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله: «فأنت أبو شريح»:
غيره النبي - ﷺ - لأمررين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم كأنه قيل: يا أبا الله.
الثاني: أن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى
الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقاً لاسم الله، وليس مجرد العلمية
المحسنة بل للعلمية المتضمنة للمعنى وهذا يكون مشاركاً لله سبحانه وتعالى
وهذا كناه النبي - ﷺ - بما ينبغي أن يكتنفي به.

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه. **الثانية:** تغيير الاسم لأجل ذلك. **الثالثة:** اختيار أكبر الأبناء للكنية.

فيه مسائل :

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه:
قوله: «ولو لم يقصد معناه» هذا في النفس منه شيء؛ لأنه إذا لم يقصد معناه فهو جائز إلا إذا سمي بما لا يصح إلا الله مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه فهذه لا تطلق إلا على الله منها كان، وأما ما لا يختص بالله فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة بل كان المقصود مجرد العلمية فقط، لأنه لا يكون مطابقاً لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم»^(١) ولم يغیره النبي ﷺ - لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه «حكيم»^(٢) وأقره النبي ﷺ . فالذي يحترم من أسمائه تعالى، ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك: وقد سبق الكلام عليه.
الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية:
تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: «ما أكبر ولدك؟ قال: شريح. قال: فأنت أبو شريح».

(١) كالحكم بن الحارث السلمي، والحكم بن سعيد بن العاص، والحكم بن عبد الله الثقفي وغيرهم، رضي الله عنهم. انظر الإصابة ١/٢٦-٣٢.

(٢) كحكيم بن حزام، وحكيم بن الحارث الطائفي، وحكيم بن طلبي الأموي وغيرهم رضي الله عنهم. انظر الإصابة ١/٣٢-٣٤.

.....
ولا يؤخذ من الحديث استحساب التكفي؛ لأن النبي - ﷺ - أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة ولم يأمره النبي - ﷺ - أن يكنى ابتداء.
ويستفاد من الحديث ما يلي:

١ - أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والتصح إذا أغلقوا باباً محراً ما أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢ - أن الحكم لله لقوله ﷺ: «إِلَيْهِ الْحُكْمُ»، أما الكوفي فلا نزاع فيه بين أحد منخلق ولا يعارض الله أحد في أحکامه الكونية.

وأما الشرعي: فهو حكمة الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعاً سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساواً لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه فإنه كافر؛ لأنه جعل نفسه نداءً لله، عز وجل، سواء في العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: «فَأَفْحَمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِقَوْمٍ يَوْقَنُونَ»^(١) فدللت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساواً لحكم الله؛ لأن أحسن اسم تفضيل: معناه لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك فقد كذب الله عز وجل، وقال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»^(٢) وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره وأنه كفر.

فإن قيل: قال الله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»^(٣). قلنا: قال الله تعالى: «أَلَمْ تر إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَيْهِ طَاغُوتٌ وَقَدْ أَمْرَوْا

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

.....

أن يكروا به ويريد الشيطان أن يصلهم ضلالاً بعيداً، وإذا قيل لهم تعالىوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً^(١) وهذا دليل على كفرهم؛ لأنه قال: «يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا» وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: «وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» يدل على أن من جعل الحكم لغير الله فقد كفر.

فائحة :

يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظاماً يمشي عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله فهذا قد يكون كفراً أو فسقاً أو ظلماً.

فيكون كفراً إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مائل له.

ويكون فسقاً إذا كان هوى في نفس الحاكم.

ويكون ظلماً إذا أراد مضر المحكوم عليه، وظهور الظلم في هذه أبين من ظهوره في الثانية، وظهور الفسق في الثانية أبين من ظهوره في الثالثة.

٣ - تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تضمن أمراً لا ينبغي، كما غير النبي - ﷺ - بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوجهه بعض العامة.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

باب من هزل شيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل شيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ. والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمدًا ﷺ. ف[آل] للجنس وليس للعهد.

قوله: «من هزل»: سخر واستهزأً ورآه لعباً ليس جداً. ومن هزل بالله أو بأياته الكونية أو الشريعة أو برسله فهو كافر؛ لأن منافية الاستهزاء لليهود منافية عظيمة.

كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟ فالمؤمن بالشيء لا بد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفر كفران: كفر اعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضه، فهو أعظم من يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جداً ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله - عزوجل - لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار. فمن استهزأ بالصلوة - ولو نافلة - أو بالزكاة أو الصوم أو الحج ف فهو كافر بإجماع المسلمين.

كذلك من استهزأ بالأيات الكونية بأن قال: مثلاً: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الرب عزوجل كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها

.....
.....
بل لا نستطيع بلوغها.

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه هل تقبل توبته؟ . على قولين :

القول الأول : أنها لا تقبل وهو المشهور عند الحنابلة ، بل يقتل كافرا ، ولا يصل عليه ولا يدعى له بالرحمة ، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين ، ولو قال : إنه تاب أو إنه أخطأ ، لأنهم يقولون : إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة .

وقال بعض أهل العلم : إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله ، وأقر على نفسه بالخطأ ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم ، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة كقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا عَبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(١) ومن الكفار من يسبون الله ومع ذلك تقبل توبتهم .

وهذا هو الصحيح ، إلا أن سبَّ الرسول - ﷺ - تقبل توبته ويجب قتله بخلاف من سب الله فإنها تقبل توبته ولا يقتل ، لأن حق الله دون حق الرسول - ﷺ - بل أن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد بأنه يغفر الذنوب جميعا ، أما سبَّ الرسول - ﷺ - فإنه يتعلق به أمران :

الأول : أمر شرعى لكونه رسول الله ﷺ وهذا يقبل إذا تاب .

الثانى : أمر شخصى ، لكونه من بني آدم ، وهذا يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم ، فإذا قتل غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين .

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وقد ألف كتابا في ذلك اسمه

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

(الصادر المسؤول في حكم قتل سبب الرسول)^(١) وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ وكذا لو قد ذُكر فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول - ﷺ - وقبل منه وأطلقه؟ .

أجيب: بلى هذا صحيح لكن هذا في حياته - ﷺ - وقد أسقط حقه، وبعد موته لا ندرى فتنفذ ما نراه واجبا في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يغفر عنه أو لا يغفر موجب للتوقف؟ .

أجيب: أنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاوه.

(١) قال شيخ الإسلام في الصادر المسؤول ص (٤٤٠): «إنه اجتمع في الساب سبب كل منها يوجب نوعاً من القتل مختلفاً للنوع الآخر، وإن كان أحدهما يستلزم الآخر، فالكفر يوجب القتل للكفر الأصلي أو الكفر الارتدادي، وله أحکام معروفة، والسب يوجب القتل لخصوصه حتى يتدرج فيه قتل الكفر وقتل الردة، وهذا هو المغلب في حق مثل هذا... إلى أن قال: إذا سقط موجب الكفر والردة لم يسقط موجب السب».

وقال ص (٣٦١): «فعوده إلى الإسلام يسقط موجب الردة المحضة، وبيفي خصوص السب، ولابد من إقامة حده، كما أن توبه القاطع قبل القدرة عليه تسقط تحتم القتل وبيفي حق أولياء المقتول».

وقال ص (٣٣٧): «إن الذي عصم دم ابن أبي السرح عفو النبي - ﷺ -، وأنه بالإسلام والتوبة انمحى عنه الإنم، ويغفر النبي - ﷺ - احتقnen الدم، وليس للأمة أن يغفروا عن حق».

وفي ص (٤١٥): «أن قتل الساب لا يسقط عن سالم ولا معاهد بالتوبة».

وفي ص (٣٩٥): التصریح بأنه حد.

وقول الله تعالى: «ولَئِن سَأَلْتُهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّا كَنَا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ»^(١) الآية.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول - ﷺ - عفا عن من سبه؟ .
أجيب: بلى وربما كان في حياة الرسول - ﷺ - إذا عفا قد تبقى المصلحة
ويكون في ذلك تأليف، كما أنه - ﷺ - يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لثلا
يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من
المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة
الرسول - ﷺ - فقط.

قوله: «ولَئِن سَأَلْتُهُمْ»: الخطاب للنبي ﷺ أي سألت هؤلاء الذين
يخوضون ولعبون بالاستهزاء بالله ورسوله وكتابه والصحابة.

قوله: «لِيَقُولُنَّ»: جواب القسم، قال ابن مالك:
واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو مُلْتَزِمٌ^(٢)
وهذا جاءت اللام في الجواب.

قوله: «أَيُّ الْمَسْؤُلُونَ».

قوله: «إِنَّا كَنَا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ»:
أي ما لنا قصد ولكتنا نخوض وللعب، ولللعب يقصد به الهراء، وأما
الخوض فهو كلام عام لازماً له.

هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول فإنه يكون الخوض
في الكلام ولللعب في الجوارح.

وقوله: «إِنَّا كَنَا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ»:

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) ألفية ابن مالك ص (٥٢).

إنها أدلة حصر، أي ما شأنا وحالنا إلا أنها نخوض ولنلعب.

قوله: «قل أبا الله وأياته ورسوله كتم تستهزئون»: الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلاً للسخرية؟
قوله: «أبا الله»: أي بذاته وأياته فيشمل الشرعية كالاستهزاء بالقرآن،
بأن يقال: هذا أساطير الأولين - والعياذ بالله - أو يستهزأ بشيء من الشرائع كالصلوة والزكاة والصوم والحج.

ويشمل الكونية كأن يسخر بها قدره الله تعالى، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الشمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم استهزاء وسخرية.

قوله: «ورسوله»: المراد هنا محمد ﷺ.

قوله: «لا تعذروا»: المراد بالنبي التيسير أي إنهم عن الاعتذار تيسيراً لهم بقبول اعتذارهم.

قوله: «قد كفرتم بعد إيمانكم»: أي بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين ولكن إيمانهم ضعيف، وهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وأياته ورسوله.

قوله: «إن نَفْعُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين»:
«نفعو»: ضمير الجمع للتعظيم أي الله، عز وجل. قوله: «عن طائفة منكم»: قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهة لهذا الشيء لكنهم داهنو فصاروا في حكمهم جلوسهم إليه لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، وهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: «نعذب طائفة»: هذا جواب الشرط أي لا يمكن أن نعفو عن

الجميع بل إن عفونا فلابد أن يصاب الآخرون.

قوله: «**بأنهم كانوا مجرمين**»: الباء للسيبة، أي بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندتهم جرم - والعياذ بالله - فلا يمكن أن يوفقا للتوبة حتى يُعفى عنهم.

ويستفاد من الآيتين:

١ - بيان علم الله - عز وجل - بها سيكون لقوله: «**ولئن سألتهم ليقولون**» وهذا مستقبل ، فالله عالم ما كان وما سيكون لو كان كيف يكون قال ، تعالى: «**لَهُ غِيبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**»^(١).

٢ - أن الرسول - ﷺ - يحكم بها أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: «**أَبَاكُمْ وَآيَاتِهِ . . .**».

٣ - أن أعظم الكفر الاستهزاء يكون بالله وآياته ورسوله بدليل الاستفهام.

٤ - أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله هو أعظم استهزاء ، لقوله: «**أَبَاكُمْ وَآيَاتِهِ . . .**» ، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه ما بقي إلا أن تستهزوا بهؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء ، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥ - أن المستهزيء بالله يكفر لقوله: «**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِعِبَادَتِكُمْ**».

٦ - استعمال الغلظة في محلها ، وإلا فالالأصل أن من جاء يعتذر يرحم ، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة .

(١) سورة هود ، الآية: ١٢٣.

عن ابن عمر و محمد بن كعب و زيد بن أسلم و قتادة دخل حديث بعضهم في بعض : أنه قال رجل في غزوة تبوك : «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغم بطنوا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء - يعني الرسول ﷺ وأصحابه القراء - فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه .

٧ - قبول توبه المستهزئ بالله ، قوله : «إن نعف عن طائفه ...» وهذا أمر قد وقع ، فإن من هؤلاء من عفي عنه وهُدِي للإسلام وتاب وتاب الله عليه ، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته ، لكن لابد من دليل يبن على صدق توبته ، لأن كفره أشد ، فليس مثل كفر الإعراض .
وهوؤلاء الذين حضروا مثل الذين سبوا ، قال تعالى : «وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقدعوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم»^(١) وهم يستطيعون المفارقة ، والنبي - ﷺ - امثال غاية الامثال ، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له : «أبا الله وأياته ورسوله كتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم»^(٢) ولا يزيد على هذا أبدا مع إمكان أن يزيد توبيخا وتقريرا .

قوله : «عن ابن عمر» : وهو صحابي و«محمد بن كعب» وهو تابعي و«زيد بن أسلم» وهو تابعي و«قتادة» وهو تابعي فالرواية عن ابن عمر مرفوعة ، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة .

قوله : «دخل حديث بعضهم في بعض» :

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٦٨ .

(٢) يأتي ص (٣٤) .

أي أن هذا الحديث مجموع من كلامهم وهذا يفعله بعض أئمة الرواية، كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص، كحديث الإفك مثلاً فيجمعون هذا و يجعلونه في حديث واحد ويشيرون إلى هذا فيقولون - مثلاً - دخل حديث بعضهم في بعض ، أو يقول : حدثني بعضهم بكتذا ، وبعضهم بكذا وما أشبه ذلك .

قوله : «في غزوة تبوك» : تبوك في أطراف الشام ، وكانت هذه الغزوة في رجب حين طابت الشمار ، وكان مع الرسول - ﷺ - في هذه الغزوة نحو ثلاثة ألفاً ، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أبي بنحو نصف المعسكر حتى قيل إنه لا يدرى أي الجيшиْن أكثر الذين رجعوا أو الذين ذهبوا مما يدل على وفرة التفاق في تلك السنة ، وكانت في السنة التاسعة ، وسببها أنه قيل للنبي - ﷺ - إن قوماً من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له فاراد أن يغزوهم - ﷺ - إظهاراً للقوة وإلياناً بنصر الله ، عز وجل .

قوله : «ما رأينا» : تحتمل أن تكون بصرية ، وتحتمل أن تكون علمية قلبية .

قوله : «مثل قرائنا» : المفعول الأول ، والمراد بهم الرسول - ﷺ - وأصحابه .

قوله : «أرَغَبَ بِطُوْنَا» : المفعول الثاني أي أوسع ، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة ؛ لأنَّه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل .

قوله : «وَلَا أَكَذِّبُ أَلْسِنَا» الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع ، والألسن جمع لسان والمراد : ولا أكذب قوله ، واللسان يطلق على القول كثيراً في اللغة العربية كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾^(١) أي بلغتهم .

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤ .

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء»: الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره، فهو خلق نفسي ذميم، وهذا كان النبي - ﷺ - يستعيد منه^(١) لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي واحد ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس ألسنا، ولا سببا النبي - ﷺ - وأصحابه فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿للْفَقَرَاءِ الْمَهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَفَغَّوْنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَا وَيَنْصُرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَادِقُونَ﴾^(٢).

والمنافقون أكذب الناس كما قال الله فيهم: «وَالَّذِي يَشَهِدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»^(٣) وجعل النبي - ﷺ - الكذب من علامات النفاق^(٤)، والمنافقون من أجبن الناس قال تعالى: «يَحْسِبُونَ كُلَّ صِحَّةٍ عَلَيْهِمْ...»^(٥) فلو سمعوا أحدا ينشد ضالته لقالوا: عدو، عدو.. . وهم أحب الناس للدنيا إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تخمى دمائهم وأموالهم وأعراضهم. قوله: «كذبت»: أي أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/باب ما يتعدى من الجبن ٣١٢/٢ من حديث سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١١.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان/باب علامة المنافق ١/٢٧، ومسلم في الإيمان/باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سورة المنافقون، الآية: ٤.

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض نتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق ، قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجله وهو يقول : إنما كنا نخوض ولعب ، فيقول له رسول الله ﷺ : «أبا الله وأبااته ورسوله كتم تستهزئون» ؟ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه » (١) (٢) .

وجوب تكذيب الكذب منها كان الأمر وأن السكوت عليه لا يجوز .
 قوله : «ولكنك منافق» : لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله - ﷺ - وأصحابه رجل تسمى بالإسلام ، وهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله - ﷺ - أنه كافر ، لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته .
فيكون طعناً في الله ، لأنه طعن في حكمته حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه .

وطعناً في الرسول - ﷺ - : لأنهم أصحابه والمرء على دين خليله ، والإنسان يستدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرائن .
وطعناً في الشريعة : لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسول - ﷺ - في نقل الشريعة وإذا كانوا بهذه المثابة فلا يوثق بهذه الشريعة .

قوله : «فوجد القرآن قد سبقة» :
أي بالوحى من الله تعالى ، والله علیم بما يفعلون وبما ي يريدون وبما

(١) سورة التوبة ، الآية : ٦٧ .

(٢) أخرجه ابن جرير ١١٩/١٠ ، وابن أبي حاتم كما في الصحيح المسند لمقبل بن هادي ص (٧٧) .

يبتؤن، قال تعالى: «يُسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يُسْتَخْفُونَ مِنْهُ وَهُوَ مَعْهُمْ إِذْ يَبْتَؤُنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ»^(١).

قوله: «وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتِهِ»: الظاهر: أن هذا من باب عطف التفسير.

قوله: «كَأَنِي أَنْظَرْتُ إِلَيْهِ»: كأن إذا دخلت على مشتق فهي للتوقع، وإذا دخلت على جامد فهي للتشبيه وهنا دخلت على جامد، والمعنى: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

قوله: «بِنْسُعَةِ»: هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: «وَالْحَجَارَةُ تَنْكَبُ رَجْلِيهِ»: أي يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه - والله أعلم - يمشي بسرعة ولكنه لا يحس في تلك الحال؛ لأنَّه يريد أن يعتذر.

قوله: «وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ»: أي لا يزيده على ما ذكر من توبيخ، امثاله لأمر الله - عز وجل - وكفى بالقول الذي أرشد الله إليه نكابة وتوبيخا^(٢).

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٨.

(٢) سألة في سب الصحابة رضي الله عنهم.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص (٥٨٦ - ٥٨٧): «وَأَمَّا مَنْ جَاوزَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ ارْتَدُوا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، إِلَّا نَفَرَ أَقْلَيًا لَا يَلْغُونَ بِضَعْفِ عَشَرَ نَفَسًا، أَوْ أَنَّهُمْ فَسَقُوا عَامَتِهِمْ فَهَذَا لَا رَبُّ أَيْضًا فِي كُفْرِهِ؛ لَأَنَّهُ مَكْذُوبٌ لَا نَصَّهُ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِّنْ رَضَا عَنْهُمْ وَالثَّانِي عَلَيْهِمْ، بَلْ مَنْ يَشَكُ فِي كُفْرِ هَذَا فَإِنَّ كُفْرَهُ مُتَعِّنٌ... إِلَى أَنْ قَالَ: وَكَفَرَ هَذَا مَا يَعْلَمُ بِالاضْطَرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ».

وقال الهيثمي في الصواعق المحرقة ص (٣٧٩): «ثُمَّ الْكَلَامُ - أَيُّ الْخَلَافُ - إِنَّمَا هُوَ فِي سَبِّ = بَعْضِهِمْ أَمَّا سَبِّ جَمِيعِهِمْ فَلَا شَكٌ فِي أَنَّهُ كُفَّارٌ».

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الرد على الراضة ص (١٩) : «من خص بعضهم بالسب فإن كان من تواتر التقل في فضله وكماله كالخلفاء، فإن اعتقاد حقيبة سبه أو إياحته فقد كفر لتكلديه مثبت قطعاً عن رسول الله ﷺ ومكتبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقيبة سبه أو إياحته فقد تفسق؛ لأن سباب المسلمين فسوق، وقد حكم البعض فيما سب الشيوخين بالكفر مطلقاً».

وقال أيضاً: «إن كان من لم يتواتر التقل في فضله وكماله، فالظاهر أن سبابه فاسق إلا أن يسبه من حيث صحبته لرسول الله ﷺ فإنه يكفر».

وقال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص (٥٨٦) : «واما سبهم سبأ لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك، فهو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا تحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء».

وذكر أبو بعل من الأمثلة على ذلك اتهامهم بقلة المعرفة بالسياسة، كما في الصارم المسلول ص (٥٧١).

قال ابن كثير في تفسيره ٣/٢٧٦: «وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها - أي عائشة - بعد هذا ورمها بهارماها به بعد هذا الذي ذكر في الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن».

وانظر القول بتكبير من قذف عائشة رضي الله عنها في الشفا ٢/١١٠٩ الصارم المسلول ص (٥٦٥) وتفسير ابن جرير ١٨/٨٣، وتفسير القرطبي ١٢/١٣٦، والمحل ١١/٤١٥.

وأما قذف بقية أمهات المؤمنين فالآكثرون على كفر قاعل ذلك؛ لأن المقدوف زوجة رسول الله ﷺ والله تعالى إنها غضب لها لأنها زوجته فهي وغيرها منها سوء، وفيه نقص وأذى لرسول الله ﷺ.

انظر: الشفا ٢/١١١٣، والبداية والنهاية ٨/٩٥، والصواعق المحرقة ص (٣٨٧)، والمحل ٨/٩٥.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا كافر. **الثانية:** أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان. **الثالثة:** الفرق بين النميمة والنصيحة لله ورسوله. **الرابعة:** الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

فيه مسائل :

الأولى وهي العظيمة: أن من هزل بهذا كافر: المشار إليه: «بِاللهِ، وَآيَاتِهِ، وَرَسُولِهِ».

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان، أي سواء كان منافقاً أو غير منافق ثم استهزأ فإنه يكفر كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ورسوله:

النميمة: من نم الحديث أي نقله ونسبه إلى غيره وهي: نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد. وهي من أكبر الذنوب قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»^(١) وأخبر - ﷺ - عن رجل يعذب في قبره؛ لأنَّه كان يمشي بالنميمة^(٢)، وأما النصيحة لله ورسوله فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله - عز وجل - وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه.

ومن ذلك لو أن رجلاً اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به في المجالس فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك فليس هذا من النميمة بل من النصيحة.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله:

(١) أخرجه البخاري ٤٧٦/١٠ فتح، ومسلم ١٠١/١.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٧/١ فتح، ومسلم ٢٤٠/١.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح، لأن الله اشترط في العفو فقال: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله»^(١) أي كان عفوه مشتملاً على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه وهذا تفسير قاصر، والصواب: أن المراد به أصلح في عفوه أي كان في عفوه إصلاح. فمن كان عفوه افساداً لا إصلاحاً فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر، لأن الله قال: «عفا وأصلح» ولأن العفو إحسان والفساد إساءة ودفع الإساءة أولى، بل العفو حيثند حرم.

والنبي - ﷺ - غلظ على هذا الرجل، لأن النبي - ﷺ - لم يلتفت إليه ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تنكب رجل الرجل ولم يرحمه النبي - ﷺ - ولم يرق له، ولكل مقام مقال فينبغي أن يكون الإنسان شديداً في موضع الشدة لينا في موضع اللين، لكن أعداء الله - عز وجل - الأصل فيهم الشدة، قال تعالى: «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم واما لهم جهنم وبئس المصير»^(٢) ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحياناً للدعوة والتأليف، قد يكون مستحسناً.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل:
فالأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعذر محسناً لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه اعتذار باطل فإنه لا يقبل.

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٩.

باب قول الله تعالى:

﴿ولَنْ أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ لِيَقُولُنَّ هَذَا لِي﴾^(١) الآية.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس مخصوصاً تفضلاً، لكن لأنه أهل فقيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية.

قوله: «ولَنْ أَذْقَنَاهُ»: الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس.
وقيل: المراد به الكافر.

والظاهر: أن المراد به الجنس إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان خلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى في أول الآية: ﴿إِلَيْهِ يَرْدَ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثُمَرَاتِ أَكْبَامِهَا وَمَا تَحْمُلُ مِنْ أَثْنَىٰ وَلَا تَضُعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَيْنَ شَرَكَاهُ قَالُوا: آذْنَاكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ، وَضُلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلِ وَظَنَوْا مَا هُمْ مِنْ مُحِيطٍ، لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَهُ الشَّرُّ فَيُؤْوسُ قَنْوَطَ﴾^(٢) هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: «مَنَا»: أضافه الله إليه، لوضوح كونها من الله ول تمام منته بها.
قوله: «مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ»: أي أنه لم يذق الرحمة من أول أمره بل

(١) سورة فصلت، الآيتين ٤٧ - ٥٠.

قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به، وقال ابن عباس: ي يريد من عندي ، قوله: «إِنَّمَا أُوتِيَتِهِ عَلَى عِلْمٍ عَنِّي» قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

أصيب بضراء كالفقر، وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها مثل الذائق للطعام.

قوله: «مسته»: أي أصابته وأثرت فيه.

قوله: «الْيَقُولُونَ هَذَا لِي»: هذا كفر عظيم، واللام في قوله: «الْيَقُولُونَ»: واقعة في جواب القسم المقدر قبل اللام في قوله: «ولئن أذقناه». قوله: «وَمَا أَظْنَنَ السَّاعَةَ قَائِمَةً» بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء جأ إلى الله ثم كشفها ثم وجد بعد ذلك لذة وسرورا يشكر الله على ذلك، أما هذا فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: «ولَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عَنْهُ لِلْحَسْنَى»: [إن] شرطية وتأي فيها يمكن وقوعه وفيها لا يمكن وقوعه كقوله تعالى: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِي حِبْطَنْ عَمْلَكَ»^(١) والمعنى على فرض أن أرجع إلى الله إن لي عنده للحسنى.

والحسنى اسم تفضيل أي الذي هو أحسن من هذا واللام للتوكيد.

قوله: «فَلَتَبَأْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا»: أي فلتباًن هذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم على هذا القاتل بالكفر ولأجل أن يشمله الوعيد وغيره.

قوله: «إِنَّمَا أُوتِيَتِهِ عَلَى عِلْمٍ»: في القرآن آياتان آية قال الله فيها: «إِنَّمَا أُوتِيَتِهِ عَلَى عِلْمٍ بِلَّا هِيَ فَتَنَّةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، الثانية: «إِنَّمَا أُوتِيَتِهِ

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل، وهذا معنى قول مجاهد
أوتته على شرف^(١).

على علم عندي^(٢) والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية.
قوله: «على علم»: في معناه أقوال:

الأول: قال فتادة: على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدا
على الإنسان أي: أنني عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد على فيها أوتيته وإنما
الفضل لي.

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل، فيكون بذلك مدللا
على الله وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله أي:
أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

فصار معنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل
الله بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهاراته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل، وكأنه هو الذي له الفضل
على الله، لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلاً لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر الله، عز وجل، والحقيقة أن كل ما
نؤتاه من النعم فهو من الله فهو الذي يسرّها حتى حصلنا عليها، بل كل ما
نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله، فالواجب علينا أن ننصيف هذه
النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: «وما بكم من نعمة فمن الله»^(٣) حتى ولو
حصلت لك هذه النعمة بعلمتك أو مهاراتك فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٠٧/١٠، الدر المثور ٥/١٣٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يتلهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى

هو الله ، عز وجل ، ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سبباً لحصول الرزق ، فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلاً .
وشكر النعمة له ثلاثة أركان :

- ١ - الاعتراف بها في القلب .
- ٢ - الثناء على الله باللسان .
- ٣ - العمل بالجوارح .

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه فهذا لم يشكر النعمة ، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه .

قوله : «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن ثلاثة من بني إسرائيل» :
جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر ، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور ،
قال الله تعالى : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب»^(١) .

قوله : «من بني إسرائيل» :

هم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

قوله : «أبرص» : من في جلده بياض ، والبرص داء معروف ، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية ، وربما توصلوا أخيراً إلى عدم انتشارها وتتوسعها في الجلد لكن رفعها لا يمكن ، وهذا جعلها الله آية لعيسي ، قال تعالى : «تبريء الأكمه والأبرص ياذن»^(٢) .

(١) سورة يوسف ، الآية : ١١١ . (٢) سورة المائدة ، الآية : ١١٠ .

الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويدهب عني الذي قد قدرني الناس به قال: فمسحه فذهب عنه قدره

قوله: «أقرع»: من ليس على رأسه شعر.

قوله: «أعمى»: من فقد البصر.

قوله: «فأراد الله»: وفي بعض النسخ «أراد الله» فعل إثبات الفاء يكون خبر [إن] مخدوفاً دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أقصى عليكم نبأهم فأراد الله أن يبتليهم. ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمى» خبراً لأنها بدل، وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: «أراد الله» والإرادة هنا كونية.

قوله: «بيتلهم»: أي يختبرهم كما قال الله تعالى: «وبنلوكم بالشر والخير فتنة»^(١) وقال تعالى: «هذا من فضل رب ليسلوني أشكراً أم أكفر»^(٢).

قوله: «ملكاً»: أحد الملائكة: هم عالم غيبهم خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يسامون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ومحب الإيمان بهم وهو أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: وأصل الـ [ملك] مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة، وعلى هذا يكون أصله مالك فصار فيه إعلال قلبي، فصار ملاك ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام الساكنة وحذفت الهمزة تحفيقاً، فصار ملك وهذا في الجمع ثانية الهمزة: ملائكة.

وهذا الملك الذي بعث جعله الله من جنس هؤلاء.

قوله: «ويذهب»: يجوز الرفع والنصب، والرفع أولى.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥. (٢) سورة التمل، الآية: ٤٠.

فأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فـأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شـك إسحاق - فأعطـي نـاقة عـشراء فقال: بـارك الله لك فيـها. قال: فـأتـى الأـقرع، فقال: أـي شيء أـحب إليـك؟ قال: شـعر حـسن، وـيذهب عـني الـذي قـدرـني النـاس بـه، فـمسـحـه فـذهب عـنه قـدرـه

قولـه: «ـقـدرـني»: أـي اـسـتـقـدرـني وـكـرـهـوا مـخـالـطـي مـنـ أـجـلهـ.

قولـه: «ـبـهـ»: الـباءـ لـلـسـبـيـةـ أـي بـسـبـيهـ.

قولـه: «ـفـمـسـحـهـ»: ليـتـيـنـ أنـ لـكـلـ شـيـءـ سـبـياـ، وـبـرـيـءـ بـإـذـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـيـدـأـ يـذـهـبـ الـقـدـرـ قـبـلـ اللـوـنـ الـحـسـنـ وـالـجـلـدـ الـحـسـنـ، لـأـنـهـ يـدـأـ بـزـوـالـ الـمـكـرـوـهـ قـبـلـ حـصـولـ الـمـطـلـوبـ كـمـاـ يـقـالـ: التـخلـيـةـ قـبـلـ التـحلـيـةـ.

قولـه: «ـقـالـ: الإـبـلـ أوـ الـبـقـرـ - شـكـ إـسـحـاقـ»:

الـظـاهـرـ: أـنـ الإـبـلـ كـمـاـ يـفـيدـ السـيـاقـ، وـإـسـحـاقـ أـحـدـ رـوـاـةـ الـحـدـيـثـ.

قولـه: «ـعـشـراءـ»: قـبـيلـ: هيـ الـحـامـلـ مـطـلـقاـ، وـقـالـ فـيـ الـقـامـوسـ: هيـ الـتيـ بلـغـ حـلـلـهاـ عـشـرـةـ أـشـهـرـ أـوـ ثـيـانـيـةـ، سـخـرـهـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـذـلـلـهـاـ وـلـعـلـهـاـ كـانـتـ قـرـيـةـ منـ الـمـلـكـ فـأـعـطـاهـ إـيـاـهــ.

قولـه: «ـبـارـكـ اللهـ لـكـ فـيـهـ»:

يـحـتـمـلـ أـنـ لـفـظـ الـخـبـرـ وـمـعـنـاهـ الدـعـاءـ، وـهـوـ الـأـقـرـبـ؛ لـأـنـهـ أـسـلـمـ مـنـ الـتـقـدـيرـ. وـيـحـتـمـلـ أـنـهـ خـبـرـ مـعـضـ كـأـنـهـ قـالـ: هـذـهـ نـاقـةـ عـشـرـاءـ مـبـارـكـ لـكـ فـيـهـاـ وـيـكـوـنـ الـمـعـنـىـ عـلـىـ تـقـدـيرـ (ـقـدـ)ـ أـيـ: فـقـالـ: قـدـ بـارـكـ اللهـ لـكـ فـيـهـاـ.

قولـه: «ـفـأـتـىـ الـأـقـرـعـ»:

وـهـوـ الرـجـلـ الثـانـيـ فـيـ الـحـدـيـثـ.

قولـه: «ـفـقـالـ: أـيـ شـيـءـ أـحـبـ إـلـيـكـ قـالـ: شـعـرـ حـسـنـ»: وـلـمـ يـكـنـ فـيـهـ بـمـجـرـدـ الـشـعـرـ بـلـ طـلـبـ شـعـراـ حـسـنــ.

وأعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل
فأعطي بقرة حاملاً قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال:
أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلى بصري فابصر به الناس،
فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فـيـ المـالـ أـحـبـ إـلـيـكـ. قال: الغنم

قوله: «الذى قدرنى الناس به»:
أى القرع لأنه إذا كان أقرع كرهه الناس واستقدروه، وهذا يدل على
أنهم لا يغطون رؤوسهم بالعائم ونحوها، وإن كان يبدو بعض الرأس من
جوانب العمامة فيكرهه الناس مما بدأ منها.

قوله: «ذهب عنه»:
وهذه نعمة من الله عز وجل أن يستجاب للإنسان.
قوله: «البقر أو الإبل»: الشك من إسحاق، وسباق الحديث يدل على
أنه أعطي البقر.

قوله: «أتى الأعمى»:
هذا هو الرجل الثالث في هذه القصة.
قوله: «فابصر به الناس»:
لم يطلب بصرًا كما طلبه أصحابه، وإنما طلب بصرًا يبصر به الناس
فقط.

لقوله: «فرد الله إليه بصره» الظاهر: أن بصره الذي كان معه من قبل هو
ما يبصر به الناس فقط.

قوله: «قال: الغنم»:
هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع. لأن
السكينة في أصحاب الغنم.

فأعطي شاة والدا فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل،
ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته قال: رجل مسكون
وابن سبيل قد انقطعت بي الحال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله

قوله: «شاة والدا»:

قيل: إن المعنى قريبة الولادة ويؤيده أن صاحبيه أعطياً أنشى حاملاً، ولا
يأتي من قوله: «فأنتج هذان وولد هذا» والشيء قد يسمى بالاسم القريب فقد
يعبر عن الشيء حاصلاً وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

قوله: «فأنتج هذان»: بالضم، وفي رواية بالفتح: «فأنتج» وفي رواية:
«فتَّجَ هذان».

والالأصل في اللغة في مادة [نتج] أنها مبنية للمفعول والإشارة إلى صاحب
الإبل والبقر، و«أنتج» أي حصل لها ناتج الإبل والبقر.

قوله: «وولد هذا»:

أي صار لشاته أولاد، قالوا: والمتح من أنتج، والناتج من نتج، والمولد
من ولد، ومن تولي توليد النساء يقال له: القابلة، ومن تولي توليد غير النساء
يقال له: متاج أو ناتج أو مولد.

قوله: «فكان لهذا واد من الإبل»:

مقتضى السياق أن يقول فكان لذلك. لأنه أبعد المذكورين، لكنه
استعمل الإشارة للقريب في مكان بعيد وهذا جائز وكذا العكس.

قوله: «في صورته وهيئته»:

الصورة في الجسم، والهيئه في الشكل واللباس وهذا هو الفرق بينهما.

قوله: «رجل مسكون»:

ثم بك، أسائلك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال،
بعيراً أتبليغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك
ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيراً فأعطيك الله عز وجل المال؟ فقال:

خبر لمبدأ محدود تقديره أنا رجل مسكون، والمسكون: الفقير وسمى
الفقير مسكوناً؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، والغني في الغالب يكون عنده قوة
وحركة.

قوله: «انقطعت بي الحال في سفري»:
الحال الأسباب، فالحبل يطلق على السبب وبالعكس قال تعالى:
﴿فَلَمَّا دَرَأَ بَرْدَةً إِلَى السَّهَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعُ﴾^(١) ولأن الحبل سبب يتوصّل به الإنسان
إلى مقصوده كالرشاء يتوصّل به الإنسان إلى الماء الذي في البشر.

قوله: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»:
[لا]: نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول ومنه تبليغ الرسالة أي
إيصالها إلى المرسل إليه والمعنى: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله ثم بك،
فالمسألة فيها ضرورة.

قوله: «أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن»:
السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداً؛ لأن «سأل» تأتي
بمعنى استجدى ويُعني استخبر، تقول: سأله عن فلان أي استخبرته،
وسأله مالاً أي استجدتني واستعطيته، ولم يقل أسائلك بالله لأجل أن يذكره بنعمة
الله عليه ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكون، لأنه جمع بين أمرين كونه
مسكوناً وكونه ابن سبييل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

قوله: «بعيراً»:

(١) سورة الحج، الآية: ١٥.

إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتي الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا ورد

يدل على أن الأبرص أعطى الإبل، وتعبير إسحاق «الإبل أو البقر» من باب ورعيه.

قوله: «أتبلغ به في سفري»: أي ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: «الحقوق كثيرة»:

أي هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة ليس حملك أنت فقط. وتناسى - والعياذ بالله - أن الله هو الذي منْ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: «كأن أعرفك»: كأن هنا: للتشبيه؛ لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق فهي للظن والحسبان، والمعنى: أعرفك معرفة تامة.

قوله: «ألم تكن أبرص يقدرك الناس»:

ذكره الملك بنعمة الله عليه ، وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على «الم» كقوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك»^(١).

قوله: «كابرًا عن كابر»:

أنكر أن المال من الله لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.
و[كابرًا] منصوبة على نزع الخافض أي من كابر أي من يكبرني ، وهو الأب عن كابر له وهو الجد، وقيل المراد: الكبر المعنى أي أنا شرفاء وسادة

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.
قال: وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكون وابن سبيل قد

وفي نعمة من الأصل وليس هذا المال مما تجده، واللفظ يحتمل المعنيين جيئا.

قوله: «إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت»:

[إن] شرطية وها مقابل، يعني وإن كنت صادقا فأبقي الله عليك
النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي بـ«إن» الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف
أنه كاذب؟.

أجيب: أن هذا من باب التنزيل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما
ذكرت عن نفسك فأبقي الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذبا وأنك لم ترثه
كابرا عن كابر فصيرك الله إلى ما كنت، ولم يقل: «إلى ما أقول»؛ لأنه كان على
ذلك بلا شك.

والتنزيل مع الخصم يرد كثيرا في الأمور المتيقنة كقوله تعالى: «آللله خير
أما يشركون»^(١) ومعلوم أنه لا نسبة وأن الله خير مما يشركون ولكن هذا من
باب عجاجة الخصم لإدحاض حجته.

قوله: «وأتى الأقرع في صورته»: الفاعل المللّ وهذا قال: «في صورته»
فقط وفي الأول قال: «في صورته وهيئته» فالظاهر أنه تصرف من الرواية والإ
فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة
تكون تصنعا في اللباس ونحوه.

قوله: «فقال له مثل ما قال لهذا»: المشار إليه الأبرص.

قوله: «فرد عليه»: أي الأقرع.

(١) سورة النمل، الآية: ٥٩.

انقطعت بي الحال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك
بالي الذي رد عليك بصرك شاء أتبليغ بها في سفري . قال: كنت أعمى فرد
الله علي بصرني فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله ،

قوله: «مثلك مارد عليه هذا» أي الأبرص .

فكلا الرجلين - والعياذ بالله - غير شاكر لنعمة الله ولا معترض لها ، ولا
راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر .

قوله: «فصيرك الله إلى ما كنت عليه» :

أي ردك الله إلى ما كنت عليه من القرع الذي يقدرك الناس به .

قوله: «ابن سبييل»: أي مسافر سمي بذلك للازمته للطريق ، ومنه
سمى ابن الماء لطير الماء ، فكل شيء يلازم شيئاً فإنه يضاف إليه بلفظ البنوة .

قوله: «فرد الله إلى بصرى»: اعترف بنعمة الله ، وهذا أحد أركان
الشکر ، والرکن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم ، والرکن الثالث:
الاعتراف بالنعمة في القلب قال الشاعر:

أفادتكم النعمة مني ثلاثة يدي ولسانى والضمير المحجا

قوله: «فوالله لا أجهدك بشيء أخذته الله» :

الجهد: المشقة ، والمعنى : لا أشق عليك بمنع ولا منه ، واعترافه بلسانه
مطابق لما في قلبه فيكون دالاً على الشکر بالقلب بالتضمن .

قوله: «خذ ما شئت ودع ما شئت» :

هذا من باب الشکر بالجوارح ، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركانه
الشکر .

قوله: «له» :

اللام للاختصاص ، والمعنى لأجل الله ، وهذا ظاهر في إخلاصه الله فكل
ما تأخذة الله فإننا لا نمنعك منه ولا أردهك .

فقال: أمسك مالك فإنما ابتليت فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» أخرجه^(١).

قوله: «فإنما ابتليت»:

ابتلاهم الله وظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس؛ لأن

قوله: «إنما ابتليت» يدل على أن عنده علم بها جرى لصاحبيه غالباً أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس.

قوله: «فقد رضي الله عنك»:

يعني لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح.

قوله: «وسخط على صاحبيك»:

لأنهما كفراً نعمة الله، سبحانه، وأنكرا أن يكون الله من عليةما بالشفاء والمال.

وفي هذا الحديث من العبر شيء كثير منها:

١ - أن الرسول - ﷺ - يقص علينا أبناء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرى وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعننا بخلافه، ولاشك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢ - بيان قدرة الله عز وجل بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم.

٣ - أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر؛ لقوله: «فأنتي الأبرص في صورته».

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء / باب حديث أبرص وأقرع وأعمى في بني إسرائيل ٤٩٤ / ٢، ومسلم في الزهد والرقائق ٤ / ٢٢٧٥.

- ٤ - أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحاً أو معانٍ أو قوى فقط.
- ٥ - حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.
- ٦ - أن الإنسان لا يلزم الرضا بقضاء الله - أي بالمقضي - لأن هؤلاء الذين أصيروا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا وهذا يدل على عدم الرضا.
وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:
جزع، وهو محزن.
صبر، وهو واجب.
رضا، وهو مستحب.
شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال وهو كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟
أجيب: أن الإنسان إذا آمن بها يتربّ على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

وأما قوله ﷺ: «فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط»^(١).
فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله فهذا يحب الرضا به؛ لأن الله - عز وجل - حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي.
والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يحب الرضا بها.

٧ - جواز الدعاء المعلق لقوله: «إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت» وفي القرآن قال الله تعالى: «والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين»^(٢) «والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين»^(٣).

(١) ٢٢٢/٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٧.

(٣) سورة النور، الآية: ٩.

-
- ٨ - جواز التنزيل مع الخصم فيها لا يقربه الخصم المتنزيل؛ لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وأن المال ورثه كابرا عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن ومنه أيضا قوله تعالى: «إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ»^(١) ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزيل معهم من باب العدل.
- ٩ - أن بركة الله لا نهاية لها، وهذا كان لهذا واد من الإبل، وهذا واد من البقر، وهذا واد من الغنم.
- ١٠ - هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟ . الظاهر: أنها قضية عين وإلا لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظاهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله علمنا أن الدعاء قد استجيب.
- ١١ - بيان أن شكر كل نعمة بحسبها، فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء . ونظير هذا ما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب .
- ١٢ - جواز التمثيل وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا فله ذلك .
- ١٣ - أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً يؤخذ من قوله: «فَإِنَّمَا ابْتَلِيهِمْ

(١) سورة سبا، الآية: ٢٤ .

.....
١٤ - فضيلة الورع والزهد وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمى كان زاهدا في الدنيا فكان شاكرا لنعم الله.

١٥ - ثبوت الإرث في الأمم السابقة لقوله: «ورثته كابرا عن كابر».

١٦ - أن من صفات الله - عز وجل - الرضا والسخط والإرادة؛ وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.
إرادة الله نوعان: كونية، وشرعية، والفرق بينهما: أن الكونية يلزم بها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبا لله.

وأما الشرعية: فإنه لا يلزم بها وقوع المراد ويلزم أن يكون محبوبا لله.

فإن قيل: هل الله يريد الخير كونا أو شرعا؟

أجيب: أن الخير إذا وقع فهو مراد الله كونا وشرعا، وإذا لم يقع فهو مراد الله شرعا فقط.

وهذا نقول الإرادة الشرعية بمعنى المحبة، والكونية بمعنى المشيئة.
وإثبات صفة الرضا لله سبحانه لا يقتضي انتفاء صفة الحكم، بخلاف رضا المخلوق فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلا فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضي عنه بكل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساواة

لكن رضا الله مقررون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق بخلاف غضب المخلوق فقد يخرجه عن الحكمة لشدة غضبه.

ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادته فرأيه مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن

.....
معنى [رضي] أي أراد أن يثبت فمعناه أنه لا يرضى ، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا لكن أولوها تأويلا يستلزم جواز نفي الرضا ، لأن المجاز معناه نفي الحقيقة وهذا أمر خطير جدا.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم : أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة خلافاً ملخصه في شيء في اللغة مجاز.

١٧ - أن الصحابة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة لقوله: «وسخط على صاحبيك» فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس .

١٨ - اختبار الله - عز وجل - بما أنعم عليهم به .

١٩ - أن التذكرة قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو المثلثات .

٢٠ - أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن من أجل الاختبار لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل .

٢١ - أن هذه الفضة كانت معروفة مشهورة لقوله: «فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» .

فيه سائل:

الأولى: تفسير الآية، الثانية: ما معنى: «لِيقولُنَّ هَذَا لِي».
 الثالثة: ما معنى قوله: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ». الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

فيه سائل :

الأولى : تفسير الآية :

وهي قوله تعالى: «وَلَئِنْ أَذْفَنَاهُ رَحْمَةً مَنَا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ لِيَقُولُنَّ هَذَا لِي»: وقد سبق أن الضمير في قوله: «أَذْفَنَاهُ» يعود على الإنسان باعتبار الجنس.
 الثانية: ما معنى: «لِيَقُولُنَّ هَذَا لِي»:

اللام للاختصاص، والمعنى أنى حقيق به وجدير به.

الثالثة: ما معنى قوله: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ»: وقد سبق بيان ذلك.
 الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة: وقد سبق ذكر

عبر كثيرة وهذا ليس استيعاباً ومن ذلك:

١ - الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى.

٢ - أن الأبرص والأقرع جحداً نعمة الله، عز وجل، والأعمى اعترف بنعمة الله.

٣ - عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة قال خذ ما شئت فدل هذا على جوده وإخلاصه لله، لأنه قال: فواهه لا أجهشك اليوم بشيء أخذته لله، عز وجل. بخلاف الأبرص والأقرع حيث كانوا أشحاء بخلاء منكري نعمة الله، عز وجل.

باب قول الله تعالى:

﴿فَلِمَا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعْلًا لَهُ شُرَكَاءٌ فِيهَا آتَاهُمَا﴾^(١) الآية^(٢).

قوله: «فَلِمَا آتَاهُمَا»: الضمير يعود على ما سبق وهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: «هو الذي خلقكم من نفس واحدة...»^(٣):

قوله: «خلقكم من نفس واحدة» فيها قولان:
الأول: أن المراد بالنفس الواحدة العين الواحدة، أي من شيء معين وهو آدم، عليه السلام، قوله: «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» «من»: للتبعيض، لأن حواء خلقت من ضلع آدم.

الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه من جنس البقر أو الصنآن أو الملائكة مثلا، والنفس قد يراد بها الجنس كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثْنَا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٤) أي من جنسهم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٠.

(٢) قال الشيخ عبدالرحمن السعدي في القول السديد ص (١٣١):
«مقصود الترجمة: أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكُفِّلَ الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أيديهم، وقام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعلهم أن يشكروا الله على انعامه، وإن لا يُعبدُوا أولادهم لغير الله، أو يضيّعوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد».

(٣) سورة النساء، الآية: ١. (٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

قوله: «ليسكن إليها»:

سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرتين:

أولاً: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان
والاستقرار.

ثانياً: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير
حتى بين الأم وابنها.

وقوله: «ليسكن إليها»: تعليل لكونها من جنسه أو من نفس المعينة.

قوله: «فلما تغشاها»:

أي جامعها، وعبارة القرآن والسنة عن الجماع كنایة، قال تعالى: «أو
لامست النساء»^(١) وقال: «اللاتي دخلتم بهن»^(٢) وقال تعالى: «وقد أفضى
بعضكم إلى بعض»^(٣) كان الاستحياء من ذكره بتصريح اسمه أمر فطري؛
ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى
ذلك، فإنه قد يصرح به كما في قوله - ﴿لَا عز وَلَا قُرْبَةٌ لِمَا عَرَفَ عَنْهُ بِالزَّنْبِ﴾ : «أنكها
لا يكفي»^(٤)، لأن الحاجة هنا داعية للتتصريح حتى يتبيّن الأمر جلياً، ولأن
الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض
بظلامة. قال، تعالى: «والليل إذا يغشى»^(٥) ولم يقل: فلما غشتها، لأن

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٤) أخرجه البخاري في الحدود/باب هل يقول الإمام للمقرئ علك لست ٤/٢٥٦.

(٥) سورة الليل، الآية: ١.

.....
تغشى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، وهذا جاء في الحديث: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها»^(١) الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان و[جهدها] هذا تغشى.

قوله: «حلت حلا خفيفا»:

الحمل في أوله خفيف نطفة ثم مضغة.

قوله: «فمررت به»: المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: «فلما أثقلت»: الإنقال في آخر الحمل.

قوله: «دعوا الله»:

ولم يقل: دعيا، لأن الفعل واوی فعاد إلى أصله.

قوله: «الله ربها»:

أتنى بالألوهية والربوبية؛ لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثاني: جانب الربوبية، لأن في الدعاء تحصيلا للمطلوب وهذا يكون متعلقا بالله.

والظاهر أنها قالا: اللهم ربنا، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرى.

قوله: «لمن آتتنا صاحا»: أي أعطينا.

وقوله: «صاحب»:

هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين؟ أي لمن آتتنا بشراسوباً ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صاحبا بالدين فيكون تقليا قائمًا بالواجبات؟.

(١) أخرجه البخاري في الغسل/باب إذا التقى الحناتان ١١١/١، ومسلم في الحيض/باب نسخ الماء من الماء ٢٧١/١.

الجواب: يشمل الأمرين جميعاً، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من أن يكون شاملًا للأمرين جميعاً.

قوله: «لنكوتون من الشاكرين»:

أي من القائمين بشكرك على هذا الولد الصالح.

والجملة هنا فيها قسم وشرط، قسم متقدم وشرط متاخر، والجواب فيه للقسم وهذا جاء مقرونا باللام: لنكوتون.

قوله: «فلمى آتاهما صالحا» هنا حصل المطلوب، لكن النتيجة بالعكس فلم يحصل الشكر الذي وعد الله به، بل جعلا له شركاء فيها آتاهما.

قوله: «جعلوا له شركاء فيها آتاهما»:

الذين يرجحون أن المراد بالصلاح صلاح البدن يقولون إنه قال: «فلمى آتاهما صالحا جعلوا له...» والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك حين الإتيان وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أ يصلح في المستقبل أم لا يصلح وهذا أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني.

فعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه، ولكن الغالب أنه لا تكون، ففي سورة التوبه قال تعالى: «ومنهم من عاهد الله لشن آثانا من فضله لنصدقن ولنكوتون من الصالحين، فلمى آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون»^(١) وفي هذه الآية قال تعالى: «لشن آتيتنا صالحا لنكوتون من الشاكرين فلمى آتاهما صالحا جعلوا له شركاء» فكانوا من المشركين لا من الشاكرين، وهذا نعرف الحكمة من نهى النبي - ﷺ - عن النذر لأن النذر معاهدة مع الله، عز وجل، وهذا نهى النبي - ﷺ - عن النذر وقال: «إنه لا

(١) سورة التوبه، الأياتان: ٧٥ - ٧٦.

يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»^(١) وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر^(٢)، لأن الرسول - ﷺ - نهى عنه ونفي أنه لا يأتي بخير، إذاً ما الذي تستفيد من أمر نهى عنه الرسول ﷺ؟

الجواب: لا تستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، وهذا القول بتحريم النذر قول قوي جداً ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسلمة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصاً مما نذروا.

قوله: «جعلوا له شركاء فيها آتاهما»:

هذا الولد الذي آتاهما الله - عز وجل - كان صالحًا فكيف جعلا في هذا الولد شركاً بل شركاء؟ . نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقداً أن الذي أتى بهذا الولد هو الولي الفقلي أو الصالح الفقلي فهذا شرك أكبر، لأنها أضفافاً للخلق إلى غير الله . ومن هذا أيضاً ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن، فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفقلي، كما يزعمون أنه ولي الله - والله أعلم بولايته - فتقول: يا سيدى فلان أعطنى الولد.

الوجه الثاني: أن يضيف سلاماً للمولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم، وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلاً سلم هذا الولد من الطلاق؛ لأن

(١) أخرجه مسلم في النذر/باب النهي عن النذر ١٢٦١ وأخرج البخاري نحوه في الأبيان/باب الوفاء بالنذر ٤، ٢٢٧، ومسلم في النذر/باب النهي عن النذر ٣ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) انظر الاختيارات ص (٣٢٨).

القابلة امرأة متقنة جيدة، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر، لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونبي المسبب وهو الله ، عز وجل .

الوجه الثالث أن لا يشرك من ناحية الربوبية بل يؤمن أن هذا الولد خرج سلما بفضل الله ورحمته ، ولكن يشرك من ناحية العبودية فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ، ويلهيه عن طاعة الله ورسوله قال تعالى : ﴿إِنَّا أَمْوَالُكُمْ وَأُولَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عَنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١) فكيف تجعل هذا الولد ندا لله في المحبة؟ وربما قدمت محبته على محبة الله ، والله هو المتفضل عليك به ، وهذه قال : «فَلِمَا آتَاهُمْ» ففيه نقد لاذع أن يجعل شريكًا مع الله مع أن الله هو المتفضل به ، ثم قال : «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشْرِكُونَ» أي : ترفع وتقدس عنها يشركون به من هذه الأصنام وغيرها .

فالآلية صريحة وواضحة ، وهي على القول بأن قوله : ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ نُفُسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي من جنس واحد ليس فيها تعرض لأدم وحواء بوجه من الوجه ، ويكون السياق فيها جاريًا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن كقوله تعالى :

﴿لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ جَعَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٢) أي من جنسهم ، وهذا التفسير الواضح البين يسلم للإنسان من إشكالات كثيرة . أما على القول الثاني بأن المراد بقوله تعالى : ﴿مِنْ نُفُسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(٣) أي حواء ، فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء

(١) سورة التغابن ، الآية : ١٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١ .

فَلِمَا جَاءَ مُحَمَّدًا حَوْاءَ حَلَتْ حَلَّا خَفِيفًا فَمَرَتْ بِهِ فَلِمَا أَثْقَلَتْ دُعَاهَا - أَيْ آدَمَ وَحْوَاءَ - اللَّهُ رَبُّهَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونُ مِنَ الشَاكِرِينَ فَلِمَا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيهَا آتَاهُمَا، فَأَشْرَكَا آدَمَ وَحْوَاءَ بِاللَّهِ لَكُنْ يَقُولُونَ إِشْرَاكٌ طَاعَةً لَا إِشْرَاكٌ عِبَادَةً، «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشْرُكُونَ» وَهَذَا التَّفْسِيرُ مُنْطَبِقٌ عَلَى الْمَرْوِيِّ عَنْ أَبْنَاءِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَسَبِيلِنَّ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَجْهَ ضَعْفَهُ وَبَطْلَانَهُ.

وَهُنَّا كَقُولُ ثَالِثٍ: أَنَّ الْمَرَادَ بِقُولِهِ تَعَالَى: «مَنْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ» أَيْ آدَمَ وَحْوَاءَ: «فَلِمَا تَغْشَاهَا» انتَقَلَ مِنَ الْعَيْنِ إِلَى النَّوْعِ، أَيْ مِنْ آدَمَ، إِلَى النَّوْعِ الَّذِي هُوَ جَنْسُ بْنِ آدَمَ أَيْ فَلِمَا تَغْشَى الإِنْسَانُ الَّذِي تَسْلُسِلُ مِنْ آدَمَ وَحْوَاءَ زَوْجَهُ . . . إِلَى آخِرِهِ، وَهُنَّا كَقُولُ تَعَالَى: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشْرُكُونَ» بِالْجَمْعِ وَلَمْ يَقُلْ عَمَّا يَشْرُكُانَ وَنَظِيرُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ قُولُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ زَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ»^(١) أَيْ جَعَلْنَا الشَّهَبَ الْخَارِجَةَ مِنْهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينَ، وَقُولُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِنْ سَلَالَةِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَطْفَةً»^(٢) أَيْ جَعَلْنَاهُ بِالنَّوْعِ فَأُولَئِكَ الْآيَاتُ فِي آدَمَ وَحْوَاءَ ثُمَّ انتَقَلَتْ مِنَ الْعَيْنِ إِلَى النَّوْعِ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ لِوَجْهِهِ، وَفِيهِ تَزْيِيْهُ آدَمَ وَحْوَاءَ مِنَ الشَّرِكِ، لَكِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرَّكَاكَةِ لِتَشَتَّتِ الضَّمَائِرِ فُولُهُ: «فَلِمَا تَغْشَاهَا» هَذَا شَيْءٌ آخِرٌ غَيْرُ الْأَوَّلِ.

وَأَمَّا قُولُهُ تَعَالَى: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشْرُكُونَ»: فَجَمْعُ لَأْنَ الْمَرَادُ بِالْمَثَنِي الْجَنْسِ أَوِ الْأَثَنِي مِنْ هَذَا الْجَنْسِ فَصَحُّ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِ مُجْمُوعًا كَمَا فِي قُولِهِ تَعَالَى: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَلَوَا»^(٣) وَلَمْ يَقُلْ افْتَلَنَا لَأَنَّ الطَّائِفَتَيْنِ جَمِيعَاهُ.

(١) سورة الملك، الآية: ٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ - ١٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب.

قوله : «فتعالى الله عما يشركون» : تعالى : أي ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها .
قوله : «اتفقوا» .

أي أجمعوا ، والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكام .
والأدلة هي : الكتاب ، والسنّة ، والإجماع ، والقياس .
قوله : «وما أشبهه ذلك» : مثل : عبد الحسين ، عبد الرسول ، عبد المسيح ، عبد علي .

وأما قوله ﷺ : «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم^(١)»
ال الحديث ، فهذا وصف وليس علما ، فشبّه المنافق بمحبة هذه الأشياء المقدّم لها على ما يرضي الله بالعبد لها كقولك : عبد الدينار فهو وصف فلا يتناوله ، فلا يعارض الإجماع .

قوله : «حاشا عبد المطلب» :
حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليه [ما] وجب نصب ما بعدها ، وإلا جاز فيه النصب والجر .

وبالنسبة : [لعبد المطلب] مستثنى من الإجماع على تحريمه فهو مختلف فيه ، فقال بعض أهل العلم : لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول - ﷺ - قال :

(١) أخرجه البخاري في الجهاد / باب الحراسة في الغزو ٢/٣٢٧ ، من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

وعن ابن عباس في الآية قال: «لما تغشاها آدم حلت فاتها إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لا جعلن له قرن إيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولا فعلن بخوفهما، سميه عبد الحارث، فأبأها أن يطعاه فخرج ميتاً، ثم حلت فاتها

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١)

فالنبي - ﷺ - لا يفعل حراماً فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ وهذا تقرير ابن حزم، رحمه الله، ولكن الصواب تحريم التعبد للمطلب فلا يجوز لأحد أن يسمى ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب» فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جداً اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه - ﷺ - أنه سمي عبد المطلب أو أنه أمر أحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحداً على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار وهذا قال النبي ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو عبد مناف شيء واحد»^(٢) ولا يجوز التسمي بعد مناف.

وقد قال العلماء: إن حاكبي الكفر ليسوا بكافر، فالرسول - ﷺ - يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى، فالصواب أنه لا يجوز أن يعبد لغير الله مطلقاً لا بعد المطلب ولا غيره، وعليه فيكون التعبد لغير الله من باب الشرك.

قوله: «إبليس»: فعليل، فقيل من أبلس إذا يش، لأنه يُش من رحمة الله، تعالى.

(١) أخرجه البخاري في الجهد/باب من قاد راية غيره في الجهد ٣٢٢/٢ من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الخمس/باب ومن الدليل على أن الخمس للإمام ٤٠٠/٢ عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه.

فذكر لها فادركمها حب الولد فسميه عبد الحارث . فذلك قوله :
﴿جعلا له شركاء فيها آتاهما﴾ رواه ابن أبي حاتم ^(١) . وله بسنده صحيح
عن قتادة قال : شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته وله بسنده صحيح
عن مجاهد في قوله : ﴿لئن آتيتنا صاححا﴾ قال : أشفقنا أن لا يكون
إنسانا ، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما ^(٢) .

قوله : «التطيعاني» : جملة قسمية ، أي والله لتطيعاني .

قوله : «إيل» : ذكر الأوغال .

قوله : «سمياه عبد الحارث» : اختار هذا الاسم ، لأنه اسمه ، فأراد أن
يعبداه لنفسه .

قوله : «فخرج ميتا» : لم يحصل التهديد الأول ، ويجوز أن يكون من
جملة : «ولأفعلن» ولأنه قال : «ولآخرجهن ميتا» .

قوله : «شركاء في طاعته» :

أي أطاعاه فيها أمرهما به ، لا في العبادة لكن عبدا الولد لغير الله ، وفرق
بين الطاعة والعبادة فلو أن أحدا أطاع شخصا في معصية الله فلم يجعله شريكا
مع الله في العبادة لكن أطاعه في معصية الله .

قوله : «أشفقنا أن لا يكون إنسانا» :

أي خاف آدم وحواء أن يكون حيوانا أو جنيا أو غير ذلك .

قوله : «وذكر معناه عن الحسن» :

لكن الصحيح أن الحسن يرحمه الله قال : إن المراد بالأية غير آدم وحواء ،
وأن المراد بها المشركون من بني آدم .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٢٧٥/٢ ، وسعيد بن منصور ٢/١٣٨٧ .
وانظر كلام الشيخ حفظه الله على هذه القصة .

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٩٨/٩ ، ٩٩ ، تفسير ابن كثير ٢/٢٧٥ .

وهذه القصة باطلة من وجوه :

الوجه الأول : أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ وهذا من الأخبار التي لا تلقى إلا بالوحي ، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة : إنها رواية خرافية مكذوبة موضوعة .

الوجه الثاني : أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء لكان حاهم إما أن يتوريا من الشرك أو يموتا عليه ، فإن قلنا ماتا عليه كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة :

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا
فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية ، وإن كان
تابا من الشرك فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ، ولا يذكر
توبتها منه ، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا ،
ولم يذكر توبتها ، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض الأنبياء ورسله ذكر توبتهم
منها .

الوجه الثالث : أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء .

الوجه الرابع : أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم
يطلبون منه الشفاعة فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية ، ولو وقع منه الشرك
لكان اعتذاره به أعظم وأولي وأحرى^(١) .

الوجه الخامس : أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهم وقال : «أنا

(١) أخرجه البخاري في التفسير / باب قول الله تعالى : «ذرية من حلتني مع نوح إنه كان عبداً شكوراً» ٣/٢٥٠ ، ومسلم في الإيمان / باب أدنى أهل الجنة متزلة ١٨٤ / ١ من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

صاحبكم الذي أخرجتكم من الجنة» وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، بل هذا وسيلة إلى رد كلامه، فيأتي بشيء يقرب من قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكم الذي أخرجتكم من الجنة» سيعلمان علم اليقين أنه عذر لها فلا يتقبلان منه صرفا ولا عدلا.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: «لأجعلن له قرن إيل» إما أن يصدق أن ذلك ممكن في حقه وهذا شرك في الربوبية، لأنه لا خالق إلا الله أو لا يصدق فلما يمكن أن يقبل قوله وما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشْرِكُونَ» بضمير الجمع ولو كان آدم وحواء لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منها شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء متزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بنى آدم الذين أشركوا شركا حقيقيا فإن منهم مشركا ومنهم موحدا.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

فيه مسائل :

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله:

تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل لقوله تعالى: «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول»^(١) و«إن» هذه شرطية لا تدل على وقوع التنازع، بل إن فرض وقع فالمراد إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلى بينة، وهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثراً الاختلاف، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلانا يقول: أجمعوا على كذا أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعى الإجماع فهو كاذب.

ولعل الإمام أحمد قال ذلك، لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون هذا إجماع المحققين وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب»^(٢) أنه من قبيل الإخبار وليس إقراراً ولا إنشاء، والإنسان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كان معبداً لغير الله وقد قال النبي ﷺ:

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سبق ص (٦٥).

الثانية : تفسير الآية . **الثالثة** : أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم يقصد حقيقتها . **الرابعة** : أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم . **الخامسة** : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة .

«يا بني عبد مناف»^(١) وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار .

الثانية : تفسير الآية : وقد سبق ذلك .

الثالثة : أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم يقصد حقيقتها : وهذا بناء على ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنها ، والصواب : أن هذا الشرك حق حقيقة وأنه شرك من إشراك بني آدم ، ولهذا قال تعالى في الآية نفسها : «أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ» فهذا الشرك الحقيقى الواقع من بني آدم .

الرابعة : أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم : هذا بناء على ثبوت القصة وأن المراد بقوله : «صَالِحًا» أي بشرًا سوياً ، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد ، لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم ، قال تعالى : «وَإِذَا شَرَّ أَهْدَهُمْ بِالْأَنْتِي ظِلَّ وَجْهُهُ مَسُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارِى مِنَ الْقَوْمَ مِنْ سُوءٍ مَا يُحَكِّمُونَ»^(٢) ، وإن فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم ، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى ، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها .

الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة .

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه : «... يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار» الحديث .

أخرجه البخاري في الوصايا / باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ٢٩١/٢ ، ومسلم في الإيمان / باب في قوله تعالى : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ١٩٢/١ .

(٢) سورة التحـلـ، الآياتـ ٥٨ - ٥٩ .

و قبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة، فالطاعة إذا كانت منسوبة لله فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.
وأما الطاعة المنسوبة لغير الله فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول - ﷺ - لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه.
فالشرك بالطاعة: أنني أطعه لا حباً وتعظيمها وذلاً كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه ولكن طاعته أي اتباعاً لأمره فقط هذا هو الفرق.
وببناء على القصة فإن آدم وحواء أطاعوا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة.

باب قول الله تعالى:

﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْهَدوْنَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(١) الآية.

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله - عز وجل - بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكليف ولا تعطيل.

لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي، أي إثبات الحكم للموحد ونفيه عما عداه، فمثلاً إذا قلت: زيد قائم لم توحده بالقيام؛ وإذا قلت زيد غير قائم لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد وحدته بالقيام.

إذا قلت: لا إله إلا الله، وحدته بالألوهية، وإذا ثبتت الله الأسماء والصفات دون أن يتأتى أحد فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه فهذا تعطيل، وإن مثلت فهذا إشراك.

قوله: «وله الأسماء الحسنة»:

طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يغدو المحرر في الآية توحيد الأسماء لله.

^(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

قوله: «الحسنى»:

مؤنثه أحسن فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى أي البالغة في الحسن أكمله، لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقاً مثل زيد الأفضل وقد يكون مقيداً مثل زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق لأنه قال: «ولله الأسماء الحسنى».

فأسماء الله تعالى بالغاً في الحسن أكمله من كل وجه ليس فيها نقص، لا فرضاً، ولا احتمالاً.

وما يُخَبِّرُ به عن الله أوسع ما يسمى به الله؛ لأن الله يُخَبِّرُ عنه بالشيء ويُخَبِّرُ عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشيء لا يتضمن مدحأً والمتكلم والمريد يتضمنان مدحأ من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك، فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد.

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله، تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟.

الثاني: هل أسماء الله متراداًفة أو متباعدة؟.

الثالث: هل أسماء الله هي الله أو غيره؟.

الرابع: أسماء الله توقيفية.

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين^(١).

ال السادس: أسماء الله إذا كانت متعددة فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة

(١) انظر هذه المباحث وغيرها في باب من جهد شيئاً من الأسماء والصفات، وباب احترام أسماء الله تعالى.

.....
وبالحكم الذي يسمى أحياناً بالأثر، وإن كانت غير متعددة فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

السابع: إحصاء أسماء الله معناه:

١ - الإحاطة بها لفظاً ومعنى.

٢ - دعاء الله بها لقوله تعالى: «فَادْعُوهُ بِهَا» وذلك بأن يجعلها وسيلة لك عند الدعاء فتقول: يا إذا الجلال والإكرام، يا حي ياقيوم، وما أشبه ذلك.

٣ - أن تعبد الله بمقتضاهـ، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمتهـ، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرتهـ، وإذا علمت إنه سميع انتقـيت القول الذي يغضبهـ وإذا علمت أنه بصير اجتنبـ الفعل الذي لا يرضاهـ.

قوله: «فَادْعُوهُ بِهَا»: الدعاء هو السؤال.

والدعاء قد يكون: بلسان المقال مثل: اللهم اغفر لي يا غفور وهكذاـ.
أو بلسان الحال وذلك بالتـعبد لهـ وهذا قال العـلماءـ: إن الدعـاء دعـاء مـسألـة وعبـادةـ ، لأنـ حـقـيقـةـ الـأـمـرـ أنـ التـعـبـدـ يـرجـوـ بلـسانـ حالـهـ رـحـمةـ اللهـ وـيـخـافـ عـقـابـهـ.

والـأـمـرـ بـدـعـاءـ اللهـ بـهـ يـتـضـمـنـ الـأـمـرـ بـمـعـرـفـتهاـ؛ لأنـهـ لاـ يـمـكـنـ دـعـاءـ اللهـ بـهـ إلاـ بـعـدـ مـعـرـفـتهاـ.

وهـذاـ خـلـافـاـ لـماـ قـالـهـ بـعـضـ المـدـاهـنـينـ فـيـ وـقـتـناـ الـحـاضـرـ إـنـ الـبـحـثـ فـيـ الـأـسـماءـ وـالـصـفـاتـ لـاـ فـائـدـةـ فـيـهـاـ وـلـاـ حـاجـةـ مـنـهـ.

أـيـرـيدـونـ أـنـ يـعـدـواـ شـيـئـاـ لـأـسـماءـ لـهـ وـلـاـ صـفـاتـ؟

أـمـ يـرـيدـونـ أـنـ يـدـاهـنـواـ هـؤـلـاءـ الـمـحـرـفـينـ حـتـىـ لـاـ يـحـصـلـ جـدـلـ وـلـاـ مـنـاظـرـةـ مـعـهـمـ؟

.....
.....
.....

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا بحثوا في الأسماء والصفات، مع أن
الله أمرنا بدعائه بها.

والامر للوجوب ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضاً أننا لا
نعلمها أسماء مجرد عن المعانى بل لابد أن لها معانى فلابد أن نبحث فيها.
لأن علمها ألقاظاً مجردة لا فائدة فيه وإن قدر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ
فإنه لا يحصل به كمال الفائدة.

وقوله: «قادعوه بها»: له معنيان:

الأول: دعاء العبادة وذلك بأن تبعد الله بما تقتضيه تلك الأسماء،
ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: «وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن
الذين يستكرون عن عبادي»^(١) ولم يقل عن دعائي فدل على أن الدعاء
عبادة.

فمثلاً: الرحيم يدل على الرحمة، وحيثند تتطلع إلى أسباب الرحمة
وتتعلّمها، والغفور يدل على المغفرة، وحيثند تتعرض لمغفرة الله - عز وجل -
بكثرة التوبة والاستغفار كذلك، وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلوة وغيرها، وأقرب ما
يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تبعد الله بمقتضى السمع بحيث لا تسمع الله قوله
يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تبعد الله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك
فعلاً يكرهه منك.

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

.....
الثاني : دعاء المسألة وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى .

مثلاً : يا حي يا قيوم اغفر لي ، وارحني وقال ﷺ : «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١) والإنسان إذا دعا وعلل فقد أثني على ربه بهذا الاسم طالباً أن يكون سبباً للإجابة ، والتسلل بصفة المدعو المرغوبة له سبب للإجابة ، فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة .
قوله : «وذروا الذين يلحدون» :

ذروا : اتركوا . الذين : مفعول به ، وجملة يلحدون صلة الموصول .
ثم توعدهم بقوله : «سيجزون ما كانوا يعملون» وهو الإلحاد أي سيجزون جزاء المطابق للعمل تماماً ، وهذا يعبر الله - تعالى - بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل ، وأنه لا يجوز للإنسان إلا بقدر عمله .
والمعنى : ذرورهم : أي لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم فإنهم على ضلال وعدوان ، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم إذ لا يترك الظالم على ظلمه .

والإلحاد : مأخوذ من اللحد وهو الميل ، لحد وأحد بمعنى مال ، ومنه سمي الحفر بالقبر لحداً ، لأنه مائل إلى جهة القبلة .

والإلحاد في أسماء الله الميل بها عما يجب فيها وهو أنواع :
الأول : أن يتذكر شيئاً من الأسماء أو ما دلت عليه من الصفات أو الأحكام ، ووجه كونه إلحاداً - أنه مال بها عما يجب لها إذ الواجب إثباتها .

(١) أخرجه البخاري في الأذان بباب الدعاء قبل السلام ٢٦٨/١ ، ومسلم في الذكر والدعاء / باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٨ ، من حديث أبي بكر ، رضي الله عنه .

الثاني: أن يثبت أسماء الله ويزيد أسماء لم يسم الله بها نفسه كقول
الفلسفه في الله إنه علة فاعله في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها،
وليس هناك إله.

وبعضهم يسميه العقل الفعال فالذى يدير هذا الكون هو العقل
الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أبا وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قادر،
والإنسان سميع بصير قادر، اتفقت هذه الأسماء فيلزم أن تتفق المسميات،
ويكون الله سبحانه وتعالى مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق
بالصفات.

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معانٍ لائقة بالله لا يمكن أن تكون
مشابهة لما تدل عليه من المعانٍ في المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام كتسمية اللات من
الإله أو من الله ، والعزى من العزيز، ومنة من المنان حتى يلقوا عليها شيئاً من
الالوهية ليبرروا ما هم عليه .

والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه لوجوه ثلاثة:

١ - أنه هو الذي نفاه الله في القرآن فقال: «ليس كمثله شيء وهو السميع
البصير»^(١).

٢ - أنه ما من شبيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه،
واشتراك في المعنى من بعض الوجوه.

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه
ووجوده هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشتراك فيها

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس «يلحدون في أسمائه»:
يشركون . وعنه : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز^(١) . وعن
الأعمش : يدخلون فيها ما ليس منها .

الخالق والمخلوق في أصل المعنى و يتميز كل واحد منها بما يختص به .

٣ - أن الناس اختلفوا في معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات
الصفات تشبيهاً فيكون المعنى بلا تشبيه أي بلا إثبات الصفات تشبيهاً
فيكون المعنى بلا تشبيه أي بلا إثبات صفات على اصطلاحهم .

قوله : «سيجزون ما كانوا يعملون» :

لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، وهذا
وعيد وهو كقوله تعالى : «ستفرغ لكم أية الثقلان»^(٢) وليس المعنى أن الله -
عز وجل - مشغول الآن وسيحلقه الفراغ فيها بعد .

قوله : «يعملون» : العمل يطلق على القول والفعل قال تعالى : «فمن
يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» وهذا يكون في الأفعال
والأقوال .

قوله : «يشركون» : يتضمن الإشراك بها من الجهتين :

١ - بأن يجعلوها دالة على المثالثة .

٢ - أو يستقروا منها أسماء للأصنام .

فمن جعلها دالة على المثالثة فقد أشرك ؛ لأنه جعل لله مثيلاً ، ومن أخذ
منها أسماء لأصنامه فقد أشرك ؛ لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله عز
وجل .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المثور ١٤٩/٣ .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٣١ .

وقوله : «وعنه» : أبي ابن عباس .

قوله : «سموا اللات من الإله . . .» : وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام .

تنبيه :

فيه كلمة تقوها النساء عندنا وهي [واعزالي] فما هو المقصود بها؟ .
الجواب : المقصود أنها من التعزية أي أنها تطلب الصبر والتقوية وليس تندب العزي التي هي الصنم ، لأنها قد لا تعرف أن هناك صنماً اسمه العزي ولا يخطر بباليها هذا ، وبعض الناس قال يجب إنكارها؛ لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزي وهذا شرك ، ولكن نقول : لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار ، فنحن نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود بل يقصد بهذا اللفظ التقوية والصبر والثبات على هذه المصيبة .

قوله : «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها» :

هذا أحد أنواع الإلحاد وهو أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه ، ومن زاد فيها فقد أخطأ . لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع .
والإلحاد في الآيات دليله قوله تعالى : «إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا»^(١) فقوله : «لا يخفون علينا» فيها تهديد لأن المعنى سيعاقبهم ، والجملة مؤكدة بيان .

وآيات الله تنقسم إلى قسمين :

١ - آيات كونية : وهي كل المخلوقات من السموات والأرض والنجوم والجبال والشجر وسائر الدواب وغير ذلك ، قال الشاعر :

(١) سورة فصلت ، الآية : ٤٠ .

فواعجبأً كيف يعصى الإله
أم كيف يمحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد
والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع :

١ - اعتقاد أن أحداً سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

٢ - اعتقاد أن أحداً مشارك لله فيها.

٣ - اعتقاد أن الله فيها معيناً في إيجادها وخلقها، وتدبرها.

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مُثْقَلَ ذَرَةً فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ بِشَرِيكَ لِمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرَةٍ﴾^(١) ظهير: أي معين.

وكل ما يخل بتوحيد الربوبية فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢ - آيات شرعية: وهو ما جاءت به الرسل من الوحي كالقرآن قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾^(٢).

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع :

١ - تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢ - مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣ - التحرif بالأخبار والأحكام.

والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام.

ومنه ما يكون كفراً كتكذيبها فمن كذب شيئاً مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبراً به فهو كافر.

(١) سورة سباء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

ومنه ما يكون معصية من الكبائر كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغار كالنظر لاجنبية لشهوة.

قال الله تعالى في الحرم: « وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذْقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »^(١) فسمى الله المعاصي والظلم إحداً؛ لأنها ميل عنها يجب أن يكون عليه الإنسان إذ الواجب عليه السير على صراط الله - تعالى - ومن خالف فقد أخطأ.

. ٢٥) سورة الحج ، الآية:

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء. **الثانية:** كونها حسنة. **الثالثة:** الأمر بدعائه بها. **الرابعة:** ترك من عارض من الجاهلين الملحدين. **الخامسة:** تفسير الإلحاد فيها. **السادسة:** وعيد من أخذ.

فيه مسائل :

الأولى: إثبات الأسماء: وتوخذ من قوله: «**وَلِهِ الْأَسْمَاءُ**» وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حصر لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنة، لا باعتبار الأسماء. وأنكر الأسماء الجهمية وغلاة المعتزلة.

الثانية: كونها حسنة: أي بلغت في الحسن أكمله؛ لأن «حسن» مؤنث أحسن وهي: اسم تفضيل.

الثالثة: الأمر بدعائه بها: والدعاء نوعان دعاء مسألة ودعاة عبادة وكلاهما مأمور فيه أن يدعى الله بهذه الأسماء الحسنة، وسبق تفصيل ذلك^(١).

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين، أي ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهם ولا نبين لهم، والأية تتضمن أيضا التهديد.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها: وقد سبق بيان أنواعه.

السادسة: وعيد من أخذ: وتوخذ من قوله تعالى: «**سَيִجزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**».

(١) انظر ص (٧٢).

باب لا يقال: السلام على الله

هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفي وهو محتمل للكرابة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك.

والسلام له عدة معانٍ:

- ١ - التحية كما يقال: سلم على فلان، أي حياء بالسلام.
- ٢ - السلامة من النقص والأفات، كقولنا: «السلام عليك أبها النبي ورحمة الله وبركاته».
- ٣ - السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿الملك القدس السلام﴾.

قوله: «لا يقال السلام على الله»:

أي لا تقل السلام عليك يا رب لما يلي:

- أ - أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه، فتدعوا الله أن يسلم نفسه من ذلك، إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصرف به، والله سبحانه مترزه عن صفات النقص.
- ب - إذا دعوت الله أن يسلم نفسه فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يُدعى ولا يدعى له، فهو غني عنا لكن يشئ عليه بصفات الكمال مثل غفور سميع، عليم

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات :

ظاهرة؛ لأن صفاته علينا كاملة كما أن أسماءه حسنة، والدليل على أن

صفاته عليا قوله ، تعالى : «**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثُلُ السُّوءِ ، وَلَهُ الْمُثُلُ الْأَعْلَى**»^(١) . وقوله تعالى : «**وَلَهُ الْمُثُلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»^(٢) . والمثل الأعلى : الوصف الأكمل فإذا قلنا : السلام على الله أو هم ذلك أن الله - سبحانه - قد يلحقه النقص وهذا ينافي كمال صفاته .

ومناسبة هذا الباب لما قبله : ظاهرة ، لأن موضع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنى لله ، وموضوع هذا الباب سلامه صفاته من كل نقص ، وهذا يتضمن كمالها ولا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها ، فإنك لو قلت : زيد فاضل أثبت له الفضل ، وجاز أن يلحقه نقص ، وإذا قلت : زيد فاضل ولم يتخذ شيئاً من طريق السفول فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة .

والرب - سبحانه وتعالى - يتصف بصفات الكمال ، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل ، وهذا أعقب المؤلف - يرحمه الله - الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص .

والسلام اسم ثبوتي سليبي .

فسلبي : أي أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل ، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكماته .

وثبوتي : أي : ثبوت هذا الاسم له ، والصفة التي تضمنها وهي السلام .

(١) سورة التحـلـ ، الآية : ٦٠ .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٢٧ .

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام»^(١).

قوله: «في الصحيح»:

هذا أعم من أن يكون ثابتاً في الصحيحين، أو أحدهما، أو غيرهما، وهذا الحديث المذكور في الصحيحين.

قوله: «كنا إذا كنا مع النبي - ﷺ - في الصلاة»: الغالب أن المعية مع النبي - ﷺ - في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض؛ لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة كالاستسقاء.

قوله: «قلنا السلام على الله من عباده»:

أي يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده؛ لأن قول الإنسان السلام عليكم له معنيان:

١ - اسم السلام عليك، أي عليك برکاته.

٢ - السلامة من الله عليك، فهو سلام بمعنى تسليم ككلام بمعنى تحليم.

قوله: «السلام على فلان وفلان»: أي جبريل وميكائيل، وكلمة فلان

هذه يمكنها عن الشخص، وهي مصروفة، لأنها ليست علماً ولا صفة.

كصفوان في قوله تعالى: «كمثال صفوان عليه تراب»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الأذان/باب ما ينحر من الدعاء بعد الشهد ٢٦٩/١. وأخرجه أيضاً البخاري في الأذان/باب الشهد في الآخرة ٢٦٨/١، ومسلم في الصلاة/باب الشهد في الصلاة بلفظ: «إن الله هو السلام فإذا صل أحدكم فليقل التحيات لله...» ٣٠١/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

وقد جاء في لفظ آخر: «السلام على جبريل وميكال»^(١) كانوا يقولون هكذا في السلام، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو سلام» وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه - عز وجل - سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب فلا نقول السلام على الله ، لأنه:

١ - يوهم جواز النقص في حق الله ، عز وجل .

٢ - يقتضي أننا ندعوه الله ، والله يدعى ولا يدعى له ، لأنه ليس بحاجة إلى أحد ، بل هو - عز وجل - يحب أن يمدح ويشتري عليه لا شخص أحب إليه المدح من الله .

وفي دليل على جواز السلام على الملائكة ، لأن النبي ﷺ لم ينه عنه ، ولأنه - عليه الصلاة والسلام - لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: عليه السلام^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في الأذان / باب التشهد في الآخرة ١/ ٢٦٨.

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ، ﷺ ، «هذا جبريل يقرأ عليك السلام ، قلت: قلت: عليه السلام ورحمة الله وبركاته».

أخرجه البخاري في بدء الخلق / باب ذكر الملائكة ١١/ ٣٣ ، ومسلم في الاستذان / باب تسليم الرجال على النساء ٤/ ١٨٩٥ .

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام. **الثانية:** أنه تحية. **الثالثة:** أنها لا تصلح لله. **الرابعة:** العلة في ذلك. **الخامسة:** تعليمهم التحية التي تصلح لله.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير السلام: فبالنسبة لكونه اسمًا من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيوب، وبالنسبة لكونه تحية له معنیان:
الأول: تقدير مضاف أي اسم السلام عليك، أي اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم أي تخبر خبرا يراد به الدعاء أن السلام على فلان، ولكنه خبر لفظاً، إنشاء معنى ، أي أسأل الله أن يسلمك تسليمها.

الثالثة: أنه تحية: وسبق ذلك.

الرابعة: أنها لا تصلح لله: وسبق ذلك.

الرابعة: العلة في ذلك: أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.
الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله: وتوخذ من تكميله الحديث: «التحيات لله...» وفيه حسن تعليم الرسول - ﷺ - فإنه حينما نهاهم علّم النبي .

وفيه فوائد :

- ١ - طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.
- ٢ - بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة؛ لأن العلة حكمة.

.....

٣ - القياس على ما شارك الحكم المعمل بتلك العلة .
ويستفاد من الحديث : أنه لا يجوز الإقرار على المحرم لقوله : «لا تقولوا
السلام على الله» وهذا واجب على كل مسلم ، ويجب على العلماء بيان
الأمور الشرعية لثلا يستمر الناس فيها لا يجوز ويرون أنه جائز قال تعالى :
﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّنهم للناس ولا تكتموه﴾^(١) .
عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله
وكمال جوده وفضله وذلك من صفات الكمال .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٧ .

باب قول اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له»^(١) ومسلم: «وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»^(٢).

قوله: «اللهم»: معناه يا الله، لكن لكثره الاستعمال حذفت الباء وعوض عنها الميم، وجعل العوض في الآخر تيمناً بالابتداء بذكر الله.

قوله: «اغفر لي»: المغفرة ستر الذنب مع التجاوز عنها؛ لأنها مشتقة من المغفر وهو ما يستربه الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشيء ماتر واقِ، ويدل له قول الله - عز وجل - للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنبه: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

قوله: «لا يقل أحدكم»:

لا: نافية بدليل جزم الفعل بعدها قوله:

«اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني»، ففي الجملة الأولى «اغفر لي» النجاة من المكروه، وفي الثانية «ارحمني» الوصول إلى المطلوب. فيكون هذا الدعاء شاملًا لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه وذكر المغفرة والرحمة على سبيل التمثيل.

(١) أخرجه البخاري في الدعوات/باب ليعزم المسألة ٤/١٦٠، ومسلم في الذكر والدعاء/باب العزم بالدعاة ٤/٢٠٦٣. (٢) الموضع السابق.

.....
قوله: «ليعزم المسألة»: اللام لام الأمر، ومعنى عزم المسألة أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق.

والمسألة: السؤال أي ليعزم في سؤاله فلا يجعله متربدا بقوله: إن شئت.

قوله: «فإن الله لا مكره له»:

تعليق للنبي عن قول: «اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحني إن شئت» أي لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله.

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة :

الأول: أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه فيقول: أنا لا أكرهك إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر.

الثاني: أن قول القائل: إن شئت كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشأه، لكونه عظيما عنده، ونظير ذلك أن يقول لشخص من الناس -

والمثال للصورة بالحقيقة لا للحقيقة بالحقيقة -: أعطني مليون ريال إن شئت فإنك إذا قلت له ذلك ربما يكون الشيء عظيما يتناقله فقولك: إن شئت، لأجل

أن تهون عليه المسألة فالله - عز وجل - لا يحتاج أن تقول له إن شئت، لأنه - سبحانه وتعالى - لا يتعاظمه شيء أعطاءه، وهذا قال، عليه الصلاة والسلام:

«وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطيه» ول祺عظام الرغبة: أي ليسأل ما شاء من قليل وكثير ولا يقل هذا كثير لا أسأ الله إياه وهذا قال: «فإن الله لا

يتعاظمه شيء أعطيه» أي لا يكون الشيء عظيما عنده حتى يمنعه ويبخل به - سبحانه وتعالى - كل شيء يعطيه فإنه ليس عظيما عنده فالله عز وجل يبعث

الخلق بكلمة واحدة وهذا أمر عظيم ، قال تعالى: «قل بلى وربى لتبعشن ثم لتبئن بما عملتم وذلك على الله يسر»^(١) وليس بعظيم فكل ما يعطيه الله - عز

(١) سورة التغابن، الآية: ٧.

وجل - لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه، أي : لا يكون الشيء عظيماً عندك حتى لا يعطيه ، بل كل شيء عندك هيئ.

الثالث : أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله ، كأنه يقول : إن شئت فافعل ، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني ، وهذا قال : «وليعظم الرغبة» أي يسأل برغبة عظيمة ، والتعليق ينافي ذلك ، لأن المتعلق للشيء المطلوب يشعر أنه مستغن عنه ، والإنسان ينبغي أن يدعوا الله - تعالى - وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار ، وأن الله قادر على أن يعطيه ما سأله ، وأن الله ليس يعظم عليه شيء ، بل هو هيئ عليه ، إذاً من آداب الدعاء أن لا يدعوه بهذه الصيغة ، بل يجزم فيقول : اللهم اغفر لي ، اللهم ارحني ، اللهم وفقني وما أشبه ذلك ، وهل يجزم بالإجابة ؟

الجواب : إذا كان الأمر عائدا إلى قدرة الله فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر على ذلك قال الله تعالى : «ادعوني أستجب لكم»^(١).

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع ، أو عدم توافر الأسباب فإنك قد تتردد ، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الفتن بالله ، لأن الله - عز وجل - قال : «ادعوني أستجب لكم» فالذى وفتك لدعائكم أولاً ، سيمتن عليك بالإجابة آخر لا سيما إذا أتي الإنسان بأسباب الإجابة ، وتجنب الموانع ، ومن المowanع الاعتداء في الدعاء كان يدعو بإثم أو قطيعة رحم .

ومنها أن يدعوك لا يمكن شرعاً أو قدرًا :

فشرعاً كأن يقول : اللهم اجعلني نبياً.

وقدراً : بأن يدعوك الله تعالى بأن يجمع بين المتقاضين ، وهذا أمر لا يمكن ، فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته ، وهو محروم وهو أشبه ما يكون

(١) سورة غافر ، الآية : ٦٠ .

بالاستهزاء بالله سبحانه وتعالى .

مناسبة الباب للتوجيه :

من وجهين :

١ - من جهة الربوبية ، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بهام ربوبيته تعالى ، لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له ، بل إنه لا يسأل عما يفعل كما قال تعالى : « لَا يسأّلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »^(١) . وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها فكان فيه قدح في جوده وكرمه .

٢ - من ناحية العبد ، فإنه يشعر باستغاثاته عن ربه وهذا نقص في توحيد الإنسان سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات ، وهذا ذكره المصنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات .

فإن قلت : ما الجواب عنها ورد في دعاء الاستخاراة : « اللهم إني أسألك بعلموك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كان هذا الأمر خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفة عني واصرفي عنه »^(٢) . وكذلك ما ورد في الحديث المشهور : « اللهم أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت أن الوفاة خيراً لي »^(٣) فالجواب :

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد / باب قول الله ، تعالى : « قل هو القادر » ٤ / ٣٨٢ من حديث جابر ابن عبد الله ، رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في المرضى / باب ثني المريض الموت ٤ / ٣٠ من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه .

أني لم أعلم هذا بالمشيئه، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ وهذا كره أهل العلم أن يقول للشخص: أطال الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لا يعلم فقد يكون خيراً وقد يكون شراً، ولكن يقال الله أطال بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيراً بكل حال، وعلى هذا فلا يكون في هذا الحديث معارضه لحديث الاستخاره ولا حديث: «اللهم أحبني ما علمت الحياة خيراً لي»، لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئه والنبي إنما هو عما كان معلقاً بالمشيئه.

لكن لو قال: اللهم اغفر لي إن أردت وليس إن شئت؟ فالحكم واحد، لأن الإرادة هنا كونية فهي بمعنى المشيئه، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثراً بالحكم^(١).

(١) وقال الشيخ السعدي في القول السديد ص (١٣٦):

«الأمور كلها وإن كانت بمشيئه الله وإرادته، فالطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدينية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتواضع ذلك قد أمر العبد أن يسألها من ربه طالباً ملحاماً جازماً، وهذا الطلب عين العبودية ومخالفها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئه، لأنه مأمور به وهو خير محض لا ضرار فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء».

ووهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصوها خير للعبد، فالعبد يسأل ربه ويعمله على اختيار ربه له أصلح الأمرين كالدعاة المتأور: «اللهم أحبني . . .» وكتاب الاستخاره.

فافهم هذا الفرق البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها وأن الداعي يجزم بطلبيها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدرى العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علماً.

فيه مسائل:

الأولى: النبي عن الاستثناء في الدعاء. **الثانية:** بيان العلة في ذلك. **الثالثة:** قوله: (ليعزّم المسألة)

فيه مسائل :

الأولى: النبي عن الاستثناء في الدعاء:

والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله - ﷺ - لضباعة بنت الزبير: «حجي واشتري فلان لك على ربك ما استثنيت»^(١)، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيداً إلا ألا يكرمنك.

الثاني: بيان العلة في ذلك: وقد سبق أنها ثلاثة علل:

١ - أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

٢ - أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣ - أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله وهذا غير لائق وليس من الأدب.

الثالثة: قوله: (ليعزّم المسألة): فإذا سألت فاعزم ولا تتردد وفي الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»^(٢) صاحبه بعض أهل العلم، وضعفه آخرون.

(١) حديث ضباعة بنت الزبير عن النبي - ﷺ - قال: «حجي واشتري أن علی حبث جبستني».

أخرجه البخاري في النكاح/باب الأكفاء في الدين ٣٦٠/٣، وسلم في الحجج/باب جواز اشتراط المحرم ٢/٨٦٨. وقوله ﷺ: «فإن لك على ربك ما استثنيت»، أخرجه النسائي في المسالك/باب كيف يقول إذا اشترط ٥/١٦٨، والدارمي ٢/٣٤ - ٣٥، وأبو نعيم ٩/٢٢٤، وهو صحيح كما في الإرواء ٤/١٨٦.

(٢) أخرجه الترمذى في الدعوات/باب ادع تجب ٩/١٥٦ وقال: «حديث غريب»، وابن حبان =

الرابعة: إعظام الرغبة. الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

وهل يجزم بالإجابة؟ سبق الكلام على هذا.

الرابعة: إعظام الرغبة: لقوله ﷺ: «وليُعظم الرغبة» أي ليسأل ما بادأ له فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر: بقوله: «لا يتعاظمه شيء، أولاً مكره له» ويقوله: «وليُعظم الرغبة» وفي هذا حسن تعليم الرسول - ﷺ - إذا ذكر شيئاً فرنبه بعلته.

وفي هذه فوائد:

الأولى: سمو هذا الشريعة، وأنه ما من شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن وهذا لما سئل - ﷺ - عن بيع الرطب بالتمر - لم يقل حلالاً أو حراماً - بل قال: أينقص إذا جف؟ قالوا: نعم فهو عنه^(١).

= في المجرودين ٣٧٢/١، والحاكم ٤٩٣/١، والخطيب في التاريخ ٤/٣٥٦.

وقال الحاكم: «حديث مستقيم تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة»، وقال المنذري في الترغيب ٤٩٣/٢: «صالح المري لا شك في زهاده ولكن تركه أبو داود والنمسائي»، وقال العراقي في تحرير الإحياء ٣٠٦/١: «قلت: لكنه ضعيف الحديث».

وقال ابن حبان كما في التهذيب ٤/٣٨٣: «كان من عباد البصرة وقرائهم غلب عليه الخير والصلاح حتى غفل عن الإنفاق في الحفظ، وكان يروي الشيء الذي سمعه من ثابت والحسن ونحو هؤلاء على التوهم فيجعله عن أنس فظهر في روايته الموضوعات التي يرويها عن الآباء، فاستحق الترك عند الاحتجاج».

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٧٥، ١٧٦، وأبو داود في البيوع/باب في التمر بالتمر ٦٥٤/٣ -

٦٥٧، والترمذني في البيوع/باب في النبي عن المحافظة ٤/٢٢١، وقال: «حسن صحيح»، والنمساني في البيوع/باب اشتراء التمر بالرطب ٧/٢٦٩، وابن ماجة في التجارات/باب بيع =

.....

«والرجل الذي قال: إن امرأة ولدت غلاماً أسوداً - لم يقل الولد لك -
بل قال هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل
فيها من أورق؟ - الأورق: الأشهب الذي بين البياض والسوداد - قال: نعم،
قال من أين؟ قال: لعله نزعة عرق، قال: لعل ابنته نزعه عرق»^(١)، فاطمأن
وعرف الحكم وأن هذا هو الواقع، فقرن الحكم بالعلة يوجب الطمأنينة، ومحبة
الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة في حكم من الأحكام، فيتحقق ما
شاركه في العلة.

= الرطب التمر ٢/٧٦١، ومالك في الموطأ في البيوع/باب ما يكره من بيع التمر ٢/٦٢٤،
والشافعي في الرسالة ٩٠٧، وكذا أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨/٢ وصححه، من
حديث سعد بن أبي وقاص.

(١) أخرجه البخاري في الطلاق/باب إذا عرض بني الولد ٣/٤١٣، ومسلم في اللعان
١١٣٧/٢ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

باب لا يقول: عبدي وأمي

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، ولبيقل: سيدني ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمي ولبيقل: فتاي وفتاتي وغلامي»^(١).

قوله: «لا يقل»: أي الإنسان «عبدي» أي، للغلام و«أمي» أي للجارية، والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين:
الأول: أن يضifieه إلى غيره فهذا جائز. قال تعالى: «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم»^(٢) وقال النبي ﷺ: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»^(٣).
الثاني: أن يضifieه إلى نفسه وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر مثل: أطعمن عبدي، كسوت عبدي، اعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة فلا بأس فيه، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، والإ فلا؛ لأن القائل بذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل وإنما يقصد أنه ملوك.

(١) أخرجه البخاري في العتن/باب كراهة التطاول على الرقيق ٢٢١/٢، ومسلم في الأدب/باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة ٤/١٧٦٥.

(٢) سورة النور، الآية: (٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة / باب ليس على المسلم في عبده صدقة ١/٤٥٤ ومسلم في الزكاة / باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه ٢/٦٧٥ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

قوله : «لا يقل أحدكم» : أي للعبد أو الأمة .

الثانية : أن يكون بصيغة الدعاء ، مثل : يا عبدي ، يا أمري ، فلا يجوز للنبي عنه .

قوله : «أطعم ربك» :

إضافة الرب تنقسم إلى أقسام :

الأول : أن تكون الإضافة إلى ضمير المخاطب ، مثل : أطعم ربك ،

وضيء ربك فيكره هذا لمحذورين :

١ - من جهة الصيغة ؛ لأنه يوهم معنى فاسد بالنسبة لكلمة رب ؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه ، وهو - سبحانه - يطعم ولا يطعم ، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير الرب الذي يطعم ولا يطعم .

٢ - من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل ؛ لأنه إذا كان السيد ربًا كان العبد أو الأمة مربوبًا^(١) .

الثاني : أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب ، فهذا لا بأس به كقوله -

كذلك - في حديث أشراط الساعة : «أن تلد الأمة ربها»^(٢) وأما لفظ «ربتها»^(٣) فلا

(١) قال في تيسير العزيز الحميد ص (٦٥٣) : «قال الخطابي وسبب المنع أن الإنسان مربوب بعد بإخلاص التوحيد لله تعالى وترك الإشراك به ، فترك المضاهاة بالاسم ثلاثة يدخل في معنى الشرك ، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد ، وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجحادات فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله : رب الدار والثوب .

قال ابن مفلح في الفروع : وظاهر النبي التحرير ، وقد يحتمل أنه للكراهة ، وجزم به غير واحد من العلماء» .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان / باب سؤال جبريل النبي ﷺ / ١ / ٣٣ .
ومسلم في الإيمان / باب بيان الإيمان / ١ / ٣٩ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير / باب إن الله عنده علم الساعة ٢٧٥ / ٣ ، ومسلم في الإيمان / باب بيان الإيمان / ١ / ٣٦ .

إشكال فيه لوجود تاء التأنيث فلا اشتراك مع الله في اللفظ؛ لأن الله يقال له رب ولا يقال له ربة، وفي حديث الصالة، وهو متفق عليه: «حتى يجدها ربها»^(١) وقال بعض أهل العلم إن حديث الصالة في بهيمة لا تبعد ولا تنزلل كالإنسان، والصحيح عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة قال تعالى: «وَلَمْ يَسْجُدْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ وَالْجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالدَّوَابِ» وقال في الناس: «وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ» ليس جميعهم: «وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ»^(٢).

الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربِّي فهل يجوز هذا؟.

قد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيده وقد قال تعالى عن صاحب يوسف: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مُثَوَّبِي»^(٣) أي سيدِي؛ ولأن المحدود من قول: «ربِّي» هو إدلال العبد، وهذا متنفس لأنَّه هو بنفسه يقول: هذا ربِّي.

الرابع: أن يضاف إلى الاسم الظاهر فيقال: هذا رب الغلام ظاهر الحديث الجواز وهو كذلك ما لم يوجد محدود فيمعن كما لوطن السامع أن السيد رب حقيقي خالق.

قوله: «وليقل سيدِي ومولاي»:
المتوقع أن يقول: ولبيقل سيدِك ومولاك، لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يناسب اللفظ المنفي عنه وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ

(١) أخرجه البخاري في المساقاة/باب شرب الناس والدواب من الأنوار ١٦٧/٢، ومسلم في اللقطة ١٣٤٦/٣ من حديث زيد بن خالد الجهنمي، رضي الله عنه.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٨. (٣) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

التكلم وليقل : «سيدي ومولاي» ففهم المؤلف رحمه الله - كما سيأتي في المسائل - أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نهى أن يقول : للعبد أطعم ربك فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول هذا ربي أو لربى ، ولا يقل أطعمت ربي ، بل يقل سيدى ومولاي .

وأما إذا قلنا: بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: سأطعم ربِّ فإنه يتغنى بالإذلال فإنه يقال: إن الرسول - ﷺ - لما وجه الخطاب لم يتكلم في شأن العبد، بل وجه الخطاب إلى العبد نفسه فقال: «وليقل سيدٍ ومولاً».

وقوله : « سیدی » :

السيادة في الأصل الشرف؛ لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معان منها المالك، والزوج، والشريف المطاع.

وسيدى هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليس السيد على وجه الإطلاق.

فالسيد على وجه الإطلاق لا تكون إلا لله، عز وجل. قال :
«السيد الله»^(١).

وَأَمَّا السِّيدُ مُضَافَةً فَإِنَّهَا تَكُونُ لغْرِ اللَّهِ . قَالَ تَعَالَى : « وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدِي ۖ

(١) أخرجه أحمد ٤٢٤، ٣٥، والبخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود في الأدب /باب في كراهة التمادح ١٥٤/٥، والنثاني في عمل اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ٤/٣٦٠، وابن السفي (٣٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات من (٤٢) من حديث عبد الله بن الشخّ، رضي الله عنه.

وقال ابن مفلح في الأداب ٤٦٤: «إسناده جيدة»، وقال الحافظ في الفتح ١٧٩/٥: «رجاله ثقات وقد صححه غير واحد» وصححه صاحب عون المعبد ٤٠٢.

الباب^(١) وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيمة»^(٢). والفقهاء يقولون: إذا
قال: السيد لعبده.

تبيه :

اشتهر عند الناس إطلاق السيدة على المرأة فيقولون مثلاً: هذا خاص
بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم
الرجال قال تعالى: «وألفيا سيدها لدى الباب»^(٣) وقال: «الرجال قوامون على
النماء»^(٤) وقال ﷺ: «إن النساء عوان عندكم»^(٥) أي بمنزلة الأسير، وقال
في الرجل: «راع في أهله ومسؤول عن رعيته»^(٦).
قوله: «ومولاي»: أي ليقل مولاي.
والمولى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة وهذه لله عز وجل، كالسيدة المطلقة وهي
نوعان:

النوع الأول: عامة، وهي الشاملة لكل أحد. قال الله، تعالى: «ثُمَّ

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

(٢) سبق ١/٣٣٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٥/٧٢، والترمذى في الرضاع/باب في حق المرأة على زوجها ٤/١٤٣،
١٤٤ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة في النكاح/باب حق المرأة على زوجها ١/٥٩٤،
والنسائي في الكبرى في كتاب عشرة النساء، من حديث عمرو بن الأحوص الجشمي،
رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة/باب الجمعة في القرى ١/٢٨٥، ومسلم في الإمارة/باب
قضيلة الإمام العادل ٣/٤٥٩ من حديث ابن عمر، رضي الله عنها.

ردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون^(١) فجعل له ولادة على هؤلاء المفترين وهذه ولادة عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين قال تعالى: «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم»^(٢)، وهذه ولادة خاصة، ومقتضى السياق أن يقول: وليس مولى الكافرين لكن قال: «لا مولى لهم» أي لا هو مولى للكافرين، ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موال لهم.

القسم الثاني: ولادة مقيدة مضافة فهذه تكون لغير الله، وهذا في اللغة معان كثيرة منها: الناصر، والمولي للأمور، والمعتن، والسيد.

قال تعالى: «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولا وجبريل وصالح المؤمنين»^(٣) وقال ﷺ: «من كنت مولاً فعله مولا»^(٤) وقال ﷺ: «إنا

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ١١.

(٣) سورة التحرير، الآية: ٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٨٤/١، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، وابن حبان ص ٥٤٤، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وأخرجه أحمد ٣٦٨/٥، ٣٧٠، وابن ماجه في المقدمة/فضل علي بن أبي طالب ٤٣/١ عن البراء ابن عازب، وفيه علي بن زيد وهو ضعيف كما في الزوائد.

أخرجه أحمد ٦٣٨/٤، والترمذى في المناقب/مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٠٠/٩ وقال: «حسن صحيح غريب»، والنمساني في الحصائر ص ٢١، والحاكم ١١٠/٣، والدولابي في الكتب ٦١/٢ عن زيد بن أرقم.

وأخرجه أحمد في المسند ٣٤٧/٥، والنمساني في الحصائر ص ٢١ عن بريدة وانظر أيضاً جمجم الزوائد ١٠٣/٩.

وإسناده صحيح، انظر فيض القدير ٢١٨/٦.

الولاء منْ أَعْنَقٍ^(١).

وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب ملِكًا بقوله: مولاي، لأن المراد بمولاي: أي متولي أمري، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمرهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَنَا وَأُولَئِكُمْ أَنْتُمُ الْمُنَّاَةُ﴾^(٢).

قوله: «وَلَا يَقُلُّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأُمْتِي»:

هذا خطاب للسيد أن لا يقول عبدي وأمي، لأننا جميعاً عباد الله، ونساؤنا إماء الله قال النبي ﷺ: «لَا تَعْنُو إِمَاءَ اللَّهِ مَساجِدَ اللَّهِ»^(٣).

فالسيد منهي أن يقول ذلك؛ لأنه إذا قال عبدي وأمي فقد تشبه بالله - عز وجل - ولو من حيث ظاهر اللفظ لأن الله - عز وجل - يخاطب عباده بقوله: عبدي، كما في الحديث: «عبدي استطعْمْتُك فلم تطعْمِنِي...»^(٤) وما أشبه ذلك.

وإن كان السيد يريد بقوله: « Ubdi » أي ملوكى ولكن هذا من باب التنزيه باللفظ الذي يوهم الإشراك وقد سبق بيان حكم ذلك^(٥).

(١) أخرجه البخاري في المكاتب/باب استعانة المكاتب ٢/٢٢٥، ومسلم في العنق/باب إنها الولاء منْ أَعْنَقٍ ١١٤١/٢ من حديث عائشة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة/باب حدثنا عبد الله بن محمد ١/٢٨٦ ومسلم في الصلاة/باب خروج النساء ١/٣٢٧ عن ابن عمر، رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب فضل عيادة الريض ٤/١٩٩٠ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٥) انظر ص (٩٧).

وقوله: «وأمي»:

الأمة الأنثى من الملوكات وتسمى جارية.

والعلة من النبي : أن فيه إشعارا بالعبودية فهي تقابل عبدي ، وكل هذا من باب حياة التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ ، وهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي - يرحمه الله - إلى أن النبي في الحديث ليس على سبيل التحرير وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل^(١) وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلا.

قوله : «وليقل فتاي وفتاتي»: ، مثله جاريتي وغلامي فلا بأس به .

وفي هذا الحديث من الفوائد :

١ - حسن تعليم الرسول ﷺ حيث إنه إذا نهى عن شيء فتح للناس ما يباح لهم فقال: «لا يقل عبدي وأمي وليقل: فتاي وفتاتي» وهذه كما هي طريقة النبي ﷺ فهي طريقة القرآن أيضا . قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعتنا وقولوا انظرنا»^(٢) ، وهكذا ينبغي أيضا لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا على الناس ببابا محurma أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم؛ لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:
الأولى: تسهيل ترك المحرم على هؤلاء؛ لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلاً هان عليهم تركه .

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة وأن كل ما يحتاج إليه الناس

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السادس ص (١٣٧): «وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمي إلى فتاي وفتاتي تحفظاً عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد وليس حراما . فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٤ .

فإن الدين الإسلامي يسعه فلا يحكم على الناس أن لا يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئاً إلا وفتح لهم ما يعني عنه وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢ - أن الأمر يأتي للإباحة لقوله: «وليقل: سيدني ومولاي» وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتى في مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر في مقابلة شيء ممنوع ومثله قوله تعالى: «وإذا حللتם فاصطادوا»^(١).

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

فيه مسائل:

الأولى: النبي عن قول: عبدي وأمتي. **الثانية:** لا يقول العبد: ربِّي ولا يقال له: أطعم ربكَ. **الثالثة:** تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي. **الرابعة:** تعليم الثاني قول: سيدِي ومولاي. **الخامسة:** التنبية للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

فيه مسائل :

الأولى: النبي عن قول عبدي وأمتي: تؤخذ من قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي» وقد سبق بيان ذلك. **الثانية:** لا يقول العبد ربِّي ولا يقال له: أطعم ربكَ: تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك. **الثالثة:** تعليم الأول وهو السيد قول فتاي وفتاتي وغلامي. **الرابعة:** تعليم الثاني وهو العبد قول: سيدِي ومولاي. **الخامسة:** التنبية للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ، وقد سبق ذلك.

باب لا يرد من سأله بالله

عن ابن عمر رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأله فأعطوه ومن استعذ بالله فأعذنه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كفأتموه» رواه أبو داود والنسائي بسنده صحيح^(١).

قوله: «باب لا يرد»:

«لا» نافية بدليل رفع المضارع بعدها والتفي يحتمل أن يكون للكراهة وأن يكون للتحريم^(٢).

والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما السؤال بالله بالصيغة مثل أن يقول: أسائلك بالله ومثل ما تقدم في حديث الثلاثة حيث قال الملك: أسائلك بالذي أطاك الجلد الحسن واللون الحسن بغيرها^(٣).

(١) سبق ١١٧.

(٢) قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد ص (٣٤٧): «لان منع من سأله، أو بوجه الله من عدم إعطاء الله وإنجلاقه، وقد جاء الوعيد على ذلك».

الحديث أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «ملعون من سأله بوجه الله، وملعون من سأله بوجه الله ثم منع سائله مالم يسأل هجراء».

أخرج الطبراني كما في المجمع ١٠٣/٣، وحسنه العراقي كما في الفيض ٤/٦، والمناوي في التيسير ٤٧٨/٢. سبق ص (٥١).

.....

الثاني: السؤال بشرع الله، عز وجل، أي يسأل سؤالاً يبيحه الشرع
سؤال الفقر من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم وما شابه ذلك.
وحكم من رد من سأله الكراهة أو التحرير حسب حال المسؤول.
وهنا عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله ألم لا؟
وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف يرحمه الله فنقول: أولاً السؤال من
حيث هو مكروه ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحداً شيئاً إلا إذا دعت الحاجة
إلى ذلك، وهذا كان مما بايع النبي - ﷺ - أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً
حتى إنْ عصاً أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته فلا يقول لأحد ناولنيه، بل
ينزل ويأخذه^(١).

والمعنى يقتضيه؛ لأنك إذا أعزرت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بقيت
محترماً عند الناس وصار لك متعة من أن تذل وجهك لأحد؛ لأن من أذل وجهه
لأحد فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله
اضطر إلى أن يجيئه وهذا روي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «ازهد فيها عند الناس
يجبك الناس»^(٢) فالسؤال أصلاً مكروه إلا حاجة.

(١) أخرجه مسلم في الزكاة/باب كراهة المسألة للناس ٢/٧٢١ عن عوف بن مالك، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجة في الزهد/باب الزهد في الدنيا ٢/١٣٧٤، وقال في الرواية: «في إسناده
خالد بن عمرو وهو ضعيف متفق على ضعفه، واتهم بالوضع، وأورد له العقيلي هذا
ال الحديث وقال ليس له أصل من حديث الثوري».

وأخرجه الحاكم ٤/٣١٣ وقال: صحيح الإسناد، وناظمه الذهبي فقال: خالد وضع.
وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/٢٥٣، ١٣٦/٧، والعقيلي في الضعفاء ١١/٢ من حديث =

.....
.....

أما سؤال المال فهو محروم ، ولا يجوز أن يسأل من أحد مالاً إلا إذا دعت
الضرورة إلى ذلك ، وقال الفقهاء - يرحمهم الله - في باب الزكاة : « إن من أبيح
لهأخذ شيء أبيح له سؤاله ». ولكن فيها قالوه نظر ، فإن الرسول - ﷺ - حذر
من السؤال وقال : « إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيمة وما
في وجهه مزعة لحم »^(١) وهذا يدل على التحرير إلا للضرورة فلا بأس .
وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن فهذه مكرورة ، إلا إذا دعت
الحاجة إلى ذلك .

أما رد السائل فهو موضوع بابنا هذا .
وأما إجابة من سأله ، فإن السائل لا يخلو من أمرتين :
الأول : أن يسأل سؤالاً مجرداً كأن يقول مثلاً : يا فلان أعطني كذا وكذا ،
فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه كالفقير يسأل شيئاً من الزكوة .
الثاني : أن يسأل بالله فهذا تحبيه ، وإن لم يكن مستحقاً ، لأنه سأله عظيم
فإيجابته من تعظيم هذا العظيم ، لكن لو سأله اثنا أو كان في إيجابته ضرر على
المسؤول ، فإنه لا يجاب .
مثال الأول : أن يسألك بالله نقوداً ليشتري بها محاماً كالخمر .

= سهل بن سعد الساعدي ، رضي الله عنه .

والحديث حسن النبوة في الرياض (٤٧٣) ، وفي الأربعين النووية حديث رقم (٣١) ،
وصححه الألباني في الصحيححة (٩٤٤) ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١٥٧ :
« وقد حسن بعض مشائخنا إسناده وقيه بعد لأن من رواه خالد بن عمرو ، وخالد هذا قد
ترك واتهم » ، وضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (٢٧٢) .

(١) أخرجه البخاري في الزكاة / باب من سأله الناس تكثرا ٤٥٧ / ١ ، ومسلم في الزكاة / باب
كرامة المسألة ١ / ٧٢٠ عن ابن عمر ، رضي الله عنهما .

.....
ومثال الثاني: أن يسألك بالله أن تخبره بما في سرك وما تفعله مع أهلك فهذا لا يجابت، لأن إجابته في الأول إعانة على الإثم، وإجابته في الثاني ضرر على المسؤول.

قوله: «من سألك بالله»: «من» شرطية للعموم.

قول: «فأعطيوه»: الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثماً أو ضرراً على المسؤول؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيمها الله عز وجل الذي سأله به. ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الملك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: أسلّك بالذي أعطاك كذا وكذا^(١).

قوله: «ومن استعاذه بالله فأعيذه»:

أي قال: أعيوذ بالله منك فإنه يجب عليك أن تعينه؛ لأن استعاذه بعظيم ولهذا لما قالت ابنة الجحون للرسول ﷺ: أعيوذ بالله منك قال لها: «لقد عذت بعظيم - أو معاذ - الخفي بأهلك»^(٢).

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذه من أمر واجب، كأنه أزمت أحداً بصلة الجماعة فقال: أعيوذ بالله منك، فأنت لا تعينه. وكذلك لو أزمته بالإفلاع عن أمر حرم فاستعاذه بالله منك فأنت لا تعينه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، وأن الله لا يعير عاصياً بالعصي تحمل عقوبته لا الانتصار له وإنما إعادته.

وكذلك من استعاذه بملجاً صحيحاً يقتضي الشرع أن يعينه - وإن لم يقل

(١) سبق ص (٥١).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق/باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٤٠١/٣ عن أبيأسيد، رضي الله عنه.

.....

استعيد بالله - فإنه يجب عليك أن تعينه كما قال أهل العلم : لوجن أحد جنابة ثم جأ إلى الحرم فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم ، ولكنه يضيق عليه فلا يباع ولا يشتري منه ولا يؤجر حتى يخرج .
بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجنابة في نفس الحرم ، فإن الحرم لا يعينه .

قوله : «ومن دعكم فأجبيوه» :
«من» شرطية للعموم ؛ والظاهر : أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام ، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء .
وظاهر الحديث : وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة وهو مذهب الظاهرية .

وجمهور أهل العلم : أنها مستحبة إلا دعوة العرس فإنها واجبة لقوله -
رسالة - فيها : «شر الطعام طعام الوليمة يُدعى إليها من يأبها ويمنعها من يأتيها ، ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله»^(١) .

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب فإنه يشرط لذلك شروط :
١ - أن يكون الداعي من لا يجب هجره أو يسن .
٢ - ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة ، فإن كان هناك منكر فإن
أمكنته إزالته وجب عليه الحضور لسبعين :
- إجابة الدعوة .
- وتغيير المنكر .

(١) أخرجه البخاري في النكاح / باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ٣٨١ / ٣ ، ومسلم في النكاح / باب الأمر بإجابة الداعي ١٠٥٥ / ٢ عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

.....
.....
.....

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور، لأن حضوره يستلزم ائمه
وما استلزم الائمه فهو ائم.

٣ - أن يكون الداعي مسلماً، ولا موجب للإجابة، لقوله ﷺ: «حق
ال المسلم على المسلم ست...» وذكر منها «إذا دعاك فأجبه»^(١) قالوا وهذا مقيد
للعموم الوارد.

٤ - أن لا يكون كسبه حراماً؛ لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعاماً حراماً
وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: ما كان محرماً لكتبه فإنها إئمه على الكاسب لا على من
أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرماً لعينه كالخمر والمغصوب
ونحوهما وهذا القول وجيه قوي بدليل أن الرسول - ﷺ - اشتري من يهودي
طعاماً لأهله^(٢)، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخبير^(٣)، وأجاب دعوة
اليهودي^(٤) ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت،
وربما يقوى هذا القول قوله - ﷺ - في اللحم الذي تصدق به على بريئة: «هو
لها صدقة ولنا منها هدية»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في السلام / باب من حق المسلم للمسلم ٤/١٤٠٧ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيع / باب شراء النبي - ﷺ - بالنسبيّة ٢/٧٩، ومسلم في المسافة / باب الرهن ٣/١٢٢٦ عن عائشة، رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في المبة / باب قبول الهدية من المشركين ٢/٢٤١، ومسلم في السلام / باب السم ٤/١٧٢١ عن أنس، رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٢١٠، ٢١١، ٢٥٢، ٢٧٠، ٢٨٩، وفي الزهد (٥)،
وانظر الإرواء ١/٧١.

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة / باب إذا تحولت الصدقة ١/٤٦٣، ومسلم في العتق / باب إنما
الولاء من أعتق ٢/١١٤٤.

وعلى القول الأول فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام
وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة
أقل.

٥ - أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن
تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦ - أن لا تتضمن ضررا على المجيب، مثل: أن يحتاج إلى سفر أو
مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة :

هل إجابة الدعوة حق الله أو للأدمي؟

الجواب : حق الله وللأدمي جميعا، وهذا لو طلب من الداعي أن يقيلك
فقبل فلا إثم عليك فهي واجبة بأمر الله ، عز وجل ، لكن لصاحبها أن يسقطها
كما أن له أن لا يدعوك أيضا، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلًا من غير اقتناع
فإنه لا ينبغي أن تطلب الإقالة منه بل تحيب.

مسألة :

هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟

الجواب : البطاقات ترسل إلى الناس ولا يدرى من ذهب إلى فيمكن
أن نقول إنها تشبه دعوة الجفل فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على
الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله : «من صنع إليكم معروفا فكافأوه» :

المعروف : الإحسان فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها فكافأه ، فإذا
أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائدا عن الواجب عليه تكافأه وهكذا ،
لكن إذا كان كبير الشأن ولم تغير العادة بمكافأته فلا يمكن أن تكافأه كالمثل

والرئيس . . مثلاً إذا أعطاك هدية فمثل هذا يدعى له؛ لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضاً من حقه فتكون مسيئاً له، والنبي - ﷺ - أراد أن تكافئه لحسناته وللمكافأة فائدةتان:

١ - تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢ - أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه؛ لأن من صنع إليك معروفاً فلا بد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا ردت إليه معروضه زال عنك ذلك، وهذا قال النبي - ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفل»^(١) واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف ثلثاً يرى لأحد عليه منه إلا الله، عز وجل، لكن بعض الناس يكون كريماً جداً فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة ولكن يُدعى له، لقوله، ﷺ : «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له» وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني فإنه يدعوه له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرةً؛ لأنه من باب المسرعة إلى أمر الرسول، ﷺ .

قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه»:

ترووا بفتح التاء بمعنى تعلموا، وترروا بالضم بمعنى تظنوا، أي حتى تظنوا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

(١) أخرجه البخاري في الزكاة/باب لا صدقة إلا عن ظهر غني ٤٤١/١، ومسلم في الزكاة/باب بيان أفضل الصدقة ٧١٧/٢ عن حكيم بن حزام، رضي الله عنه.

فيه سائل:

الأولى: إعادة من استعاد بالله . الثانية: إعطاء من سأل بالله .
الثالثة: إجابة الدعوة. الرابعة: المكافأة على الصناعة. الخامسة: أن
الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه. السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم
قد كافأتموه» .

فيه سائل :

الأولى: إعادة من استعاد بالله :
وسبق أن من استعاد بالله وجبت إعادة إلا أن يستعيد بشيء واجب فعله
أو تركا فإنه لا يعاد .
الثانية: إعطاء من سأل بالله : وسبق التفصيل فيه .
الثالثة: إجابة الدعوة:
وسبق كذلك التفصيل فيها .
الرابعة: المكافأة على الصناعة:
أي على صناعة من صنع إليك معروفا وسبق التفصيل في ذلك .
الخامسة: أن الدعاء مكافأة: وسبق أنه مكافأة في ذلك وفيها إذا كان
الصانع لا يكاد مثله عادة .
«السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه»: أي أنه لا يقصر في
الدعاء، بل يدعوه حتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه .

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود^(١).

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن فيه تعظيم وجه الله، عز وجل، بحيث لا يُسأل به إلا الجنة^(٢).
قوله: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة».

اختلف في المراد بذلك على قولين:

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة/باب كراهة المساس بوجه الله ٣٠٩/٢، وابن منده في الرد على الجهمية ص(٩٨)، والبيهقي في سنته ٤١٩٩/٤، وفي الأسماء والصفات ص(٣٠٦)، والخطيب في الموضع ٣٥٢/١، ٣٥٣ عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه. وقال المنذري في خصر السنن ٢/٢٥٣: «وسلیمان بن قرم تكلم فيه غير واحد»، والحديث ضعفه عبد الحق وابن القطان كما في الفيض ٤٥١/٦، والمناوي في التيسير ٥٠٥/٢. لكن يشهد لعموم النبي حديث أبي موسى - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «ملعون من سأله بوجه الله، وملعون من سئل بوجه ثم منع سائله ما لم يسأل هجرا». أخرجه الطبراني كما في المجمع ١٠٣، وحسنه العراقي كما في الفيض ٤/٦، والمناوي في التيسير ٤٧٨/٢.

(٢) قال ابن قاسم في حاشية على كتاب التوحيد ص (٣٥٠): «أي لا يجوز ذلك إجلالاً لله وإنكراماً وأعظماماً له أن يسأل بوجهه العظيم ما هو حقير لديه من حوانع الدنيا مالم يرد به غاية المطالب وهي الجنة، أو الإعانة على أعمال الآخرة الموصولة إلى الجنة، وأما سؤال المخلوق بوجه الله فتقدّم النبي عنه في الباب قبله».

القول الأول: أن المراد لا تأسوا أحداً من المخلوقين بوجه الله ؛ فإذا أردت أن تأسأ أحداً من المخلوقين فلا تأسأه بوجه الله ، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا بالجنة . والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة ، فإذاً لا يسألون بوجه الله مطلقاً ، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث ولذلك أعقبه بقوله : «باب لا يرد من سأل بالله» .

القول الثاني: أنك إذا سألت الله فإن سألت الجنة وما يستلزم دخوها فلا حرج أن تأسأ بوجه الله ، وإن سألت شيئاً من أمور الدنيا فلا تأسأه بوجه الله لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا . فأمور الآخرة تأسأ بوجه الله كقولك مثلاً أسألك بوجهك أن تنجيني من النار والنبي - ﷺ - استعاذ بوجه الله لما نزل قوله ، تعالى : «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم» قال : أعود بوجهك : أو من تحت أرجلكم » قال : أعود بوجهك : «أو يلبسكم شيئاً ويديق بعضكم بأس بعض»^(١) قال : هذه أهون أو أيسر^(٢) .

ولو قيل : إنه يتحمل المعندين جيئاً لكان له وجه .

وقوله : «بوجه الله» :

فيه إثبات الوجه لله ، عز وجل ، وهو ثابت في القرآن والسنة وإجماع السلف فالقرآن في قوله تعالى : «كل شيء هالك إلا وجهه»^(٣) ، قوله ،

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد / باب قول الله تعالى : «كل شيء هالك إلا وجهه» ٤/٣٨٥ . عن جابر ، رضي الله عنه .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾^(١)، والأيات كثيرة.
والسنة كما في الحديث السابق: «أعوذ بوجهك»^(٢).

وأختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلى نفسه هل هو وجه حقيقي أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس الله وجه بل له ذات؟ أو أنه يعبر به عن الشيء ويراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي؟ أو أنه يعبر به عن الجهة أو أنه يعبر به عن الثواب؟

فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق فقالوا: إن وجه حقيقي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَقِنَّ وَجْهَ رَبِّكُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٣)، ولما أراد غير ذاته قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكُمْ ذُي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٤) فـ[ذى] صفة لرب وليس صفة لاسم وـ[ذو] صفة لوجه وليس صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفا بالجلال والإكرام فلا يمكن أن يراد به الثواب، أو الجهة، أو الذات؛ لأن الوجه غير الذات.

وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب
قالوا: ولو أثبتنا الله وجهها حقيقة للزم أن يكون جسما والأجسام متماثلة ويلزم من ذلك إثبات المثل لله، عز وجل، والله، تعالى، يقول: ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٥)
فهذا تكذيب للقرآن وأنت يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقاد أن الله مثلا فيها يختص به فهو كافر، فنقول لهم:

أولاً: ما تعنون بالجسم الذي فررت منه؟ أتعنون به المركب من عظام وأعصاب ولحm ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلى الآخر؟ إن أردتم ذلك فنحن

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٧٨.

(٢) سبق ص (١١٧).

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

نوفقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكون .
وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقة الثابتة المتصفه بصفات الكمال فلا
محذور في ذلك ، والله تعالى وصف نفسه بأنه أحد صمد قال تعالى : « قل هو
الله أحد الله الصمد »^(١) قال ابن عباس رضي الله عنها : الصمد : الذي لا
جوف له ^(٢) .

ثانياً : قولكم إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا ، فهل جسم
الدب مثل جسم الذرة فيها تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك .
فإذا بطلت هذه الحجة بطلت التبيحة وهي استلزم مماثلة الله خلقه .
ونحن نشاهد حتى البشر لا يتفقون في الوجه ، ولذلك يزعمون أنه ما
من إنسان في الدنيا إلا ولو أربعون شبيها ، والظاهر عدم صحة ذلك فإنك لا
تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانوا توأمين ، بل قالوا إن عروق الرجل واليد
غير متماثلة من شخص إلى آخر .

ويلاحظ أن التعبير بمعنى المماثلة أولى من التعبير بمعنى الشابهة ، لأنه
اللفظ الذي جاء به القرآن ، ولأنه ما من شبيه موجودين إلا ويشبهان من وجه
ويفترقان من وجه آخر فمعنى مطلق الشابهة لا يصح ، وقد تقدم .
وأما حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : « إن الله
خلق آدم على صورته »^(٣) ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين في جباب عنه :
أولاً : أنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب - عزوجل - بإجماع المسلمين

(١) سورة الإخلاص ، الآيات : ١ - ٢ .

(٢) أخرجه ابن حجر ٧٤٢/٣٠ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستاذان / باب بدء السلام ٤/١٣٥ ، ومسلم في البر / باب النهي عن ضرب الوجه ٤/٢٠١٧ .

والعقلاء؛ لأن الله - عز وجل - وسع كرسيه السموات والأرض، والسموات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي - موضع القدمين - كحلقة أقيمت في فلالة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلة على هذه الحلقة فيما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفا ولا تخيلا ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعا وإنما يراد به أحد معندين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه وعلى هذا لا ينبغي أن يقبح أو يضرّ؛ لأنّه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرّ.

الثاني: أن الله خلق آدم على صورة الله عز وجل ولا يلزم من ذلك المائة بدليل قوله ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلوّنهم على أضواء كوكب في السماء»^(١) ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر؛ لأن القمر أكبر من أهل الجنة وأهل الجنة يدخلونها طول أحد هم ستون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته أي صورة آدم، أي أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضاً يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ: «على صورة الرحمن».

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق/باب ما جاء في صفة الجنة ٤٢٢، ومسلم في الجنة ونعيمها/باب أول زمرة تدخل الجنة ٤/٢١٧٩ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

فيه مسائلتان:

الأولى: النبي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

فيه مسائل :

الأولى: النبي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب: تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

الثانية: إثبات صفة الوجه: وقد سبق الكلام عليه.

باب ما جاء في اللو

وقول الله تعالى: «يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هنـا»^(١) قوله: «الذين قالوا لـإخوانـهم وـقعدـوا لو أطـاعـونـا ما قـتـلـوا»^(٢).

قوله: «في اللو»:

دخلت «آل» على «لو» وهي لا تدخل إلا على الأسماء قال ابن مالك: بالجـر والـتنـوـين والنـدـا وأـلـ وـمـسـنـد لـلاـسـم تـبـيـز حـصـل^(٣) لأن المقصود بهذا اللـفـظ أي: بـاب ما جـاء فـي هـذـا الـلـفـظـ . والـمـؤـلـفـ - رـحـمـ اللهـ - جـعـلـ التـرـجـةـ مـفـتوـحةـ وـلـمـ يـجـزـمـ بـشـيءـ لأن «لو» تستـعملـ عـلـىـ عـدـةـ أـوـجـهـ^(٤):

الوجه الأول: أن تستـعملـ فـيـ الـاعـتـراضـ عـلـىـ الشـرـعـ . وهذا حـرمـ قال تعالى: «لو أطـاعـونـا ما قـتـلـوا»^(٥). في غـزوـةـ أحـدـ حينـاـ تـخـلـفـ أـثـنـاءـ الطـرـيقـ عبدـ اللهـ بنـ أبيـ فيـ نـحـوـ ثـلـثـ الجـيشـ فـلـمـ اـسـتـشـهـدـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ سـبـعونـ رـجـلـاـ اـعـتـرـضـ الـمـنـافـقـونـ عـلـىـ تـشـرـيعـ الرـسـوـلـ ﷺـ وـقـالـواـ: لو أطـاعـونـا وـرـجـعـواـ كـمـاـ رـجـعـنـاـ ماـ قـتـلـواـ فـرـأـيـنـاـ خـيـرـ مـنـ شـرـعـ مـحـمـدـ ، وهذا حـرمـ وقد يـصـلـ إـلـىـ الـكـفـرـ.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤ . (٣) ألفية ابن مالك ص (٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨ . (٤) انظر: إعلام المقيمين ٣/١٦٩ .

.....

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر.
وهذا محروم أيضاً قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا
وقالوا إلخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما
قتلوا»^(١) أي لو أنهم بقوا ما قتلوا فهم يعترضون على قدر الله.
الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر.

وهذا محروم أيضاً؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن
الندم يكسب النفس حزناً وانقباضاً والله يريد منا أن تكون في انشراح وانبساط
قال، ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء
فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»^(٢).
مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخسر،
فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة فهذا ندم وتخسر، ويقع كثيراً وقد
نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في التمني.

وحكمة حسب التمني إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر، وفي
الصحيح عن النبي - ﷺ - في قصة النفر الأربع قال أحدهم: «لو أن عندي
مال فلان لعملت فيه عمل فلان» فهذا تمنى خيراً وقال الثاني: «لو أن عندي
مال فلان الذي ينفقه في غير مرضاه الله» فهذا تمنى شراً فقال النبي - ﷺ - في
الأول: « فهو بنيته، فيما بالأجر سواء» وقال في الثاني: « فهو بنيته فيما في الوزر
سواء»^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

(٢) يأتي ص (١٢٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ٢٣٠، ٢٣١، والترمذني في الزهد/باب ما جاء مثلاً الدنيا مثل أربعة =

الخامسة: أن تستعمل في الخبر المحسن.

وهذا جائز مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت معكم»^(١) فأخبر النبي - ﷺ - أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحلل، وهذا هو الظاهري.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي.

فالظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي - ﷺ - لا يتمنى شيئاً قدر الله خلافه.

قوله: «يقولون»: الضمير للمنافقين.

قوله: «ما قُتِلَنا»: أي ما قتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم ولأن المقتول لا يقول.

قوله: «لو كان لنا من الأمر»:

«لو» شرطية وفعل الشرط «كان» وجوابه «ما قُتِلَنا»، ولم يقترن الجواب باللام؛ لأن الأفصح إذا كان الجواب منفياً عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء عمرو أفضح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو. وقد ورد قليلاً كقول الشاعر:

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ولكن لاختيار مع السباب

= نفي ٨١/٧ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد/باب النية ١٤١٣/٢ عن أبي كثرة عمرو بن سعد الأنباري، رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الحجج/باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف ٥٠٦/١، ومسلم في الحجج/باب بيان وجوب الإحرام ٨٨٥/٢ عن جابر، رضي الله عنه.

قوله: «ها هنا»: أي في أحد.

قوله: «قل لو كتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم»: هذا رد عليهم فلا يمكن أن يختلفوا عما أراد الله بهم.

وقولهم: «لو كان لنا من الأمر شيء»:

هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضًا على القدر أيضًا، أي لو كان لنا من حسن التدبير والرأي ما خرجنا فنقتل.

قوله: «وقدعوا»:

الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على: «قالوا» ويكون وصف هؤلاء بأمريرين:

- بالاعتراض على القدر بقولهم: «لو أطاعونا ما قتلوا».

- وبالجبن عن تنفيذ الشعـ «الجهاد» بقولهم: «وقدعوا»، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير «قد» أي والحال أنهم قد قعدوا، ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: «لإخوانهم»:

قيل في النسب لا في الدين. وقيل: في الدين ظاهراً؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمريرين لكان صحيحاً.

قوله: «لو أطاعونا ما قتلوا»:

هذا غير صحيح وهذا رد الله عليهم بقوله: «قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كتم صادقين» وإن كتم قاعدين فلا تستطعون أيضًا أن تدرؤا عن أنفسكم الموت.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون حكماً بشرع الله.

مناسبة الباب للتوجيه :

أن من جملة أقسام [لو] الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر فإنه لم يرض بالله ربا، ومن لم يرض بالله ربا، فإنه لم يحقق التوحيد توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضى بالله ربا ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربى تمام الرضا، وكان لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، وهذا قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»^(٢) ومهمها كان فالامر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلاً في سفر ثم أصبت في حادث، فلا تقل: لو أني ما خرجت في السفر ما أصبت، لأن هذا مقدر لا بد منه.

قوله: «وفي الصحيح»: أي الصحيحين.

والمؤلف - رحمه الله - حذف منه جملة، وأتى بما هو مناسب للباب،

(١) أخرجه مسلم في الزهد/باب المؤمن أمره كله خير ٤ / ٢٢٩٥ عن صحيب بن سنان، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في القدر/باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٤ / ٢٠٢٥ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

.....
والمحذف قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

شوه الحديث :

قوله: «القوي»: أي في إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففي إيمانه يعني ما يدخل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيها يقتضيه يعني العمل الصالح من الجihad والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحرام في العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن، إلا إذا كان في قوة بدنك ما يزيد إيمانه أو ما يقتضيه؛ لأن «القوي» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن، فالمراد القوي في إيمانه أو ما يقتضيه ولا شك أن قوة البدن نعمة إن استعملت في الخير فخرين، وإن استعملت في الشر فشر.

قوله: «خير وأحب إلى الله»:

خير: في تأثيره وآثاره فهو ينفع ويقتدى به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

قوله: «من المؤمن الضعيف»: وذلك في الإيمان أو فيها يقتضيه لا في قوة البدن.

قوله: «وفي كل خير»: أي في كل من القوي والضعف خير، وهذا النوع من التذليل يسمى عند البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعف.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: «خير وأحب»، لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟.

فاجلوب : أنه قد يخرج عن الأصل كما في قوله تعالى : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا »^(١) مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة : « خير وأحب » صار في نفسه انتفاخ للمؤمن المفضل عليه ، فإذا قيل : « وفي كل خيراً رفع من شأنه ، ونظيره قوله تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ، وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلّا وعد الله الحسنى »^(٢) .

قوله : « احرص على ما ينفعك » :

الحرص : بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا .
وأفعال العباد بحسب السبّ والتقسيم لا تخلو من أربع حالات :

- ١ - نافعة وهذه مأمورة بها .
- ٢ - ضارة وهذه محذرة عنها .
- ٣ - فيها نفع وضرر .

٤ - لا نفع فيها ولا ضرر ، وهذه لا يتعلّق بها أمر ولا شيء ، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو شيء فتأخذ حكم الغاية ؛ لأن الوسائل لها أحکام المفاسد .

فالامر لا يخلو من نفع أو ضرر إما لذاته أو لغيره ، فحدثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر ، لكن قد يتكلّم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره ويكون نفعاً ، ولا يمكن أن تجده شيئاً من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر إما ذاتي أو عارض إنها ذكرناه لأجل تمام السبّ والتقسيم .

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ١٠ .

والعقل يشح بوقته أن يصرفه فيها لا نفع فيه ولا ضرر قال النبي ﷺ:
«من كان يؤمن بالله وبال يوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).
وأتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهر جداً لأن من القوة الحرص على ما
يُنفع.

[ما] اسم موصول بفعل [يُنفع] والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم
فاعل كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي
ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، و معناه أن نقدم الأنفع على النافع؛ لأن الأنفع
مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة وهذه الزيادة لابد أن تحرص عليها؛ لأن
الحكم إذا علق بوصف كان تأكيد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكيد
ذلك الوصف، فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق
إليك أكره؛ فنقدم الأنفع على النافع لوجهين:
١ - أنه مشتمل على النفع وزيادة.
٢ - أن الحكم إذا علق بوصف كان تأكيد ذلك الحكم بحسب تأكيد ذلك
الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار؛ لأن هذا انتفاع وسلامة
لقوله: «احرص على ما ينفعك».

قوله: «واستعن بالله»:

الواو تقتضي الجمع، ولم يقل: استعن لتكون الاستعانة مفرونة
بالحرص، والحرص سابق على الفعل فلا بد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل
من أوله.

(١) أخرجه البخاري في الأدب /باب حق الصيف ٤ / ١١٦ ، وسلم في الإثبات /باب الحث على
إكرام الجار ٦٨ / ١ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

.....
والاستعانة: طلب العون بلسان المقال كقولك: اللهم أعني، أو لا حول ولا قوة إلا بالله عند شروعك بالفعل.

أو بلسان الحال وهي أن تشعر بقلبك أنك تحتاج إلى ربك - عز وجل - أن يعينك على هذا الفعل وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.

أو طلب العون بها جميعاً، والغالب أن من استعان بلسان المقال فقد استعان بلسان الحال.

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالملحق كحمل صندوق مثلاً فهذا جائز، ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالحالي، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض كما لو عجزت عن حل شيء بيد واحدة فإنك تستعين على حله باليد الأخرى، وعلى هذا فالاستعانة بالملحق فيها يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائه، فلا تنافي قوله ﷺ: «استعن بالله».

قوله: «ولا تعجزْ»:

فعل مضارع مبني على الفتح لا تصاله بنون التوكيد الخفيفة و«لا» نافية والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزمية، وليس المعنى: لا يصييك عجز؛ لأن العجز عن الشيء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان؛ لأن ذلك لا طاقة له به فلا يتوجه عليه نهي، وهذا قال النبي، ﷺ: «صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(١).

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزمية بعدم التكاسل.

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة/باب إذا لم يطق قاعداً صل على جنب ٣٤٨/١ عن عمران بن حصين، رضي الله عنه.

لأن بعض الناس من محرص على ما ينفعه وشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ فما دمت عرفت أن هذا نافع فلا تدعه؛ لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدنى من حالة النشاط والقدرة إلى حالة العجز والكسل وكم من إنسان بدأ العمل - ولا سيما النافع - ثم أتى الشيطان فنبطه. لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التهادي في الباطل.

وذكر في ترجمة الكسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعاماً ت يريد أن تصعد به حائطاً كلما صعدت قليلاً سقطت وهكذا حتى صعدت فأخذ درساً من ذلك فكابد حتى صار إماماً في النحو. قوله: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا»: هذه المرتبة الثالثة: فإذا حصل خلاف المقصود، فالمرتبة الأولى الخرسن، والمرتبة الثانية: المضي في الأمر والاستمرار فيه وهاتان المرتبتان إليك. المرتبة الثالثة: إذا حصل خلاف المقصود فهذه ليست إليك، وهذا قال: «وإن أصابك ...».

قوله: «وإن أصابك شيء» أي مما لا تحبه ولا تريده وما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأولى: أن يقول: لم أفعل ما حصل كذا.

الثانية: أن يقول لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لم أسافر ما فاتني الربع.

ومثال الثاني: أن يقول لو سافرت لربحت.

وذكر النبي - ﷺ - الثاني دون الأول؛ لأن هذا الإنسان عامل فاعل، فهو يقول لو أني فعلت الفعل الفلانى دون هذا الفعل لحصلت مطلوبى، بخلاف الإنسان الذى لم يفعل وكان موقفه سلبيا من الأعماى.

قوله: «كذا»: كنایة عن مبهم، وهي مفعول لفعلت.

قوله: «لكان كذا»: فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: «قدر الله»:

خبر لم يبدأ مذوف أي هذا قدر الله.

و [قدر] بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله أي مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى أن هذا الذي وقع قدر الله وليس إلى، أما الذي إلى فقد بذلك ما أراه نافعا كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله، عز وجل، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي فإنه لا يلام على شيء، ويفوض الأمر إلى الله.

قوله: «وما شاء فعل»:

جملة مصدرة بـ [ما] الشرطية و[شاء] فعل الشرط، وجوابه [فعل] أي: ما شاء الله أن يفعله فعله؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه قال تعالى: «لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»^(١) وقد سبق ذكر قاعدة وهي أن كل فعل معلق بالمشيئة فإنه مقررون بالحكمة، وليس هناك شيء معلق بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لا يشرع ولا يفعل إلا لحكمة، وهذا التقرير نفهم أن المشيئة

(١) سورة الرعد، الآية: ٤١.

يلزم منها وقوع الشاء وهذا كان المسلمين يقولون ما شاء الله كان وما لم يشأ يكن.

وأما الإرادة وقوع المراد ففيه تفصيل:

الإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد وهي التي بمعنى المحبة قال، تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُم﴾^(١) بمعنى يحب ولو كانت بمعنى يشاء لكتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد، كما قال الله، تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا وَلَكُنَّ اللَّهُ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢).

قوله: «فَإِنْ لَوْ نَفَعَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»:

[لو] اسم إن قصد حكايتها أي فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.
وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن فإن الشيطان يحب ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيُسْبِّحُهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) حتى في المنام يرهي أحلاماً مخيفة ليغدر عليه صفوه ويشوش فكره، وحيثند لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي وهذا نهى النبي - ﷺ - عن الصلاة حال تشوش الفكر فقال - ﷺ: «لَا صَلَاةَ بِحُضْرَةِ طَعَامٍ وَلَا هُوَ يَدْافِعُهُمُ الْأَخْبَثَانِ»^(٤) فإذا رضي الإنسان بالله ربّا وقال هذا قضاء الله وقدره وأنه لابد أن يقع اطمأنـت نفسه وانشرح صدره.

(١) سورة النساء، الآية: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ١/٣٩٣.

ويستفاد من الحديث :

- ١ - إثبات المحبة لله ، عز وجل ، لقوله : «خير وأحب».
- ٢ - اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه ، لقوله : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».
- ٣ - زيادة الإيمان ونقصانه ، لأن القوة زيادة والضعف نقص ، وهذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة : يزيد ولا ينقص ، لأن النقص لم يرد في القرآن قال تعالى : «وَيُزِدَّادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا»^(١) وقال تعالى : «لَيُزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ»^(٢) . والراجح القول الأول ، لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد ، وعلى هذا يكون القرآن دالا على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ : «مَا رأيْتَ مِنْ ناقصات عُقْلٍ وَّدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَرِّ الرَّجُلَ الْخَازِمَ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»^(٣) يعني النساء .

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية ، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية ، وزيادة الأعمال الباطنة كال悒ين زيادة كيفية ، وهذا قال إبراهيم ، عليه السلام : «رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تَحْبِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلِّي وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَ قَلْبِي»^(٤) . والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر ، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر زاد يقينه ، وهذا قال أهل العلم : إن التواتر يفيد العلم اليقيني وهذا دليل على تفاوت

(١) سورة المدثر ، الآية : ٣١.

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان / باب نقصان الإيمان ١/٨٦ عن ابن عمر ، رضي الله عنه .

وأنخرجه البخاري (٣٠٤) ، ومسلم (٨٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

القلوب بالتصديق، وأما الأعمال فظاهر فمن صل أربع ركعات أزيد من صل ركعتين.

٤ - أن المؤمن وإن ضعف فهو خير أو فيه خير، لقوله: «وفي كل خير».

٥ - أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها، لقوله: «احرص على ما ينفعك» فإذا امتن المؤمن أمر الرسول - ﷺ - فهو عبادة.

٦ - أنه لا ينبغي للعامل أن يمضي جهده فيما لا ينفع، لقوله: «احرص على ما ينفعك».

٧ - أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصايرة، لقوله: «ولا تعجزْ».

٨ - أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يجتهد بالقدر، لقوله: «ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»، وأما الذي يمكنك فليس لك أن تجتهد بالقدر. وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم - عليهما الصلاة والسلام - وقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله على^(١)؟ فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدريّة الذين ينكرون القدر يكذبون هذا الحديث، لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبواه، وإلا حرفوه ولكن هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يجتهد على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج بل احتاج بالخروج نفسه.

معناه: أن فعلك صار سبباً لخروجنا، وإلا فإن موسى - عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري في القدر/باب تحاج آدم وموسى ٤/٢١٢، ومسلم في القدر/باب حجاج آدم وموسى ٤/٤٠٤٢ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

والسلام - أبعد من أن يلوم آباء على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم - رحمه الله - إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتاجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها فالمشركون لما قالوا: «لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا أَبْأُونَا»^(١) كذبهم الله، لأنهم لا يحتاجون على شيء مضى ويقولون تبنا إلى الله ولكن، يحتاجون على البقاء في الشرك.

٩ - أن للشيطان تأثيراً على بني آدم؛ لقوله: «فَإِنَّ لِلشَّيْطَانَ تَفْتَحَ عَمَلَاتِ الْأَنْوَافِ»^(٢) وهذا لاشك فيه، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَبْنَاءِ آدَمَ مَجْرِي الدَّمِ»^(٣).

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقاها في القلب فتجرى في العروق، وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجراً الدم، وهذا ليس بعيداً عن قدرة الله - عز وجل - كما أن الروح تجري مجراً الدم وهي جسم إذا قبضت تكتفن وتحنط وتتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يصاده، وهي لة الملك فإن للشيطان في قلب ابن آدم لة وللملك لة، ومن وفق غلب لة الملك لة الشيطان فهيا دائياً يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أماره، ونفس لوماته وهذه وصف للنفسين جميعاً.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف/باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٦٨/٢، ومسلم في السلام/باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بأمرأة ٤/١٧١٢ عن صفية بنت حبي، رضي الله عنها.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران. الثانية: النبي الصريح عن قول: (لو) إذا أصابك شيء. الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان. الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن. الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانتة بالله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران:

وهما: الأولى: **﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾**
الثانية: **﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلتنا هاهنا﴾** أي ما أخرجنا وما قتلتنا، ولكن الله تعالى أبطل ذلك بقوله: **﴿قل لو كتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾**. والأية الأخرى: **﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾** فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: **﴿فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كتم صادقين﴾** أي إن كتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل فادرؤا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت بل لا بد أن يموتو، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد لكانوا على ضلال مبين.

الثانية: النبي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء، لقول الرسول،

ﷺ: فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان، فالنبي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن: لقوله: «ولكن قل قدر الله وما شاء

فعل».

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانتة بالله؛ لقوله **ﷺ:**

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

«احرص على ما ينفعك واستعن بالله».

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز: لقوله: «ولا تعجزن» فإن
قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز
فكيف نهى النبي - ﷺ - عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟ .
أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء؛ لأنه
هو الذي في مقدور الإنسان .

باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها وشر ما أمرت به » صحيح الترمذى ^(١).

المؤلف - رحمه الله - أطلق النبي ولم يفصح هل المراد به التحرير أو الكراهة وسيتبين - إن شاء الله - من الحديث ^(٢).
قوله : «الريح» ، الهواء الذي يصرفه الله عز وجل ، وجمعه رياح .

(١) أخرجه أحمد ١٢٣/٥ ، والترمذى في الفتن / باب ما جاء في النبي عن سب الريح ٣٣/٧ وقال : «حسن صحيح» ، والثانى في عمل اليوم والليلة (٩٣٤، ٩٣٣) ، وابن السنى في عمل اليوم والليلة (٢٩٩) ، والطحاوى في المشكى ١/٣٩٨ . وأخرجه الثانى (٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧) ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق ص (٨٣) ، والطحاوى في المشكى ١/٣٩٨ عن أبي بن كعب موقوفا . والحديث له شاهد مرفوع عن أبي هريرة ، وعاشرة ، رضي الله عنها .

(٢) وقال السعدي رحمه الله في القول السادس ص (١٤٢) : «وهذا نظير مسبق في سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر وهذا خاص بالريح ، ومع تحريره فإنه حق وضعف في العقل والرأي فإن الريح مصراقة مدبرة بتدير الله وتسخشه ، فالساب لها يقع سبه على من صرقها ، ولو لا أن المتكلم يسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالبا لكان الأمر أفعى من ذلك ، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم» .

وأصوتها أربعة: الشمال والجنوب والشرق والغرب، وما بينها يسمى النكبة؛ لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب. وتصريفيها من آيات الله - عز وجل - فاحيانا تكون شديدة تقلع الأشجار، وتهدم البيوت وتتدفن الزروع، ومحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانا تكون هادئة، وأحيانا تكون باردة، وأحيانا حارة، وأحيانا عالية، وأحيانا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية لتجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ولكن الله - عز وجل - بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد، فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟ .

الجواب: لا، لأن هذه الريح مسخة مدببة، وكما أن الشمس أحيانا تضر بإحراقها بعض الأشجار فمع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، وهذا قال: «لا تسبوا الريح».

قوله: «لا تسبوا الريح».

«لا» نافية والفعل مجزوم بحذف التون، والواو فاعل، والريح مفعول

. به

والسب: الشتم والعيّب والقدح واللعن، وما أشبه ذلك؛ لأن سب المخلوق سب خالقه فلو وجدت قصراً مبنياً وفيه عيب فسيبته فهذا السب ينصب على من بناءه، وكذلك سب الريح، لأنها مدببة مسخة على ما تقتضيه حكمة الله، عز وجل.

ولكن إذا كانت الريح مزعجة فقد أرشد النبي - ﷺ - إلى ما يقال.

قوله: «من خير هذه الريح»: الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون

عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة
تبرد الجو وتكتب النشاط.

قوله: «وخير ما فيها»:

أي ما تحمله، لأنها قد تحمل خيراً كتلقيح الشمار، وقد تحمل رائحة طيبة
الشم، وقد تحمل شرًا كإزالة تلقيح الشمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.

قوله: «وخير ما أمرت به»:

مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله: «ونعوذ بك»: أي نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هذه الربيع»:

أي شرها ب نفسها، كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

قوله: «وشر ما فيها»:

أي ما تحمله من الأشياء الضارة كالانتان والقادورات والأوثة وغيرها.

قوله: «وشر ما أمرت به»:

كإهلاك والتدمير، قال - تعالى - في ريح عاد: «**(تدمير كل شيء) بإذن ربها**^(١) وتبليس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع وطمس الآثار والطرق،
فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: «ما أمرت به»: هذا الأمر حقيقي أي يأمرها الله أن تهب ويأمرها
أن تتوقف وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله. قال - تعالى -
للأرض والسماء: «**(اتينا طوعاً أو كرها قالتنا أتينا طائعين)**^(٢) وقال للقلم:
«اكتب. قال ربِّي وماذا اكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة»^(٣).

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) تعریجہ ص (١٨١)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح . **الثانية:** الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره . **الثالثة:** الإرشاد إلى أنها مأمورة . **الرابعة:** أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر .

فيه مسائل :

الأولى: النهي عن سب الريح :
وهذا النهي للتحريم؛ لأن سبها سب لمن حلقها وأرسلها .
الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره .
وهو أن يقول: «اللهم إني أسألك من خيرها» الحديث مع فعل الأسباب الحسية أيضاً، كالاتقاء بالجدران أو الجبال من شر هذه الريح .
الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة: لقوله: «ما أمرت به»
الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر: لقوله: «خير ما أمرت به وشر ما أمرت به»

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يتعرض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلماً لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلماً لأمره الشرعي؛ لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئاً إلا بأمر الله، سبحانه وتعالى.

باب قوله تعالى

﴿يُظْنَوْنَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظُنُونَ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ
مِّنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾^(١) الآية^(٢).

قوله: «يُظْنَوْنَ»: الضمير يعود للمنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظْنَوْنَ أَنَّهُمْ
مُلْقَوْا رَبِّهِمْ﴾^(٣) أي يتيقنون، وضد الراجح المرجو وسمى وهماً.

قوله: «ظُنُونَ الْجَاهِلِيَّةِ»:

عطف بيان لقوله: «غَيْرَ الْحَقِّ».

و«الْجَاهِلِيَّةِ» الحال الجاهلية، والمعنى يُظْنَوْنَ بِاللَّهِ ظُنُونَ الْجَاهِلِيَّةِ التي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٤٣): «وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكيفاته، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين واحتفاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان».

وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظُنُونَ الْجَاهِلِيَّةِ المنافية للتَّوْحِيدِ؛ سوء ظُنُونَ بِاللَّهِ ونفي لِكِيَّاهِ، وتکذيب لخبره، وشك في وعده».

وقال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد ص (٣٥٨): «أراد رحمه الله بهذه الترجمة التنبية على وجوب حسن الظن بِاللهِ، وأنه من واجبات التوحيد».

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

.....
لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

والظن بالله - عز وجل - على نوعين:

الأول أن يظن بالله خيراً.

والثاني: أن يظن بالله شراً.

والأول: له متعلقان:

١ - متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون، فهذا يجب عليك أن تحسن
الظن بالله - عز وجل - فيما يفعله - سبحانه وتعالى - في هذا الكون، وأن تعتقد
أن ما فعله إنما هو حكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وهذا يتبيّن
عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئاً في الكون فعله
لإرادة سيئة حتى الحوادث والنكبات لم يجدها الله لإرادةسوء المتعلق بفعله،
أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير فهذا واقع، كما قال
تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً﴾^(١).

٢ - متعلق بالنسبة لما يفعله بك فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن،
لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن وهو أن تعبد الله
على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك فعليك أن تظن أن الله
يقبل منك ولا يسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب
الإنسان من الذنب فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه ولا يسيء الظن بالله بأن
يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مفرطاً في الواجبات فاعلاً للمحرمات وظن بالله ظناً

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٧.

حسنا، فهذا هو ظن المتهاون المتهاون، بل هو من سوء الظن بالله إذ إن حكمة الله تائي مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله شرا، مثل: أن يظن في فعله سفها أو ظلماً أو نحو ذلك، فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب.

قوله: «يقولون هل لنا من الأمر من شيء»: مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: «لنا» خبر مقدم. وقوله: «من شيء» مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: «قل إن الأمر كله لله»:

أي: فإذا كان كذلك فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره فالله - عز وجل - يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: «إن الأمر»:

واحد الأمور لا واحد الأوامر، أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله، سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: «يغفون في أنفسهم ما لا يبدون لك»:

فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق فيخفى في نفسه ما لا يبديه لغيره؛ لأنَّه يرى من جبته وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفى الكفر والفسق والعصيان.

قوله: «ما قُتلنا هاهنا»:

أي: في أحد، والمراد بمن «قتل» من استشهد من المسلمين في أحد، لأن عبد الله بن أبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد وقال: إن محمدما يعصيني ويطيع الصغار والشبان.

قوله: «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى ماضعهم»:

هذا الاحتجاج لا حقيقة له؛ لأنه إذا كتب القتل على أحد لم ينفعه تحصنه في بيته، والكتابة قسمان:

١ - كتابة شرعية: وهذا لا يلزم منه الواقع مثل قوله تعالى: «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» قوله: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام».

٢ - كتابة كونية: وهذه يلزم منها الواقع مثل قوله تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» قوله: «كتب الله لأغلbin أنا ورسلي» ومثل هذه الآية.

قوله: «وليبيți الله ما في صدوركم»:

أي يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره، والإيمان بحكمته، فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته من لم يكن كذلك.

قوله: «وليمحض ما في قلوبكم»:

أي: إذا حصل الابتلاء فقويل بالصبر صار في ذلك تمحض لما في القلب: أي تطهيراً له وإزالة ما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبعى.

وقد حصل الابتلاء والتمحض في قصة أحد، بدليل أن الصحابة لما

وقوله : ﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء﴾^(١) الآية .

نذهبم الرسول - ﷺ - حين قيل له : «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوه»^(٢) خرجوا إلى حراء الأسد ولم يجدوا غزوا فرجعوا : ﴿فانقلبوا بنعمتة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾^(٣) .

قوله : «واه علیم بذات الصدور» :

جملة خبرية فيها إثبات أن الله علیم بذات الصدور، أي : بصاحة الصدور والمراد بها القلوب كما قال تعالى : ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ فالله لا يخفي عليه شيء فیعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متى يكون وكيف يكون؟ .

قوله : «الظانين» :

المراد بهم : المنافقون والشركون قال تعالى : ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والشركين والشركات الظانين بالله ظن السوء﴾^(٤) أي ظن العيب ،

(١) سورة الفتح ، الآية : ٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٢ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٤ .

(٤) حديث عائشة ، رضي الله عنها : ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم الفرج للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرًا عظيم﴾ قالت لعروة : يا ابن أخي كأن أبوك منهم : الزبير وأبو بكر ، لما أصاب رسول الله - ﷺ - ما أصاب يوم أحد ، وانصرف عنه الشركون خاف أن يرجعوا ، قال من يذهب في أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً ، قال : كان فيهم أبو بكر والزبير ، أخرجه البخاري في المغازي / باب الذين استجابوا لله والرسول ١١٠ / ٣ ، ولم يخرجه البخاري في التفسير في هذا الباب المشار إليه ، بل ساقه ابن حجر في الفتح لكون البخاري لم يسوق حديثاً في الباب كله وأشار ابن حجر أن الحديث تقدم في المغازي الفتح ٧٦ / ٨ ط الريان . ومسلم في فضائل الصحابة / باب من فضائل طلحة والزبير ٤ / ١٨٨٠ . وأما خروجهم إلى حراء الأسد فقد أخرجه النسائي ، وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس كما في الدر المثمر ٢ / ١٠١ ، وقال السيوطي : «بسنده صحيح» .

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّرَ هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيفضي إلى محمل، وفسر بأن ما أصا به لم يكن بقدر الله وحكمته ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله

وهو كقوله فيما سبق: «ظن الجاهلية»^(١).

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن القيم، رحمها الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول - ﷺ - سيفضي إلى محمل وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك.

قوله: «عليهم دائرة السوء»:

أي أن السوء يحيط بهم جميعاً من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيفضي إلى محمل فإن الواقع خلاف ظنهم، وأن الدائرة راجعة عليهم.

قوله: «وغضب الله عليهم»:

الغضب: من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيشه ويترتب عليه الانتقام، وأهل التعطيل، قالوا: إن الله لا يغضب.
فمنهم من قال: المراد الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام. قالوا: لأن الغضب غليان القلب لطلب الانتقام، وهذا قال النبي ﷺ: «إنه جمرة يلقاها الشيطان في قلب ابن آدم»^(٢).

فيجيب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد أحد / ٣١٩ ، الترمذى في الفتنة / باب ما جاء ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيمة / ٦٣٥١ ، وقال: حسن صحيح.

وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء، الذي ظن المنافقون والشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحده ووعده الصادق. فمن ظن أنه يُدلي بالباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لشيء مجرد، فذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

في المعنى التوافق في المثلية والكيفية. قال تعالى: «ليس كمثله شيء»^(١) ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى: «فَلِمَا آسَفُونَا انتقمَنَا مِنْهُمْ»^(٢) فأسفونا: بمعنى أغضبنا، «انتقمَنا مِنْهُمْ». فجعل الانتقام مرتبًا على الغضب فدل على أنه غيره.

وقوله: «ولعنهم»:

اللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: «وأعد لهم جهنم»:

أي هياها لهم وجعلها سكنا لهم.

قوله: «وسائل مصيرا»:

تمييز الفاعل مستتر، أي: ساءت النار مصيرًا يصيرون إليه.

قوله: «قال ابن القيم»:

هو محمد بن قيم الجوزية أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له رحمة الله.

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيها يختص بهم ، وفيها يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته ومحب حكمته وحده .

قوله : «وَفَسَرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحْكَمَتْهُ» : يُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ : «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا» قال ابن القيم في الآية : يعني قوله : «يَظْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَ الْجَاهِلِيَّةِ» فسر بأن الله لا ينصر رسوله ، وأن أمره يضمحل أي يزول .

وَفَسَرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحْكَمَتْهُ ، وَنَأْخُذُ هَذَا التَّفْسِيرَ مِنْ قَوْلِهِ : «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا» فَسُرَّ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ ، وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ ، وَإِنْكَارِ أَنْ يَتَمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ وَأَنْ يَظْهُرَ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فَسُرَّ بِمَا يَكُونُ طَعْنًا فِي الرِّبُوبِيَّةِ وَطَعْنًا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ ، فَالظَّعْنُ فِي الْقَدْرِ طَعْنٌ فِي رِبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لَأَنَّ مِنْ تَمَامِ رِبُوبِيَّتِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ نَؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا جَرَى فِي الْكَوْنِ فَإِنَّهُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَطَعْنٌ فِي أَفْعَالِهِ وَحْكَمَتِهِ حِيثُ ظَنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سُوفَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَسُوفَ يَضْمُحلُ أَمْرُهُ ، لَأَنَّهُ إِذَا ظَنَ الْإِنْسَانُ هَذَا الظَّنَ بِاللَّهِ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنْ إِرْسَالَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ - الْصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَبْثٌ وَسَفَهٌ ؛ فَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ أَنْ يُرْسَلَ رَسُولٌ وَيُؤْمِنُ بِالْقَتَالِ وَإِتَالِفِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ ، ثُمَّ تَكُونُ التَّيْجَةُ أَنْ يَضْمُحلَ أَمْرُهُ وَيَنْسِي فَهَذَا بَعِيدٌ .

وَلَا سِيَّما رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الَّذِي هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّنَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذْنَ بِأَنْ شَرِيعَتَهُ سُوفَ تَبْقَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قَالَ ابْنُ الْقِيمِ رَحْمَهُ اللَّهُ : «وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السُّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفُتْحِ» .

وَخَلَاصَةُ مَا ذَكَرَ ابْنُ الْقِيمِ فِي تَفْسِيرِ ظَنِ السُّوءِ ثَلَاثَةُ أَمْرَوْنَ :
الْأُولُّ : أَنْ يَظْنَ أَنَّ اللَّهَ يَدْبِلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقْرَةً يَضْمُحل

معها الحق فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح قال تعالى: ﴿بَلْ
ظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ يَنْتَلِقُ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبْدًا﴾^(١).

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعوا وسفها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئاً أو يشرعه إلا لحكمة قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكتها، وهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافاً كبيراً بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله، سبحانه وتعالى.

ورأى الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء مجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يسئل عنها يفعل، وهذا من أعظم الغبن بالله؛ لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمي سفيها فما بالك بالخالق العظيم؟ قال تعالى: ﴿وَمَا
خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢) فالقول بأنها خلقت باطلًا لا لحكمة عظيمة ظن الذين كفروا. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا يَعْلَمُونَ مَا خَلَقْنَا هُنَّا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٣) الذي هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالى خلقهم باطلًا لغير حكمة قال الله: ﴿ذَلِكَ
ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين يظنون أن الله خلقهم باطلًا وعبثًا وسهوًا ولعبًا.
والمعتزلة على العكس من ذلك يقولون: لا يقدر إلا لحكمة ويفرضون على الله ما يشاون وقد ذكر صاحب ختصر التحرير الفتوحى، رحمه الله: أن في

(١) سورة الفتح، الآية: ١٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٣٩ - ٣٨.

فليعن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره
من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له وأنه
كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقل ومستكثر وفتى نفسك هل
أنت سالم.

فإن تنج منها نجع من ذي عظيمة **إلا فإني لا إخالك ناجيا**

المسألة قولين في المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئا ولا يقدره على عبده ولا يشرع
شيئا إلا حكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر.

قوله: «فويل للذين كفروا من النار»^(١):

ويل: مبتدأ؛ وساغ الابتداء بالنكارة: التعظيم، وخبر المبتدأ «للذين
كفروا». والجار والمجرور «من النار» بيان لويل، وفي هذا دليل على أن كلمة
«ويل» كلمة وعد وليس كما قيل: واد في جهنم، وهذا نقول: ويل لك من
البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد في
جهنم اسمه ويل لكن ويل في مثل هذه الآية كلمة وعد.

قوله: «وأكثر الناس»:

أي: من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء، أي العيب فيها
يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يحبهم، أو
إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم وهذا ظن السوء،
أو فيما يفعله بغيرهم كما إذا رأوا من ابتهل بمرض بدني، أو رأوا أن الكفار
انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

.....
ال المسلمين دائئراً، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضي ذلك.

قوله: «ولا يسلم من ذلك»: أي من الظنسوء.

قوله: «إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده»:
صدق رحمة الله لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله، عزوجل، وما
له من الحكم والsecrets فيها يقدرها ويشرعها، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة
حقة لا معرفة تحريف وتأويل.

ولهذا أولئك المحرفون والمؤولون حجبوا عن معرفة أسماء الله وصفاته
فتتجدد قلوبهم مظلمة غالباً، تناول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما
من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف
فإن قلبه لا يرد عليه مثل هذه الاعتراضات التي تردد على قلوب أولئك المحرفين؛
لأن المحرفين إنما أتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء حيث ظنوا أن الكتاب
والسنة دل ظاهرها على التمثيل والتشبيه فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه
وينكرون ما أثبت الله لنفسه، وهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل
معطل مثل، وكل مثل معطل.

أما كون كل معطل مثلاً فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب
والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيء بنصوص الكتاب والسنة
أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها فمثل أولاً وعطل ثانياً.

وعلى هذا فالذى عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ما جرى عليه سلف
هذه الأمة وأئمتها وعرف موجب حكمة الله أي مقتضي حكمة الله.

وقوله: «موجب» موجب بالفتح هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى
المقتضى، وبالكسر السبب الذي يقتضي الشيء بمعنى المقتضى.

فالذى يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة، فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبداً، ولاحظ الحكمة التي حصلت لل المسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أحد، فإن في ذلك حِكْماً عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران وهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه.

بل كل ما يجريه الله في الكون كمنع الإنبات والفقر فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده؛ لأنه - عز وجل - أكرم الأكرمين وعلى هذا فقنس.

قوله: «اللَّبِيبُ»: على وزن فعيل، ومعنى: ذو اللب، وهو العقل.

قوله: «بِهَذَا»: المشار إليه هو الظن بالله، عز وجل، ليعني بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية.

قوله: «وَلِيَتَبَّعَ إِلَيَّ اللَّهُ»:

أي يرجع إليه؛ لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله: «وَلِيَسْتَغْفِرَ»:

أي يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: «وليت» وقوله: «وليستغفر» للأمر.

قوله: «تَعْتَاَلُ عَلَى الْقَدْرِ وَمُلَامَةُ لَهُ»:

أي إذا قدر الله شيئاً تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصاب بالجوانح، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

قوله: «فَمُسْتَقْلٌ وَمُسْتَكْثِرٌ»:

مستقل: مبتدأ، خبره مخدوف. ومستكثر: مبتدأ خبره مخدوف، والتقدير فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر، ونظير ذلك قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ

وسعيد^(١)) فسعيد مبتدأ، خبره محذوف تقديره ومنهم سعيد، ولا يقال بأن «سعيد» معطوف على شيء لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: «وَقَتَشَ عَنْ نَفْسِكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟»:

وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك هل أنت سالم من التقصير فيه؟.

وما حرمه الله عليك هل أنت سالم من الواقع فيه؟.

قوله: «فَإِنْ تَنْجَعْ مِنْهَا تَنْجَعْ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ»:

«تنج» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو «تنج» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو.

وقوله: «مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ»: أي من ذي بلية عظيمة، أو نحوها.

قوله: «وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيَا»:

التقدير: أي وإلا تنج من هذه البلية فإني لا إخالك ناجيا.

ومعنى إخالك: أظنك، وهي تنصب مفعولين الأول الكاف، والثاني ناجيا.

كان ابن القيم - رحمه الله - يقول: إن نجوت من هذا الأمر فقد نجوت من أمر عظيم، وإن لم تنج فلست بناج.

(١) سورة هود، الآية: ١٠٥.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. الثانية: تفسير آية الفتح.
الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر. الرابعة: أنه لا يسلم من
ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية آل عمران:
وهي قوله تعالى: «يظنون بالله غير الحق ظن الجahلية...» وقد سبق . والضمير فيها للمنافقين.
الثانية: تفسير آية الفتح:
وهي قوله تعالى: «الظانين بالله ظن السوء...» وقد سبق ، والضمير فيها للمنافقين.
الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر:
أي ظن السوء ، والذي أخبر بذلك ابن القيم ، رحمه الله ، وضابط هذه
الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به .
الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف
نفسه .

فابن القيم - رحمه الله - ذكر أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الله
وأسماه وصفاته ومحب حكمته وحده ، وأشار إلى معرفة النفس بقوله : «فتش
نفسك» ، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء ، وأما الرب فهو محل
الكمال المطلق الذي لا يعترى نقص بوجه من الوجوه .

مناسبة الباب للتوجيد :

أن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: «وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا»^(١) فإذا ظن بالله ظن السوء لم تكن الأسماء حسنة، وقال في الصفات: «وَلَهُ الْمُثْلُ الْأَعْلَىٰ»^(٢) وإذا ظن بالله ظن السوء لم يكن له المثل الأعلى.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

باب ما جاء في منكري القدر^(١)

قوله: «منكري»: أصله منكرين - جمع - فحذفت النون للإضافة كما يحذف التنوين أيضاً، قال الشاعر:
كأنني تنوين وأنت إضافة فاين تراني لا تحمل جواري
وقيل: (مكان) بدل (جواري).
قوله: «القدر»: هو تقدير الله - عز وجل - للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله، أو من شاء من خلقه.
قال بعض أهل العلم: القدر سر الله - عز وجل - في خلقه ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيراً أو شراً.
والقدر يطلق على معنين:
الأول: التقدير، أي فعل الله، عز وجل.
الثاني: المقدر، أي ما قدره الله، عز وجل.
والتقدير يكون مصاحباً للفعل وسابقاً له فالصاحب للفعل هو الذي: تعلق به القدرة، والسابق هو الذي قدره الله - عز وجل - في الأزل، مثال ذلك: خلق الجنين في بطنه الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكون، وهذا الذي تتعلق به القدرة أي تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

(١) لما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر ذكر المصطف ماجاء من الوعيد فيما انكره تبيهاً على وجوب الإيمان به. (حاشية ابن قاسم ص ٣٦٤).

و والإيمان بالقدر يتعلّق بتوحيد الربوبية خصوصاً، وله تعلّق بتوحيد
الأساء والصفات؛ لأنّه من صفات كمال الله، عز وجل^(١).

والناس في القدر ثلاثة أقسام:

الأول: الغلاة في إثباته وهم الجبرية: أثبتوا القدر، وأن الله خالق كل شيء وعالم كل شيء، لكنهم نفوا قدرة الإنسان و اختياره فهو ينام ويأكل ويعصي بغير اختيار، لأن الله يقول: ﴿الله خالق كل شيء﴾^(٢) وقال: ﴿و الله خلقكم وما تعملون﴾^(٣) و فعل الإنسان من الأشياء.

وهذا القول باطل يبطله الكتاب، والسنة، والعقل، وإجماع السلف.
فالكتاب والسنة أثبتا للإنسان إرادة وقدرة و اختيارا قال، تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿لَمْ شَاءْ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمْ﴾^(٥).

وفي القدرة قال تعالى: ﴿لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾^(٦) وقال تعالى:
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾^(٧).

وأثبت الله له فعلا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٨) وقال تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٩).

(١) وقد أفرد له ابن القيم رحمة الله كتابه القيم شفاء العليل.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٥) سورة التكوير، الآية: ٢٨.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٧) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٨) سورة النمل، الآية: ٨٨.

وأثبت له قوله تعالى: «يقولون بأفواهم ما ليس في قلوبهم»^(١).
ومن السنة قوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما تستطعتم»^(٢).
والعقل والحس يدلان على أن الإنسان يفعل باختياره، ويفرق بين الفعل
الاختياري وبين الفعل غير الاختياري .

وذكر أن سارقا جيء به إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين: ما سرقت إلا بقدر
الله فقال: ونحن نقطعك بقدر الله ، فحجه مع أن قطع عمر ليده فيه القدر
والشرع .

وهذا القول - أعني القول بالجبر- باطل ويترب عليه - والعياذ بالله - من
ظن السوء بالله الشيء الكثير فمن ذلك :
١ - أن الله يظلم العباد حيث يعاقبهم على أمر ليس باستطاعتهم ،
وليس لهم فيه اختيار .
٢ - أن الله يثيب الإنسان بغير فعل منه وهذا سفسه ، لأنه مجبر على
فعله .

٣ - انتفاء حكمة الله بالشرع ، لأن الله يقول: «ليلوكم أياكم أحسن
عملًا»^(٣) فإذا كان الذي يحسن العمل والذي لا يحسن سواء فأين الحكمة؟ .
الثاني: الغلة في إنكار القدر، وهم الذين قالوا: إن الإنسان يفعل
باختياره، ينام ويصلّي ويأكل ويقوم ويقعد باختياره ، ثم قالوا: إن العبد مستقل
بعمله ليس الله فيه قدرة ولا اختيار ، فالله لم يشاً أفعال العبد ولم يخلقها ، ثم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتراض /باب الافتداء بسنن رسول الله ٣٦١/٤، ومسلم في
الحج /باب فرض مرة في العمرة ٩٧٥/٢ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٣) سورة الملك، الآية: ٢.

اختلقو: فمنهم من قال: إن الله يعلم ما سيصنعه العبد، وأن الله مقدرٌ مع نفي الخلق والمشيئة.

وقال علامهم: إن الله لم يعلمه ولم يقدر، وأن الأمر أ NSF مستأنف، وأن الله لا يعلم من أفعال العباد إلا ما وقع، وما لم يقع لا يعلمه، وهو لاء كفراهم السلف، لأنهم أنكروا عموم علم الله سبحانه.

ثم استقر أمر القدرية، على إثبات العلم والتقدير، وعلى نفي المشيئة والخلق.

والقدرة يناظرون بالعلم فإن أقروا به خصموا؛ لأنهم إذا أقروا به نقول لهم: هل جاء هذا المقدور على مقتضى علم الله أو على خلافه؟ إن قالوا: على مقتضى علم الله خصموا، وإن قالوا: على خلافه فقد أنكروا العلم، وإذا أنكروا العلم كفروا.

الثالث: أهل السنة والجماعة، توسطوا بين الطائفتين فآمنوا بعلم الله وكتابه ومشيئته وخلقه، وأن للعبد اختياراً وقدرة على فعله، فجمعوا بين النصوص ووافقوا بين المعقول والمنقول.

- والرد على القدريّة:

١ - نقول: إذا أثبتت أن الإنسان مستقل بعمله، فقد أثبتت وجود شيء في ملك الله لا يريده الله وهذا إشراك به، وهذا سمي النبي - ﷺ - القدرة بمحوس هذه الأمة^(١).

(١) أخرجه أبو داود في السنة / باب القدر (٤٦٩١)، والحاكم ٨٥/١، من طريق أبي حازم سلمة بن دينار عن ابن عمر، وهو مقطع؛ لأن أبو حازم لم يسمع من ابن عمر.
وأخرجه اللالكائي في شرح السنة (١١٥٠)، والأجري في الشريعة من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم عن ابن عمر وزكريا.. ضعيف.

.....
.....

٢ - نقول لهم - والمراد غير غلطاتهم - هل تقررون بعلم الله؟ فسيقولون: نعم نقر، فنقول: هل وقع هذا الشيء على خلاف معلومه أم على وفق معلومه؟.

فإن قالوا على خلاف معلومه فقد أنكروا العلم، وإن قالوا على وفقه فقد أقرروا أنه بإرادته.

فأنت أيها الإنسان لا تعلم ما أراد الله، فإذا وقع على مقتضى علم الله كان ذلك بتقديره فأنت حينها فعلت لا تعلم أن الله - عز وجل - قدر لك ذلك حتى جعلته موافقاً لمعلومك، وإنما جرى على وفق معلوم الله بإرادة الله، فيكون هذا دليلاً على أن ما فعلت فهو مراد الله، عز وجل، ولهذا قال الشافعي مقولته المشهورة: ناظروهم بالعلم فإن أقرروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا.
وأما بالنسبة للجبرية فاستدلوا بأدلة منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكُنَ اللَّهُ رَمَى﴾^(١) فنفي الفعل عن النبي - ﷺ - وأثبته الله ، عز وجل .

٢ - قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢) أي لو شاء الله ما أشركوا ولكنه شاء أن يشركوا فأشركوا إجباراً - فهذه الكلمة حق إ يريد بها باطل - فصحح أنه لو شاء الله ما أشركوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَوْا﴾^(٣) لكنهم أرادوا الاحتجاج على الشرك والمعاصي بالقدر، وقد أبطل الله حجتهم هذه بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَبُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْنَاهُ﴾^(٤) وما كان الله تعالى ليذيقهم بأسه وهم على حق وصواب فيما قالوا.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

.....
ونرد عليهم بالأدلة النقلية والعلقية:

فأما الأدلة النقلية فم منها:

- ١ - أنه يلزم على قوائم أن إرسال الرسل لا تقوم به الحجة؛ لأن القدر لا يزال موجوداً حتى بعد إرسال الرسل وقد نفى الله - عز وجل - الحجة بعد إرسال الرسل فقال: **﴿وَرَسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَهُمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةٌ بَعْدَ الرَّسُلِ﴾**^(١) ولو كان الإنسان مجرراً لقال: يارب وما تفيد الرسل.
- ٢ - قوله تعالى: **﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾**^(٢) فثبت للعبد إرادة.
- ٣ - قوله تعالى: **﴿مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمْ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**^(٣).

وأما الأدلة العقلية:

- ١ - أنا لو قلنا بكلامهم هذا وأن الإنسان يجر على العمل لم يكن هناك فرق بين الطيب والعاصي ولم يستحق الطيب الثواب ولا العاصي العقاب، مع أن كلا منهم يستحق جزاء عمله.
- ٢ - أنه يعلم بالضرورة الفرق بين الأشياء التي يفعلها الإنسان باختيار، والأشياء التي يفعلها مجرراً عليها، فمثلاً شخص يقود السيارة وجاء على جدار وصدمه باختياره، وأخر انفلت منه السيارة وعجز عن قيادتها، فيبيهها فرق، وكذلك فرق بين من ينزل من الدرج باختياره درجة درجة، وأخر دفعه شخص من أعلى حتى تدرج ..

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة التكوير، الآيات: ٢٨ - ٢٩.

وكل يعلم ويعرف أن الإنسان يذهب ويحيي، ويقوم ويقعد ويصلب
ويصوم ويزكي ويفعل الأشياء باختياره، ولا يرى أن أحداً أجره.
فبهذا نعرف أن إنكار القدر ضلال مبين، وأن الغلو في إثباته أيضاً
ضلال مبين، وأن خير الأمور الوسط وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة، وقد
ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق
المبتدة في خمسة أصول ذكرها في العقيدة الواسطية فلتراجع هنالك .
مواتب القحر :

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم وذلك بأن تؤمن بأن الله - تعالى - علم كل شيء
جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون. فكل شيء علِمه،
الدقيق والجليل.

ودليل ذلك في الكتاب كثير، منها قوله، تعالى: «وعنه مفاتح الغيب
لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا
حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»^(١) فالأوراق التي
تساقط ميتة، أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر فإن الله - تعالى -
يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى لاحظ سعة علم الله - عز
وجل - وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب
متراكم وحبة في قاع البحر عليها ظلمات متعددة، ظلمة الطبقة الأرضية،
وظلمة البحر، ثم المطر، ثم السحاب المتراكم، ثم ظلمة الليل، فكل هذا
داخل في قوله تعالى: «ولا حبة في ظلمات الأرض»، ثم جاء العموم المطلق

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

﴿وَلَا رُطْبٌ وَلَا يَابْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ وَلَا كِتَابٌ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِثْبَاتُ الْعِلْمِ وَإِثْبَاتُ الْكِتَابَةِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يُسِيرٌ﴾^(١) فِي الْآيَةِ أَيْضًا إِثْبَاتُ الْعِلْمِ وَإِثْبَاتُ الْكِتَابَةِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الْكِتَابَةُ، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهَا الْآيَاتُ الْسَّابِقَاتُ.

الْمَرْتَبَةُ التَّالِثَةُ: الْمُشَيْثَةُ، وَهِيَ عَامَةُ، مَا مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا وَهُوَ كَائِنٌ بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمُشَيْثِهِ، فَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ أَبَدًا سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِيهَا يَفْعُلُهُ بِنَفْسِهِ أَوْ يَفْعُلُهُ الْمُخْلُوقُ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلَوْهُ﴾^(٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَلَ الدِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ . . .﴾^(٤) الْآيَةُ.

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الْخَلْقُ: فَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ وَمَالِكُهُ وَمَدْبِرُهُ وَذُو سُلْطَانَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٥) وَهَذَا الْعُمُومُ لَا يُخْصِصُ لَهُ، حَتَّى فَعْلُ الْمُخْلُوقِ؛ لَأَنَّ فَعْلَ الْمُخْلُوقِ مِنْ صَفَاتِهِ، وَهُوَ وَصَفَاتُهُ مُخْلُوقَانِ، وَلَا نَفْعَلُهُ نَاتِجٌ عَنْ أَمْرَيْنِ:

١ - إِرَادَةٌ جَازِمةٌ.

٢ - قُدرَةٌ تَامَّةٌ.

(١) سُورَةُ الْحِجَّةِ، الْآيَةُ: ٧٠.

(٢) سُورَةُ يَسِّ، الْآيَةُ: ٨٢.

(٣) سُورَةُ الْأَنْعَامِ، الْآيَةُ: ١١٢.

(٤) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، الْآيَةُ: ٢٥٣.

(٥) سُورَةُ الزُّمْرِ، الْآيَةُ: ٦٢.

.....
وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ فِي إِلَّا إِنْسَانَ إِلَرَادَةَ الْجَازِمَةِ وَالْقَدْرَةِ التَّامَةِ، وَهَذَا قَبْلَ لِأَعْرَابِي بِمَا عَرَفَ رَبِّكَ قَالَ: بِنَقْضِ الْعَزَائِمِ، وَصَرْفِ الْهَمِّ.

وَالْعَبْدُ يَتَعَلَّقُ بِفَعْلِهِ شَيْئًا:

١ - خَلْقٌ، وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ.

٢ - مِباشَرَةٌ، وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَبْدِ، وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ، قَالَ، تَعَالَى: «جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(١) وَقَالَ تَعَالَى: «إِذَا دَخَلُوكُمُ الْجَنَّةَ بِمَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٢) وَلَوْلَا نَسْبَةُ الْفَعْلِ إِلَى الْعَبْدِ مَا كَانَ لِلنَّاسِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْمُطْبِعِ وَإِثْبَاتِهِ فَائِدَةً، وَكَذَلِكَ عَقْوَةُ الْعَاصِي وَتَوْبِيهِ.

وَأَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَقَدْ جَمِعَتْ فِي بَيْتٍ:

عَلَمُ كِتَابَةَ مَوْلَانَا مُشِيشَةَ وَخَلْقَهُ وَهُوَ إِيجَادٌ وَنَكْوَينٌ
وَهُنَّاكَ تَقْدِيرَاتٌ أُخْرَى نَسْبِيَّةٌ:

مِنْهَا: تَقْدِيرُ عُمْرِي: حِينَ يَبْلُغُ الْجَنِينُ فِي بَطْنِ أَمِّهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَرْسُلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيَكْتُبُ رَزْقَهُ وَأَجْلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَفَقَيْهِ أَوْ سَعِيدَ^(٣).

(١) سورة الواقعة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة التحل، الآية: ٣٢.

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل ص (٥٦): «فَاجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ عَلَى تَقْدِيرِ رَزْقِ الْعَبْدِ وَأَجْلِهِ وَشَفَقَتِهِ وَسَعَادَتِهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أَمِّهِ، وَاحْتَلَفَتْ فِي وَقْتِ هَذَا التَّقْدِيرِ... فَفِي حَدِيثِ ابْنِ مُسَعْدٍ أَنَّ هَذَا التَّقْدِيرَ يَقْعُدُ بَعْدَ مَائَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ حَصْولِهِ النَّطْفَةِ فِي الرَّحْمَةِ، وَحَدِيثِ أَنَّسَ بْنِ مَالِكٍ غَيْرَ مُؤْكَدٍ، أَمَّا حَدِيثُ حَذِيفَةَ بْنِ أَسِيدٍ فَقَدْ وَقَتْ فِيهِ التَّقْدِيرُ بِأَرْبَعينِ يَوْمٍ، وَفِي لَفْظِ بَارِبعِينِ لَيْلَةٍ، وَفِي لَفْظِ ثَتَّانِ وَأَرْبَعينِ لَيْلَةٍ، وَفِي لَفْظِ بَلَاثَ وَأَرْبَعينِ لَيْلَةٍ، وَهُوَ حَدِيثٌ تَفَرَّدُ بِهِ مُسْلِمٌ وَلَمْ يَرُوهُ الْبَخَارِيُّ^٤.

= ثم جمع رحمه الله بين هذه الآثار بأن هنالك تقديرات:

ومنها: التقدير الخولي، وهو: الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يقدر في السماء.

ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم^(١) واستدل له بقوله

الأول: قبل نفخ الروح، وذلك أن الملك الموكيل بالنطفة يكتب ما قدره الله سبحانه على رأس الأربعين الأولى حين يأخذ في الطور الثاني، وهو العلقة.

الثاني: حين نفخ الروح، فيؤمر الملك الذي ينفخ في الروح عند نفخ الروح فيه يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

(١) قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل ص (١٧): «الباب الأول في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرضه على الماء» رواه مسلم، وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم، وقال ص (٢٣): «الباب الثاني في تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وأجالهم وأعاجلهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كنا في جنارة في بقيع الغرقد ففقد وقعدنا حوله... ثم قال: مامنكم من أحد مامن نفس منفوسه إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإنما قد كتب شفقة أو سعيدة، قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلأ نمكث على كتابتنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ: «فَلَمَا مَنْ أَعْطَيْنَا وَاتَّقِنَا... إِلَى قُولِهِ الْعَسْرِي».

- رواه البخاري ومسلم - ثم ذكر ابن القيم أحاديث منها: ما رواه هشام بن حكيم بن حزام «إن رجلاً قال: يا رسول الله أتبدأ الأعيال؟ أم قد مضى القضاء؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْرِجُ ذُرِيبَةَ آدَمَ مِنْ ظَهِيرَةِ أَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِكُفْيَهِ، فَقَالَ: هُؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَهُؤُلَاءِ لِلنَّارِ» - رواه أحمد وحسنه في المجمع ١٨٧/٧ - .

وقال ص (٥١): «الباب الرابع: في ذكر التقدير الثالث والجنيين في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله، وسائر ماليقاه... عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا =

تعالى : ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأنه ﴾^(١) فهو كل يوم يغنى فقيراً، ويُفقر غنياً، ويُوجد معدوماً، ويُعدم موجوداً، ويبسط الرزق وبقدرته، وينشئ السحاب والمطر وغير ذلك .

فإن قيل : هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره ؟

الجواب : لا ينافيه ، لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله ، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام ، وقالوا له : إن في الشام طاعون يفتت الناس ، فجمع الصحابة وشاورهم فقال بعضهم : نرجع فنعلم على الرجوع فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح فقال :

= رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله إليه الملك فيتفتح في الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشفتي أو سعيد » متفق عليه .

وقال ص (٥٩) : « الباب الخامس : في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر . قال تعالى : ﴿ حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنما نتنزّل بهن فيها بفرق كل أمر حكيم ﴾ وهذه ليلة القدر قطعاً ، لقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . . . عن ابن عباس قال : « يكتب من أم الكتاب ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحاج يقال : حج فلان وحج فلان . »

وقال ص (٦١) : « الباب السادس في التقدير الخامس اليومي ، قال تعالى : ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأنه ﴾ . . . وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقابل : من شأنه أن يحيي ويميت ، ويرزق ويمعن ، وينصر ويعز ويدل ، ويفك عانيا ، ويشفي مريضا ، ويجيب داعيا ، ويعطي سائلا ، ويتوب على قوم ، ويكشف كربلا ، ويغفر ذنباً ، ويضع قوماً ويُضيّع آخرين ، دخل كلام بعضهم في بعض » .

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٢٩ .

.....
يا أمير المؤمنين أفرارا من قدر الله؟ . فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله^(١).

يعني أن مضينا في السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله ، ثم ضرب له مثلاً
قال:رأيت لو كان لك غنم وعندي وادي له شعيبان إحداهما مخصبة والأخرى
مجده فإن رعيت المخصبة بقدر الله ، وإن ذهبت إلى المجده بقدر الله .
فإنسان وإن كان يفعل فإنما يفعل بقدر الله .

فإن قيل : إذا تقرر ذلك لزم أن يكون العاصي معدوراً بمعصيته؛ لأنَّه
عصى بقدر الله؟ .

أجيب : أن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر:
أما بطلانه بالشرع : فقد قال الله تعالى : «سيقول الذين أشركوا لوشاء
الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء» فهم قالوا هذا على سبيل
الاحتجاج بالقدر على معصية الله ، فرد الله عليهم بقوله : «كذلك كذب الذين
من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا» ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله يأسه ،
وقال تعالى : «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن
أنتم إلا تخربون»^(٢) وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على
معصية الله ، وقال ، تعالى : «رسلاً مبشرين ومنذرين لثلا يكون للناس على
الله حجة بعد الرسل»^(٣) فابطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل ، ولو كان
القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل ، لأنَّ القدر باق حتى مع إرسال الرسل ،

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب ما يذكر في الطاعون ٤١/٤ ، ومسلم في السلام ، باب
الطاعون والطيرة ٤/١٧٤٠ عن ابن عباس ، رضي الله عنه .

(٢) سورة الأنعام ، الآية: ١٤٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية: ١٦٥ .

.....

وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله .
وأما بطلانه بالنظر : فنقول : لوفرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها
كذا وكذا ، ووظيفة أخرى أقل منها فإنك سوف تطلب الأعلى ، فإن لم يكن
طلبت الأخرى فإذا لم يحصل له شيء منها فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم
المساعدة إليها مع أول الناس .

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها ، وهي كثيرة على
باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات ، وصلاة الجمعة أفضل من صلاة
الفرد بسبعين وعشرين درجة ، فلماذا ترك هذه الوظائف وتحجج بالقدر ، وتذهب
إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة ، فكيف لا تتحجج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا
وتحجج به فيما يتعلق بأمور الآخرة ! .

مثال آخر : رجل قال : عسى ربى أن يرزقني بولد صالح عالم عابد ، وهو
لم يتزوج ، فنقول : تزوج حتى يأتيك فقال : لا ، فلا يمكن أن يأتيه الولد ، لكن
إذا تزوج فإن الله بمشيتي قد يرزقه الولد المطلوب .

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، ولا يعمل لذلك
فلا يمكن أن ينجو .

بطل الاحتجاج بالقدر على معاشي الله بالأثر والنظر ، وهذا قال النبي
- ﷺ - كلمة جامعة مانعة نافعة : «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من
الجنة ومقعده من النار . قالوا : يا رسول الله : أفلأ ندع العمل ونتكل ؟ قال :
اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(١) فالنبي - ﷺ - أعطانا كلمة واحدة فقال :
«اعملوا وهذا فعل أمر «فكل ميسر لما خلق له» .

(١) أخرجه البخاري في التفسير/باب فاما من اعطي وانفق ٣٢٤/٣ ، ومسلم في القدر/باب
كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٤/٤٢٩ - ٢٠٤٠ عن علي ، رضي الله عنه .

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١) رواه مسلم.

وللإيمان بالقبح فوائد عظيمة منها :

- ١ - أنه من تمام توحيد الربوبية.
- ٢ - أنه يوجب صدق الاعتماد على الله، عز وجل؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.
- ٣ - أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصييك.
- ٤ - منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي من عليه وقدره له. قال، تعالى: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكبلاً تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»^(٢) أي فرح بطر وإعجاب بالنفس.
- ٥ - عدم حزنه على ما أصابه، لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.
- ٦ - أن الإنسان يفعل الأسباب لأنه يؤمن بحكمة الله عز وجل، وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطة بأسبابها.

قوله: «والذي نفس ابن عمر بيده»:

الصيغة هنا قسم، جوابه جملة «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/باب بيان الإيمان والإسلام ١/٣٦.

(٢) سورة الحديد، الآيات: ٢٢-٢٣.

أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

وابن عمر - رضي الله عنه وعن أبيه - ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل لهم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بکفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جواباً على ما نقل عنه من أن أناساً من البصرة يقولون: إن الله - عز وجل - لم يقدر فعل العبد وأن الأمر أنت، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه، فابن عمر حكم بکفرهم اللازم من قوله: «ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر، لقوله تعالى: «وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله» ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: «إِيمَانُهُمْ أَنْ تُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنُنَّ بِالْقَدْرِ خَيْرٌ وَشَرٌّ» فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بوحد من هذه الستة فأنت كافر بالجميع؛ لأن الإيمان كلُّ لا يتجزأ، كما قال تعالى: «وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِيَعْصِيْنَ وَنَكْفُرُ بِيَعْصِيْنَ وَيَرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكُوكُلُّهُمَا سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا»^(١).

ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ - جعل الإيمان مبنياً على هذه الأركان الستة وإذا فات ركن من الأركان سقط البنيان، فإذا انكر الإنسان شيئاً واحداً من هذه الأركان الستة صار كافراً، وإذا كان كافراً فإن الله لا يقبل منه.

قوله: «أن تؤمن بالله»:

والإيمان بالله - عز وجل - يتضمن أربعة أمور:

١ - الإيمان بوجوده.

٢ - وبربوبيته.

٣ - وبالوهيته.

(١) سورة النساء، الآيات: ١٥٠ - ١٥١.

٤ - وبياناته وصفاته.

فمن أنكر وجود الله فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصاً بها فهو غير مؤمن بالله. قوله: «وملائكته»:

والإثبات بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١ - الإثبات بوجودهم.

٢ - الإثبات بما علمنا اسمه منهم.

٣ - الإثبات بأفعالهم.

٤ - الإثبات بصفاتهم.

فممن علمتنا صفاتة جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خلقها عليها له ستةمائة جناح قد سد الأفق، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جداً، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحياناً بصورة بشر، فأتى مرة بصورة دحية الكلبي، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي - ﷺ - جلة المعلم المتأنب^(١).

قوله: «وكتبته»:

والإثبات بالكتب يتضمن ما يلي:

١ - الإثبات بأنها حق من عند الله.

٢ - بتصديق أخبارها.

٣ - التزام حكمها ما لم تنسخ، وعلى هذا فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوبة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

(١) أخرجه مسلم في الإثبات/باب بيان الإثبات ٣٦ عن ابن عمر عن أبيه، رضي الله عنهما.

وكذلك لا يلزمها العمل بها نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوبة.

٤ - وكذلك نؤمن بما علمناه معينا منها، مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور وصحف إبراهيم وموسى.

٥ - ونؤمن بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًاٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾^(١) وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ﴾^(٢) وقال عن يحيى كذلك^(٣).
قوله: «أرسله»:

والإيهان بالرسل يتضمن ما يلي:

١ - أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدوقون.

٢ - ونؤمن بها صحة عبئهم من الأخبار، وبها ثبت عنهم من الأحكام ما لم تنسخ.

٣ - ونؤمن بأعيان من علمانا أعيانهم، وما لم نعلمه فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله - سبحانه وتعالى - أرسل لكل أمة رسولاً، تقوم به الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿رَسُلًاٰ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَنْ لَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةٌ بَعْدَ الرَّسُلِ﴾^(٤).

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معدورون؛ لأنهم يقولون يا ربنا ما أرسلت إلينا رسولاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا هَلْكَتُهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ﴾

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٠.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَّاتِّنِهِ الْحُكْمُ صَبِيًا﴾ سورة مريم، الآية:

.١٢

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فتبين آياتك من قبل أن ننزل ونخزى ^(١)
فلا بد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: «على فترة من الرسل» ^(٢) يدل على أنه فيه فترة،
فهل قامت عليهم الحجة؟ .

الجواب: أن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة،
وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا مثل ما جاء في الحديث الصحيح في
مسلم: «إن الله نظر إلى أهل الأرض عرיהם وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل
الكتاب» ^(٣) وكما قال تعالى: «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون
عن الفساد في الأرض إلا قليلاً من أنجينا منهم» ^(٤) .

قوله: «واليوم الآخر»:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر
الإيمان بكل ما أخبر به النبي - ﷺ - ما يكون بعد الموت، ذكر هذا في العقيدة
الواسطية وهو كتاب مختصر لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه ^(٥) .

وعلى هذا فالإيمان بفتنة القبر وعداته ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالتفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة
عراة غرلاً ^{بها} من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين بالصحف والصراط

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة/باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ٢١٩٧ من
حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٦.

(٥) الواسطية ص (٢٣٢) مع التنبهات السنّية.

.....

والخوض والشفاعة كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.
ومنه ما هو معلوم بالقرآن ، ومنه ما هو معلوم بالتواتر ، ومنه ما هو معلوم
بالأحاديث النبوية لكن كل ما صحت به الأخبار عن رسول الله - ﷺ - من أمر
اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله : «وتؤمن بالقدر خيره وشره» :

هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم فكأنه
مستقل برأسه .

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله - عز وجل - للأشياء كلها سواء
ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله - عز وجل - قدرها وكتبها عنده
قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا
بعد علم ، فالعلم سابق على الكتابة ، ثم إنه ليس كل معلوم الله - سبحانه
وتعالى - مكتوب ، لأن الذي كتب إلى يوم القيمة ، وهناك أشياء بعد يوم القيمة
كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله ، عز وجل ، ولكنه لم يرد في الكتاب
والسنة أنها مكتوبة .

وهذا القدر قال بعض العلماء إنه سر من أسرار الله ، وهو كذلك لم يطلع
الله عليه أحدا ، لا ملائكة مقربا ولا نبيا مرسلا ، إلا ما أوحاه الله - عز وجل - إلى
رسله ، وإنما فإنه سر مكتوم . قال تعالى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ
غَدَاءً»^(١) وإذا قلنا: إنه سر مكتوم ، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي
بالقدر على معصيته؛ لأننا نقول لهذا الذي عصى الله - عز وجل - وقال هذا
مقدر على ، ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت؟ أفلأ كان الأجر

(١) سورة لقمان ، الآية: ٣٤ -

بك أن تقدر أن الله - تعالى - قد كتب لك السعادة وتعلم بعمل أهل السعادة؛ لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك قال تعالى : **﴿فَلِمَا زَاغُوا أَرَاغُوا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ﴾**^(١) فالقول تطمئن له النفس ، بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس .

وقوله : «خيره وشره» :

الخير: ما يلائم العبد . والشر:

ما لا يلائمه .

والمعلوم أن المقدورات خير وشر فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير والفقير شر، والصحة خير والمرض شر، وهكذا .

وإذا كان القدر من الله فكيف يقال الإيمان بالقدر خيره وشره؟ وهل الشر ينسب إلى الله؟

الجواب : الشر لا ينسب إلى الله قال **﴿وَالشَّرُ لَيْسَ إِلَيْكُ﴾**^(٢) فلا ينسب إليه الشر لا فعلا ولا تقديرًا ولا حكمة، بل الشر في مفهومات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي :

ولذلك حينما يشتكي وحتاج إلى كي تقويه بالنار، فالمفعول شر لكن الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدر الله لا يكون شرًا محسناً بل في عمله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر صار ذلك شرًا بالنسبة له، أما لغيره من يتعظ بما صنع الله به فيكون خيرا . قال - تعالى - في

(١) سورة الصاف، الآية: ٥.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).

القرية التي اعتدت في السبت: ﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعذة للمتقين﴾^(١).

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تُكثِّر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة ويساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنبا ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيرا منه قبلها؛ لأنَّه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من علبهها، فهذا آدم عليه - الصلاة والسلام - لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهدایة إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم وقال: ﴿ربنا ظلمتنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحنا لنكونن من الخاسرين﴾^(٢) فقال تعالى: ﴿ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى﴾^(٣).

والثلاثة الذين خلقوا بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم حتى ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما راحت وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم - صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه - ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً، وصارت حافthem أيضاً، بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعيانهم قال تعالى: ﴿وعلى ثلاثة الذين خلقوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما راحت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجاً من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾^(٤) وهذه آيات عظيمة تتلى في محارب المسلمين ومنابرهم إلى يوم

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

القيامة، وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ههنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخبرية والشربية ليست باعتبار قضاء الله، سبحانه وتعالى، فقضاء الله تعالى كلّه خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المضي، أما قضاء الله نفسه فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: «الخير بيديك، والشر ليس إليك»^(١) ولم يقل والشر بيديك، فلا يناسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه فلا يناسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء، فالله لا يريد بقضاء الشر شرًا، لكن الشر يكون في المضي، وقد يلائم الإنسان، وقد لا يلائم، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية فهذا في المضي، ومع ذلك فهو وإن كان شرًا في عمله فهو خير في عمل آخر، ولا يمكن أن يكون شرًا مخصوصاً، حتى المضي على كونه شرًا ليس شرًا مخصوصاً، بل هو شر من وجه خيرٍ من وجهه، أو شر في عمل خيرٍ في عمل آخر.

ولنضرب لذلك مثلاً: الجدب والفقير هذا شر، لكنه خير باعتبار ما يتبع عنه قال تعالى: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليديقهم بعض الذي عملوا - وليس كلّه - لعلهم يرجعون»^(٢) والرجوع إلى الله - عز وجل - من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير ويتحقق خيراً كثيراً، فالم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كلّه ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، وهذا قال: «لعلهم يرجعون» وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله - عز وجل - واشتغلوا بالمال فإذا أصيبوا بفقر رجعوا إلى الله وعرفوا أنهم ضالّون، فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر.

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١).

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

وعن عباد بن الصامت أنه قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الإيهان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن

كذلك قطع يد السارق لاشك أنه شر عليه لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له فلان قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير في غير السارق فإن فيه ردعًا من أراد أن يسرق، وفيه أيضاً حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، وهذا قال بعض الزنادقة :

يد بخمس مئين عسجد وديت
ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له
ونستجير بمولانا من النار
لكته أجيبي في الرد عليه رداً مفاحماً فقيل فيه :

قل للمعري عار أيما عاري
جهل الفتى وهو من ثوب التقى عاري
يد بخمس مئين عسجد وديت
لكتها قطعت في ربع دينار
حایة المال فافهم حکمة الباري
حایة النفس أغلاها وأرخصها

قوله : «أنه قال : لابنه : يا بني» :

أفاد عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهلهم، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال : «يا بني» وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله : «لن تجد طعم الإيهان» :

هذا يفيد أن للإيهان طعماً كما جاءت به السنة، وطعم الإيهان ليس كطعم الأشياء المحسوسة، فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتي بعدها طعام آخر أزاحها لكن طعم الإيهان يبقى مدة طويلة حتى أن الإنسان أحياناً يفعل عبادة في صفاء

ليصييك . سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: وماذا أكتب؟ قال: «اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»^(١).

وحضور قلب وخشوع الله ، عز وجل ، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة ، فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة . وهذا الطعم .

قوله: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»:
قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني هذا تحصيل حاصل ، لأن الذي أصاب الإنسان أصابه ، فلابد أن نعرف معنى هذه العبارة ، فتحمل هذه العبارة على أحد معندين أو عليهما جيعاً:
الأول: أن المعنى ما أصابك أي ما قدر الله أن يصييك ، فعبر عن التقدير بالإصابة ؛ لأن ما قدر سوف يقع ، فما قدر الله أن يصييك لم يكن ليخطئك منها عملت من أسباب .

(١) أخرجه أبو داود في السنة / باب في القدر ٤/٧٦ ، وفيه حبيش بن شريع ، وهو مقبول .
ومن طريق آخر أخرجه الترمذى في القدر ٦/٣٢٥ ، والطبالسى (٥٧٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٥) وفي عبد الواحد بن سليم .
ومن طريق آخر أخرجه ابن أبي عاصم (١٠٤) في السنة ، والأوائل (٢) .
وفيه يقية بن الوليد ، وعماوية بن سليم .
ومن طريق آخر أخرجه أحد ٥/٣١٧ ، وابن أبي عاصم (١٠٧) ، والأجرى ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، وفيه أبوبن زياد الحمصى .
وآخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (١٠٣) وفيه ابن همزة والحديث صححه الألبانى كما في تعليقه على المشكاة ١/٣٤ .

الثاني: ما أصابك فلا تفكّر أن يكون خطئك، فلا تقل لو أني فعلت كذا ما حصل كذا، لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئاً وأيا كان فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلابد أن يصبه، ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيباً للإنسان فإنه لن يمنعه ويرفعه شيء فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبداً.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للتزهّة فدب بعض الأولاد إلى بركة عميقه فسقط ففرق فهات فلا يقول: لو أني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور على ما جرت عليه ولا يمكن أن تتغير فما أصابك لم يكن ليخطئك فحيثما يطمئن الإنسان ويرضى ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان، فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحيثما يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيراً لكيلاً تأسو على ما فاتكم ولا تفرحوا بها أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور»^(١)، فانت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك ذقت حلاوة الإيمان وأطمأننت واستقر قلبك وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير ولهذا دأبنا يا ذن الله يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة فتجده يعمل أعمالاً لم يكن من عادته أن يفعلها حتى يصل إلى ما أراد الله، عز وجل، مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

(١) سورة الحديد، الآيات: ٢٢ - ٢٣.

قوله: «وما أخطاك لم يكن ليصييك»: نقول فيه مثل الأول يعني ما قدر أن يخطئك فلن يصييك فلو أن أحداً سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله هذا الموسم فلما وصل وجد أن الموسم قد فات نقول له: ما أخطاك من هذا الربح الذي كنت تدع له لم يكن ليصييك منها كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصييك؛ لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: «سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن أول ما خلق الله القلم»:

القلم: بالرفع والنصب، وهي مروية بالوجهين.
فعل رواية الرفع يكون (القلم) خبر «إن»، ويكون المعنى أول ما خلق الله القلم، لكن ليس من كل المخلوقات كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية (النصب فإن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب. فقال رب: وما أكتب)، يكون خبر «إن» محنوفاً أو: (قال له اكتب)، وتكون الفاء زائدة، ويكون المعنى أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له، يعني خلقه ثم أمره أن يكتب وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع يشكل، هل إن أول المخلوقات كلها هو القلم؟ الجواب لا، لأننا لو قلنا إن القلم أول المخلوقات وأنه أمر بالكتابة عندما خلق لكننا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله - عز وجل - خلق أشياء عظيمة وكثيرة قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله - عز وجل - لأن الله - عز وجل - لم يزل ولا يزال خالقاً، وعلى هذا فيكون: إن أول ما خلق الله القلم، ويحتاج إلى

.....
تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله - تعالى - له خلوقات عظيمة قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم : وتأويله : أن المعنى : أن أول ما خلق الله القلم مما يتعلّق بما نشاهده فقط من المخلوقات كالسموات والأرض .. فهي أولية نسبية أي بالنسبة لخلق السموات والأرض وقد قال ابن القيم في نونيته :

والناس مختلفون في القلم الذي كُتبَ القضاء به من الدِيَان
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلاء المدايني
والحق أن العرش قبل ؛ لأنَّه قبل الكتابة كان ذا أركان .
قوله : «فقال : له اكتب» :

القاتل هو الله ، عز وجل ، يخاطب القلم ، والقلم جاد ، لكن كل جاد أمام الله مدرك وعاقل ومريد ، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت : «قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتها طوعاً أو كرها» أي لا بد أن تنقاد لأمر الله طوعاً أو كرها فكان الجواب : «قالنا أتينا طائعين»^(١) إذا خوطبت السموات والأرض وأجابت ودل قوله : «طائعين» على أن لها إرادة وأنها تطيع بكل شيء أمام الله فهو مدرك ومريد ومحبب ويمثل .

قوله : «قال : اكتب قال : رب وماذا أكتب؟» :

«ما» اسم استفهام ، و «أكتب» فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة .
أما إذا لم تلغ «ما» فنقول : «ما» اسم استفهام مبتدأ ، و «الذى» خبره ،

(١) سورة فصلت ، الآيات : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

.....

أي : ما الذي أكتب . والعائد على الموصول ممحوف ، تقديره : ما الذي أكتب .
هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على الإنسان في طلب استبانته ،
أولاً حرج على المأمور في طلب استبانته ، وعلى هذا فإننا نقول : إذا كان الأمر
بج马上 فإن طلب استبانته لا يكون معصية ، فالقليل لا شك أنه يمثل لأمر الله
- سبحانه وتعالى - ومع ذلك قال : « رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء »
حتى تقوم الساعة » فكتب المقادير .
وهل القلم يعلم الغيب ؟

الجواب : لا ، لكن الله أمره ، ولابد أن يمثل لأمر الله ، فكتب هذا
القلم الذي يعتبر جماداً بالنسبة لفهمنا كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه ، لأن
الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على حسب مراد الله فلهذا قال : « اكتب
مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » :
و« كل » من صيغ العموم فنعم كل شيء ، مما يتعلق بفعل الله أو بفعل
المخلوقين .

وقوله : « حتى تقوم الساعة » :
الساعة هي القيامة ، وأطلق عليها لفظ الساعة ، لأن كل شيء عظيم من
الدواهي له ساعة ، يعني الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاههم
حين تقوم الساعة وذلك عند النفح في الصور .

قوله : « يا بني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من مات على غير
هذا » : المشار إليه قوله : « إن الله كتب مقادير كل شيء ... » .

قوله : « فليس مني » :
تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر ، والرسول - ﷺ - بريء من كل كافر .
ويستفاد من هذا الحديث :

وفي رواية لأحمد: «أن أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له:
اكتب فجوري في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة»^(١).

١ - ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بني».
٢ - أنه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلةها، وذلك أنه لم يقل إن الله
كتب . . وسكت ولكنه أنسد إلى الرسول ﷺ فمثلاً إذا أردت أن تقول
لابنك سم الله على الأكل، واحد الله إذا فرغت، فإنك إذا قلت ذلك يحصل
به المقصود، لكن إذا قلت سم الله على الأكل، واحد الله إذا فرغت لأن النبي -
ﷺ - يقول: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمله عليها، ويشرب
الشربة ويحمله عليها»^(٢)، إذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:
الأولى: أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثاني: أن تربيه على محنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول -
ﷺ - هو الإمام المتبوع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثيرة ما
يغفل عنها فاكث الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه
التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنّة.

قوله: «وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم فقال له:
اكتب

نقول فيه ما قلنا فيها سبق، ولكنه يفيد أمراً زائداً على ما سبق وهو قوله:
«فجوري في تلك الساعة»: فإنه صريح في أن القلم امثل، والحديث الأول

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣١٧/٥ وابن أبي عاصم (١٠٧).
وفيه أبوب بن زياد الحمصي لم يوثقه غير ابن حبان كما في تعجيل المتفق ص (٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعا/باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب ٤/٢٩٥ عن
أنس، رضي الله عنه.

يقول: «اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»^(١) وليس فيه أنه كتب، ولكننا نعلم أنه سيكتب، إلا أن هذا فيه التصریح بأنه كتب فجری في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة، فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله - سبحانه وتعالى - كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا موجود في القرآن الكريم في قوله تعالى: «ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير»^(٢) وقال تعالى: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها» أي من قبل أن نبرأ الخليقة «إن ذلك على الله يسير»^(٣).

قوله: «إلى يوم القيمة»:

هو يوم البعث، وسمى يوم القيمة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين كما قال تعالى: «ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين»^(٤).

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم لقوله تعالى: «إنا لننصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»^(٥).

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالى: «ونضع الموازين القسط ليوم القيمة»^(٦).

(١) سبق ص (١٨١).

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٤) سورة المطففين، الآيات: ٦، ٥.

(٥) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار». وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصييك ولو مت على غير هذا لكونك من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن الإيمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ» حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه^(١).

قوله: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»: في هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به فإنه يحرق بالنار.

وقوله: «أحرقه الله بالنار»: بعد قوله: «فمن لم يؤمن» يدل على أن من أنكر، أوشك فإنه يحرق بالنار، لأن لدينا ثلاث مقامات:
الأول: الإيمان، والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

(١) أخرجه أحد / ١٨٩ ، وأبو داود في السنة/باب في القدر / ٧٥ ، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر / ٢٩ ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص (١٠٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٥) ، والطبراني في الكبير (٤٩٤٠) ، وابن حبان (١٨١٧) ، والخطيب في الموضع ١٨٤ / ١ .

وأخرجه من طريق آخر الأجري في الشريعة ص (١٨٧) .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٨ / ٧ : رواه الطبراني بإسنادين ورجال هذه الطريقة ثقات .

.....
الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحان؛ لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتrepidation يلحق بالإيمان أو بالكفر؟

الجواب: يلحق بالكفر، وهذا قال: «فمن لم يؤمِّن» ودخل في هذا النفي من انكر ومن شك.

وفي قوله: «أحرقه الله بالنار»: دليل على أن عذاب النار حرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتکيفون لها حتى لا يحسون لها بالم، بل هم يحسون بالم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حمر^(١) يعني فحماً أسود. وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: «وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ»^(٢) وفي قوله تعالى: «كُلُّمَا نَضَجَتْ جَلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جَلُودًا غَيْرَهَا لَيَذُوقُوا العَذَابَ»^(٣).

قوله: «في نفسي شيء من القدر»:

لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثاً، صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق ولا سيما أن الرسول - ﷺ - خرج على أصحابه ذات يوم وهو يتكلمون في القدر فغضب النبي - عليه الصلاة والسلام - من ذلك وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا فكف الناس عن

(١) أخرجه البخاري في الرقائق/باب صفة الجنة والنار ١ / ٢٠ ، ومسلم في الإيمان/باب معرفة طريق الرؤية ١ / ١٦٧ - ١٧١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

.....
هذا^(١) حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشبه فلهذا يقول ابن الديلمي : «في نفسي شيء من القدر...»

قوله : «فحذني بشيء لعل الله يذهب من قلبي» :

أي يذهب هذا الشيء ، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض ، وأطباء مرض القلوب هم العلماء ولا سيما مثل الصحابة ، رضي الله عنهم ، كأبي بن كعب ، فلكل داء طبيب .

قوله : «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر» :
هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منه النفقات هم الكفار .

قوله : «حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك» : وقد سبق الكلام على هذه الجملة .

قوله : «ولو مت على غير هذا لكونت من أهل النار» :
مُت بالضم ، لأنها من مات يموت ، وفيه لغة أخرى بالكسر مت كما في قوله تعالى : «ولَمْ يَمُتْ أَوْ قُتْلُمْ»^(٢) في إحدى القراءتين ، وهي على هذه

(١) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : «خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه وهم يختصرون في القدر فكانوا يتفقون في وجهه حب الرمان من العصب فقال : بهذا أمرتم ، أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم» .

آخرجه ابن ماجه في المقدمة / باب في القدر ١/٣٣ ، قال في الروايد : «هذا إسناد صحيح رجال ثقات» ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١١١٩).
وآخرجه أيضاً أحد في المسند - تحقيق شاكر - طريق حاد (٦٨٤٦)، ومن طريق أبي معاوية (٦٦٦٨)، ومن طريق أنس بن عياض عن أبي حازم (٦٧٠٢) وقال أحد شاكر : «إسناد صحيح» .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٨.

القراءة من مات يميت بالباء.

قوله: «على غير هذا لكتن من أهل النار»:

جزم أبي بن كعب - رضي الله عنه - بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار؛ لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن متهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا، فلابد أن يرتدع ولا بد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: «فأتت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك»:

المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصييه، وكل هؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن: فأبي بن كعب من أهل القرآن ومن كتبة القرآن، حتى إن الرسول - ﷺ - دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: «لم يكن...» البينة، وقال: «إن الله أمرني أن أقرأها عليك» فقال: يا رسول الله سباني الله لك قال: نعم فبكى - رضي الله عنه - بكاء فرح أن الله عز وجل سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة»^(١).

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال النبي ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن

(١) أخرجه البخاري في مناقب الانصار/باب مناقب أبي بن كعب ٤٤/٣، ومسلم في فضائل الصحابة/باب من فضائل أبي ١٩١٤/٤ عن أنس رضي الله عنه.

غضا طريا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد»^(١).
وأما زيد بن ثابت فهو أحد كتاب القرآن في عهد أبي بكر، رضي الله
عنه^(٢).

وحذيفة بن الإيمان صاحب السر الذي أسر إليه النبي - ﷺ - بأسماء
المنافقين^(٣).

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه
الأربع.

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو
بالأسماء والصفات؟

الجواب : تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات،

(١) أخرجه أحمد ١/٧، وابن ماجه في المقدمة / فضل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه
١/٤٩، عن أبي بكر وعمر.

وأخرجه أحمد ١/٢٦، ٣٨، وابن سعد ٢/٤٣٢، ٧/٣٥، والحاكم ٣١٨/٣ وصححه
على شرط الشعرين ووافقه الذهبي، عن عمر، رضي الله عنه.
واحد ١/٤٤٥، ٤٥٤، وابن سعد، والطبراني ٢/١٥، والطبراني والبزار كما في جمجم
الزوائد ٩/٢٨٧ عن ابن مسعود، وقال الهيثمي: «وفيه عاصم بن أبي النجود وهو على
ضعفه حسن الحديث وبقية رجال أحد رجال الصحيح، ورجال الطبراني رجال الصحيح
عن فرات بن عبوب وهو ثقة».

والبخاري في التاريخ الكبير ١/٣٦٠ عن عمار بن ياسر، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير/باب «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتكم»
٣/٢٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة / باب مناقب عمار وحذيفة ٣/٣٠ عن أبي الدرداء
رضي الله عنه.

.....
ثم تعلقه بالأساء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضاً ظاهر؛ لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد فلها تعلق بالقدر. فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة : هل اختلف الناس في القدر؟

الجواب : نعم اختلفوا فيه على ثلاث فرق وقد سبق^(١).

(١) انظر ص (١٥٩).

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. **الثانية:** بيان كيفية الإيمان .
الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به. **الرابعة:** الإخبار أن أحدا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

فيه مسائل :

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.
دليله قوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتومن بالقدر خيره وشره» .
الثانية: بيان كيفية الإيمان .
أي بالقدر وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.
ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر؛ لأنه لم يذكرها ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جمعت اختصارا في بيت واحد وهو قوله:
علم كتابة مولانا مشيسته وخلقه وهو إيجاد وتكوين والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.
الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به:
تؤخذ من قوله: «لو كان لأحد هم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» .
ويتفرع منه ما ذكرناه سابقاً بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل .
الرابعة: الإخبار أن أحدا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به:
أي بالقدر، وهو كذلك. وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله ، عز وجل ، ويستريح ، لأنه علم أن هذا أمر لابد أن يقع

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله. السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة. السابعة: براءته بِرَاءَةً من لم يؤمن به.

على حسب المقدور، لا يختلف أبداً «ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، لأن لو تفتح عمل الشيطان»^(١) ولا ترفع شيئاً وقع منها قلت.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله، لأنه ثبت في صحيح البخاري: «كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء»^(٢) وهذا واضح في الترتيب، وهذا كان الصواب بلا شك أن القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخریج الروایتين وأنه على الروایة التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد فهو قبل خلق السموات والأرض فتكون أوليته نسبية.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة، لقوله: «فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة».

وفيه أيضاً من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجihad، وأنه يعقل أمر الله؛ لأن الله وجه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سُئل في الأول وقال: «ماذا أكتب؟»

السابعة: براءته بِرَاءَةً - من لم يؤمن به.

لقوله: «من مات على غير هذا فليس مني» وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من

(١) سبق ص (١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد / باب وكان عرشه على الماء ٤/ ٣٨٧ عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء. **التاسعة:** أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرا مخرجا عن الملة.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

لأن ابن الديلمي يقول: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، بعد أن أتى أبي بن كعب، فدل هذا على أن من عادة السلف سؤال عما يشبه عليهم.

وفيه، أيضاً، مسألة ثانية، وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتبسيط؛ لأن ابن الديلمي سأله عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتبسيط الرخص فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم وهذا من شأن اليهود، فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محسناً وكثر الزنا في أشرافهم غيروا هذا الحد، ولما قدم النبي - ﷺ - المدينة، وزنا منهم رجل بأمرأة قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئاً آخر؛ لأجل أن يتبعوا الرخص.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله - ﷺ - فقط:

لقوله: «كلهم حديثي بمثل ذلك عن النبي ﷺ» وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله زالت الشبهة تماماً، لكن تزييلها عن المؤمن، أما غير المؤمن فلا تنفعه فالله - عز وجل - يقول: «فَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ»^(١) وقال: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةُ رَبِّكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءُهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»^(٢) لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته

(١) سورة يومن، الآية: ١٠١. (٢) سورة يومن، الآيات: ٩٦، ٩٧.

.....

بما جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِمْ»^(١) وهذا لما قالت عائشة للمرأة: «كَانَ يَصِيبُنَا ذَلِكَ - تَعْنِي الْحِيْضُ - فَنُؤْمِنُ بِقَضَاءِ الصُّومِ وَلَا نُؤْمِنُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»^(٢) لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته ملن لم يؤمن لعله يؤمن، وهذا يذكر الله - عز وجل - إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك، فقال في أدلة العقل: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ»^(٣) فهذه دلالة عقلية، فالعقل يؤمن إيماناً كاملاً بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى.

وذكر أدلة حسية منها قوله تعالى: «أَنْكُنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَهُ حِيَّ الْمَوْتَى»^(٤).
فإذاً لا مانع أن تأتي الأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن نقنع الخصم ونطمئن المواقف.

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة فلا مانع أيضاً أن نأتي به للاستدلال على ما نقول من الحق لنلزم الخصم به ونطمئن المواقف، وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبي المعالي الجوني مع الهمذاني حيث إن أبي المعالي الجوني - غفر الله لنا وله - كان يقرر نفي استواء الله على عرشه، فقال له الهمذاني «دعنا من ذكر العرش فيما تقول في هذه الضرورة ما قال عارف فقط

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في الحيض / باب لا تقصي الحائض الصلاة ١٢٠ / ١، ومسلم في الحيض / باب وجوب قضاء الصوم على الحائض ٢٦٥ / ١.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

.....
.....

يالله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فجعل أبو المعالي يضرب على رأسه ويقول حيرني الهمذاني .

فإذاً الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية .

وأشدّها إقناعاً للمؤمن هو الدليل السمعي؛ لأنّه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإنْ ظنه صاحبه حقاً .

باب ما جاء في المصورين

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : «ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقي» .

قوله : باب ما جاء في المصورين : يعني من الوعيد الشديد .
ومناسبة هذا الباب للتوحيد : أن في التصوير خلقا وإبداعا يكون به
المصور مشاركا لله في ذلك الخلق والإبداع^(١) .

قوله في الحديث : «ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقي» ينتهي سند هذا الحديث إلى ، الله عزوجل ، وسمى حديثا قدسيا لقدسنته وفضله على الأحاديث النبوية ، وإذا كان متتهى السند إلى النبي - ﷺ - سمي مرفوعا ، وإذا كان متتهاه إلى الصحابي سمي موقوفا لتوقفه عليه ، وإلى التابعي فمن بعده يسمى مقطوعا ، فعندهنا أربعة أشياء مقطوع ، وموقف ، ومرفوع ، وقدسي ، أعلاها القدسي ثم المرفوع ثم الموقف ثم المقطوع فمثلا إذا نسب الحديث إلى مجاهد فهو مقطوع ، لأن مجاهداً تابعي وإذا نسب إلى ابن مسعود يسمى موقوفا وإذا نسب إلى محمد - ﷺ - فهو مرفوع وهو إما حكمي وإما حقيقي .

وإذا نسب إلى الله - عزوجل - سمي قدسيا لقدسنته .

والبحث في الحديث القدسي هل هو من كلام الله للفظا ومعنى ، أم هو

(١) ولا فيه من المضاهاة بخلق الله ، بل هو منشأ الوثنية ، ولا دخل على القرون قبلنا إنها هو من هذا الباب : لأن صورة المألوف تعظيم ، وإذا ارتسنت في الذاكرة ويفي ذكرها يمر على البصر الناظر إليها من رسماها لابد أن تستولي على قلبه ، وتحل في حلول التعبد له . انظر حاشية ابن قاسم ص (٣٧١) .

.....
من كلام الله عز وجل معنى لا لفظاً . الجواب : الآخر أقرب لما يلي :
أولاً : أنه لا يتعد بلفظه بمعنى أنك لا تتعبد بتلاوته ، فلو كان كلام
الله لفظاً لكان متبعداً بتلاوته كالقرآن .

ثانياً : أنه لو كان من كلام الله لفظاً لجاءت قراءته في الصلاة كالقرآن .
ثالثاً : أنه لو كان من كلام الله لفظاً لكان معجزاً كالقرآن .
رابعاً : أنه لو كان من كلام الله لفظاً لكان أعلى سندًا من القرآن ، لأن
سند القرآن فيه بين الرسول - ﷺ - وبين ربه - عز وجل - جبريل ، وهذا يقوله
الرسول - ﷺ - عن الله مباشرة كما يظهر من لفظه ، ولا يمكن أن يكون
الحديث القدسي أعلى سندًا من القرآن .

وقال بعض أهل العلم : إننا نقول كما قال النبي ﷺ : قال الله ، ولا
نبحث هل لفظه من كلام الله أو من كلام النبي ﷺ .
ولكن القرآن لا شك أنه أعلى من الأحاديث القدسية بالاتفاق ، لأنه
يتعلق به أحكام لا تتعلق بالأحاديث القدسية :

١ - فالقرآن لا يمسه إلا ظاهر ، وعلى هذا لو ألف الإنسان كتاباً كله
أحاديث قدسية لجاز للطاهر وغير الطاهر أن يمسه .

٢ - القرآن لا يقرأه الجنب والحديث القدسي للجنب أن يقرأه .

٣ - القرآن لو أنكر الإنسان منه حرفاً واحداً ما أجمع القراء عليه لكان
كافراً بخلاف الحديث القدسي .

٤ - القرآن لا يصح بيعه على رأي كثير من أهل العلم بخلاف الحديث
القدسى .

قوله : « ومن أظلم » :

« من » اسم استفهام والمراد به النفي ، أي لا أحد أظلم ، وإذا جاء النفي

بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المجرد أو المحض؛ لأنه يكون مشرّباً معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: «ومن أظلم من منع مساجد الله»^(١) وقوله: «ومن أظلم من افترى على الله كذباً»^(٢) وغير ذلك من النصوص؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى أنها مشتركة في الأظلمية، أي: أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

الثاني: أن الأظلمية نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلاً: من أظلم من يشابه أحدها في صنع شيء من ذهب يخلق كخلق الله.

قوله: «يخلق»: حال من فاعل ذهب أي من ذهب خالقاً.

والخلق في اللغة التقدير قال الشاعر:

ولأنك تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى
تفري: أي تفعل، ما خلقت: أي ما قدرت.

ويطلق الخلق على الفعل بعد التقدير وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق فإنه لا يحتاج إلى تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «يخلق كحليقي»: فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤ . (٢) سورة الأنعام، الآية: ٤١ .

فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة) أخر جاه^(١).

قوله: «فليخلقوا ذرة»: اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، قوله تعالى: «فليأتوا بحديث مثله»^(٢) من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي - ﷺ - يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية؛ وذكر الله الذرة لأن فيها روحًا، وهي من أصغر الحيوانات.

قوله: «أو ليخلقوا حبة»: «أو» للتتوسيع أي انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع وليس لها روح.

قوله: «أو ليخلقوا شعيرة»:
يمحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل هذه الشجرة وهي الحبة، ومحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب التنزل من العموم إلى الخصوص.
أو تكون «أو» شكًا من الراوي.

فالله تحدي الخلق إلى يوم القيمة أن يخلقوا ذرة، أو يخلقا حبة أو شعيرة.
فإن قيل يوجد رز أمريكي مصنوع. أجيب: أن هذا المصنوع لا يثبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: «أو ليخلقوا حبة» ثم قال: «أو ليخلقوا شعيرة» لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: «إن

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب نفخ الصور ٤/٨٢، ومسلم في اللباس والزينة/باب تحرير تصوير صورة الحيوان ٤/١٦٧١.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٤.

.....
الله فالق الحب والنوى^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يُخْلِقُوا ذَبَابًا وَلَا اجْتَمَعُوا خَلْقَهُ، مَتَّعَوْنِينَ عَلَيْهِ، وَقَدْ هَيَاوَا كُلُّ مَا عِنْدَهُمْ﴾ وَإِنْ يُسْلِبُهُمُ الْذَّبَابُ شَيْئًا لَا يُسْتَقْذِرُهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ^(٢).

قال العلماء: لو أن الذباب وقع على هذه الأصنام فامتتص شيئاً من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالباً لهم، «ضعف الطالب» أي العابد والمعبد «المطلوب» أي الذباب.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، تحرير التصوير، لأن المصور ذهب بخلق كخلق الله، والتصوير له أحوال:
الحالة الأولى:

أن يصور الإنسان ما له ظل، كما يقولون، أي ما له جسم على هيكل إنسان أو بغير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيها أعلم على تحريمها، فإن قلت إذا صور الإنسان لا مضاهاة خلق الله، ولكن صور عثا، يعني صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضع لصبي ليهدأ به فهل يدخل في الحديث؟ الجواب: نعم يدخل في الحديث، لأن خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة فمتي حصلت ثبت حكمها، وهذا لو أن إنساناً ليس لبساً يختص بالكافار ثم قال أنا لا أقصد التشبيه بهم نقول التشبيه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحداً تشبه

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

.....
بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال ما أردت التشبه قلنا له حصل التشبه .

الحالة الثانية :

أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلويين والتخطيط ، فهذا محرم لعموم الحديث ، وبدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي - ﷺ - إلى بيته فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير ، فوقف وتأثر ، وعرفت الكراهة في وجهه فقالت عائشة رضي الله عنها : ما أذنت يا رسول الله فقال : «إن أصحاب هذه الصور يعبدون يقال لهم أحبوا ما خلقتم»^(١) فالصور بالتلويين كالصور بالتجسيم ، قوله في صحيح البخاري : «إلا رقما في ثوب»^(٢) إن صحت الرواية هذه فالمراد بالاستثناء ما يحمل تصويره من الأشجار ونحوها .

الحالة الثالثة :

أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرین :

فالقول الأول : أنه تصوير وإذا كان كذلك فإن حرفة هذا الفاعل للالة يعد تصويراً إذ لو لا تحريكه إليها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة ، ونحن متفقون على أن هذه صورة فحركتها تعتبر تصويراً فيكون داخلاً في العموم .

القول الثاني : أنها ليست بتصوير ، لأن التصوير فعل المصور وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالألة ، والتصوير من صنع الله .

(١) أخرجه البخاري في اللباس / باب من كره القعود على الصور ٤/٨٢، ومسلم في اللباس / باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٦٩ عن عائشة ، رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق ، ومسلم في الموضع السابق ٣/١٦٦٥ .

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير ثم خرج من هذه الآلة فإن رسم الحروف من الكتاب الأول لا من المحرك بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعاً ولا مخططاً، ولكن يبقى النظر هل يحل هذا الفعل أو لا؟

إذا كان لغرض حرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه بالذكرى سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه فإن ذلك حرم ولا يجوز، لما فيه من اقتناص الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه فهذا يكون مباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره وقال صورني فصوريه، فإن هذا المصور لا نقول إنه داخل في الحديث، أما إذا قال صورني لغرض آخر غير مباح صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحالة الرابعة :

أن يكون التصوير لما لا روح فيه وهذا على نوعين:

النوع الأول: إن يكون مما يصنعه الأدمي فهذا لا يأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة مثل أن يصور الإنسان سيارته فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الأدمي وإنما يخلقه الله فهذا نوعان: نوع نامي، ونوع غير نامي، فغير النامي كالجبال والأودية والبحار والأنهار فهذا لا يأس بتصويرها بالاتفاق.

وَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أَشَدُ النَّاسَ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يَضَاهَئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»^(١).

أما النوع الذي ينمو فاختلاف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله، عز وجل، والحديث عام «وَمَنْ أَظْلَمُ مَنْ ذَهَبَ بِخَلْقِ كَحْلَقِي»، ولأن الله - عز وجل - تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة^(٢)، والحبة والشعيرة ليس فيها روح لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا فيكون تصويرها حراما وقد ذهب إلى هذا مجاهد، رحمه الله، أعلم التابعين بالتفسير وقال إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟ الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله:

أولاً: العموم لقوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مَنْ ذَهَبَ بِخَلْقِ كَحْلَقِي».

ثانياً: قوله: «أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي:
أن قوله: «أَحْيِيْوْا مَا خَلَقْتُمْ»^(٣) وقوله: «كَلْفٌ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحُ»^(٤) يدل على أن المراد الحيوان ذو الروح.

قوله: «أشد»: الكلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: «الناس»: للعموم.

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب ما وطى، من التصاوير ٤/٨٢، ومسلم في اللباس/باب تحرير تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٦٨.

(٢) سبق ص (١٩٩).

(٣) سبق ص (٢٠٤).

.....

وقوله : «عذابا»: تخص الناس ، يعني أشد الناس الذين يعذبون عذابا .
وعذابا تمييز مبين للمراد بالأشد ، لأن التمييز كما قال ابن مالك :
اسم بمعنى «من» مُبيِّن نكرة يُنصَبْ تمييزا بما قد فُسرَه^(١)
والعذاب يطلق على العقاب ، ويطلق على ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن
عقابا ، فمن الأول قوله تعالى : «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب»^(٢) أي
العقوبة والنكال ، لأنه يدخل النار والعياذ بالله «يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم
النار»^(٣) ، ومن الثاني قول النبي ، عليه الصلاة والسلام : «السفر قطعة من
العذاب»^(٤) وقوله : «الميت يعذب بالنياحة عليه»^(٥) .
قوله : «يوم القيمة» :

هو اليوم الذي يبعث فيه الناس ، وسبق وجه تسميته بذلك .
وقوله : «أشد» مبتدأ «والذين يشاهدون» خبره . ومعنى يشاهدون : أي
يشاهدون .

بخلق الله : أي بمخلوقات الله ، سبحانه وتعالى .
والذين يشاهدون بخلق الله هم المصورون فهم يشاهدون بخلق الله
سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية ، فالجسمية أن يصنع صورة

(١) ألفية ابن مالك ص (٣١) .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٤٦ .

(٣) سورة هود ، الآية : ٩٨ .

(٤) أخرجه البخاري في العمر/باب السفر قطعة من العذاب ١/٥٤٥ ، ومسلم في الإمارة/باب
السفر قطعة من العذاب ٣/١٥٢٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز/باب ليس منا من شق الجحوب ١/٣٩٨ ، ومسلم في
الإيمان/باب تحريم ضرب الخدود ١/٩٩ عن عمر رضي الله عنه .

.....
بجسمها، والوصفيّة أن يصنع صورة ملوّنة؛ لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع هذا التلوين الذي يكون وصفاً لخلق الله، عز وجل.

هذا الحديث يدل على أن المصورين يعبدون، وأنهم أشد الناس عذاباً وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله، عز وجل، وليس الحكمة كما يدعى كثيرون أنهم يصنّعونها لتعبد من دون الله، فذلك شيء آخر فمن صنع شيئاً ليعبد من دون الله فإنه حتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقال عبدوها دخل في التحرير، لقوله تعالى: «وَلَا تَعَاوِنُوا عَلَىٰ إِثْمٍ وَالْعَدْوَانِ»^(١)، لأنه أعاد على الإثم والعدوان.

وقوله: «يضاهُون» هل الفعل يشعر بالنية، أو نقول المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب الثاني: لأن المضاهاة حصلت سواء نوى أم لم ينو، لأن العلة هي المشابهة وليس العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرى مثلاً وما أشبه ذلك. نقول هذا حرام، لأنه متى حصلت المشابهة ثبت الحكم، لأن الحكم يدور مع عنته كما قلنا فيمن لبس لباساً خاصاً بالكافر إنما يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال إنه لم يقصد المشابهة نقول لكن حصل التشبيه، فالحكم مقرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم.

ف يستفاد من الحديث:

- ١ - تحريم التصوير وأنه من الكبائر لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة منه المضاهاة بخلق، الله عز وجل.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

٢ - وجوب حياة جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله ، عز وجل ، لقوله : «يُضاهئون خلق الله» ومن أجل هذا حرم الكبر، لأن فيه منازعة للرب ، عز وجل ، وحرم التعاظم على الخلق ؛ لأن فيه منازعة للرب سبحانه وتعالى ، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع ليضاهي خلق الله ، فيه منازعة لله - عز وجل - في ربوبيته في أفعاله وملائكته ومخلوقاته ومصنوعاته فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية .

قوله : «أشد الناس عذابا» :

فيه إشكال لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنبا كالشركين والكافر ، فيلزم أن يكونوا أشد عذابا ، وقد أجب عن ذلك بوجوه :

الأول: أن الحديث على تقدير «من» أي من أشد الناس عذابا ، بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ : «إن من أشد الناس عذابا» .

الثاني: أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركونهم ، بل يشاركونهم غيرهم قال تعالى : «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب»^(١) ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط ، فكيف يسوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟ .

الثالث: أن الأشدية نسبية يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويدعونها أشدتهم عذابا الذين يضاهئون بخلق الله ، وهذا أقرب .

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه ، ولم أمر من قال بهذا ، ولو قيل بهذا سلمتنا من هذه الإيرادات ، وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ : «أشد الناس عذابا يوم القيمة الذين يضاهئون بخلق الله» .

(١) سورة غافر ، الآية : ٤٦ .

ولهمَا عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُل مصوّر في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنّم»^(١) ولهمَا عنه مرفوعاً: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفع فيها الروح وليس بنافع»^(٢).

قوله: «كُل مصوّر في النار»:

كُل: من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صور الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار.

قوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفس»: الحديث في مسلم ولفظه « يجعل» وعلى هذا تكون «نفساً» بالنصب.

قوله: «يعذب بها»: كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفع فيها الروح وليس بنافع.

وقوله: «كُل مصوّر في النار»:

هذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصوّر الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبداً، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها.

وقوله: «بكل صورة صورها»:

(١) أخرجه البخاري في البيوع/باب بيع التصاوير ١٢٠ /٢، ومسلم في اللباس/باب تحريم تصوير صورة الحيوان ١٦٧١ /٣ -

(٢) أخرجه البخاري في اللباس/باب من لعن المصوّر ٨٣ /٤، ومسلم في الموضع السابق ١٦٧١ /٣

ولمسلم عن أبي الهجاج قال : قال لي علي «ألا أبعثك على ما بعثني
عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمسها ، ولا قبراً مشرفاً إلا
سويته»^(١) .

يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة ، فإنه يجعل
له في النار عشر صور يقال له : انفع فيها الروح ، وظاهر الحديث أنه يقى في
النار معذباً حتى تنتهي هذه الصور.

قوله : «كُلْفَ» :

أي ألزم ، والمكْلَفُ له هو الله ، عز وجل.

قوله : «وَلِيُسْ بَنَافِخَ» :

أي كلف بأمر لا يمكن منه زيادة في تعذيبه ، وعذب بهذا الفعل ليذوق
جزاء ما عمل ، وبهذا تزداد حسرته وأسفه حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه
راحة له إما باكتساب أو إرضاء صاحب أو إبداع صنعة.

قوله : «عن أبي الهجاج» : هو من التابعين.

قوله : «قال لي علي» : هو علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه.

قوله : «ألا أبعثك» : البعث : الإرسال بأمر مهم كالدعوة إلى الله قال ،
تعالى : «ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً»^(٢) .

قوله : «علي ما بعثني» .

يمحتمل أن تكون «علي» ظاهرها للاستعلاء ، لأن المعمود يمشي على ما
بعث عليه ، كأنه طريق له وهذا هو الأولى ؛ لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعانى
 فهو أولى باللفظ ، ومحتمل أن «علي» بمعنى الباء أي بما بعثني عليه.

(١) أخرجه مسلم في الجنائز / باب الأمر بتسوية القبر ٢/٦٦٦.

(٢) سورة النحل ، الآية : ٣٦.

.....
وقد بعث النبي - ﷺ - عليا إلى اليمن، وقدم على النبي - ﷺ - وهو في
مكة في حجة الوداع^(١).
قوله: «أن لا تدع»:

«أن» مصدرية، «لا» نافية، «تدع» منصوب بأن المصدرية وهي بدل
بعض من كل من «ما» في قوله: «على ما بعثني» لأن النبي - ﷺ - بعث علي بن
أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا ما بعثه النبي - ﷺ -.
قوله: «صورة»: نكارة في سياق النفي فنعم.

ووجهور أهل العلم: أن المحرم هو تصوير الحيوان فقط لما ورد في
الصحيح من حديث جبريل أن النبي - ﷺ - قال: «فمر برأس التمثال فليقطع
حتى يكون كهيئة الشجرة»^(٢).

وقال مجاهد: إن الشجر المشر يحرم أن يصور لقوله تعالى في الحديث
القدسى: «فليخلقو حبة أو ليخلقو شعيرة»^(٣).

قوله: «إلا طمسها»:
إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالها، وإن كانت تمثلاً
فإنه يقطع رأسه كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على
وجهه حتى لا تبين معالله، فالطمس مختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تمثلاً
من دون الله أو لا.

(١) أخرجه البخاري في المغازي/باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن
١٦٢/٣، ومسلم في الحجج/باب بيان وجوه الإحرام ٨٨٣/٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠٥/٢، وأبو داود في اللباس/باب في الصور ٤/٣٨٨، والترمذى في
الأدب/باب ما جاء أن الملائكة لا تدخل بيتهما فيه كلب ولا صورة ٨/٣٥ وقال: «حسن
صحيح».

(٣) سبق ص (٢٠٢).

قوله : «ولا قبراً مشرفاً» : أي عالياً.

قوله : «إلا سويته» : له معنian :

الأول : أي سويته بها حوله من القبور.

الثاني : جعلته حسناً على ما تقتضيه الشريعة ، قال تعالى : «الذى خلق فسوى»^(١) أي : سوى خلقه أحسن ما يكون ، وهذا أحسن ، والمعنىان متقاربان .

والإشراف له وجوه :

الأول : أن يكون مشرفاً بكبر الأعلام التي توضع عليه ، وتسمى عند الناس (نصایل) أو (نصائب).

الثاني : أن يبني عليه وهذا من كبائر الذنوب ، لأن النبي ﷺ : «لعن المتخذين عليها المساجد والسرج»^(٢).

الثالث : أن تشرف بالتلويين وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة .

فكل شيء مشرف أي ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك .

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور :

أن كلاً منها قد يتخذ وسيلة إلى الشرك فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين فلما طال عليهم الأمد عبدوها ، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثاناً تعبد من دون الله ، وهذا ما وقع في البلاد الإسلامية ، وقد أطال الشارح - رحمه الله - في هذا الباب أطال الكلام

(١) سورة الأعل، الآية: ٤.

(٢) سبق (٤٣٥/١).

.....
.....

على البناء على القبور وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة ومتشرة، ما عدا بلادنا، والله الحمد، فإنها سالمة من ذلك نسأل الله أن يديم علينا وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها.

عقوبة المحتوى مایلی :

١ - أنه أشد الناس عذابا.

٢ - يجعل له في كل صورة روحًا يعذب بها في نار جهنم.

٣ - يكلف أن ينفع فيها الروح وليس بنافع.

٤ - أنه في النار.

٥ - أنه ملعون كما في حديث أبي جحيفة^(١).

فانتحان :

الأولى: «كُلْفَ أَنْ يَنْفَعْ فِيهَا الرُّوْحُ وَلِيْسْ بِنَافِعٍ»^(١) يقتضي أن المراد التصوير، تصوير الجسم كاملاً وعلى هذا فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق لقوله: «مَرْ بِرَأْسِ النَّمَثَالِ فَلَيَقْطَعَ» ولم يقل فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد أما بقية الجسم بلا رأس فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثاني: يؤخذ من حديث علي - رضي الله عنه - وهو قوله: «أَنْ لَا تَدْعُ صُورَ إِلَّا طَمَسْتَهَا» أنه لا يجوز اقتناء الصور وهذا محل تفصيل، فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور، لكونه ذا سلطان أو جاء أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلا شك ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة، لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب

^(١) سبق ص (٢١٠).

الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثم في جانب الألوهية.
القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضاً، لما فيه من الفتنة المزدوجة إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حناناً أو تلطيفاً كالذين يصوروون صغار أولادهم للتذكرة حال الكبر، وهذا أيضاً حرام للحقوق الوعيد به في قوله ﷺ: «إن الملائكة لا تدخل بيته صورة»^(١).

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها كالمجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجالس والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، فالظاهر أن هذا لا يأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة فهو أولى.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مُهانةً ملقاة في الزيل، أو مفترضة، فهذا لا يأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة، لأن في ذلك امتهاناً للصورة، ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟ الجواب: نقول لا يلحق بذلك بل لباس ما فيه الصور حرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينها وقد صرَّ الفقهاء رحمة الله بتحريم لباس ما فيه صورة سواء كان قميصاً أم سراويل أم عِمامَةً أم غيرها.

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب من لم يدخل بيته صورة ٤/٨٣، ومسلم في اللباس/باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٦٩ عن عائشة، رضي الله عنها.

.....
القسم السادس : أن يلجأ إلى اقتناها إلخاء كالصور التي تكون في بطاقة
إثبات الشخصية والشهادات والدرارهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرر منه ،
وقد قال الله تعالى : **«وَمَا جعل عليكم في الدين من حرج»**^(١) .

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٨.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين. **الثانية:** التنبية على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: «ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقي». **الثالثة:** التنبية على قدرته وعجزهم لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة». **الرابعة:** التصریح بأنهم أشد الناس عذابا. **الخامسة:** أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسا يعذب بها المصور في جهنم. **السادسة:** أنه يكلف أن ينفع فيها الروح. **السابعة:** الأمر بطمسمها إذا وجدت.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين: تؤخذ من قوله: «أشد الناس عذابا» الحديث.

الثانية: التنبية على العلة وهي ترك الأدب مع الله: تؤخذ من قوله: «ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقي» فمن ذهب يخلق كخلق الله فهو مسيء للأدب مع الله، عز وجل، كما أن من ضاده في شرعيه فقد أساء الأدب معه.

الثالثة: التنبية على قدرته وعجزهم لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة»: لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

الرابعة: التصریح بأنهم أشد الناس عذابا: لقوله: «أشد الناس عذابا» الحديث.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسا يعذب بها المصور في جهنم: لقوله: « يجعل له بكل صورة صورها نفسا يعذب بها في جهنم».

السادسة: أنه يكلف أن ينفع فيها الروح لقوله: «كلف أن ينفع فيها الروح وليس بنافع».

.....
السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت: لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمسها».

ويؤخذ من حديث الباب أيضاً الجمع بين فتنة التهليل وفتنة القبور: لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمسها ولا قبراً مشرفاً إلا سويفته»، لأن في كل منها وسيلة إلى الشر.

ويؤخذ منه أيضاً: إثبات العذاب يوم القيمة، وأن الجزاء من جنس العمل، لأنه يجعل له بكل صورة صورها نفسها يعذب بها في جهنم.

باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى : «واحفظوا أيمانكم»^(١)

الحلف بغير الله ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يعتقد الحالف أن المخلوق به يستحق من التعظيم مثل ما يستحق الله ، فهذا شرك أكبر .

الثاني : أن لا يعتقد ذلك فهو شرك أصغر .

ومراد المؤلف بهذا الباب الحلف بالله ، لا الحلف بغير الله .

مناسبة الباب لكتاب التوحيد :

أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله ، وتعظيم الله - تعالى - من تمام التوحيد .

قوله : «واحفظوا أيمانكم» :

هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين ، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط ، فالابتداء الحلف ، والانتهاء الكفارة ، والوسط الحنت وهو أن يفعل ما حلف على تركه ، أو يترك ما حلف على فعله ، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنت فيه ، وما لا حنت فيه فلا كفارة فيه ، لكن إن كان صادقا فقد بر وإلا فهو آثم ، لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل .

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل فقيل تلزمك كفارة . وقيل :

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨٩ .

لَا تلزمك وهو الصحيح كما لو حلفت على ماضٍ، مثاله :
قلت : والله ليقدم زيد غداً بناء على ظنك فلم يقدم فال صحيح أنه لا
كفارة عليك ، لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل ، كأنك تقول : والله
إن هذا هو ظني .

إذن قوله : «واحفظوا أيمانكم» : بعد أن ذكر اليمين والكفارة والختن فما
المراد بحفظ اليمين هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي : هل المراد لا
تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد إذا حلفتم فلا تختنوا؟ أو المراد إذا حلفتم فتحتم
فلا تتركوا الكفارة؟ .

الجواب : المراد كلها فتشمل أحوال اليمين الثلاثة ، وهذا جاء المؤلف بها
في هذا الباب ، لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف .

والمراد بعدم كثرة الحلف ما كان معقوداً ومقصوداً ، أما ما يجري على
اللسان بلا قصد مثل : لا والله ، وبل والله في عرض الحديث ، فلا مؤاخذة فيه ،
لقوله تعالى : «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»^(١) .

وكذلك من حفظ اليمين عدم الختن فيها ، وهذا في تفصيل ، لأن
النبي - ﷺ - قال لعبد الرحمن بن سمرة : «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها
خيراً منها فكفر عن يمينك واثت الذي هو خير»^(٢) . فحفظ اليمين في الختن
أن لا يختن إلا إذا كان خيراً ، وإلا فالأحسن حفظ اليمين وعدم الختن . مثال
ذلك :

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان / باب قول الله تعالى : «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»
٤/٢١٤ ، ومسلم في الإيمان / باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتى الذي
هو خير ٣/١٢٧٤ عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه .

رجل قال: والله لا أكلم فلانا، وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم، فهذا يجب أن يحث في يمينه ويكلمه. مثال آخر:

رجل قال: والله لأعين فلانا على شيء محرم، فهذا يجب الحث فيه ولا يعينه، لقوله تعالى: «ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»^(١) وإذا كان الأمر متساوياً والتحث وعده سواء في الإثم فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفار بعد الحث. والكافرة واجبة فوراً، لأن الأصل في الواجبات الفورية؛ وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكافرة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، أوكسوتهم، أو تحرير رقبة وهذا على سبيل التخيير فمن لم يجد مطعماً أو إطعاماً فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة^(٢).

فحفظ اليمين له ثلاثة معان:

- ١ - حفظها ابتداء وذلك بعدم كثرة الحلف.
- ٢ - حفظها وسطاً وذلك بعدم الحث فيها، إلا ما استثنى كما سبق^(٣).
- ٣ - حفظها انتهاءً في إخراج الكفار بعد الحث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع وهو أن لا يكون القسم بغير الله، لأن الرسول - ﷺ - سمي الحلف بغير الله يميناً.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) أخرجهما أحمد في المسند ٢٢٥/٢، ٢٤٢، ٤١٣.

(٣) أخرجهما ابن جرير ٣١/٧، رقم (١٢٥٠٣)، وعبدالرزاق (١٦١٠٢)، والبيهقي ٦٠/١٠ وإسنادها صحيح كما في الإرواء ٤٠٣/٨.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«الخلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب» أخر جاه^(١).

قوله: «الخلف»:

المراد به الخلف الكاذب كما بيته رواية أحد: «اليمين الكاذبة»^(٢) أما الصادقة فليس لها عقوبة.

قوله: «منفقة للسلعة»:

أي ترويج للسلعة، مأخوذة من النفاق وهو مضى الشيء ونفاذه، والخلف على السلعة قد يكون حلفاً على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها. الذات: كان يحلف أنها ملك فلان، وهي مشهورة بالجودة وليس ملكه.

النوع: كان يحلف أنها من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كان يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كان يحلف أن قيمتها عشرة، وهي بثانية.

قوله: «ممحقة للكسب»:

أي متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ما له ما يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن يتزع الله البركة من ماله فلا يتتفع به لا دينا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم يتتفع بها صار - والعياذ بالله - بخيلاً يعيش عيشة الفقراء وهو غني، لأن البركة قد محقت.

(١) أخرجه البخاري في البيوع/باب يتحقق الله الربا ٢/٨٤، ومسلم في المسافة/باب النبي عن الخلف في البيع ٣/١٢٢٨.

(٢) أخرجه أحد في المسند ٢/٢٤٣، ٢٤٥، ٤١٣.

وعن سليمان أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم وهم عذاب أليم أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمنه ولا يبيع إلا بيمنه»^(١) رواه الطبراني
بسند صحيح.

قوله: «ثلاثة»: مبتدأ، وسوع الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «لا يكلمهم الله»:

التكليم: هو إساع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه فلا يسمى
كلاما على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قوله بالتقيد بالنفس، كقوله تعالى: «وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يَعْذِبُنَا اللَّهُ»^(٢) وقال عمر رضي الله عنه - في
قصة السقيفة - زورت في نفسي كلاما^(٣) أي قدرته.

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس في كلام الله إلى ثانية أقوال كما ذكره ابن القيم في
الصواعق المرسلة.

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأخذنا منها عقيدتنا
صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات، لأنه ما أرقى الجدل قوم إلا ضلوا،
وعليه فكلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما
ما يسمع من كلام الله فلا شك أنه بحرف يفهمها المخاطب إذ لو كان يتكلم

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١١١)، والصغرى (٢١/٢)، والأوسط كما في المجمع وقال
المنذري في الترغيب (٥٨٧/٢)، والهيثمي في المجمع (٤/٧٨): «ورواه مخنج بهم في
الصحيح».

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٨.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود/باب رجم الحيل من الزنا إذا أحصنت (٤/٢٥٨).

بحروف لا تشبه الحروف التي نتكلّم بها لم يفهم كلامه أبداً، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله - عز وجل - يخاطب كل أحد بلغته.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

و بهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيمة للمؤمنين بقوله تعالى: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون»^(١) فما حجب الفجار عن رؤيته إلا وراء الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقاً لكن الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله - عز وجل - عن كل أحد فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه سبحانه أن يكون له آلة كالآدمي كاللسان، والأسنان، والخلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سباع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلاً تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان قال تعالى: «يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها»^(٢) وكذا الجلد ينطق يوم القيمة قال تعالى: «حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون»^(٣) وكذا الأيدي والأرجل قال تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»^(٤) فالآيدي والأرجل والألسن ليس لها لسان ولا شفتان.

(١) سورة المطففين، الآية: ١٥.

(٢) سورة الزمر، الآيات: ٤، ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

(٤) سورة التور، الآية: ٢٤.

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرماً وهم أهل النار؟.
فالجواب: أن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبیخ فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

قوله: «ولا يزكيهم»:

الترکیة بمعنى التوثيق، والتعديل، فيوم القيمة لا يوثقهم، ولا يعد لهم ولا يشهد لهم بالإيمان لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

قوله: «وهم عذاب أليم»:

عذاب: عقوبة، وأليم: أي شديد موجع مؤلم.

قوله: «أشيمط»:

هو الذي اختلط سواد شعره بياضه لكبر سنه، وكبير السن قد برد شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنا، ولكنه زنا مما دل على خبث في إرادته، ولأنه عادة قد بلغ أشدّه واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقلة أكثر من هواه، فالزنا منه غريب إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفاً، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكان تقاصد سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل ولكنه خالف مقتضى ذلك وهذا صغره تحقيراً للشأن فقال: «أشيمط» تصغير أشيمط.

قوله: «زان»:

صفة لأشيمط وهو مرفوع بضميمة مقدرة على الياء المحذوفة والحركة التي على النون ليست حركة إعراب.

والزنا فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهى الله عنه وبين أنه فاحشة فقال: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً»^(١).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

.....

قوله: «عائل مستكبر»:
أي فقير قال تعالى: «وَوَجْدُكَ عَائِلًا فَاغْنِي»^(١) فالمقابلة هنا في قوله: «فاغنى» بينت أن معنى عائلاً: فقيراً.
والاستكبار الترفع والتعاظم وهو نوعان: استكبار عن الحق بأن يرده أو
أن يترفع عن القيام به.
واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم كما قال النبي ﷺ: «الكبر
بطر الحق وغمط الناس»^(٢).
وأما الفقر فداعي الاستكبار عنده ضعيف فيكون كبره دليلاً على ضعف
إيهانه وخبث طويته ولذلك كانت عقوبته أشد.
قوله: «وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتْهُ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيمِينِهِ وَلَا يَبْعِي إِلَّا بِيمِينِهِ»:
أي جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا لأن النبي ﷺ
هو الذي فسره بذلك حيث قال: «لا يشتري إلا بيمينه» وإذا كان
المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره فهو أعلم بمراده وهذا كما في الحديث
القدسى: «عَبْدِي اسْتَطَعْتُكَ فَلَمْ تَطْعُمْنِي، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي» فيه الله
عز وجل بقوله: «عَبْدِي فَلَانْ جَاعْ فَلَمْ تَطْعُمْهُ، اسْتَسْقَاكَ فَلَمْ تَسْقِهِ»^(٣).
فقوله: «لا يبيع إلا بيمينه، ولا يشتري إلا بيمينه»: استثنافية تفسيرية
لقوله: «جعل الله بضاعته».

(١) سورة الضحى، الآية: ٨.

(٢) أخرجه مسلم في الإيهان/باب تحريم الكبر/٩٣ عن ابن مسعود، رضي الله عنه.

(٣) سبق ص (١٠٣).

واستحق هذه العقوبة العظيمة لاستهانته بالله فإن كان كاذباً جع بين
أربعة أمور مذورة:
١ - استهانته بالله عز وجل.
٢ - كذبه.
٣ - أكله المال بالباطل.

٤ - أن يمينه يمين غموس وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على
يمين هو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»^(١)
وكل ما في هذا الحديث يجب أن نترى به وبمقتضاه، بمعنى أن نتجنب هذه
الأمور، وما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا
وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء بل نحن أعظم ولذلك لا ينبغي أن تمر
 علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل
 بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضاً بوصفنا ما أتاهم الله العلم أن نحذر الناس منه
 لنكون وارثين للرسول ﷺ، فالنبي ﷺ كان عالماً عملاً داعياً، أما طالب
 العلم فإنه ليس وارثاً للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به من
 العمل والدعوة، فعلينا أن نحذر إخواننا المسلمين في هذا العمل الكبير بين
 الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم لا يبيعون إلا بأيائهم ولا يشترون إلا
 بأيائهم.

مناسبة الحديث للباب :

أن من جعل الله بضاعة فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله عز وجل.

(١) أخرجه البخاري الأبيان/باب قول الله تعالى: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيائهم ثمناً
 قليلاً» ٤/٢٢، ومسلم في الأبيان/باب وعيد من اقطع حق مسلم بيمين فاجرة ١/٢٢
 عن ابن مسعود، رضي الله عنه.

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا، ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»^(١).

قوله: «وفي الصحيح»: أي الصحيحين، ولعل المؤلف رحمه الله تعالى اطلع على الحديث في أحد الصحيحين فنقله منه، أو المراد في الصحيح بقطع النظر عن الاصطلاح.

قوله: «خير أمتي قرني»: خير مبتدأ، وقرني خبر.

وفي لفظ البخاري: «خيركم قرني» وفي حديث ابن مسعود: «خير الناس قرني»^(٢) وهذا هو المراد، إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عموما، وليس للأمة فقط وهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: «بعثت من خير قرون بني آدم»^(٣).

وعليه فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وأما قوله: «خير أمتي»: فإنه يقال إن الخيرية إذا كانت مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقيت الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولى وقد يقال: إن معنى اللفظين

(١) أخرجه البخاري في الشهادات/باب لا يشهد على شهادة جور ٢/٢٥١، ومسلم في فضائل الصحابة/باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ٤/١٩٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق ٢/٢٥١، ومسلم في الموضع السابق ٤/١٩٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب/باب صفة النبي ﷺ ٢/٥١٧ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

واحد فإن هذه الأمة خير الأمم فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن: مأخذ من الاقتران والمراد الطائفة المفترضون بشيء من الأشياء كاملة، أو السن وما أشبه ذلك.

وبعض العلماء عرفه: بالطائفة كما سبق، وبعضهم عرفه بالزمن وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال:

فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بهائة، ومنهم من حده بهائة وعشرين سنة.

والمشهور: أنهم الطائفة المشتركون بشيء من الأشياء كالصحبة مثلاً، أو مائة سنة.

فيكون معنى: «خير أمي قرني» خير أمي الصحابة سواء بلغوا مائة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مائة وعشرة أو مائة وعشرين، فإذا قلنا: مائة وعشرين فهذه المدة زائدة على المائة.

وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مائة وثلاثين سنة؛ لأن القويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة وهذا القرن الأول، أما التابعون فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعوا التابعين فإن آخرهم مات سنة مائتين وعشرين وهذا متى القرن الثالث.

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار [١٣٣] سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار [١٢٠] سنة.

وقرن التابعين [٦٠] سنة.

وقرن تابع التابعين [٤٠] سنة.

.....
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس فإذا كان
معظم الناس الصحابة فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين فالقرن
قرنهم وهكذا قوله:
«أمي»: المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم
خير.

قوله: «فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة»: وإذا كان عمران لا
يدري فالاصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو
المشهور.

قوله: «ثم إن بعدكم قوم»: وفي رواية البخاري «ثم إن بعدكم قوما»
بنصب «قوما» وهذا لا إشكال فيه لكن في هذه الرواية برفع «قوم»^(١) فيه إشكال
لأن «قُوم» اسم إن وقد اختلف العلماء في هذا:
فقيل: على لغة ربعة الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت
الكاتب الألف فصارت «قُوم».

وهذا جواب ليس بسديد؛ لأن الرواية ليست مكتوبة فقط بل تكتب
وتقرأ باللفظ عندأخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.
وقيل: إن «إن» اسمها ضمير الشأن محذوف، فألحقها بيان المخفة لأن
«إن» المخفة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن
فإن المشددة هنا حلت على إن المخفة فاسمها ضمير الشأن ممحض
وعليه يكون «بعدكم» خبر مقدم و« القوم» مبتدأ مؤخر والجملة خبر «إن».

(١) انظر فتح الباري ٧/٧

وقيل: «إن» هنا بمعنى نعم فيكون المعنى ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكليف.

والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية.

قوله: «يشهدون»:

أي يخبرون عما علموا شاهدوه، أو سمعوه، أو لسموه، أو شموه، لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم قال تعالى: «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون»^(١). ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلانا يقول: «إن العشرة في الجنة ولا أشهد» فقال: إن قاله فقد شهد.

قوله: «ولا يستشهدون»:

أي لا تطلب منهم الشهادة، وانختلف العلماء في ذلك:

فقيل: «لا يستشهدون» أي لا يطلب منهم تحمل الشهادة فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة، فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يدعى لأدائها، فيكون ذلك دليلاً على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها»^(٢) بدليل قوله: «ألا أخبركم بخير الشهداء» وظاهره: أنه معارض لحديث عمران فجمع بعض العلماء بينها بأن

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية/باب خير الشهداء ١٣٤٤/٣.

.....
المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء: بأن المراد بحديث زيد من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى؛ لأن حقوق الله تعالى ليس لها مطالب فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها.

وجمع بعضهم: بأن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة باداء الشهادة، فكانه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء: رجح حديث عمران؛ لأنه في الصحيحين على حدث زيد بن خالد لأنه في مسلم.

ولكن إذا أمكن الجمع فلا يجوز الترجيح، والجمع هنا ممكن كما تقدم.
قوله: «يَخُونُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ»:

هذا هو الوصف الثاني لهم، أي: أنهم أهل خيانة وليسوا أهلأمانة، وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الاتهام حتى يقال لماذا لم يقل: يؤمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم فلخيانتهم لا يؤمنون.

الخيانة: الغدر والخداع في موضع الاتهام، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخداعة، فهي مذمومة في حال دون حال فقد يكون محموداً، وهذا يوصف الله سبحانه وتعالى بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحأ قال تعالى: «وَيَمْكِرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ»^(١) وقال تعالى: «يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ»^(٢).

وأما الخيانة فلا يوصف بها أبداً وهذا كان قول العامة: خان الله من خان حراماً؛ لأنهم وصفوا الله بها لا يصح أن يوصف به قال الله تعالى: «وَإِن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم»^(١) ولم يقل فخانهم.
قوله: «ولا يؤتمنون».

أي ليسوا أهلاً للأمانة، فلا يؤمنون على الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض ولا أي شيء، والظاهر: أن هذا في القرن الرابع فما بالك بالقرن الخامس عشر وفي حديث آخر: «ويفشو بينهم الكذب»^(٢).

قوله: «وينذرون ولا يوفون» هذا هو الوصف الثالث لهم.

النذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للأدemi، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله كنذر العبادة يجب الوفاء به فهم ينذرون لله ولا يوفون له ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له وهذا من صفات النفاق.

قوله: «ويظهر فيهم السُّمْنُ»: هذا هو الوصف الرابع لهم.

السمن: كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان فكيف يجعلها صفة ذم؟
قال أهل العلم: المعنى أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب فيكون همهم إصلاح أجسادهم وتسمينها.

أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه فلا يذم عليه كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧١.

(٢) أخرجه أحاديث ١٨/١، والترمذى في الفتنة/باب ما جاء في لزوم الجماعة ٦/٣٣٣ وقال: «حسن صحيح غريب»، وابن ماجه في الأحكام/باب كراهة الشهادة لمن لم يستشهد ٢/٧٩١ عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرنى ثم الذين يلوثهم ثم الذين يلوثهم ثم الذين يلوثهم ثم يحيى»، قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والوعيد ونحن صغار»^(١).

قوله: «خير الناس» دليل على أن قرنه خير الناس، فصحابته ﷺ أفضلي من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام.

قوله: «ثم يحيى» قوم، أي بعد القرون الثلاثة قوله: «تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

اختلف في ذلك على وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كنابة عن كون هؤلاء لا يبالغون بالشهادة، ولا باليمين حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متتسقتان.

والمعنيان لا يتنافيان فيحمل عليهما الحديث جيلا.

وقوله: «ثم يحيى» قوم: يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف، لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، والفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد،

(١) أخرجه البخاري في الشهادات/باب لا يشهد على جور٢/٢٥١، وأيضاً أخرجه في فضائل الصحابة (٣٦٥١)، وفي الرفاق (٦٤٢٩)، وفي الآيات (٦٦٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة/باب فضل الصحابة ثم الذين يلوثهم ٤/١٦٩٢، ١٦٩٣.

وقوله: «ثم الذين يلوثهم» الثالثة ليست في الصحيحين، وهي في المسند ١/٣٧٨، ٤١٧.

فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحابة فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علمًا وعبادة.

قوله: «وقال إبراهيم»:

هو إبراهيم النخعي من التابعين، ومن فقهائهم.

قوله: «كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار»: في نسخة: «على الشهادة والعهد» والظاهر: أن الذي يضربهم ولـي أمرهم.

وقوله: «على الشهادة»: أي يضربوننا عليها إن شهدنا زوراً، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها.

قوله: «والعهد»: أي: إذا تعااهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: «ونحن صغار»: الجملة حالية وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة؛ لأن قوله: «ونحن صغار» أي لم يبلغوا وهذا محل خلاف بين أهل العلم:

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغاً، فإذا تحمل وهو صغير لم تقبل منه حتى يبلغ.

وقال بعضهم: شهادة الصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملأً وأداء؛ لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار.

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا في الحال؛ لأنه بعد التفرق يتحمل النسيان، أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا وإلا لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبي على الأخلاق إذا لم يتأنب إلا بالضرب.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان. **الثانية:** الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة. **الثالثة:** الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه. **الرابعة:** التنبية على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي. **الخامسة:** ذم الذين يخلفون ولا يستحلفون.

فيه مسائل :

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان:
تؤخذ من قوله، تعالى: «واحفظوا أيمانكم» والأمر وصية.
الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة:
تؤخذ من قوله ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة...».
الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه:
تؤخذ من قوله ﷺ: «ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه... الخ».

الرابعة: التنبية على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي: تؤخذ من حديث سليمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني، والعائل المستكبر، وغلوظ في عقوبته؛ لأن الداعي عندهم قليل.

الخامسة: ذم الذين يخلفون ولا يستحلفون:
لقوله ﷺ: «ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه...».
ولكن هذا ليس على إطلاقه بل النبي - ﷺ - حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله سبحانه أن يخلف بقوله: «ويستثنونك أحق هو، قل إني وربى»^(١) وهو لم يستحلف.

(١) سورة يومن، الآية: ٥٣.

السادسة : ثناواه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعه وذكر ما يحدث . **السابعة** : ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون . **الثامنة** : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

وقوله : «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قبل بلي وربى لتبغضن»^(١) وقوله : «وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قبل بلي وربى لتأتينكم»^(٢) وعليه فإن الخلف إذا دعت الحاجة إليه ، أو اقتضته المصلحة فإنه جائز ، بل قد يكون مندوبا إليه كخلف النبي - ﷺ - في قصة المخزومية حيث قال : «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٣) فقد وقع موقعاً عظيماً من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية ، ومن يأتي بعدهم .

السادسة : ثناواه - ﷺ - على القرون الثلاثة أو الأربعه وذكر ما يحدث : تؤخذ من قوله ، ﷺ : «خير الناس قرنٌ » وقوله : أو الأربعه ، بناء على الشك .

وقوله : «وذكر ما يحدث» لو جعلت هذه مسألة مستقلة لكان أبين وأوضح ، لأن الإخبار عن شيء مستقبل ووقعه كما أخبر دليل على رسالته ﷺ .

السابعة : ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون : تؤخذ من حديث عمران ، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون ، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد :

(١) سورة التغابن ، الآية : ٧ .

(٢) سورة سباء ، الآية : ٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الحدود / باب كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان ٤ / ٢٤٨ ، ومسلم في الحدود / باب قطع السارق الشريف ٣١٥ / ٣ عن عائشة ، رضي الله عنها .

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه^(١)

وقوله تعالى: «أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان
بعد توكيدها^(٢)...» الآية.

الذمة: العهد، وسمى بذلك؛ لأن يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين
بدينه في ذمته.

والله له عهد على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.
للعباد عهد على الله، وهو: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. قال
الله، تعالى: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنين عشر نبياً وقال
الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتیتم الزكاة وأمتم برسلِي وعززتموهم
وأقرضتم الله قرضاً حسناً» فهذا عهد الله عليهم ثم قال: «لَا كُفَّارٌ عَنْكُمْ
سِيَّاتُكُمْ وَلَا دُخُولُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»^(٣) وهذا عهدهم على الله.
قوله: «أوفوا بعهدي أوف بعهدهم»^(٤)، وللنبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عهد على الأمة وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يتدعوا فيها، وللامة عليه

(١) قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد ص (٣٨٢): «أي من الدليل على وجوب
حفظها والوفاء بها، والمراد التي تدخل في العهود وأن عدم الوفاء عدم تعظيم له، فهو قبح
في التوحيد».

(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتنفهم شيئاً.

وقد أخبر النبي - ﷺ - أنه ما مننبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما هو خير^(١).

والمراد بالعهد هنا ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي - ﷺ - وأهل مكة في صلح الحديبية.

قوله : «أوفوا» :

أمر من الرباعي من أوفي يومي ، والإيفاء إعطاء الشيء تماماً ، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

قوله : «ببعهد الله» :

يصلاح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله ، أي بعهدهم الله ، أو بعهد الله إليكم ، لأن فاعل الفعل يقتضي المشاركة من الجانبيين.

قوله : «إذا عاهدتم» :

فائتها التوكيد والتبيه على وجوب الوفاء ، أي : إذا صدر منكم العهد فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء ثم أكد ذلك بـ قوله : «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» نقض الشيء هو حل إحكامه ، وشبه العهد بالعقدة لأنه عقد بين المتعاقدين.

قوله : «بعد توكيدها» :

توكيد الشيء بمعنى تثبيته ، والعهود توكد يقال وكد الأمر وأكده تأكيداً وتوكيداً ، والواو أوضح من الهمزة .

(١) أخرجه مسلم في الإمارة / باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ٤ / ١٤٧١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه .

وعن بريدة قال: «كان رسول الله - ﷺ - إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله وينم معه من المسلمين خيراً فقال:

قوله: «وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً»:

الجملة حالية فائدة قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين.

ووجه جعل الله كفيلاً، لأن الإنسان إذا عاهد غيره قال: أعاهدك بالله، أي أنه جعل الله عليه كفيلاً.

قوله: «إن الله يعلم ما تفعلون»:

ختم الله الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل فإنه لا ينقض العهد.

ومناسبة الآية للترجمة:

واضحه جداً، لأن الله قال: **﴿أوفوا بعهد الله﴾** وقال: **﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾**.

قوله: «إذا أمر»: أي جعله أميراً والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ، والحكم والفتوى والإمامية.

قوله: «أو سرية»: هذه ليست للشك، بل للتتوسيع فإن الجيش ما زاد على أربعينه رجل والسرية مادون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ - قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر.

ب - قسم ينفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

ج - قسم ينفذ في الرجعة وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينها من حيث الغنيمة، فلسرية الابتداء الربيع بعد

الخمس؛ لأن الجيش وراءها فهو رداء لها وسليحتها، ولسرية الرجعة الثالثة بعد الخامس، لأن الجيش قد ذهب عنها فالمخطر عليها أشد.
وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلى اجتهد الإمام إن شاء أعطى وإن شاء منع، حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله: «أوصاه»:

الوصية الأخبار بشيء على وجه الاهتمام.
قوله: «بتقوى الله»: التقوى هي: امثال آوامره واجتناب نواهيه، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وقال بعضهم:
التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن ترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

وقال بعضهم:

خَلُ الذنوبَ صغيرَهَا
وَكِيرَهَا ذاكَ التَّقْىِ
وَاعْمَلْ كِمَاشِ فوقَ أَرْضِ الشُّوكِ يَحْذِرُ مَا يَرِي
لَا تَحْقِرْنَ صَغِيرَةً إِنَّ الْجَبَالَ مِنَ الْحَصَى

وهذه التعريفات كلها تؤدي معنى واحداً.

وكانت الوصية بالتقى لأمير الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته.

قوله: «وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا»:

أي أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيراً في أمور الدنيا والآخرة، فيسلك بهم الأسهل ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع

اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا
تغدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليديا، وإذا لقيت عدوك من المشركين

عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم
في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب على من تولى أمراً من أمور المسلمين
أن يسلك بهم الأخير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه فإنه لا يلزم إلا بالواجب.

قوله: «اغزوا باسم الله»: يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائياً
مستعينين بالله، وتحتمل أنه أراد أن يفتح الغزو باسم الله.

وال الأول أظهر والثاني أيضاً محتمل، لأن بعث الجيوش من الأمور ذات
البال وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر.

قوله: «في سبيل الله»:

متعلق بـ «اغزوا»، وهو تنبية من الرسول - ﷺ - على حسن النية
والقصد؛ لأن الغزوة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدى
الحسينين ما كان خالصاً لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا
لحمية أو شجاعة أو ليُرى مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن: فمن قاتل لأنه وطن إسلامي تجب حمايته وحماية
المسلمين فيه فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط فهو
حبة، وليس في سبيل الله.

وقوله: «في سبيل الله» تشمل النية والعمل، فالنية سبقت.

والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشرعيته، فيكون حسباً رسمه
الشارع.

قوله: «قاتلوا من كفر بالله»:

.....

قاتلوا: فعل أمر وهو للوجوب، أي يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله،
قال تعالى: «بِاٰيٰهَا النَّبِيٰ جَاهَدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَا وَاهَمَ جَهَنَّمَ وَبَشَّرَ الصَّيرَفَ»^(١) وقال تعالى: «بِاٰيٰهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتلوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ»^(٢) فإذا قاتلنا الذين يلوننا فأسلموا نقاتل من وراءهم وهكذا إلى أن
نخلص إلى مشارق الأرض وغارتها.

و (من) اسم موصول، واسم الموصول وصلته يفيد العلية أي لكرهه،
فنحن لا نقاتل الناس عصبية.

والكفر مداره على أمرین: الجحود، والاستكبار.
أي استكبار عن طاعته، أو جحود ما يجب قبوله وتصديقه.
 قوله: «اغزوا»: تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول لا تحقروا الغزو واغزوا
بجد.

قوله: «وَلَا تَغْلُوا»:
الغلول: أن يكتتم شيئاً من الغنيمة، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى:
«وَمَنْ يَغْلِلْ يَأْتِ بِمَا غَلَ بِيَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) أي معذباً به. قال أهل العلم: يعزز
الغال بالحرق رحله كله إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائده.
وما فيه روح لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار.

قوله: «وَلَا تغدروا»: الغدر الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث،
وهذا إذا عاهدنا فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد فلنا ذلك، لأن الحرب
خدعة، وقد ورد أن علي بن أبي طالب خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه فلما

(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبه، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

أقبل الرجل على علي قال علي ما خرجت لأبارز رجلين ، فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعدوه فقتله على رضي الله عنه .
وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات :

الحال الأولى : أن لا يكون بيننا وبينهم عهد فيجب ، قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإيائهم عنه وعن بذل الجزية ، بشرط قدرتنا على ذلك .

الحال الثانية : أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم ، لقوله تعالى : «فَإِنْ أَعْصَمُوهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَقِنِ»^(١) وقوله : «فَأَنْتُمْ إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَى مُدْتَهُمْ» .

الحال الثالثة : أن يكون بيننا وبينهم عهد تخاف خيانتهم فيه فهنا يجب أن ننذر إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم ، لقوله تعالى : «وَإِمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّاهِنَيْنَ»^(٢) .

قوله : «وَلَا تَنْثِلُوا» :

التمثيل : التشويه بقطع بعض الأعضاء ، كالأنف واللسان وغيرهما ، وذلك عند أسرهم ، وذلك أنه لا حاجة إليه ، لأنه انتقام في غير محله ، وانختلف العلماء فيها لو كانوا يفعلون بما ذلك :

فقيل : لا يمثل بهم للعموم ، والنبي - ﷺ - لم يستثن شيئاً ، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم ، فقد يكون لا يرضي بما فعل قوله فكيف نمثل به ؟

وقيل : نمثل بهم كما مثلوا بنا ، لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر وهو قوله تعالى : «فَمَنْ اعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَ عَلَيْكُمْ»^(٣)

(١) سورة براءة ، الآية : ٧ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٥٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.
والظاهر القول الثاني.

فإن قيل قد نمثل بوحدة لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟
فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، وهذا كان الله - عز وجل - يخاطب اليهود في عهد الرسول - ﷺ - بأمر جرت في عهد موسى قال تعالى: «وإذ قتلتكم نفساً فادارأتم فيها»^(١) وقال تعالى: «وإذا أخذنا مثاقكم ورفعنا فوقكم الطور»^(٢) وما أشبه ذلك.
 قوله: «ولا تقتلوا ولدآ»: أي لا تقتلوا صغيراً، لأنه لا يقاتل، وأنه ربما سلم.

وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فإن ولا امرأة^(٣)،

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٣) حديث ابن عمر رضي الله عنها «أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان».

آخرجه البخاري في الجهاد/باب قتل الصبيان ٣٦٢، ومسلم في الجهاد/باب تحريم قتل النساء ١٣٦٤.

وحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيئاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة...».

آخرجه أبو داود في الجهاد/باب في دعاء المشركين ٨٦/٣.

وقال الشوكاني في النيل ٢٤٦: «وحديث أنس في إسناده خالد الفزّر وليس بذلك».

وحديث ابن عباس رضي الله عنها وفيه أن النبي ﷺ قال: «لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا =

فادعهم إلى ثلاثة خصال - أو خلال - فآيتها ما أجابوك فا قبل منهم وقف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابونك فا قبل منهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين.

إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب كما قتل دريد ابن الصمة في غزوة ثقيف مع كبره وعمره^(١).

وастدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل الإسلام ولكنه لحماية الإسلام بدليل أننا لا نقاتل هؤلاء، ولو كان من أجل الإسلام لقتلناهم، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، ولو رسالة في ذلك اسمها «قتال الكفار». قوله: «وإذا لقيت عدوك»:

أي قاتلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهيجاً لقتالهم؛ لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، وهذا قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم أولياء»^(٢) وهذا أبلغ من قوله في آية أخرى «لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء»^(٣).

وال العدو ضد الولي، والولي ضد العدو، وهو من يتولى أمرك ويعتني بك بالنصر، وال العدو يخذلك ويبتعد عنك.

تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع، أخرجه أحاديث ٣٠٠ / ١، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢٢٥ / ٣ =

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير ١٠٣ / ٢: «وفي إسناده إبراهيم بن إساعيل بن أبي حبيبة وهو ضعيف».

(١) أخرجه البخاري في المغازي / باب غزوة أوطاس ١٥٦ / ٣.

(٢) سورة المحتenna، الآية: ١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

قوله: «من المشركين»: يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى وعبدة الأوثان.

قوله: «خصال أو خلال»: بمعنى واحد وعليه فـ[أو] للشك.

قوله: «فَإِيَّهُنَّ مَا أَجَابُوكُمْ»: أيتهن اسم شرط مبتدأ «ما» زائدة وهي تزد بالشرط تأكيداً للعموم كقوله تعالى: «أَيَّامًا تدعُوا فِلَهَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِي»^(١)، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط مذوق والتقدير: فـ[أيتهن ما أَجَابُوك إِلَيْهِ فَاقْبِلْ مِنْهُمْ وَكُفْ عَنْهُمْ، فَلَا تَقْاتِلُهُمْ].

قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ»: «ثُمَّ» زائدة كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال إنها ليست من كلام الرسول - ﷺ - بل من كلام الراوي، على تقدير ثُمَّ: قال ادعهم.

وقوله: «إِلَى الْإِسْلَامِ»: أي المتضمن للإيهان، لأنه إذا أفرد شمل الإيهان، وإذا اجتمعا افترقا كـ[ما فرق النبي - ﷺ - بينها في حديث جبريل]. والإيهان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال قال، رسول الله: «الإيهان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيهان»^(٢) فإن أجابوا للإسلام فهذا ما يريدون المسلمين فلا يحل لنا أن نقاتلهم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في الإيهان/باب أمور الإيهان ١ / ٢٠ ولنقطه: «الإيهان بضع وسبعون شعبة، الحباء شعبة من الإيهان»، ومسلم في الإيهان / باب بيان عدد شعب الإيهان ١ / ٦٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإنهم أبوا فاسألهم الجزية، فإنهم أجبوك فاقبل منهم وكف عنهم.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»:
هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية فإذا أسلموا طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم قال تعالى: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله»^(١) وهذا أصل في توطين البوادي.

وقوله: «إلى دار المهاجرين»:
يمحتمل أن المراد بها العين أي المدينة، ومحتمل أن المراد بها الجنس أي الدار التي تصلح أن يهاجر إليها لكونها بلد إسلام سواء كانت المدينة أو غيرها.
إذا نظرت إلى الاحتمال الأول وهو أن المراد بها المدينة قلت: إن الرسول - ﷺ - كان يعبر عنها باسمها، ولا يأتي بالوصف المشتق العام.
إذا نظرت إلى الاحتمال الثاني قلت: إن دار المهاجرين الأولى هي المدينة. والظاهر الثاني.

قوله: «فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين»: وهذا تمام العدل، ولا يقال إن الحق لصاحب البلد الأصلي فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليهم ما عليهم من الجهد والنصرة.

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

قوله: «ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»:

الغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما الحق به.

والفيء لبيت المال، وله من الغنيمة خمس الخمس.

وقوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين» يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة.

وأما بالنسبة للفيء فاختلَفَ أهلُ العلم في ذلك:
ف عند الإمام أحمد لهم حق في الفيء مطلقاً، و لهم حق في الغنيمة إن
جاهدوا.

وقيل: لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة، إذ ليس من في البلد يستنفر للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.

فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب:

١ - التحول إلى دار المهاجرين.

٢ - البقاء في أماكنهم مع الجهاد.

٣ - البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد. وقد علمت أحكام هذه المراتب.

قوله: «فإن هم»: «هم» عند البصريين توكيده للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير: فإن أبواهم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.
والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون في مسألة: أن نتبع الأسهل،
والأسهل إعراب الكوفيين.

قوله: «فأسألهم الجزية»: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء أن سؤال الاستفهام يتعدى بـ«عن»، قال الله،

فَإِنْ هُمْ أَبْوَا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلُهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتُمْ أَهْلَ حَصْنٍ
فَأَرْادُوكُمْ أَنْ تَجْعَلُوهُمْ ذَمَّةَ اللَّهِ وَذَمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلُوهُمْ ذَمَّةَ اللَّهِ وَذَمَّةَ

تعالى : «يَسْتَأْلُونَكُمْ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَهَا»^(١) ، وَأَمَّا سُؤَالُ الْإِعْطَاءِ فَمُثُلُّ قُولُهُ
تعالى : «لَا يَسْتَأْلُونَ النَّاسَ إِلَحْافًا»^(٢) وَهَذَا يَتَعْدُى إِلَى الْمُفْعُولِ الثَّانِي بِنَفْسِهِ .
وَالْجُزِيَّةُ : فِعْلَةٌ مِّنْ جُزْيَيْنِ ، وَظَاهِرُهُ فِيهَا أَنَّهَا مَكَافَةٌ عَلَى شَيْءٍ .
وَهِيَ : عِبَارَةٌ عَنْ مَالٍ مَدْفُوعٍ مِّنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ عَوْضًا عَنْ حَايَتِهِ وَإِقَامَتِهِ
بِدارَنَا .

وَالْذَّمِيُّ مَعْصُومٌ مَا لَهُ وَدَمَهُ وَذَرِيَّتِهِ مُقَابِلُ الْجُزِيَّةِ ، قَالَ تَعَالَى : «هَتَنِ
يَعْطُوا الْجُزِيَّةَ عَنْ يَدِهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ»^(٣) أَيْ يَسْلِمُوهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، لَا يَقْبَلُ أَنْ
يُرْسَلَ بِهَا خَادِمُهُ أَوْ ابْنَهُ ، بَلْ لَابِدُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا هُوَ .

وَقَبِيلٌ : «عَنْ يَدِهِ» عَنْ قُوَّةِ مَنْكُمْ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لِلْمُعْنَيْنِ .
وَقَبِيلٌ : «عَنْ يَدِهِ» أَنْ يَعْطِيكُ إِيَّاهُ فَتَأْخُذُهَا بِقُوَّةِ بَأنْ تَجْرِيْ يَدُهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَكَ قُوَّتُكُ ، وَهَذَا لَا حَاجَةٌ إِلَيْهِ .

وَقُولُهُ : «وَهُمْ صَاغِرُونَ» أَيْ يَجِبُ أَنْ يَتَصَفَّوْا بِالذُّلِّ وَالْهُوانِ عَنْ
إِعْطَائِهِمْ ، فَلَا يَعْطُوهُمْ بِأَبْيَهٖ وَتَرْفَعُ مَعْ خَدْمٍ وَمَوْكِبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَجَعْلُ بَعْضِ
الْعُلَمَاءِ مِنْ صَغَارِهِمْ أَنْ يَطَالُ وَقْوَفَهُمْ عَنْ تَسْلِيمَهَا مِنْهُمْ .

قُولُهُ : «فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلُهُمْ» :
بَدَا النَّبِيُّ - ﷺ - بِطَلْبِ الْعُوْنَ منَ اللَّهِ ، لَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْنِكُ فِي جَهَادِ أَعْدَائِهِ
فَإِنَّكَ مَخْذُولٌ ، وَالْجَمْلَةُ جَوابُ الشَّرْطِ .

(١) سورة النازعات ، الآية : ٤٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٣ .

(٣) سورة التوبه ، الآية : ٢٩ .

نبيه، ولكن اجعل ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذمكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه مسلم^(١).

قوله: «إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك»: الحصر: التضيق، أي طوقتهم وضيقهم به بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

والحصن: كل ما يتحصن به من قصور، أو أحواش وغيرها.

قوله: «أرادوك»: أي طلبوك، وضممن الإرادة معنى الطلب، وإن الأصل أن تتعدي بـ«من» فيقال: أرادوا منك.

قوله: «فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه»:

الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون نريد أن ننزل على عهد الله ورسوله، فإنه لا يجوز أن ينزلهم على عهد الله ورسوله. وعلل النبي - ﷺ - ذلك بقوله: «إنكم أن تخفروا ذمكم وذمة أصحابكم أهون».

قوله: «أن تخفروا»: بضم التاء وكسر الفاء، من أخفر الرباعي أي غدر، وأما خفر بخفر الثلاثي فهي بمعنى أجear، والمعين الأول.

وقوله: «أن تخفروا»: «أن» مصدرية، ولا يصح أن تكون شرطية، لأن أهون خبر «إن» وأن وما دخلت عليه محلها من الإعراب النصب على أنها بدل اشتئال من اسم «إن»، والتقدير: فإن خفركم ذمكم، والبدل يصح أن يحمل محل المبدل منه، وهذا قدرتها بما سبق.

(١) أخرجه مسلم في الجihad/باب تأمير الإمام الأمراء ١٣٥٦/٣.

.....

قوله : «أهون من أن تخروا ذمة الله وذمة نبيه» : لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم ، قوله : «أهون» من باب اسم التفضيل الذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شيء من هذا المعنى ، لأن قوله : «أهون» يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون ، والأمر ليس كذلك ، لأن إخفار الذم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله ، أو ذمة المجاهدين كله ليس بهين ، بل هو صعب ، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته .

فهنا أرادوا أن يتزلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم شيء بل يعاهدون على حياة أمواهم وأنفسهم ونسائهم وذرياتهم .

قوله : «ولكن أنزلم على حكمك» :

إذا أرادوا أن يتزلوا على حكم الله وحكم رسوله ، فإنهم لا يجانون فإننا لندرى أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

وقال : «أنزلم على حكمك» : ولم يقل وحكم أصحابك ؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير ، وأما الذمة والعهد فهي من الجميع ، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد .

وقوله : «لا تدرى» : هذا الفعل متعلق عن العمل بالاستفهام وإلا فهو ينصب مفعولين .

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء :

فقيل : إن أهل الحصن لا يتزلون على حكم الله وحكم رسوله ؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد فإنه لا يدرى أيصيب فيهم حكم الله أم لا فليس كل مجتهد مصيبة .

وقيل : بل يتزلون على حكم الله وحكم رسوله ، والنبي عن ذلك خاص في عهد النبي - ﷺ - فقط ؛ لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم ، إذ

من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير الله هذا الحكم ، وإذا كان كذلك فلا تزلفم على حكم الله ؛ لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه ؟ أما بعد انقطاع الوحي فترثهم على حكم الله ، واجتهاهنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابا ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وقد قال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطِعْتُمْ﴾^(١) وهذا أصح ، لأنه يحکم للمجتهد بإصابة الحكم ظاهرا شرعا وإن كان قد يخطيء ، وإن حصل الاحتراز بأن يقول : ننزلك على ما نفهم من حکم الله ورسوله فهو أولى ، لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحا أن هذا حکم الله بحسب فهمنا ، لا بحسب الواقع فيها لو اتضحت خلافه . واخترنا هذه العبارة لأنه قد يتغير الاجتهاد ، ويأتي أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحکم ، فيقول الكفار إن أحكام المسلمين متناقضة . ويستفاد من هذا الحديث ما يلي :

- ١ - تخريم التمثيل ، والغلو ، والغدر ، وقتل الوليد ، وقد سبق الكلام عليه .
- ٢ - يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا .
- ٣ - لا يجوز القتال قبل الدعوة ، لأنه جعل القتال آخر مرحلة ، وأما ما ورد في الصحيح أن النبي - ﷺ - أغار على بني المصطلق وهم غارون^(٢) فقد أجيبي : أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة ، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة ، ويرجع فيها للمصلحة .
- ٤ - جوازأخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس ، لأن أهل الكتاب

(١) سورة التغابن ، الآية : ١٦ .

(٢) أخرجه البخاري في العنق / باب من ملك من العرب رقيقاً / ٢١٨ ، ومسلم في الجهد / باب جواز الإغارة على الكفار / ١٣٥٦ من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء فاختلَفَ أهلُ العلم:

فقيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل لا تأخذ من مشركي العرب، لأن فيها إدلالاً.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار للعموم، لقوله، ﷺ: «من كفر بالله» ولم يقل اليهود والنصارى.

٥ - الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية؛ لأنَّه يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله، ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس . . .»^(١) الحديث.

فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦ - عظم العهود ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله.

٧ - جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨ - أنه لا يجوز أن ينزعهم على حكم الله إما في عهد الرسول ﷺ أو مطلقاً حسب الخلاف السابق.

٩ - أن المجتهد قد يصيب وقد يخطئ لقوله: «فإنك لا تدرِي أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟» وقال النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد»^(٢) وعليه فهل نقول إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة ٢٤/١، ومسلم في الإيمان/باب قتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ٩٥/١ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام/باب أجر الحاكم إذا اجتهد ٣٧٢/٤، ومسلم في الأقضية/باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد ١٣٤٢/٣ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

الجواب : قيل : كل مجتهد مصيبة . وقيل : ليس كل مجتهد مصيبة .
وقيل : كل مجتهد مصيبة في الفروع دون الأصول ، حذراً من أن نصوب
أهل البدع في باب الأصول .

والصحيح أن كل مجتهد مصيبة من حيث اجتهاده ، أما من حيث موافقته للحق فإنه يخطيء ويصيب ، وبدل له قوله ﷺ : «فاجتهد فأصاب ، واجتهد فأخطأ» فهذا واضح في تقسيم المجتهدين إلى خطئه ومصيب ، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين ، لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين سواء في علم الأصول والفروع .

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع ، وقالا : إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة ، وهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئاً من أكبر أصول الدين بالفروع مثل الصلاة وهي ركن من أركان الإسلام ، ويخرجون أشياء في العقيدة اختلف فيها السلف يقولون إنها من الفروع ، لأنها ليست من العقيدة ولكن فرع من فروعها ، ونحن نقول : إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة بكل الدين أصول ، لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد الله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة وهذه عقيدة سابقة على العمل ، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك الله بها .

والصحيح : أن باب الاجتهاد مفتوح فيها سمي بالأصول أو الفروع ، لكن ما خرج عن منهج السلف ليس بمقبول مطلقاً .

١٠ - أن باب الاجتهاد باق لقوله : «لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا» ؟
ويهذا يتبيّن ضعف قول من قال : إن باب الاجتهاد قد انسد ، والواجب التقليد

للأمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنّة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ بل الواجب على من تغرن من أخذ الحكم من الكتاب والسنّة أن يأخذ منها، لكن لكترة السنّن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثاً في هذا الحكم حتى يتثبت؛ لأن هذا الحكم قد يكون منسوباً أو مقيداً وأنت تظنه مطلقاً، أو عاماً وأنت تظنه خاصاً وهكذا.

وأما أن نقول لا تنظر في القرآن والسنّة، لأنك لست أهلاً للاجتهاد، فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا إن باب الاجتهاد مفتوح لا يجوز أبداً أن تختقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم، لأن أولئك تبعوا واجهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم، أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم فهذا أيضاً لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محمرة فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا عمرارهم في استخراج المسائل من أدلة، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال، ويقولون كذا وكذا. مع أن أهل العلم فيها يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الواقع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها.

١١ - فيه إثبات الحكم لله - عز وجل - وحكم الله ينقسم إلى قسمين:
أ - حكم كوني: وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: «فلن أيرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي»^(١).
ب - حكم شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به ومنه قوله تعالى: «ذلكم حكم الله يحكم بينكم»^(٢).

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠. (٢) سورة المتحدة، الآية: ١٠.

وفي مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه ، وذمة المسلمين . **الثانية:** الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً . **الثالثة:** قوله : «اغزوا بسم الله في سبيل الله» .

في مسائل :

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه ، وذمة المسلمين :
لو قال : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين لكان أوضح ؛ لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها وليس كذلك فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة ، وإنما الفرق بينها وبين ذمة المسلمين .
والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين محمرة ، وذمة المسلمين
جائزة .

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً:

لقوله : «ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . . .» وهذه قاعدة ، وتنقال على وجه آخر وهو : ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما ، وقد دل عليها الشرع . قال ، تعالى : ﴿وَلَا تُسْبِّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ عَدُوُّكُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) فسب آلة المشركين مطلوب ، لكن إذا تضمن سب الله - عز وجل - صار منهيأ عنه ، لأن سب الله أعظم من السكوت عن سب آلهتهم ، وإن كان في هذا السكوت شيئاً من المفسدة ، ولكن نسكت لثلا نفع في مفسدة أعظم ، وأيضاً العقل دل عليها .

وفي قاعدة مقابلة وهي : جلب أعلى المصلحتين بترك أدناهما ، فإذا اجتمعت مصلحتان فخذ بأعلاهما ، وإذا اجتمعت مفسدتان فخذ بأدنىها .

الثالثة: قوله : «اغزوا بسم الله في سبيل الله» :

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٨ .

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله». **الخامسة:** قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. **السابعة:** في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدرى أيوافق حكم الله أم لا؟.

يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص، والتمشي على شرعيه.

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله»:

يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر بل الكفر سبب للقتال، فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتلت طائفتان وأبْتَأْتَ إحداهما أن تُنْفيَ إلى أمر الله قوتلوا، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم»:

يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء:

وفيه فرقان:

- ١ - أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيّب وقد لا يصيّب.
- ٢ - تنزيل أهل الحسن على حكم الله من نوع إما في عهد الرسول - ﷺ - فقط أو مطلقاً، وأما على حكم الأمير فهو جائز.

فائية:

لا ينبغي أن يقال ما حكم الإسلام في كذا أو ما رأى الإسلام في كذا، فإنه قد لا يكون حكم الإسلام، إلا فيها هو نص واضح صريح فلا بأس.

.....

مثل أن يقول : ما حكم الإسلام في أكل الميتة ؟ .
فنقول حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام .
السابعة : في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدرى أبواافق
حكم الله أم لا ؟
وهذا ليس خاصا بالصحابة ، بل حتى من بعدهم ، فإن له أن يحكم بما
يرى أنه حكم عند الحاجة .

باب ما جاء في الأقسام على الله

الإقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء هي: يمين، أية، حلف، قسم وكلها بمعنى واحد قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْعِدِ النَّجْوَمِ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) أي لا أحلف، وقال: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ﴾^(٤) أي يخلفون، وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ﴾^(٥).

واختلف أهل العلم في «لا» في قوله: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ فقيل إنها نافية على الأصل وأن معنى الكلام لا أقسم بهذا الشيء على المقسم به، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف، لأن من قرأ الآية عرف أن مدلوها الإثبات لا التبني.

وقيل: إن «لا» زائدة والتقدير أقسم. وقيل: إن «لا» للتتبية وهذا بمعنى الثاني؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مقدر، أي لا صحة لما ترمعون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتتبية.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٦.

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ١٦.

(٣) سورة القيمة، الآية: ١.

.....
.....
.....

والإقسام على الله: أن تخلف على الله أن يفعل، أو تخلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله ليفعلن الله كذا، أو والله لا يفعل الله كذا.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بها أخبر الله به ورسوله مثل: والله ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيمة. ومثل: والله لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي - ﷺ - ذلك في قصة الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك، رضي الله عنها. « حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار فاحتكموا إلى النبي ﷺ فأمر النبي - ﷺ - بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح فأبوا فقام أنس بن النضر فقال: أنكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع. وهو لا يريده به رد الحكم الشرعي . فقال الرسول ﷺ : يا أنس كتاب الله القصاص، السن بالسن قال: والله لا تكسر ثنية الربيع» وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص.

فلم يعرفوا أنه مصمم القوى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا، فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره »^(١) فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقوى الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول - ﷺ - على القصاص فعفوا.

فتثناء الرسول - ﷺ - عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله ، وأن الله أبر

(١) أخره البخاري في الصلح /باب الصلح في الديمة ٢٦٩ / ٢، ومسلم في القسامية /باب إثبات القصاص في الأسنان ١٣٠٢ / ٣ عن أنس رضي الله عنه.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتأنى على أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحببت عملك» رواه مسلم^(١).

قسمه، ولبن له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد ولا استشهد وجده ببضعة وثمانون ما بين ضربة بسيف أو رمح، وقيل: إنه لم يعرفه إلا أخته بيتهانه^(٢).
ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»^(٣).

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله عز وجل، وسوء الظن به تعالى، فهذا محروم، وهو وشيك بأن يحيط الله عمل هذا المقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد :

أن من تألى على الله - عز وجل - ساء الأدب معه وتحجر فضله، وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد وربما ينافي أصل التوحيد، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصاً في حقه.

قوله: «قال رجل والله لا يغفر الله لفلان»:

هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله، وإعجاب هذا

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب النهي عن تقبيط الإنسان من رحمة الله ٤/٢٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد/باب قول الله عز وجل: «من المؤمنين رجال صدقوا» ٣/١٥١٢، ومسلم في الإمارة/باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/٦٢١.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب فضل الضعفاء والحاملين ٤/٢٤٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الإنسان بنفسه، لأنه لو كانت حاله مثل حال هذا الرجل من العاصي لم يقل مثل هذا الكلام.

والغفرة: من الغفرة الذي يعطى به الرأس عند الحرب، ففيها وقية وستر، وهي ستر الذنب، والتجاوز عنه.

قوله: «من ذا الذي يتأنى على أن لا أغفر لفلان؟»:

«من» اسم استفهام مبتدأ «ذا» ملغاة، «الذي» اسم موصول خبر مبتدأ «يتأنى» بمحلف، أي من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي . والاستفهام للإنكار.

وال الحديث ورد مبسوطاً في حديث أبي هريرة^(١) أن هذا الرجل كان عابداً وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية ويزجره وينهاه فيقول: خلني وربِّي أبعثُكَ على رقيبٍ؟ ثم يأتيه من الغد ويقول له كما قال، والثاني يقول كما سبق، وهذا يدل على أن عنده حسن ظن بالله، وفي المرة الثالثة لما رأه على حاله قال: والله لا يغفر الله لك.

فالمسرف كان عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتبَّع فيها بينه وبين ربه، لأنه قال: خلني وربِّي ، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحاً ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة، لأن من شروط التوبة أن يعزِّم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له إما أن يكون قد وجدت منه أسباب الغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفصل الله عليه فغفر له، أما

(١) يأتي ص (٢٦٥).

لو كان شركاً وبدون توبية فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول: «إن الله لا يغفر أن يشرك به»^(١).

قوله: «أحبطت عملك»:

ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاماً.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم - حسب فهمنا والعلم عند الله - أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يمن على الله بعمله وحيثئذ يفتقد ركتنا عظيمها من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلابد أن تكون عبداً لله - عز وجل - بما تعبدك به وبها بلغك من كلامه، وكثير من الذين يتبعدون لله بما تعبدهم به قد لا يتبعدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا عن رأيهم إذا تبين لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومحرون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبداً حتى فيها بلغك من وحيه بحيث تخضع له خضعاناً كاملاً حتى تتحقق العبودية.

وفي احتفال معنى «أحبطت عملك» أي عملك الذي كنت تفتخرا به على هذا الرجل وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره.

ونظير هذا مما يتحمل العموم والخصوص قوله - ﷺ - في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده فيمن منع الزكاة: «إفانا آخذوها وشطر ماله عزمه من عزمات ربنا»^(٢) فقوله: «وشطر ماله» هل المراد جميع ماله، أو ماله الذي منع

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٤، وأبو داود في الزكاة/باب زكاة السائمة ٢/٢٣٣ =

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة:
«تكلم بكلمة أُوْبَقَتْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ»^(١).

زكانه؟ يحتمل الأمرين فمثلاً إذا كان عنده عشرون من الإبل فزكاتها أربع شياه
فمنع الزكاة فهل نأخذ عشرين من الإبل فقط، أو إذا كان عنده أموال أخرى
من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك؟ اختلف في ذلك:
فقيل: يأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفه.
وقيل: يأخذ نصف جميع المال.

والراجح: أنه راجع إلى رأي الإمام حسب المصلحة، فإن كان **أخذ**
نصف المال كله، أبلغ في الردع **أخذ** نصف المال كله وإنما **أخذ** نصف المال
الذي حصلت فيه المخالفه.

قوله: «أُوْبَقَتْ»:
أي أهلكت ومنه حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات»^(٢) أي المهلكات.
قوله: «دُنْيَا وَآخِرَةٍ»:

= والنسائي في الزكاة/باب عقوبة مانع الزكاة ١٥/٥، والدارمي في الزكاة/باب ليس في
عوامل الإبل صدقة ٣٩٦/١، والحاكم في الزكاة ١/٣٩٨، وصححه على شرطها ووافقه
الذهبي.

وقال ابن قدامة في المغني ٤/٧: «وسائل - أي أَمْدَ - عن إسناده فقال: هو عندي صالح
الإسناد».

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٠٠)، وأحمد ٢/٣٢٣، وأبو داود في الأدب/باب في النبي
عن البيع ٥/٢٠٧، والبغوي في شرح السنة ١٤/٣٨٤، ٣٨٥، وأبي الدنيا في حسن
الظن باهه (٤٥)، وفي شرح الطحاوية ٢/٤٣٧: «وإسناده حسن».

(٢) سبق ص (١٤).

.....

أما كونها أويقت آخره فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النار والعياذ بالله،
واما كونها أويقت دنياه فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب بها عملاً صالحاً
وإلا فهي خسارة، قال تعالى: «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا
و عملوا الصالحات و تواصروا بالحق و تواصروا بالصبر»^(١) قوله: «فَلَمَّا
خَاسَرُوا الْذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ذَلِكُ هُوَ
الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ»^(٢) فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح فقد خسر دنياه حقيقة، لأن
ما أهالللفناء، وكل شيء فان كأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق تجده
مر عليك وكأنه لم يكن وهذا من حكمة الله، عز وجل، لثلا يركن إلى الدنيا.
وقوله: «قال أبو هريرة»: يعني في الحديث الذي أشار إليه المؤلف، رحمه
الله.

(١) سورة العصر.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.

فيه مسائل :

الأولى: التحذير من التألي على الله، الثانية: كون النار أقرب إلى أحدها من شراك نعنه. الثالثة: أن الجنة مثل ذلك. الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة... إلى آخره».

فيه مسائل :

الأولى: التحذير من التألي على الله :
لقوله: «من ذا الذي يتألي على أن لا أغفر لعنان» وكونه أحبط عمله بذلك.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدها من شراك نعنه.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك:

هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوب عمل المتألي والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم ذكر حديثا رواه البخاري، ويقصد بها تقريب الجنة أو النار، والشراك سير النعل الذي يكون بين الإبهام والأصابع.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة إلى آخره»:
يشير المؤلف إلى حديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا فتهوي به في جهنم سبعين خريفا»^(١) أو «أبعد ما بين المشرق والمغارب»^(٢) وهذا فيه الخنز من مزلة اللسان، فقد يسبب الهملاك، وهذا قال النبي ﷺ: «من

(١) أخرجه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأوزبي في الزهد/باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس ٧٦/٧، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في الفتنة/باب كف اللسان في الفتنة ١٣١٣/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث أبي هريرة ولفظه عند مسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغارب» أخرجه البخاري في الرقاق/باب حفظ اللسان ١٨٦/٤، ومسلم في الزهد/باب التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٤/٢٢٩٠.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

يضمن لي ما بين رجليه ولحبيه أضمن له الجنة»^(١) وقال معاذ: «كف عليك هذا - يعني لسانه - قلت يا رسول الله: وإنما لمؤاخذون بما نتكلم به قال: «تكلتك أملك يا معاذ وهل يكتب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم؟»^(٢).

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة من يقتدي به، كما يحدث من دعاء الضلال والعياذ بالله فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيمة.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه:
فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر في من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله: «قد غفرت له».

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له بشيء هو من أكره الأمور إليه مثل الجهاد في سبيل الله، قال، تعالى: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تخبو شيئاً وهو شر لكم»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق ٤/١٨٦ عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص(٧٣)، والحاكم ٤/٢٨٧ ٢٨٦، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي عن عبادة بن الصامت.

وأخرجه أحادي ٥/٢٣١، والترمذى في الإبان/باب ما جاء في حرمة الصلاة ٧/٢٧٠ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الفتن/باب كف اللسان في الفتنة ٢/١٣١٤، والجصاص في أحكام القرآن ٣/٣٥٣ عن طريق أبي وائل عن معاذ.

وأخرجه أحادي ٥/٢٣٢، ٢٣٧، والطيالسي (٥٦٠)، والنمساني في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/٤١٠ من طريق الحكم بن عتبة عن عروة بن الززال عن معاذ.

وأخرجه أحادي ٥/٢٣٦ من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن عنم عن معاذ.
وانظر جامع العلوم والحكم شرح حديث رقم (٢٩)، والترغيب للمنذري ٣/٥٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: « جاء أعرابي إلى النبي - ﷺ . فقال يا رسول الله: نُهكِتُ الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك فإننا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله فقال النبي ﷺ : سبحان الله ، سبحان الله ! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال: ويحك أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع به على أحد . . . » وذكر الحديث رواه أبو داود^(١).

استشفع بالشيء أي جعله شافعاً له ، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعاً. وهي التوسط للغير بجلب منفعة له ، أو دفع مضره عنه.

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٤ ، وأبو داود في السنة / باب في الجهمية ٩٤/٥ وعثان الدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٤ ، والنقض على المريسي ص ٨٩ ، ١٠٥ ، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٠٣ ، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥) ، وعمر بن أبي شيبة في العرش (١١) ، والطبراني في الكبير (١٥٤٧) ، والدارقطني في الصفا (٣٩، ٣٨) ، والبيهقي في الأسماء (٤١٨، ٤١٧) ، والبغوي في شرح السنة (١٧٥/١ ، ١٧٦) ، والمزي في تهذيب الكمال (١٨٤/١ ، ١٨٥) ، والذهبي في العلوص ٣٧ - ٣٩ .

والحديث استغراه ابن كثير في تفسيره ١/٣١٠ ، وفي الحديث عن ابن إسحاق ، وجهالة جبير بن محمد فإنه لم يوثقه غير ابن حبان ، وللحافظ ابن عساكر جزء سهاد: « بيان وجوه التخليط في حديث الأطيط ».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد :

لا شك أن المشفوع إليه أعلى درجة من الشافع غالباً، وإذا كان كذلك فإن الاستشفاع بالخلق على الله جائز بشروطه المعروفة، والاستشفاع بالله على الخلق حرام لأن رتبة الشافع أدنى من مرتبة المشفوع إليه.

والاستشفاع بالله على خلقه تنقصه الله عز وجل؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده بل يأمره أمراً والله - عز وجل - لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً، وهذا أنكر النبي - ﷺ - ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد.

قوله: «أعرابي»:

واحد الأعراب وهم: سكان البدية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: «نهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال»: نهكت: أي ضعفت.

وجاع العيال وهلكت الأموال، أي: من قلة المطر والخصب، فضعف الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيها إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه.

قوله: «فاستنق لنا ربك»:

أي اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا يأس به؛ لأن طلب الدعاء من ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: «نستشفع بالله عليك»:

أي نجعله واسطة بيننا وبينك لدعوك الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة

الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: «ونستشفع بك على الله»:

أي نطلب منك أن تكون شافعاً لنا عند الله فتدعوا الله لنا، وهذا صحيح.

قوله: «سبحان الله، سبحان الله»:

قاله - ﷺ - استعظاماً لهذا القول، وإنكاراً له، وتنزيهاً لله - عز وجل -

عما لا يليق به من جعله شافعاً بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

«وسبحان» اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبحة سبح تسبحاً، وإذا جاءت الكلمة بمعنى المصدر وليس فيها حروفه فهي اسم مصدر مثل: كلام، اسم مصدر كلام والمصدر تكليم، ومثل: سلام اسم مصدر سلام والمصدر تسليم.

و«سبحان» مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضاً، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول: سبحت الله سبحانه إلا نادراً في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو عيادة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدخل عيادة المخلوق مع النقص والعيوب؛ لأن عيادة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالناقص تجعله ناقصاً، كما قال الشاعر:

الم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

قوله: «فهزال»:

إذا دخلت «ما» على زال الذي مضارعها يزال صار التفي إثباتاً مفيداً

للاستمرار، كقوله تعالى: «فهزالت تلك دعواهم...»^(١) الآية، وكقوله

تعالى في المضارع: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربكم»^(٢).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٥ (٢) سورة هود، الآيات: ١١٨، ١١٩.

وجلة «يسبح» هي الخبر.

قوله: «حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه»:

أي عرف أثره في وجوه أصحابه، وأنهم تأثروا بذلك؛ لأنهم عرفوا أنه - ﴿لَا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جلة فيها شيء من التنقض لله - تعالى - فسبح النبي - ﷺ - ربه تنزها له عما توهمه هذه الكلمة، وهذا إذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه في السفر وهم يبطوا وادياً سبحوا، تnzها الله تعالى عن السفول الذي كان من صفاتهم، وإذا علوا نشراً كبروا تعظيمها لله ، عز وجل (١)، وأن الله تعالى هو الذي له الكبرياء في السموات والأرض.

قوله: «ويمك»:

ويبح: منصوبة بعامل مخدوف، تقديره: الزلمك الله ويمك.

وتارة تضاف فيقال: ويمك ، وتارة تقطع عن الإضافة فيقال: ومحالك ،

وتارة ترفع على أنها مبتدأ فيقال: ومحه أو ويبح له .

وهي وويل ، وويش كلها متقاربة في المعنى .

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويبح الكلمة ترحم ، وويل الكلمة وعيد .

فمعنى ويمك: إني أترحم لك وأحن عليك .

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير .

فعل معنى أن ويبح بمعنى الترحم يكون قوله - ﴿لَا يسبح في مثل هذا الموضع إلا لأمر عظيم﴾ - هذا الرجل :

ترحوا لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام ، كأنه لم يعرف قدر الله .

قوله: «أتدرى ما الله»:

(١) أخرجه البخاري في الجماد/باب التسبيح إذا هبط وادياً، وباب التكبير إذا علا شرقاً

٢٥٧/٢ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

.....
المراد بالاستفهام التعظيم أي شأن الله عظيم، وتحتمل أن المعنى: لا تدري ماله بل أنت جاهل به، فيكون المراد بالاستفهام النفي.
وقوله: «ماله»: جملة استفهامية معلقة لـ «تدري» عن العمل؛ لأن درى تنصب مفعولين لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي تدري.

قوله: «إن شأن الله أعظم من ذلك»:
أي أن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا اللفظ.
قوله: «أنه لا يستشفع بالله على أحد»:
وذلك لكمال عظمته وكبرياته، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.
فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ: «من سألكم بالله فأعطيوه»^(١) وهذا دليل على جواز السؤال بالله، إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزًا لم يكن إعطاء السائل واجباً؟

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المسؤول به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة بحيث إذا سئل به أعطي.

على أن بعض العلماء قال: «من سألكم بالله» أي من سألكم سؤالاً بمقتضى شريعة الله فأعطيوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله.
والمعنى الأول أصح وقد ورد مثله في قول الملك: «أسألك بالذي أطاك اللون الحسن»^(٢).

(١) سبق ص (١٠٧).

(٢) سبق تحريره ص (٥١).

فيه مسائل :

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك»، **الثانية:** تغييره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة. **الثالثة:** أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله». **الرابعة:** التنبية على تفسير سبحان الله. **الخامسة:** أن المسلمين يسألونه - ﷺ - الاستسقاء.

فيه مسائل :

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك»؛ **تؤخذ من قوله:** «سبحان الله أتدرى ما الله» وقوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه».

الثانية: تغييره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة؛ **تؤخذ من قوله:** «فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه» وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله»؛ لأنه قال: لا يستشفع بالله على أحد ولم يقل لا يستشفع بأحد على الله، فدل هذا على أن المنكر أن يستشفع الإنسان بالله على أحد من خلقه.

الرابعة: التنبية على تفسير «سبحان الله»؛ لأن قوله: «إن شأن الله أعظم» دليل على أنه متزه عنها ينافي تلك العظمة.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء؛ وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فهو شرك أكبر، لأنه - ﷺ - انقطع عمله وعبادته.

ووهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتي الذي جاء إلى قبره -

وأناخ راحلته عند القبر وقال: يا رسول الله إن الله يقول: « ولو أنهم إذ
ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا
رحيا »^(١) وإن قد جئت تائبا إلى الله، وتوسل إليه أن يستغفر له، ثم أنشد:
يا خير من دفت بالقوع أعظمه فطاب من طبيه الآلة والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكته فيه العفاف وفيه الجود والكرم
وأنه رأى في المنام أن النبي - ﷺ - جاءه وقال له: إن الله قد غفر لك.
فهذه الرواية باطلة لا صحة لها؛ لأن صاحبها مجهول، وكذلك من
رواهما عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح؛ لأن الآية: « ولو أنهم إذ ظلموا »
ولم يقل: إذا ظلموا، و«إذ» لما مضى بخلاف «إذا»، والصحابة رضي الله عنهم -
لما لحقهم الجدب في زمن عمر لم يستنقوا بالرسول - ﷺ - وإنها استنقوا
بالعباس بن عبد المطلب بدعايه وهو حاضر فيهم^(٢).
ومن فوائد الحديث:

ومن فوائد الحديث:

- ١ - أنه ينبغي أن يقدم الإنسان الأوصاف التي تستلزم العطف لقوله: «مهكت الأنفس».
 - ٢ - الترحم على المذنب إذا قلنا: إن «ويع» للترحم.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٤) أخرجه البخاري في الاستقاء/باب سؤال الناس الإمام الاستقاء ٣١٨/١ عن أنس رضي الله عنه.

باب ما جاء في حماية النبي - ﷺ -

حص التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفد
بني عامر إلى رسول الله - ﷺ - فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله،
تبارك وتعالى، قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا، فقال: قولوا
بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود
بسند جيد^(١).

مناسبة الباب للتوجيه :

لما تكلم المؤلف - رحمه الله - فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد،
وعلى ذكر ما ينافي كماله ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد
طرق الشرك.

قوله: «انطلقت في وفد بني عامر»:

الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبي - ﷺ - في العام التاسع؛ لأن الوفود
كثرت في ذلك العام، ولذلك يسمى عام الوفود.

قوله: «أنت سيدنا»:

السيد: ذو السُّودَّ والشرف، والسوَّدَّ معناه: العظمة والفاخر، وما
أشبهه.

وسيد: صفة مشبهة على وزن فَيَعْلُم؛ لأن الياء الأولى زائدة.

(١) سبق ص (١٠٠).

قوله : «السيد الله» :

لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع حيث إنه رد على قوله سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من [أَلْ]؛ لأن [أَلْ] للعموم، والمعنى أن الذي له السيادة المطلقة هو الله عز وجل، ولكن السيد المضاف يكون سيدا باعتبار المضاف إليه مثل: سيد بنى فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لثلا يتورّم أنه من جنس المضاف إليه. والسيد من أسماء الله - تعالى - وهي من معانى الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد: بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده^(١) وما أشبه ذلك. ولم ينفهم - ﷺ - عن قوله: «أنت سيدنا» ولم يقرّهم الإقرار الكامل، لكنه أشار إلى أنه لا ينبغي أن يترقّوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، و«السيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله : «تبارك» :

قال العلماء: معنى تبارك: أي كثرت بركاته وخيراته، وهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله فلا يقال تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله .

وقول العامة: أنت تباركت علينا لا يريدون بهدا ما يريدونه بالنسبة إلى الله ، عز وجل ، وإنما يريدون أصابنا بركة من مجئك ، والبركة يصح إضافتها

(١) أخرجه ابن جرير ٣٠ / ٧٤٤، وأورده السيوطي في الدر المثور وعزاء لابن المندز، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات.

.....

إلى الإنسان إذا كان أهلاً لذلك قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»^(١). قوله: «وأفضلنا»: أي فضلك فاضل أكثر من فضلنا.

قوله: «وأعظمنا طولاً»:

أي أعظمنا شرفاً وغنى ، والطول: الغنى قال تعالى: «ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحسنات»^(٢) ويكون بمعنى العظمة قال تعالى: «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول»^(٣) أي ذي العظمة والغني .

قوله: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم»:

الأمر للإرشاد، ووجه ذلك: أنه لا يجب عليهم أن يقولوا بهذا القول، فلو قالوا: يا رسول الله وما أشبه ذلك جاز، إلا أن يقال: إن هذا الأمر يتضمن النهي عن الزيادة فيكون بمعنى لا تقولوا أكثر من ذلك، فإذا حول إلى هذا المعنى صار الأمر للوجوب.

وقوله: «قولوا بقولكم» أي قوله: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

قوله: «ولا يستجربنكم الشيطان»:

استجراه: بمعنى جذبه وجعله يجري معه، أي لا يستميلنكم الشيطان ويجذبكم إلى أن تقولوا قولًا منكراً فأرشدهم - ﴿إِلَى مَا يَنْبغي أَنْ يَفْعُلُونَ﴾ - إلى ما ينبغي أن يفعل، ونهامهم عن الأمر الذي لا ينبغي إن يفعل.

(١) أخرجه البخاري في التيم/باب حدثنا عبد الله بن يوسف / ١٤٥ ومسلم في الحirsch/باب التيم / ١٢٧٩ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٣.

والحياة تعظم كلما كانت المعصية أعظم وأكبر، فإن الشيطان يلقي في قلب الإنسان الوسائل التي توصل إلى هذا الأمر، وهذا تجده أن باب الشرك حاده النبي - عليه الصلاة والسلام - حياة بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، وأيضاً باب الزنا حي حياة عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وما أشبه ذلك؛ لولا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا، لأن النفوس تطلبها، وفي باب الربا أيضاً هي الربا بحاجة عظيمة حتى إن الرجل ليعطي الرجل صاعاً طيباً من البر بصاعين قيمتها واحدة ويكون ذلك ربا محراً، مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم، فالشيطان يحرص على أن يصل ابن آدم إلى الشرك فحراء النبي - ﷺ - حياة تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه، وهذا هو معنى الباب الذي ذكره المؤلف.

والجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»^(١) وقوله: «قوموا إلى سيدكم»^(٢) وقوله في الرقيق: «ولبقل سيدى ومولاي»^(٣) اختلف في ذلك على أقوال:

القول الأول: أن النبي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز، فالنبي ليس على سبيل التحرير فلا يعارض الجواز.

(١) سبق ص (١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ١١٩/٣ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سبق ص (٩٧).

القول الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو، والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

القول الثالث: أن النهي بالخطاب أي أن تخاطب الغير بقولك: سيدني أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئاً آخر وهو خضوع هذا المتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء على الغيبة مثل: «قوموا إلى سيدكم» و«أنا سيد ولد آدم» لكن هذا يرد عليه إياحته - ﴿لَرْقِيقٌ أَنْ يَقُولَ مَالَكُهُ سَيِّدٌ﴾ .
 لكنه يجتاب عن هذا: بأن قول الرقيق مالكه ذلك أمر مطلوب، وهذا يحرم عليه أن يمتنع مما يجب عليه نحو سيده.
 والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذا جائز لكن بشرط: أن يكون الموجه إليه السيادة أهلاً، لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاهها، وقد جاء في الحديث: «لَا تَقُولُوا لِلنَّافِقِ سَيِّدٌ فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ أَغْضَبْتُمُ اللَّهَ»^(١) فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور، فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل فلا يجوز.

والمحذور في هذا الحديث هو الخشية من الغلو فيه ﴿لَرْقِيقٌ﴾ .
 قوله: «يا رسول الله»:

هذا النداء موافق لقوله تعالى: «لَا تَحْمِلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ

(١) أخرجه أحادي ٣٤٦/٥، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٠)، وأبو داود في الأدب/باب لا يقول الملعون ربي وربتي ٢٥٧/٥، والنمساني في عمل اليوم والليلة (٢٤٤) وابن السنى في عمل اليوم والليلة، والحاكم ٣١١/٤ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرج له» عن بريدة رضي الله عنه وقال الترمذى في الرياض (١٧٢٨): «رواه أبو داود بإسناد صحيح».

وعن أنس، رضي الله عنه: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا. فقال: يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهويكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» رواه النسائي بسنده جيد^(١).

بعضكم بعضاً»^(٢) أي لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، أو يا نبي الله.

وفي الآية معنى آخر: أي إذا دعاكم الرسول فلا تجعلوا دعاء إياكم كدعاء بعضكم بعضا إن شتم أحبتكم وإن شتم أبitem، فهو قوله: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله ولرسول إذا دعاكم لما يحبكم»^(٣) وعلى المعنى الأول تكون «دعا» مضافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله: «يا خيرنا»: هذا صحيح فهو خيرهم.

قوله: «وابن خيرنا»:

هذا غير صحيح لأن أباه - ﷺ - ليس بمسلم، ولكن إن أرادوا بالخيرية خيرية النسب فهذا صحيح لأن أباه - ﷺ - من بنى هاشم، وهو من أشراف قريش وأسيادهم، وكذلك يقال في قوله: «وابن سيدنا».

قوله: «قولوا بقولكم»:

أي قولوا بقولكم الذي خاطبتموني به أولاً وهو: يا رسول الله، والدليل

(١) أخرجه أحمد ٢٤١/٣، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٩، ٢٥٠)، وابن حبان ٦٧٠٧، وأبو نعيم في الحلية ٢٥٢/٦، عن أنس رضي الله عنه.

وقال ابن عبد الهادي في الصارم المكين ص (٢٤٦): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) سورة التور، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

قوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله».

قوله: «ولا يستهويكم الشيطان»:

أي لا يستمليكم الشيطان فهو، وتبعدوا طرقه، ونظيره قوله تعالى:
«كالذى استهواه الشياطين في الأرض حيران»^(١).

قوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله»:

هذا الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ ولذلك
وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إتزال القرآن
عليه، قال تعالى: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده»^(٢) ووصفه بها في مقام
الإسراء، قال تعالى: «سبحان الذي أسرى بعده ليلًا»^(٣) ووصفه بها في مقام
المراج، قال تعالى: «فأوحى إلى عبده ما أوحى»^(٤) ووصفه في مقام الدفاع
عنه قال تعالى: «وإن كتم في ريب مما نزلنا على عبادنا»^(٥).

وكذلك بالنسبة للأنبياء، كقوله تعالى: «ذرية من حملنا مع نوح إنه كان
عبدًا شكوراً»^(٦) وهذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع الخاصة.

وال العبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو
الشيطان، قال تعالى: «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إن
لهم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم»^(٧) قال ابن القيم:
هربوا من الرق الذي خلقوا له فُلوا برق النفس والشيطان

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٧) سورة يس، الآيات: ٦١، ٦٠.

وقال الشاعر:

لَا تَذْعُنِي إِلَّا يَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

رسوله (۱)

أي المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١).

ورسول الله - ﷺ - في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى: «وَمَنْ يَطِعُ
اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ
وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحْسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا»^(٤) والنَّبِيُّونَ فِيهِمُ الرَّسُولُ
بِلْ هُوَ أَفْضَلُهُمْ، وَمِنْ عِبَارَةِ الْمُؤْلِفِ - رَحْمَةُ اللهِ - فِي الرَّسُولِ ﷺ: «عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ
وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ».

وقد تطرف في الرسول - ﷺ - طائفتان: طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للمراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.

وطائفه كذبه وزعمت أنه كاذب، ساحر، شاعر، مجنون.

وفي قوله: «عبد الله ورسوله» رد على الطائفتين.

قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»:
«ما» نافية، و«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب، أي
ما أحب رفعتكم إياي فوق منزلتي لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال.

قوله: «التي أنزلني الله»:

يستفاد منه أن الله - تعالى - هو الذي يجعل الفضل في عباده، ويترهم منازلهم.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد :

أن التوحيد يجب أن يحتمي من كل وجه حتى في الألفاظ.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨ . (٢) سورة النساء، الآية: ٦٩ .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلو. الثانية : ما ينبغي أن يقول :
منْ قيل له : أنت سيدنا. الثالثة : قوله : «لا يستجربنكم الشيطان» مع
أنهم لم يقولوا إلا الحق. الرابعة : قوله : «ما أحب أن ترفعوني فوق
منزلي». .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلو:
يعني في قوله : «ولا يستجربنكم الشيطان» ، ووجهه : أن الرسول - ﷺ -
جعل هذا من استجراء الشيطان ، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من
طرق الشيطان.

الثانية : ما ينبغي أن يقول من قيل له : أنت سيدنا :
وتؤخذ من قوله : «السيد الله» فينبغي أن يقول من قيل له ذلك : «السيد
الله» .

الثالثة : قوله : «لا يستجربنكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق :
ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان ، فهذه الكلمة يحتمل
أن معناها أن ما قلتم : من استجراء الشيطان .
ويحتمل أن المعنى : قولوا بهذا القول ولكن إياكم أن تغلوا ، فإن هذا من
استجراء الشيطان.

الرابعة : قوله : «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي» :
أي أني أكره أن ترفعوني فوق منزلي وهي العبودية والرسالة .

باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقُّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قُبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾
(١) الآية (٢).

قوله : «وما قدروا» :
الضمير يعود على المشركين و«قدروا» عظموا أي ما عظموه الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته .
قوله : «والارض جميراً قبضته يوم القيمة» يحتمل أن تكون الواو للحال أي ما قدروا الله حق قدره في هذه الحال .
ويحتمل أن تكون للاستثناف لبيان عظمته الله ، عز وجل ، وهذه أقوى ؛ لأن الأرض جميراً بكل ما فيها قبضته يوم القيمة .
والقبضة هي ما يقبض باليد ، وليس المراد بها الملك ، نعم لو قال : والأرض في قبضته لكن تفسيرها بالملك محتملاً .
قوله : «جميراً» :

يشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها ، الأرض كلها جميراً

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٧.

(٢) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٥٧) : «ختم المصنف كتابه بهذه الترجمة ، وذكر النصوص الدالة على عظمته الرب العظيم وكبرياته ومجده وجلاله ، وحضور المخلوقات باسرها لعزه»؛ لأن هذه النعوت العظيمة والاواسط الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده المحمود وحده الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم ، وغاية الحب والتأله ، وأنه الحق وما سواه باطل ، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه ، وسر الإخلاص» .

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: « جاءَ حَبْرٌ مِّنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجَدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالْأَرْضَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى أَصْبَعٍ، وَسَائِرُ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحَّكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَّتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ: 《وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ》 الْآيَةُ (١) .

قبضته يوم القيمة ، والسموات على عظمها وسعتها مطويات بيمنيه ، قال الله ، عز وجل : « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده » (٢) .

قوله : « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَشْرِكُونَ » هذا تنزيه له عن كل نقص وعيوب ،
وما ينزعه عنه هذه الأنداد .

وقوله : « يَشْرِكُونَ » أي كل شرك يشركونه به ، سواء جعلوا الخالق
للمخلوق ، أو العكس .

قوله : « حَبْرٌ » :
الحبر: هو العالم الكثير العلم ، والخبر يشبه البحر في اشتراق الحروف ،
وهذا العالم أحياناً يسمى بالحبر وأحياناً بالبحر .

قوله : « إِنَّا نَجَدُ » أي في التوراة .

قوله : « فَضَحَّكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ولو لا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكاراً ،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر/باب قول الله تعالى: « وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ » ٢٨٥/٣ وفي التوحيد (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣) ومسلم في صفات
المتافقين/باب صفة القيمة ٤/٤ . ٢١٤٧ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٤ .

لأن من حديث بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «تصديقاً لقول الخبر»، فكانت إقراراً لا غير ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: **﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ** حق قدره **﴾** الآية فهذا يدل على أنه - ﴿أَفَرَهُ وَاسْتَشْهَدَ لِقَوْلِهِ بِآيَةٍ مِّنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَضَحَّكَهُ وَاسْتَشَهَادَهُ تَقْرِيرَ لِقَوْلِ الْحَبْرِ وَسَبِبَ الضَّحْكَ هُوَ سَرُورُهُ حَيْثُ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَصْدِقُ مَا وُجِدَ هَذَا الْعَالَمُ فِي كِتَبِهِ، لَأَنَّهُ لَا شَكَ إِذَا جَاءَ مَا يَصْدِقُ الْقُرْآنَ فَإِنَّ الرَّسُولَ - ﴿سُوفَ يُسَرُّ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ - ﴾

يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله لكن تضليل البينات مما يقوى الشيء، أرأيت أسامة بن زيد وأبيه زيد هل كان عند النبي - ﴿شَكٌ فِي أَنَّ أَسَامَةَ ابْنَ لَزِيدَ؟ . الْجَوَابُ: لَيْسَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ شَكٌ وَلَا مَرَّ بِهَا مَجْزُ المَدْلِجِي وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْقِيَافَةِ وَقَدْ تَغْطِيَ بِرَدَاءِ لَمْ يَدِ مِنْهَا إِلَّا أَقْدَامَهَا فَنَظَرَ إِلَى أَقْدَامَهَا فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَسَرَّ النَّبِيُّ - ﴿سَرُورًا عَظِيمًا حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ مَسْرُورًا وَقَالَ: أَلَمْ تَرِ إِلَى مَجْزُ المَدْلِجِي نَظَرًا إِلَى أَسَامَةَ بْنَ زَيْدَ وَإِلَى زَيْدَ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ^(١) فَالْمَلِمُ أَنَّ الرَّسُولَ - ﴾ - دخل تبرق أسرار وجهه؛ لأن في ذلك تأييداً للحق، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما لكن الأمر ليس كما قالوا بل هم كاذبون في ذلك.

قوله: «أصبع»:

واحدة الأصابع وهي مثلثة الأول والثالث ففيها تسعة لغات والعشر أصابع وفي هذا يقول الناظم:
وَهُنَّ أَنْمَلَةَ ثَلَاثَ وَثَالِثَ التَّسْعَ فِي أَصْبَعِ وَاحِدِهِمْ بِأَصْبَعِ

(١) أخرجه البخاري في الفتن/باب القافض/باب القافض ٤/٢٤٤، ومسلم في الرضاع/باب العمل بالحاق القافض الولد ٢/١٠٨١ عن عائشة رضي الله عنها.

قوله: «أنا الملك»:

هذه الجملة تفيد الحصر، لأنها اسمية معرفة الجزئين، ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد. قال تعالى: «يُوْمَ هُم بِأَرْزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِّنْ الْمَلَكِ الْيَوْمَ هُنَّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»^(١) وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يخرون حفاة عراة غرلا وهذا يظهر ملكتوت الله - عز وجل - في ذلك اليوم ظهوراً بيناً، لأنه - سبحانه - ينادي من الملك اليوم فلا يجيء أحد فيجيب نفسه: «الله الواحد القهار».

وقوله: «المَلِكُ»:

أي ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف بل هو المتصرف فيها يملك على وجه السلطة والعلو، وأما «المالك» فدون ذلك وهذا يمتدح نفسه - تعالى - بأنه: الملك . وقوله تعالى: «مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ»^(٢) فيها قراءتان «ملك، ومالك» ليتبين بذلك أنه ملك مالك وهذا جعلت فاتحة الكتاب لأجل أن يتبيّن بذلك أن ملك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك ، بخلاف غيره فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك .

قوله: «حتى بدت نواجذه»:

أي ظهرت ، ونواجد جم ناجذ وهو أقصى الأضراض . وهذا الضحك من النبي - ﷺ - تقرير لقول الخبر، وهذا قال ابن مسعود: «تصديقا لقول الخبر» ولو كان منكرا ما ضحك الرسول - ﷺ - ولا استشهد بالأية ولقال له كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذي يزني لا يرجم ، ولكنه ضحك تصديقا لقول الخبر وسرروا بأن ما ذكره موافق لما جاء به القرآن الذي أوحى إلى محمد ﷺ .

(١) سورة غافر، الآية: ١٦ .

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤ .

.....

قوله : ثم قرأ ﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرُهُ وَالْأَرْضُ جَيْعًا قَبْضَتْهُ﴾ الآية :
 هذا معنى الآية التي لا تتحمل غيره وأن السموات مطويات كطفي السجل للكتب بيمينه أي يده تبارك وتعالى ، لأن ذلك تفسيره ﷺ ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب لكنه في الدرجة الأولى من حيث القبول .
 وأما تفسير أهل التحريف فيقول بعضهم : «قبضته» أي في قبضته وملكه وتصرفه ، وهو خطأ لأن الملك والتصرف كائن يوم القيمة وقبله .
 يقول بعضهم : «السموات مطويات» أي تالفة وهالكة كما تقول : انطوى ذكر فلان ، أي زال ذكره «بيمينه» أي بقسمه ، لأنه قال تعالى : ﴿كُلُّ مِنْ عَلَيْهَا فَانٌ وَيَقِنٌ وَجْهُ رَبِّكَ﴾^(۱) فجعلوا المراد باليمين القسم إلى غير ذلك من الخرافات التي يلجأ إليها أهل التحريف ، وهذا لظفهم الفاسد بالله حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل ، فصاروا ينكرون ما أثبته الله لنفسه ، وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججا .
 فيقال لهم : هل أنتم أعلم بالله من الله ؟ إن قالوا : نعم كفروا ، وإن قالوا : لا ، قلنا : هل أنتم أفصل في التعبير عن المعاني من الله ؟ إن قالوا : نعم كفروا ، وإن قالوا : لا ، خصموا وقلنا لهم : إن الله بين ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جيعاً قبضته يوم القيمة والرسول - ﷺ - أقر الخبر على ما ذكر فيها يطابق الآية وهل أنتم أنسخ من الرسول ﷺ لعباد الله ؟ فسيقولون : لا .
 فإذا كان كلامه - تعالى - أفصل الكلام ، وأصدقه ، وأبينه ، وأعلم بها يقول ، لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه ولستنا بمذنبين بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها .

(۱) سورة الرحمن ، الآيات : ۲۶ ، ۲۷ .

ومن فوائد الحديث :

إثبات الأصابع لله عز وجل، لإقراره - ﷺ - هذا الخبر على ما قال.
والإصبع أصبع حقيقي يليق بالله - عز وجل - كاليد، وليس المراد
بقوله: «على إصبع سهولة التصرف في السموات والأرض كما ي قوله أهل
التحريف، بل هذا خطأ، لأنه - ﷺ - أثبت ذلك بإقراره ولقوله ﷺ: «إن
قلوب بني آدم بين أصعبين من أصابع الرحمن»^(١) فيجب أن نقبل قوله ﷺ،
ولا يلزم من البيانية المهاسة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابُ الْمَسْخُرُ بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما وتقول: عنزة بين
الزلفي والرس، ولا يلزم أن تكون معاشرة لها، وتقول: شعبان بين ذي القعدة
وجاهد، ولا يلزم أن يكون مواليًا له، فتبين أن البيانية لا تستلزم الاتصال في
الزمان أو المكان. وكما ثبت عنه - ﷺ - أن الله - سبحانه وتعالى - يكون قبل
وجه المصلي^(٣)، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي
 يصل إلىها، فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه ومثال ذلك: الشمس حين
 تكون في الأفق فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك في العلو.
فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم

(١) أخرجه مسلم في القدر/باب كل شيء بقدر ٤٥٤٠ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وتلاته: «كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة/باب حث البراق باليد في المسجد ١٤٩/١ عن ابن عمر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في الزهد/باب حديث جابر الطويل ٤٢٣٠/٤ عن جابر رضي الله عنه.

أعلم وأحكم فقد ضل. ومن المشهور عندهم قوله: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر فهو:

أولاً: فيه تناقض لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم؛ لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم فلا سلام إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانياً: أين العلم والحكمة من التحرير والتعطيل؟

ثالثاً: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله - ﷺ - وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هي طريقة النبي - ﷺ - وأصحابه.

رابعاً: أنها قد تصل إلى الكفر لأنها تستلزم تجاهيل النبي - ﷺ - وتسيفيه، فتجاهيله ضد العلم، وتسيفيه ضد الحكمة، وهذا خطير عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحاً، لأن هؤلاء بحثوا وتعلموا وخاصوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذي ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق - ﷺ - حين قال: «هلك المتنطعون»^(١) فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم ينطعوا لما وصلوا إلى هذا الشك والحقيقة والتحريف حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة أمه، العجوز التي لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم: ها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحقيقة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبداً، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا

(١) أخرجه مسلم في العلم /باب هلك المتنطعون ٤/٢٠٥٥ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

.....
.....

على عقيدة سليمة، ولا ابتي بالشك والقلق والخيرة، وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام، وما بالك - والعياذ بالله - بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

لكن لوأخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ - بسهولة وبما جرى عليه السلف، ونقول كما قال الرازى وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: اقرأ في الإثبات «الرحمن على العرش استوى»^(١) فثبتت، وأقرأ في النفي «ليس كمثله شيء»^(٢) «ولا يحيطون به علمًا»^(٣) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، لأنه أقر قبل هذا الكلام فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفى عليلاً، ووُجدت أقرب الطرق طريقة القرآن^(٤) . . .

والحاصل أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله - عز وجل - اعتقاداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل، قد ضلوا ضلالاً مبيناً، فالصحابة - رضي الله عنهم - هل ناقشوا الرسول - ﷺ - في هذا؟ والذي نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له فيجمعون بين الإثبات وبين النفي.
إذاً موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله - عز وجل - أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إماراه بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، بل نقرأه ونقول: معناه أصبع حقيقي يجعل

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٤) انظر أول الجزء الأول ص (١٤).

وفي رواية لمسلم : «والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن
فيقول : أنا الملك ، أنا الله»^(١) .

وفي رواية للبخاري : « يجعل السموات على إصبع ، والماء
والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع »^(٢) آخر جاه .

الله عليه هذه الأمور ، ولكن لا يجوز أبداً أن تخيل بأفهاماً أو أن نقول بالستنا
إنه مثل أصابعنا ، بل نقول : الله عالم بكيفية هذه الأصابع ، فكما أنا لا نعلم
ذاته المقدسة فكذلك لا نعلم كيفية هذه الصفات من صفاته بل بكل علمها
إلى الله سبحانه وتعالى .

قوله : «ثم يهزهن» :

أي هزا حقيقاً ، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته ،
وكان الرسول - ﷺ - يقرأ هذه الآية ويقبض يده ويسلطها يقول : «يهزهن»
فصار المنبر يتحرك ويهتز لأنـه - ﷺ - كان يتكلـم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم
الله تعالى .

فإن قلت : هل نجزأ أيدينا كما فعل النبي ﷺ ؟

فاجلـواب : أنـ هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه ، فليس كلـ من
شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أنـ يشعر بالتمثيل ، فينبغي أنـ نكتـف ، لأنـ
هذا ليس بواجب حتى نقول ينـبغـي علينا أنـ نبلغ كما بلـغ الرسـول - ﷺ -
بالقول والفعل ، أما إذا كـنا نتكلـم مع طلبة علم أو مع إنسـان مـكـابر ينـفي هذا
ويريد أنـ يجعلـ الأمر إلى معنى لا إلى حقيقة ، فحيـثـنـدـ نـفـعـ كـماـ فـعـلـ الرـسـولـ ،
ـ ﷺ : فـلـوـ قـالـ قـائلـ : إـنـ اللهـ سـمـيعـ بـصـيرـ لـكـنـ قـالـ : سـمـيعـ بـلاـ سـمـعـ وـبـصـيرـ بـلاـ

(١) أخرج هذه الرواية مسلم في صفات المناقين / باب صفة القيامة ٤/٢١٤٧.

(٢) أخرجها البخاري في التفسير / باب : «وما قدروا الله حتى قدره» ٣/٢٨٥ .

بصر مع أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تؤْتُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعُدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَعِمَا يَعْظِمُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا﴾^(١) وضع أصابعه على عينه وعلى أذنه، وأبو هريرة حين حدث به كذلك^(٢)، فهذا الإنسان الذي يقول إن الله سميع بلا سمع بصير بلا بصر نقول له هكذا.

وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد، ويقول إن الله لا يقبض السموات بيمينه وأن معنى في قبضته أي في تصرفه، وهذا نقول له كما فعل الرسول،

﴿كَذَّابٌ﴾.

فالملقام ليس بالأمر السهل بل هو أمر صعب ودقيق للغاية فإنه يخشى من أن يقع أحد في مخدور كان بإمكانك أن تمسك عنه ، وهذا هو فعل الرسول - ﷺ - في جميع تصرفاته إذا تأملتها حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء مثل ما أخر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثا^(٣).

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) وآخرجه أبو داود في السنّة/باب في الجهمية ٩٦/٥، وابن خزيمة في التوحيد ص ٤٢، ٤٣)، والحاكم ١/٢٤، وقال: «صحيح ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بحرمة بن عمران وأبي يونس، والباقيون متفق عليهم»، ووافقه الذهبي على شرط مسلم، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (١٧٩)، وابن حبان (١٧٣٢) موارد، وأورده السيوطي في الدر المثمر ١٧٥/٢ : عزاء أيضاً لابن المندري، وأبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وانظر : تحفة الأشراف ٩٥/١١ رقم (١٥٤٦٧)، وجامع الأصول ٥٣/٧.

(٣) أخرجه البخاري في الحج/باب فضل مكة وبناتها ١/٤٨٨، ومسلم في الحج /باب نقض الكعبة ٢/٩٦٨ عن عائشة رضي الله عنها.

ولسلم عن ابن عمر، مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيمة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(١).

قوله: «والماء والثرى على إصبع»:

هذا لا ينافي قوله: «الأرضين على إصبع» لأنه يقال: «الماء والثرى على إصبع» أي الأرض كلها على إصبع، ويراد بالأصبع الجنس، وإلا لتناقض معنى الحديث الذي قبله «الشجر على إصبع والماء على إصبع، والثرى على إصبع» إذ النكرة إذا ذكرت بلفظ النكرة، فالثاني غير الأول غالباً، وإذا ذكرت بلفظ المعرفة فالثاني هو الأول غالباً، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي، إما اختصاراً أو اقتصاراً.

قوله: (ولسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات...»).

سبق معنى هذا الحديث، وأن المراد بالطي الحقيقى.

قوله: «ثم يقول: أنا الملك»:

يقول ذلك ثناء على نفسه، سبحانه، وتنبيها على عظمته الكاملة، وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان فهو مالك ذو سلطان.

قوله: «أين الجبارون؟»:

الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر، والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يخسرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

(١) أخرجه مسلم في صفات المتألقين/باب صفة القيمة ٤/٢٤٨.

قوله: «يطوي الأرضين سبع»:

أشار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحاً في القرآن، قال تعالى: «الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن»^(١) والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد، لأن الكيفية تتعدد المماثلة فيها، وأما السنة فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «ثم يأخذهن بشماله»:

كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكمو على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر، ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه^(٢).

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم أن الرسول - ﷺ - قال: «المقطيون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلنا يديه يمين»^(٣) وهذا

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) قال البيهقي في الأسماء والصفات ص (٣٢٤): «ذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حزنة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبد الله بن مقدم عن ابن عمر ولم يذكر في الشمال، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره عن النبي ﷺ فلم يذكر أحد منهم الشمال، وروي ذكر الشمال في حديث آخر غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بمرة تفرد بأحد هما جعفر بن الزبين وبالآخر بزيد الرقاشي وهما متrocان، وكيف يصح ذلك وصحيح عن النبي ﷺ أنه سمي كلنا يديه يمين؟! وكان من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين».

وانظر أيضاً: التذكرة للقرطبي ص (٢١٦)، فتح الباري ٣٩٦/١٣، الأنوار البهية ٢٣٥/١.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة/باب فضيلة الإمام العادل ١٤٥٨/٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها.

وروي عن ابن عباس قال: «ما السموات السبع، والأرضون
السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»^(١).

يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة «شمال» محفوظة فهي عندي لا تنافي «كلتا يديه يمين»؛ لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى فقال: «كلتا يديه يمين» أي ليس فيها نقص ويؤيد هذا قوله في حديث آدم: «اخترت يمين ربِّي وكلتا يديه يمين مباركة»^(٢) فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال يعني النقص في هذه اليد دون الأخرى قال: «كلتا يديه يمين» ويؤيده، أيضاً، قوله: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن» فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبهم وأنهم على يمين الرحمن، سبحانه. وعلى كلِّ فإن يديه - سبحانه - اثنان بلاشك، وكل واحدة غير الأخرى، إذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله - ﷺ - فنحن نؤمن بها، وإن لم تثبت فلن نقول بها.

(١) أخرجه ابن حجرير ١٧/٢٤، وفي إسناده: عمرو بن مالك التكري قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٩٦/٨: «ذكر ابن حبان في الثقات وقال: مات سنة تسع وعشرين وعائدة، وقال: يعتبر حديثه من غير رواية ابنه عنه خطبي، ويغرب». وقال الشيخ سليمان بن عبد الله كما في إبطال التهذيب ص (١٧٠): «وهذا الإسناد في نفي صحيحة».

(٢) أخرجه الترمذى مطولاً في التفسير/باب الأمر بالكتاب والشهود ٨٨/٩ وقال: «حسن غريب»، والحاکم مختصرًا ٤/٢٦٣ وصححه، ووافقة الذهبي، وابن أبي عاصم في السنة ٢٠٤ (٢٠٥)، وصححه الألبانى كما تعلقه على المشكاة ١٣٢٢/٣.

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أقيمت في ترس»^(١).

قال: قال أبوذر - رضي الله عنه - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحَلْقة من حديث أقيمت بين ظهري فلة من الأرض»^(٢).

قوله: «أنا الملك»:

هذه الجملة كلنا جزأها معرفة، وإذا كان المبتدأ أو الخبر كل منها معرفة فإن ذلك من طرق الخصر، أي أنا الذي لي الملكية المطلقة لا يناظعني فيها أحد.

قوله: «في كف الرحمن»: فيه إثبات الكف.

قوله: «إلا كخردلة»: هي حبة نبات صغيرة جداً، يضرب بها المثل في

(١) أخرجه ابن جرير ٣/٧٨.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله كما في إبطال التنديد ص (١٧٠) «رواه أصبع بن الفرج بهذا الطريق واللفظ وهو مرسل، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف».

(٢) أخرجه محمد بن أبي شيبة في العرش (٥٨) وفي إسناده إسماعيل بن مسلم المكي كما في السلسلة (١٠٩) وهو متروك، وفيه أيضاً: المختار بن غسان مجھول لا يعرف بجرح ولا تعديل، انظر التهذيب ١٠/٦٨، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٠٤ - ٤٠٥) وفيه يحيى بن سعيد ٣/١٢٩: «بروي المقلوبات والملزقات لا يجوز الاحتجاج إذا انفرد»، وفيه أيضاً ابن جرير وهو مدلس وقد عنده.

وأخرجه أيضاً من طريق آخر وفيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني كذبه أبو حاتم وأبو زرعة كما في الميزان ١/٧٢ - ٧٣.

وأخرجه ابن مردوخ كما في تفسير ابن كثير ١/٣٠٩، ٣١٠ وفيه مجھول، وضعيفان.

وعن ابن مسعود قال: «بَيْنَ السَّمَاوَاتِ الْدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسَائِهَا عَامٌ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسَائِهَا عَامٌ، وَبَيْنَ السَّمَاوَاتِ السَّابِعَةِ وَالْكَرْسِيِّ خَمْسَائِهَا عَامٌ، وَبَيْنَ الْكَرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسَائِهَا عَامٌ، وَالْعَرْشُ فَوْقُ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقُ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ» أخرجه ابن مهدي عن حاد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي، رحمه الله تعالى. قال: وله طرق^(١).

الصغر والقلة، وهذا يدل على عظمته سبحانه، وأنه - سبحانه - لا يحيط به أحد، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريري، لأنه - تعالى - لا تدركه الأ بصار، ولا تخيط به الأفهام.

قوله: «قال: ابن جرير»:

هو المفسر المشهور، يرحمه الله، وله تفسير يعتبر تفسيراً آثارياً، يعتمد فيه على الآثار، لكن آفته أنه لم يمحض هذه الآثار، وأتى بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضاً، وكأنه - رحمه الله - أراد أن يقييد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولاً إلى القاريء، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحضه ولكن لم يتيسر إليه ذلك.

قوله: «ما الكرسي في العرش»:

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص(٢٦)، وفي النقض على المرسي ص(٧٣، ٩٠، ١٠٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص(١٠٥، ١٠٦، ٣٧٦، ٣٧٧)، والطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، والبيهقي في الأسماء ص(٤٠١)، والخطيب في الموضع ٤٧/٢، وقد صححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص(١٠٠)، والذهباني في العلو ص(٦٤)، وقال الهيثمي ٦٨/١ بعد ما عزاه للطبراني «رجاله رجال الصحيح».

ذكر ابن القيم وغيره أن السموات السبع، والأرضين السبع في الكرسي كحلقة القيت في فلة من الأرض، وأن فضل الكرسي كفضل الفلة على هذه الحلقة، وهذا يدل على عظمته، عز وجل، فيكون مناسباً لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب.

قوله: «وعن ابن مسعود...»:

هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع، إلا إذا كان من عرف بالأخذ عن الإسرائييليات، وابن مسعود - رضي الله عنه - لم يعرف بذلك.

قوله: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسة عشر عام»:

وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: «إن كثف كل سماء خمسة عشر عام»^(١) وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسة عشر، وإن صح الحديث فمعنى أنه علو الله - عز وجل - بعيد جداً.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بينما وبين بعض النجوم وال مجرات مسافات عظيمة؟ .

يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - فإننا نضرب بها عارضها عرض الحائط، لكن إذا قدر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع، إن أمكن الجمع بينهما بأي

(١) هذا النقط قطعه من حديث الأوعال كما هو في المسند ٢٠٦/١، والمستدرك ٤١٢/٢ وغيرها.

وانظر تخریج حديث الأوعال بکامله ص (٣٠٢) مع بيان ضعفه.

طريق من طرق الجمع.

الثاني: إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث، لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تختلف شيئاً حسياً واقعاً أبداً، كما قالشيخ الإسلام في كتابه «العقل والنقل»: «لا يمكن للدلائل القطعية أن يتعارضاً أبداً، لأن تعارضها يقتضي إما رفع النقيضين، أو جمع النقيضين وهذا مستحيل، فإن ظُنَّ التعارض بينها فإما أن لا يكون تعارض، ويكون الخطأ من الفهم، وإما أن يكون أحدهما ظنياً والآخر قطعياً».

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه خالفاً لظاهر شيء من الكتاب أو السنة فإن ظاهر الكتاب يؤول حتى يكون مطابقاً للواقع. مثال ذلك: قوله تعالى: «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً ميراً»^(١) وقال تعالى: «وجعل القمر فيهن نوراً»^(٢) أي في السموات. والأية الثانية أشد إشكالاً من الآية الأولى، لأن الآية الأولى يمكن أن نقول المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هي المشكلة جداً، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس في السماء نفسها بل هو في فلك بين السماء والأرض. الجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مرصع في السماء كما يرصع المسار في الخشبة دلالة قطعية فإن قوله: إننا وصلنا القمر ليس صحيحاً بل وصلوا جرماً في الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحاً وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السماء فآية الفرقان قال الله فيها: «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً ميراً»^(٣) فنقول: إن المراد بالسماء العلو كقوله تعالى: «أنزل

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٣) سورة نوح، الآية: ١٦.

وعن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ، ﷺ : « هل تدرؤن كم بين السماء والأرض؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : بينها مسيرة خمسة سنّة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسة سنّة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسة سنّة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله - تعالى - فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم » . أخرجه أبو داود وغيره^(١) .

من السماء ماء^(٢) ولماء ينزل من السحاب بين السماء والأرض ، كما قال الله تعالى : « والسحاب المسخر بين السماء والأرض^(٣) » وهذا التأويل للأية قريب .

(١) أخرجه أحمد ١/٢٠٦، ٢٠٧، وأبو داود في السنة / باب في الجهمية ٥/٩٣، والترمذني في تفسير القرآن / سورة الحاقة ٩/٦٠ وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه في المقدمة / باب فيها أنكرت الجهمية ١/٩٦، وعثيأن الدارمي في الرد على الجهمية ص(٢٤)، وفي النقض على المرسي ص (٩٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٧)، وابن خزيمة في التوحيد (١٠١)، (١٠٢)، والأجرى في الشريعة (٢٩٢، ٢٩٣)، ومحمد بن أبي شيبة في العرش (٩٠، ٩)، والحاكم ٢/٢٨٨، ٤١٢ وصححه ، واللالكاني (٦٥١)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/٢، والبيهقي في الأسماء ص (٣٩٨)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/١٤٠، وابن حزم في الفصل ٢/١٠٠، وابن قدامة في العلو ص (٧) والمزي في تهذيب الكمال ٢/٧١٩، والذهبي في العلو (٤٩-٥٠).

من طريق عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس ، وقال الذهبي في الميزان ٢/٤٦٩ : « فيه - أبي عبدالله - فيه جهالة قال البخاري : لا يعرف له سماع من الأحنف بن قيس » . وهذا الحديث يعرف بحديث الأواعل ، وقد قال ابن العربي في عارضته : « إن خبر الأواعل متلطف من الإسرائيлик » ، وانظر تهذيب السنن لابن القيم ٧/٩٢، ٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٤ . (٣) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

وأما قوله: «وجعل القمر فيهن نوراً» فيمكن فيها التأويل، أيضاً، بأن يقال: في جهنم، وجهة السموات العلو، وحيثند يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

قوله: «واله فوق العرش»:

هذا نص صريح بإثبات علو الله، تعالى، علو ذاتياً، وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ - علو الصفة: وهذا لا ينكره أحد يتنسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله.

ب - علو الذات وهذا أنكره بعض المتشددين للإسلام فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: «واله فوق العرش» أي في القوة، والسيطرة، والسلطان، وليس فوقه في الذات، ولا شك أن هذا تحرير. والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ - من قال: إن الله بذاته في كل مكان.

ب - من قال: إنه لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمالي ولا متصل بالخلق، ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار، والعياذ بالله، وهذا قال بعض العلماء: لو قيل: لنا صفتان العدم ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

ففرروا من شيء دلت عليه النصوص، والعقول، والفتور، إلى شيء تنكره النصوص، والعقول، والفتور.

قوله: «العباس»: يقال العباس، وعباس، و«آل» هنا لا تفيد التعريف، لأن عباس معرفة لكونه علماً، لكنها للمع الأصل كما يقال: الفضل لفضله، والعباس لعبوسه على الأعداء. قال ابن مالك:

و بعض الأعلام عليه دخلا
للمح ما قد كان عنه نقلًا^(١)

قوله: «هل تدرؤن»:

هل: استفهامية، يراد بها أمران:
أـ التشویق.

بـ التنبیه إلى ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالى: «هل أتاك حديث
الغاشية»^(٢) هذا تنبیه وتشویق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: «هل أدلکم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم»^(٣) هذا
تنبیه وتشویق على شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.
وقوله: «قل هل نبيكم بالأخرسین أعمالا»^(٤) تنبیه وتحذیر.

وقوله: «هل أنبيكم بشر من ذلك مثوبة عند الله»^(٥) تنبیه وتحذیر.
قوله: «كم»: استفهامية.

قوله: «قلنا الله ورسوله أعلم»:

وذلك، لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يعلمه بما لا يدركه
البشر، وهذا أتى بالواو.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: «الله ورسوله أعلم» إنه - ﷺ - أعلم
الخلق بشرع الله وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت»^(٦) لأن هذا في باب
القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول - ﷺ - مشاركاً لله.

(١) ألفية ابن مالك ص (١٥).

(٢) سورة الغاشية، الآية: ١.

(٣) سورة الصف، الآية: ١٠.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٦) سبق ١ / ٥٣.

ففي الأمور الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، وفي الأمور الكونية لا يقال ذلك.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: «وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله»^(١) بعد موت الرسول - ﷺ - وتغدر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله لا يرى فلا تجوز كتابته، لأنه كذب عليه ﷺ.

قوله: «خمسة سنّة»: الميم في خمسة مكسورة والألف لا ينطق بها.

قوله: «وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض»: وذلك خمسة سنّة.

قوله: «والله تعالى فوق ذلك»:

هذا دليل على العلو العظيم لله، عز وجل، وأنه - سبحانه - فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، كالسموات ولا غيرها، وعلىه فإنه - سبحانه - لا يوصف بأنه في جهة تحيط به، لأن ما فوق السموات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال: إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

وهذا في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقاً، وينكرون العلو ظناً منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر.

وليس كذلك، لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ماثم

إلا الله، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبداً.

فالجهة إثباتها الله فيه تفصيل، أما إطلاق لفظها نفيها وإثباتها فلا نقول به،

لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، ولكن نفصل فنقول: إن الله في جهة العلو؛ لأن الرسول - ﷺ - قال للجارية أين الله؟

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

و«أين» يستفهم بها عن المكان، فقالت: في السماء.
 فأثبتت ذلك، فاقرها على ذلك وقال: «أعنيها فإنها مؤمنة»^(١).
 وأهل التحرير يقولون: «أين» بمعنى «من» أي من الله؟ قالت في
 السماء أي هو من في السماء وينكرون العلو.
 وقد رد عليهم ابن القيم - رحمه الله - في كتبه، ومنها التوبية وقال لهم:
 اللغة العربية لا تأتي فيها «أين» بمعنى «من»، وفرق بين «أين» و«من».
 فالجهة لله ليست جهة سفل لوجوب العلو له فطرةً وعقلاً وسمعاً،
 وليس جهه علو تحيط به، لأنه - تعالى - وسع كرسيه السموات والأرض، وهو
 موضع قدميه، فكيف يحيط به - تعالى - شيء من خلقاته؟
 فهو في جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال إن شيئاً يحيط به، لأننا
 نقول: إن ما فوق العرش عدم إلا الله، سبحانه، وهذا قال: «واله تعالى فوق
 ذلك».

قوله: «وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»:
 وقوله: «أعمال» إن قرنت بالأقوال صار المراد، بها: أعمال الجوارح، وإن
 أطلقت شملت أعمال الجوارح، وأقوال اللسان، وأعمال القلوب، وعليه يشمل
 كل ما يتعلق باللسان، أو القلب، أو الجوارح بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى
 عليه شيء من أعمال بني آدم في المستقبل فهو يعلم ما يكون فضلاً عنها وقع، قال
 تعالى: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم»^(٢) أي ما يستقبلونه، وما مضى
 عليهم، ولما قال فرعون لموسى: «فما بال القرون الأولى»، أي: ما شأنها

(١) أخرجه مسلم في المساجد/باب تحريم الكلام في الصلاة ٣٨٢/١ عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٠.

قال: «علمها عند رب في كتاب» أي محفوظة «لا يضل رب» لا يجهل «ولا ينسى»^(١) لا يذهب عما مضى ، ولا يجهل عما يستقبل ، سبحانه وتعالى .

والنبي - ﷺ - صدر هذا الأمر بـ«هل» الدالة على التشويق والتنبيه ، من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة وهو أنه - تعالى - فوق كل شيء بذاته ، وأنه محظوظ بكل شيء في علمه ، لقوله: «وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» فإذا علمتنا ذلك أوجب لنا تعظيمه ، والحذر من مخالفته؛ لأنه فوقنا فهو عال علينا وأمره محظوظ بنا .

وفي الحديث صفتان لله : ثبوتية : وهي العلو .

وسلبية : ليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم ، ولا يوجد في صفات الله - عز وجل - صفة سلبية مخضبة ، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لمعنى كامل ، أي نفي عنه ذلك لكمال علمه ، ونفي عنه اللغو لكمال قوته ، ونفي عنه العجز لكمال قدرته ، فاتفقاء هذه الصفات عنه لا لأنه غير قابل لها من حيث العقل ، فممكن أن يتحقق هذه الصفات عجز لكن باعتبارها مضافة إلى الخالق لا يمكن ذلك لا عقلاً ، ولا سمعاً أن يتحققها شيء من النقص ، وهذا إذا نفي الله عن نفسه شيئاً من الصفات فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال صدتها ، قال تعالى: «لا تأخذه سنة ولا نوم»^(٢) السنة: النعاس ، والنوم: الإغفاء العميق ، وذلك لكمال حياته وقيوميته ، إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلى النوم ولو نام ما كان قياماً على خلقه ، لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم ، وهذا كان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم ، ولأن النوم في الجنة يذهب عليهم وقتاً بلا فرح ولا سرور ولا لذة ، لأن السرور فيها دائم ،

(١) سورة طه ، الآيات: ٥٢،٥١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية: ٢٥٥ .

.....
ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها.
وليس في صفات الله نفي محض لأنه عدم، ولا ثناء فيه ولا كمال، بل هو
لا شيء؛ ولأن النفي أحياناً يرد لكون الم محل غير قابل له مثل قوله: الجدار لا
يظلم.

وقد يكون النفي للذم، أي تبني عنه صفة ذم تدمه بذلك قال الشاعر:
قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
وهذا لضعفهم فهو ذم، وقال الشاعر:
لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهلسوء إحسانا
وقوله تعالى في الحديث القديسي: «إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته
بينككم محراً»^(١) هذا لكمال عدله وإنما فهو قادر على أن يظلم، إذ لو شاء لعذب
المطين، وتحريم الشيء يدل على إمكانه لو لا أنه حرمه على نفسه.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة / باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٤ عن أبي ذر رضي الله عنه.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى : «والأرض جيماً قبضته يوم القيمة». الثانية : إن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمانه - ﷺ - لم ينكروها ولم يتأنلوها. الثالثة : أن الخبر لما ذكر للنبي ﷺ : صدقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك . الرابعة : وقوع الفصحك من رسول الله - ﷺ - لما ذكر الخبر هذا العلم العظيم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله ، تعالى : «والأرض جيماً قبضته يوم القيمة». وقد تقدم من حديث ابن مسعود حيث أقر النبي ﷺ الخبر على ذلك^(١).

الثانية : أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمانه ﷺ لم ينكروها ولم يتأنلوها . كأنه يقول : إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها؛ لأنهم لم يكذبواها ، ولم يتأنلوها وجاء قوم من هذه الأمة فقالوا ليس لله أصابع ، والمراد بها القدرة ، فكأنه يقول اليهود خير منهم وأعرف بالله .

الثالثة : أن الخبر لما ذكر للنبي ﷺ : صدقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك . ظاهر كلام المؤلف بقوله : «ونزل القرآن» أنه بعد كلام الخبر ، وليس كذلك لأنه في حديث ابن مسعود قال : ثم قرأ قوله : «وما قدروا الله حق قدره» وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل ، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الفصحك من النبي ﷺ لما ذكر الخبر هذا العلم العظيم :

(١) سبق ص (٢٨٦).

الخامسة: التصریح بذکر الیدین، وان السموات فی الید
الیمنی والأرضین فی الآخری. السادسة: التصریح بتسمیتها
الشمال. السابعة: ذکر الجبارین والمتکبرین عند ذلك. الثامنة: قوله:
کخردلة فی کف أحدکم. التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلی السماء.
العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلی الكرسي.

ففیه دلیل علی جواز الضحك فی تقریر الأشياء؛ لأن الضحك یدل علی
الرضا، وعدم الكراهة.

الخامسة: التصریح بذکر الیدین، وان السموات فی الید الیمنی
والأرضین فی الآخری.

قوله: «فی الید الآخری» لا یعنی أنه ینفی ذکر الشمال لما ذکره فی المسألة
الثانية وهي:

السادسة: التصریح بتسمیتها الشمال.
وقد سبق الكلام علی ذلك.

السابعة: ذکر الجبارین والمتکبرین عند ذلك:
ووجه ذکرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن فليقولوا ذلك تحديا لهم.

الثامنة: قوله: کخردلة فی کف أحدکم.
يعنی بذلك قوله: «ما السموات السبع والأرضین السبع فی کف الرحمن
إلا کخردلة فی کف أحدکم»، وفيه صحة إطلاق الكف علی يد الله، عز وجل.
التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلی السماء: حيث ذکر أنها بالنسبة
للكرسي كدرارهم سبعة القيت فی ترس.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلی الكرسي: لأنه جعل ذلك كحلقة
القيت فی فلأة من الأرض.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء. **الثالثة عشرة:** كم بين السماء السابعة والكرسي. **الرابعة عشرة:** كم بين الكرسي والماء. **الخامسة عشرة:** أن العرش فوق الماء. **السادسة عشرة:** أن الله فوق العرش.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء:
ولم أر من قال إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي لحديث: «أن الله يضع كرسيه يوم القيمة»^(١) وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

لذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم فقالوا في قوله تعالى:
﴿وَسَعَ كَرْسِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي علمه.
والصواب أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه،
سبحانه.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء؟
الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي؟
الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء؟
الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.
السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

(١) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «... . يوم ينزل الله فيه على كرسيه ينط به كما ينط الرجل من تضليله كمسافة ما بين السماء والأرض». أخرجه الحاكم مطولا في التفسير/تفسير سورة بني إسرائيل ٣٦٤ / ٢ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي: «قلت: لا والله فعندهان ضعفه الدارقطني والباقيون ثقات».

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض. **الثامنة عشرة:**
كثف كل سماء مائة سنة.
النinth عشرة: أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه
خمسين سنة، والله أعلم.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض؟
الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسين سنة.
النinth عشرة: أن البحر الذي فوق السموات بين أسفله وأعلاه
خمسين سنة.
وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل، ويستفاد من أحاديث في
الباب:
١ - أن الله لا ينفعى عليه شيء من أعمال بني آدم.
٢ - التحذير من مخالفة الله عز وجل.
والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصل الله وسلم على نبينا محمد،
وأسأل الله أن يغتنم لنا ولكلم بالتوحيد، آمين.

تم بحمد الله ومتنه الجزء الثالث
من كتاب القول المقيد على كتاب التوحيد
وبه تم الكتاب

فهرس الآيات

الجزء الثالث

الفاتحة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
مالك يوم الدين	٤	٢٨٨٠٧

البقرة

٢٨٢	٢٣	وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
٢٣٨	٤٠	وأوفوا بعهدي أوف بعهدهم
١٧٨	٦٥	فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها
٢٤٥	٧٢	إذ قتلت نفساً فاداره تم فيها
٢٤٥	٩٣	إذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور
١٠٤	١٠٤	يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا
٢٠١	١١٤	ومن أظلم من منع مساجد الله
٣٠٢	١٦٤	أنزل من السماء ماء
٢٦٨	٢١٦	كتب عليكم القتال وهو كره لكم
٢٦٠	٢٢٥	لا يؤاخذكم الله باللغو في أيهانكم
٢٦٠	٢٢٦	والذين يؤذون من نسائهم

الآية	رقم الصفحة	رقم الآية
ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم لا تأخذه سنة ولا نوم	٢٥٣	١٦٥
رب أرقى كيف تحب الموتى كمثل صفوان عليه تراب	٢٥٥	٣٠٧
لا يسألون الناس إلهاً لا يكلف الله نفساً إلا وسعها	٢٦٠	١٣٤
	٢٦٤	٨٥
	٢٧٣	٢٥٠
	٢٨٦	١٥٩

آل عمران

٨	٢٦	قل اللهم مالك الملك
١٦٣-١٥٩	١٥٢	منكم من يريد الدنيا
١٤٨، ١٤٣، ١٢٢	١٥٤	يقولون لو كان لنا من الأمر شيء
١٢٣	١٥٦	يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا
١٩٠	١٥٨	ولئن متم أو قتلتم
٢٤٣	١٦١	ومن يغلل يأت بها غل يوم القيمة
٦٢، ٥٧	١٦٤	لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم
١٧٤، ١٦٩	١٦٥	رسلاً مبشرين ومنذرين
١٥٩	١٦٧	يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم
١٢٢	١٦٨	الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا
١٤٧	١٧٢	إن الناس قد جعوا لكم فاخشوهם
١٤٧	١٧٤	فانقلبوا بنعمة الله وفضل
٨٨	١٨٧	وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب

الآية رقم الآية رقم الصفحة

النساء

٦٢٠،٥٧	١	هو الذي خلقكم من نفس واحدة وقد أفضى بعضكم إلى بعض
٥٨	٢١	اللائي دخلتم بين
٥٨	٢٣	ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات
٢٧٨	٢٥	الرجال قوامون على النساء
١٠١	٣٤	أولاً مستم النساء
٥٨	٤٣	كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها
١٨٩	٥٦	إن الله يأمركم أن تزدوا الأمانات إلى أهلها
٢٩٤	٥٨	فإن تنازعتم في شيءٍ
١٠٣،٦٩	٥٩	ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بها أنزل إليك
٢٤	٦٠	ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك
٢٦٤	٦٤	ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين
٢٨٣	٦٩	يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله
٣٥	١٠٨	إن الله لا يغفر أن يشرك به
٢٦٤	١١٦	يخدعون الله وهو خادعهم
١٤٢		ويقولون نؤمن ببعض ونکفر ببعض
١٧٢،١٥١،١٥٠		رسلاً مبشرين ومنذرين
١٦٣	١٦٥	

المائدة

٢١٠،٢٠٨،١٠٥	٢	وتعاونوا على البر والتقوى
١٥٩	٨	إن الله خير بما تعملون

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٢٣٨	١٢	ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل
٢٣	٤٤	ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الكافرون
٢٣	٤٧	ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الفاسقون
٢٣-٢٠	٥١-٥٠	أفحكم الجاهلية يبغون
٣٠٤	٦٠	قل هل أبشككم بشر من ذلك مثوبة عند الله
٢٢٠، ٢١٩	٨٩	واحفظوا أيها نكم
٤٢	١١٠	تبرىء الأكمة والأبرص بإذني
١٧٥	١١٩	على فترة من الرسل

الأنعام

٢٠١	٢١	ومن أظلم من افترى على الله كذباً
١٦٤	٥٩	وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو
١٠٢	٦٢	ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق
١١٧	٦٥	أو يلبسكم شيئاً
٣١	٦٨	وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم
٢٨٢	٧١	كالذى استهونه الشياطين في الأرض
١٦٥	١١٢	ولوشاء ربك ما فعلوه
١٦٩، ١٦٢، ١٣٦	١٤٨	لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا

الأعراف

١٧٨	٢٣	ربنا ظلمتنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحنا
٢٨٣	١٥٨	قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً
١٥٧، ٧٢، ١٣	١٨٠	ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
	٢٤٧	

رقم الآية رقم الصفحة

٥٧ ١٩٠

الآية
فلي آتاهما صاححاً جعلا له شركاء

الأنفال

١٦٢	١٧	وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى
١٥٥	١٠٥	فمنهم شقي وسعيد
٢٧١١١٩، ١١٨		ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك
٣٠	١٢٣	له غيب السموات والأرض

يوسف

٩٩	٢٣	إنه رب أحسن مثواي
١٠١	٢٥	وألفيا سيدها لدی الباب
٢٥٦	٨٠	فلن أبح الأرض حتى يأذن لي أبي
٤٢	١١١	لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

الرعد

٣٠٢	١٧	والسحاب المسخر بين السماء والأرض
١١٨	٢٢	والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم
١٣٢	٤١	لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

إبراهيم

٣٢ ٤ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه

رقم الآية رقم الصفحة

الآية

الحجر

٨ ٨٦

إن ربك هو الخلاق العليم

النحل

١٦٦	٣٢	ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون
٢٧	٣٦	ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً
٢٨١	٤٤	يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله ولرسول
٢٣٢	٣٠	ويمكرون ويمكر الله
٢٤٤	٥٨	واما تختلفن من قوم خيانة
٢٣٣	٧١	وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل

التوية

٢٤٤	٧	فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
٢٥٠	٢٩	حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون
٣٤، ٢٨	٦٧	ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب
٦٠ ٧٦، ٧٥		ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله
٢٤٨	٩٧	الأعراب أشد كفراً ونفاقاً
٣٠٥	١٠٥	وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
١٧٨	١١٨	وعلى الثلاثة الذين خلفوا
٢٤٣	١٢٣	يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار
١٥	١٢٨	بالمؤمنين رءوف رحيم

الآية رقم الآية رقم الصفحة

يونس

٨	٣١	قل من يرزقكم من السماء والأرض
٢٣٦	٥٣	ويستبئرونك أحق هو
١٩٦٩٧، ٩٦		إن الذين حقت عليهم كلمة ربك
١٩٦	١٠١	فما تغنى الآيات والنذر

هود

٤٠٧	٩٨	يقدم قومه فأوردهم النار
٤١	٥٣	وما بكم من نعمة فمن الله
٧٠	٥٩، ٥٨	وإذا بشر أحدهم بالأنى
١٥٧، ٨٤	٦٠	للذين لا يؤمنون بالأخرة مثل السوء
٢٣٨	٩١	وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم

الإسراء

٢٨٢	١	سبحان الذي أسرى بعده ليلاً
٢٨٢	٣	ذرية من حلنا مع نوح
٤	٤	و قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب
٤	٢٣	و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إيه
٢٢٥	٣٢	ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة

الكهف

٣٠٤	١٠٣	قل هل نبيكم بالأخررين أعمالاً
-----	-----	-------------------------------

رقم الآية رقم الصفحة

الآية

مريم

١٧٤ ١٢

يا يحيى خذ الكتاب بقوة
إني عبد الله آتاني الكتاب

١٧٤ ٣٠

طه

٢٩٢ ٥

الرحمن على العرش استوى

٣٠٧٥٢،٥١

علمها عند ربها في كتاب

٣٠٦٠٢٩٢ ١١٠

ولا يحيطون به علما

١٧٨ ١٢٢

ثم اجتباه ربه فتاب عليه

١٧٥ ١٣٤

لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً

الأنبياء

٢٧١ ١٥

فيما زالت تلك دعواهم

٩٢ ٢٣

لا يسأل عنها يفعل وهم يسألون

٤٣ ٣٥

ونبلوكم بالشر والخير فتنة

١٨٧ ٤٧

ونضع الموزين القسط ليوم القيمة

٢٨٦ ١٠٤

وما قدروا الله حق قدره

الحج

٤٧ ١٥

فليمدد بسبب إلى السماء

٩٩ ١٨

ولله يسجد من في السموات والأرض

١٨٩ ٢٢

وذوقوا عذاب الحريق

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٨١	٢٥	ومن يرد فيه بالحاد بظلم
١٨٧-١٦٥	٧٠	ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض
٢٠٣،٨	٧٣	إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً
٢١٦	٧٨	وما جعل عليكم في الدين من حرج

المؤمنون

٦٣١٣،١٢		ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين
٨	٨٨	قل من بيده ملکوت كل شيء

النور

٥٢	٩	والخامسة أن لعنة الله عليها
٢٢٤	٢٤	يوم تشهد عليهم أسمتهم وأياديهم
٩٧	٣٢	وأنكحوا الأيامى منكم
٢٨١	٦٣	لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم ببعض

الفرقان

٢٨٢	١	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده
١٢٨	٢٤	أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا
٣٠١	٦١	تبارك الذي جعل في السماء بروجاً

النمل

٤٣	٤٠	هذا من فضل رب ليبلوني أشكراً أم أكفر
٤٩	٥٩	الله خير أما يشركون

رقم الآية رقم الصفحة

الآية
إنه خبير بما تفعلون

١٥٩ ٨٨

القصص

١١٧ ٨٨

كل شيء هالك إلا وجهه

الروم

١٩٧-٨٤ ٢٧

وله المثل الأعلى في السموات والأرض

١٧٩ ٤١

ظهر الفساد في البر والبحر

لقمان

١٧٦ ٣٤

وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً

الأحزاب

١٤٤ ١٧

قل من ذا الذي يعصكم من الله

١٩٧ ٣٦

وما كان مؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

سما

٢٣٧ ٣

وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة

٨٠ ٢٢

قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون

٥٣ ٢٤

وإنما أوصيكم لعلى هدى

فاطر

٧ ٣

هل من خالق غير الله يرزقكم

رقم الآية رقم الصفحة

الآية

يس

ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان
إنها أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون
٢٨٢٦١، ٦٠
١٦٥ ٨٢

الصافات

وإله خلقكم وما تعملون
١٥٩ ٩٦

ص

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلأ
١٥٢، ١٥١ ٢٧
الزمر

قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم
قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم
الله خالق كل شيء
لئن أشركت ليحبطن عملك
٢٦٦ ١٥
٢٦ ٥٣
١٦٥، ١٥٩ ٦٢
٤٠ ٦٥

غافر

غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب
يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء
أدخلوا آل فرعون أشد العذاب
إنا لننصر رسانا والذين آمنوا
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم
٢٧٨ ٣
٢٨٨ ١٦
٢٠٩، ٢٠٧ ٤٦
١٨٧ ٥١
٩١، ٧٥ ٦٠

الآية

رقم الآية رقم الصفحة

فصلت

١٨٤، ١٤١	١١-٩	قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين
٢٢٤	٢٠	حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم
١٩٧	٣٩	أنك ترى الأرض خاشعة
٧٩	٤٠	إن الذين يلحدون في آياتنا
٣٩-٥١-٤٧		إليه يرد علم الساعة

الشوري

٢٠	١٠	وما اختلفتم فيه من شيء
١٤٩، ١١٨، ٧٧	١١	ليس كمثله شيء وهو السميع البصير
٢٩٢		
٣٨	٤٠	فمن عفا وأصلح فأجره على الله

الزخرف

١٤٩	٥٥	فلما آسفونا انتقمنا منهم
٢٣١	٨٦	إلا من شهد بالحق وهم يعلمون

الدخان

١٥١	٣٩-٣٨	وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لا عين
-----	-------	--

الأحقاف

١٤١	١١	تدمر كل شيء بإذن ربها
-----	----	-----------------------

رقم الآية رقم الصفحة

الآية

محمد

ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا
١٠٢ ١١

الفتح

ليزداد الذين آمنوا إيمانا
١٣٤ ٤
الظانين بالله ظن السوء
١٤٧ ٦
بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون
١٥١ ١٢

الحجرات

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا
٦٣ ٩
يمتنون عليك أن أسلموا
١٤ ١٧

الطور

فليأتوا بحديث مثله
٢٠٣، ٢٠٢ ٣٤

الرحمن

كل من عليها فان ويبقى وجه ربك
٢٨٩، ١١٨ ٢٧-٢٦
يسأله من في السموات والأرض كل يوم
١٦٨ ٢٩
سنفرغ لكم أية الثقلان
٧٨ ٣١
هل جزاء الإحسان إلا الإحسان
١٤ ٦٠
تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام
١١٨ ٧٨

الآية
الواقعة

١٦٦	٢٤	جزاء بما كانوا يعملون
٢٦٠	٧٥	فلا أقسم بمواقع النجوم

الحديد

١٢٨	١٠	لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل
١٨٧، ١٨٢، ١٧١	٢٣-٢٠	ما أصحاب من مصيبة في الأرض
١٧٤	٢٥	لقد أرسلنا رسالنا بالبيانات

المجادلة

٢٢٣	٨	يقولون بأسفهم لولا يعذبنا الله
-----	---	--------------------------------

الحاشر

٣٣	٨	للقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم
----	---	---

المتحننة

٢٤٦	١	يا أيها الذين آمنوا لا تخدعوا عدوكم وعدوكم أولياء
٢٥٦	١٠	ذلكم حكم الله يحكم بينكم

الصف

١٧٧	٥	فليما زاغوا أزاغ الله قلوبهم
٣٠٤	١٠	هل أدلّكم على تجارة تنجيكم

الآية

رقم الآية رقم الصفحة

المنافقون

٣٣ ٤

يحسرون كل صيحة عليهم

التفاين

٢٣٧، ٩٠	٧
٦٢	١٥
٢٥٣، ١٥٩	١٦

قل بلى وربى لتبعثن
إنما أموالكم وأولادكم فتنة
فانقوا الله ما استطعتم

الطلاق

٢٩٦ ١٢

الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثاهم

الحرريم

١٠٢	٤
٢٤٣-٣٨	٩

وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه
يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين

الملك

٨	١
١٦٠	٢
٦٣	٥

تبارك الذي بيده الملك
ليبلوكم أياكم أحسن عملاً
ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

نوح

٣٠١ ١٦

وجعل القمر فيهن نوراً

الآية		رقم الآية رقم الصفحة
المدثر		
١٣٤	٣١	وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا
القيامة		
٢٦٠	١	لَا أَقْسُمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ
الإنسان		
١٥	٢	إِنَّا خَلَقْنَا إِلَيْكُم مِّنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجَ نَبْتَلِيهُ
النازعات		
٢٥٠	٤٢	يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا
التكوير		
١٥٩	٨	لَمْ شَاءْ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمْ
١٦٣	٢٩	وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
المطففين		
١٨٧	٦٥	لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
٢٢٤	١٥	كَلَّا إِنَّهُمْ عَنِ رَبِّهِمْ يَوْمًا لَّمْ يَحْجُوْنَ
الاشتقاق		
٢٦٠	١٦	فَلَا أَقْسُمُ بِالشَّفَقِ

الآية	رقم الآية رقم الصفحة
الأعلى	
الذي خلق فسوئي	٢١٣ ٢
الغاشية	
هل أتاك حديث الغاشية	٣٠٤ ١
الليل	
والليل إذا يعشنى	٥٨ ١
الضحى	
ووجدك عائلاً فأغنى	٢٢٦ ٨
الشرح	
ألم نشرح لك صدرك	٤٨ ١
الزلزلة	
يومئذ تحدث أخبارها	٢٢٤ ٥-٤
التين	
أليس الله بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ	٢٠ ٨

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
		العصر
٢٦٦	٣-١	والعصر إن الإنسان لفي خسر
١١٩	٢-١	الاخلاص قل هو الله أحد الله الصمد

فهرس أحاديث الجزء الثالث

الصفحة	الراوي	الحديث
٣١٤	العباس بن عبد المطلب	أتنزل في دارك غداً
٢١٤، ٩٣	أبوهريبة	اثنتان في الناس هما بهم كفر
٩	أبوهريبة	اجتبوا السبع الموبقات
٢٢١	ابن مسعود	أحسن الناس الله محمد
٨٩	عقبة بن عامر	أحسناها الفأل ولا ترد مسلماً
١٥٦	عمر بن الخطاب	أخرجوا المشركين من جزيرة العرب
١٥٦		أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب
٢٧٢	أنس	أخطأ من شدة الفرج
٢١٨	أنس	إذا أراد الله بعده خيراً عجل له
٣٣٩	قتيلة	إذا أرادوا أن يخلفوا أن يقولوا
٢٧٩	جابر بن عبد الله	إذا خطب احرت عيناه
١١٨	أبومالك الأشعري	أربع من أمتي لا يتركونهن
٩٥		أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب
٢٢٣	أبوهريبة	أسعد الناس بشفاعتي
١٢	أبوبردة	أسمعت أباك يحدث عن رسول الله في شأن ساعة الجمعة

الصفحة	الراوي	ال الحديث
١٢٦	زيد بن خالد	أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر
١٧١	ابن عباس	واعلم أن الأمة لو اجتمعوا
٣٢٦	طلحة بن عبيد الله	أفلح وأيه إن صدق
٢٥٧		اقتدوا بالذين من بعدي
٢٣٨، ٢٢٢	أبوسعيد	ألا أخبركم بها هو أخوف عليكم عندي
١٣٢	النعمان بن بشير	ألا إن في الجسد مضغة
١٧٩	ابن عباس	التمسوها في العشر
٤٠	ابن مسعود	ألا هل أنتكم ما العضة؟
٢٦٠	عدي بن حاتم	أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه
٢٠٦	أبوهريرة	الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة
٩٢	ابن مسعود	الطبرة شرك
٢٩٤	ابن مسعود	اللهم إني عبدك وابن عبدك
٣٤٣	الطفيل	أما بعد فإن طفلاً رأى رؤيا
٨١	أبوموسى	إما يحرق ثوبك وإما أن تجد منه رائحة خبيثة
٢٤		أمر أن يفرق كل ذي رحم من المجروس
٢٢٢		إن عظم الجزاء من عظم البلاء
١٦٥	أبوهريرة	أنا عند ظن عبدي بي
٢٣١	أبوهريرة	أنا أغنى الأغنياء عن الشرك
٣٢٩	ابن مسعود	أن تجعل لله نداء وهو خلقك
٢٩٤	أبوهريرة	إن الله تسعه وتسعين اسمها
٧٠	جابر	أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة
١٠٣		إن الشمس والقمر آيات من آيات الله

الراوي	الصفحة	ال الحديث
عمر بن الخطاب	١٤٣	إنما الأعمال بالنيات
الفضل بن العباس	٩٨	إنها الطيرة ما أمضاك أوردك
عدي بن حاتم	١٢٠	أن الظعينة تخرج من صناء
قطن بن أبي قبيصة	٣٠	إن العيافة والطرق والطير من الجبت
عمر بن الخطاب	١٤٦	إنك لأحب إلى من مالي وولدي
عائشة	٧٨	إن النبي ﷺ تزوجها في شوال
أبوهريرة	٢٢٧	إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به نفسها
عبد الله بن عمر	٤٢	إن من أفتى بغير علم فإثمهم على من أفتاه
عبد الله بن زيد	٣٤٩	إن من البيان لسحراً
معاوية بن الحكم	٣١	إنها رؤيا حرق
عبد الله بن مسعود	١٩٣	أنه سئل ﷺ عن نبي من الأنبياء يخط
جابر	٩٣	إني أحب أن أسمعه من غيري
رافع بن خديج	٣٣٦	إن يطيعوا أبابكر وعمر يرشدوا
أبوهريرة	٢٤٨	أولئك قوم عجلت لهم طيابهم
أبوموسى	١٠٨	إياك وكرائم أمواهم
عبادة بن الصامت	١٤٣	أي الذنب أعظم
		بين الرجل وبين الشرك
		تبرئكم اليهود بخمسين يميناً
		تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم
		تلك عاجل بشرى المؤمن
		ثلاثة لا يدخلون الجنة
		ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان
		حبيب للنبي ﷺ النساء والطيب

الحادي	الصفحة	الراوي
حد الساحر ضربة بالسيف	٢٣	جندب
الحرب خُدعة	٢٠٢	أبوهريرة
الذهب بالذهب والفضة بالفضة	١٦	عبدة بن الصامت
الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً	٣٤٨	أبوهريرة
ساحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم	٧	
سئل ﷺ عن الكبار	٢٠٥	ابن عباس
سبعة يظلمهم الله في ظله	١٠	أبوهريرة
عجب ربنا من قنوط عباده	٢٠٤	
عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهدىين	٢٥٧	العرباض بن سارية
من بعدي		
فر من المجنون فرارك من الأسد	٨٣	
فمن استطاع أن يطيل غرته فليفعل	٩٥	أبوهريرة
فوجد نمرقة بها صور	٣٠١	عائشة
كان رسول الله ﷺ يتحثث	٩٥	
كل عظم ذكر اسم الله عليه	٥٠	ابن مسعود
كل مسکر خر	١٠٩	ابن عمر
الحكمة من المن وعاؤها شفاء للعين	٧٤	سعید بن زید
كل من الطعام الذي يأكل منه رسول الله	٨٤	أبوهريرة
كان النبي ﷺ يعجبه التيامن	١٠١	عائشة
لا تحدث الناس بتللاعب الشيطان بك	٤٨	جابر
لا تحلفوا بآياتكم	٣٣٥	ابن عمر
لاتفعل ولكن بع الجمع بالدرارم	٣٣١	أبوسعید الخدري
لآخرجن اليهود والنصارى	١٥٦	عمر بن الخطاب

الصفحة	الراوي	الحادي
٨٨,٨٠	أبوهريرة	لا عدو ولا طيرة
٨٨	أنس	لا عدو ولا طيرة ويعجبني الفأل
١٤٧	أنس	لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه
٤٢	ابن عمر	ولا يبع أحدكم على بيع بعض
٤٢	أبوهريرة	لا يخطب الرجل على خطبة أخيه
٢٣٣	ابن عمر	لا يخفى عليكم أنه ليس بأعور
٤١	حذيفة	لا يدخل الجنة قات
١١٣		لا يزال المرء في فسحة من دينه
٨٣		لا يورد مرض على مصح
٣٣٠	حذيفة	لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان
١٨٩	عائشة	ليس <small>بِكَلَّة</small> درعين اثنين
١٢٠		لتركب سنن من كان قبلكم
٣٢١		اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك
٣٢٢		لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار
٥٨	عمران بن حصين	ليس منا من تطير أو تطير له
٢١٧	ابن مسعود	ليس منا من ضرب الخدود
١١٠	عبدالله بن عمرو	ليس الوा�صل بالكافئ
	ابن العاص	
٤٩	ابن عمر	ماذا أخبار لك
٤١	ابن عباس	مر <small>بِكَلَّة</small> بقرين يعذبان
٢١٢		مرها لتصبر ولتحسب
٥٦	أبوهريرة	من أنت عرافاً أو كاهناً
٤٨	بعض أزواج النبي	من أنت عرافاً فسأله

الحادي	الصفحة	الراوي	الصفحة
من أتى كاهناً فصدقه	٥٣	أبوهريرة	
من أسلاف فليس لهم في كيل معلوم	١٨	عبدالله بن عباس	
من اقتبس شعبة من النجوم	٣٤	عبدالله بن عباس	
من بدل دينه فاقتلوه	٢٨٧	ابن عباس	
من حلف بغير الله	٣٢٣	عمر بن الخطاب	
من راء راء الله به	٢٢٦		
من سرته حسناته وساعاته سيئاته	٢٢٨	عمر بن الخطاب	
من شرب الخمر لم تقبل له صلاة	٥١	ابن عمر	
من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر	٣٧	أبوهريرة	
من عمل عملاً ليس عليه أمرنا	٢٣٠		
من التمس رضا الله بسخط الناس	١٧٩	عاشرة	
من صنع لكم معروفاً فكافتوه	١٧٧		
بؤذني ابن آدم وليس له ذلك	٣٥٤، ٣٥٢	جندب بن جنادة	

فهرس الجزء الثالث
من كتاب القول المفيد

الصفحة	الموضوع
٣	باب التسمى بقاضي القضاة
٣	شرح الترجمة
٣	المناسبة الباب لكتاب التوحيد
٤	أقسام قضاء الله
٤	التسمى بقاضي القضاة
٥	التسمى بشيخ الإسلام
٦	التسمى بالإمام
٧	شرح حديث أبي هريرة: «إن أخْنَعَ . . .»
١٠	مسائل الباب وشرحها
١٢	باب احترام أسماء الله
١٢	البحث في أسماء الله
١٢	المبحث الأول
١٢	الثاني
١٢	الثالث
١٢	الرابع
١٣	الخامس

الصفحة	الموضوع
١٣	السادس
١٤	السابع
١٥	الثامن
١٥	التاسع
١٨	التسمية بأسماء الله
١٩	شرح حديث أبي شريح
٢٠	أقسام حكم الله
٢٢	مسائل الباب وشرحها
٢٥	باب من هزل بشيء فيه ذكر الله
٢٦	حكم توبة من سب الله أو رسوله
٢٨	شرح قوله تعالى: «ولئن سألتهم . . .»
٣١	شرح حديث ابن عمر ومحمد بن كعب
٣٧	مسائل الباب وشرحها
٣٩	باب قول الله تعالى: «ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء . . .»
٣٩	مناسبة الباب لكتاب التوحيد
٤٠	شرح الآية
٤٢	شرح حديث أبي هريرة: «أن ثلاثة من بني إسرائيل . . .»
٥١	ما يستفاد من الحديث
٥٦	مسائل الباب وشرحها
٥٧	باب قول الله تعالى: «فليآتاهما صاححاً . . .»
٥٧	شرح الآية
٦٠	حكم النذر

الموضوع	الصفحة
قول ابن حزم في تحريم كل اسم معبد لغير الله	٦٤
قول ابن عباس في الآية	٦٥
بطلان كون الآية في آدم وحواء	٦٧
مسائل الباب وشرحها	٦٩
باب قول الله تعالى: «وَلِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى»	٧٢
شرح الآية	٧٢
إحصاء أسماء الله	٧٤
دعاة الله بأسماه الحسنى	٧٥
أنواع الإلحاد في أسماء الله	٧٦
قول ابن عباس	٧٨
أقسام آيات الله	٧٩
الإلحاد في الآيات الشرعية والكونية	٨٠
مسائل الباب وشرحها	٨٢
باب لا يقال السلام على الله	٨٣
شرح الترجمة	٨٣
المناسبة الباب لكتاب التوحيد	٨٣
شرح حديث ابن مسعود	٨٥
مسائل الباب وشرحها	٨٧
باب قول اللهم اغفر لي إن شئت	٨٩
شرح حديث أبي هريرة: «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت...»	٨٩
المحظور في التعليق	٩٠
المناسبة الباب لكتاب التوحيد	٩٢
مسائل الباب وشرحها	٩٢

الصفحة	الموضوع
٩٧	باب لا يقول عبدي وأمته
٩٧	قول رب
٩٨	أقسام إضافة الرب
١٠٠	إطلاق السيد على غير الله
١٠١	أقسام المولى
١٠٢	أقسام الولاية
١٠٦	مسائل الباب وشرحها
١٠٧	باب لا يرد من سأل بالله
١٠٧	أقسام السؤال بالله
١٠٨	حكم رد من سأل بالله
١٠٨	حكم السؤال
١٠٩	حكم سؤال المال
١١٠	شرح حديث ابن عمر
١١٠	إذا استعاذ بالله
١١١	حكم إجابة الدعوة
١١١	ما يشترط لذلك
١١٣	إجابة الدعوة هل هي حق الله أو للأدمي
١١٣	بطاقات الدعوة هل هي كالدعوة بالمشافهة
١١٣	معنى (من صنع إليكم معروفاً فكاففوه)
١١٤	فوائد المكافئة
١١٤	الدعاء بعد الإهداء مباشرة
١١٥	السائل في الباب وشرحها

الصفحة	الموضوع
١١٦	باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة
١١٦	المناسبة هذا الباب للتوحيد
١١٦	حديث جابر: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»
١١٧	المراد بذلك على قولين:
١١٧	معنى قوله: بوجه الله
١١٨	إثبات الوجه لله
١١٨	قول أهل التعطيل
١١٨	الرد عليهم
١١٩	حديث: «إن الله خلق آدم على صورته»
١٢١	المسائل في الباب وشرحها
١٢٢	باب ما جاء في اللو
١٢٢	استعارات «لو»
١٢٤	شرح قول الله تعالى: «يقولون لو كان لنا في الأمر شيء ما قتلنا ههنا»
١٢٥	شرح قوله تعالى: «الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا»
١٢٦	المناسبة الباب للتوحيد
١٢٦	حديث أبي هريرة: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»
١٢٨	افعال العباد لا تخلو من أربع حالات
١٢٩	قوله: «واستعن بالله»
١٣٠	معنى الاستعانة
١٣٠	قوله: «ولا تعجزن»
١٣١	ما يقوله الإنسان عند حصول خلاف المقصود
١٣١	إذا خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين

الصفحة	الموضوع
١٣٢	قوله : «قدر الله»
١٣٣	أقسام الإرادة
١٣٣	عمل الشيطان
١٣٤	من فوائد الحديث
١٣٥	نكذيب القدرة لهذا الحديث
١٣٥	كلام شيخ الإسلام
١٣٦	تأثير الشيطان على بني آدم
١٣٧	السائل في الباب وشرحها
١٣٩	باب النهي عن سب الريح
١٣٩	المراد من النبي
١٤٠	شرح حديث أبي بن كعب «لا تسبوا الريح»
١٤٠	ما يقوله الإنسان عند حصول الريح
١٤٢	السائل في الباب
١٤٣	باب قوله تعالى: «يظلون بالله غير الحق ظن الجahلية»
١٤٤	شرح الآية
١٤٤	أنواع الفتن بالله عز وجل
١٤٥	قوله: «يقولون هل لنا من الأمر من شيء»
١٤٥	مرادهم بذلك
١٤٦	أقسام الكتابة
١٤٧	شرح قوله تعالى: «الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء»
١٤٨	كلام ابن القيم على الآية
١٥٠	خلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور

الصفحة	الموضوع
١٥١	قول المعتزلة
١٥٣	الرد على المحرفين لأساء الله وصفاته
١٥٣	قول شيخ الإسلام : كل معطل مثل وكل مثل معطل الذي يعرف أسماء الله وصفاته وموجب حكمته لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء
١٥٤	قوله : «فمستقل ومستكثر»
١٥٦	السائل في الباب ، وشرحها
١٥٧	المناسبة الباب للتوحيد
١٥٨	باب ما جاء في منكري القدر
١٥٨	شرح الترجمة
١٥٨	ما يطلق عليه القدر
١٥٩	الإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصاً
١٥٩	أقسام الناس في القدر
١٦٠	ما يترتب على القول بالجبر
١٦١	الغلاة في إنكار القدر
١٦١	أهل السنة والجماعة توسعوا بين الطائفتين
١٦١	الرد على القدرة
١٦١	أدلة الجبرية
١٦٣	الرد على الجبرية بالأدلة النقلية والعقلية
١٦٤	مراتب القدر
١٦٦	إيهان أهل السنة والجماعة بهذه المراتب
١٦٦	التقديرات النسبية الأخرى

الموضوع	الصفحة
الدليل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله	١٦٩
فوائد الإيمان بالقدر	١٧١
قول ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحد هم مثل أحد ذهبا...»	١٧١
ما يتضمنه الإيمان بالله عز وجل	١٧٢
ما يتضمنه الإيمان بالملائكة	١٧٣
ما يتضمنه الإيمان بالكتب	١٧٣
ما يتضمنه الإيمان بالرسل	١٧٤
ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر	١٧٥
كلام شيخ الإسلام	١٧٥
معنى الإيمان بالقدر	١٧٦
القدر سر من أسرار الله	١٧٦
الشر لا ينسب إلى الله	١٧٧
قطع يد السارق شر عليه وخير بالنسبة له وبالنسبة لغيره	١٨٠
قول بعض الزنادقة والرد عليه	١٨٠
شرح قول عبادة بن الصامت لابنه: «يابني إنك لن تجد طعم الإيمان»	١٨٠
اختلاف الناس في القلم	١٨٣
العرش قبل القلم	١٨٣
قوله: «حتى تقوم الساعة»	١٨٥
فوائد الحديث	١٨٦
سبب التسمية بيوم القيمة	١٨٧
رواية ابن وهب: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره»	١٨٨

الصفحة	الموضوع
١٨٨	قوله : «أحرقه الله بالنار»
١٨٩	قوله : «في نفسي شيء من القدر»
١٨٩	حكم إنكار القدر
١٩٢	الإيمان بالقدر متعلق بتوحيد الربوبية أكثر
١٩٣	اختلاف الناس بالقدر
١٩٤	المسائل في الباب
١٩٩	باب ما جاء في المصورين
١٩٩	مناسبة هذا الباب للتوحيد
١٩٩	شرح حديث أبي هريرة التدسي : «ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقي»
٢٠٠	الفرق بين القرآن والحديث التدسي
٢٠٣	أحوال التصوير
٢٠٣	الحالة الأولى وحكمها
٢٠٤	الحالة الثانية وبيان حكمها
٢٠٤	الحالة الثالثة وخلاف العلماء فيها
٢٠٥	الحالة الرابعة أنواعه وبيان حكمها
٢٠٦	شرح حديث عائشة : «أشد الناس عذاباً يوم القيمة»
٢٠٨	ما يدل عليه هذا الحديث
٢٠٩	قوله : «أشد الناس عذاباً» الإشكال في هذا والجواب عنه
٢١٠	شرح حديث ابن عباس : «كل مصور في النار»
٢١١	شرح أبي الهياج عن علي أنه قال له : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ»
٢١٢	مذهب الجمهور : المحرم هو تصوير الحيوان
٢١٣	مناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور

الصفحة	الموضوع
٢١٤	عقوبة المصور
٢١٤	فائدة تان
٢١٤	حكم اقتناء الصور
٢١٧	المسائل في الباب، وشرحها
٢١٩	باب ما جاء في كثرة الحلف
٢١٩	أقسام الحلف بغير الله
٢١٩	مناسبة الباب لكتاب التوحيد
٢١٩	شرح قوله تعالى: «واحفظوا أيهانكم»
٢٢٠	المراد بعدم كثرة الحلف
٢٢١	المراد من حفظ اليمين
٢٢٢	شرح حديث أبي هريرة: «الحلف منفقة للسلعة»
٢٢٣	شرح حديث سليمان: «ثلاثة لا يكلمهم الله
٢٢٣	اختلاف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال
٢٢٤	نفي الكلام دليل على إثبات أصله
٢٢٤	لا يلزم من كلامه سبحانه أن يكون له آلة
٢٢٧	مناسبة الحديث للباب
٢٢٨	شرح حديث عمران بن حصين: «خير أمتي قرن
٢٢٨	معنى القرن
٢٢٩	ابتداء قرن الصحابة
٢٣٠	كلام شيخ الإسلام في القرن
٢٣١	الجمع بين هذا الحديث وقوله ﷺ: «ألا أخبركم بخير الشهداء»
٢٣٤	شرح حديث ابن مسعود: «خير الناس قرن

الموضوع	الصفحة
نوع الأفضلية في قوله: «خير الناس...»	٢٣٤
قول إبراهيم التخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد»	٢٣٥
حكم شهادة الصغار	٢٣٥
السائل في الباب وشرحها	٢٣٦
باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه	٢٣٨
معنى الذمة	٢٣٨
عهد الله على عباده وعهد العباد على الله	٢٣٨
شرح قوله تعالى: «أوفوا بعهد الله...»	٢٣٨
المناسبة الآية للترجمة	٢٤٠
شرح حديث بريدة: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش...»	٢٤٠
أقسام السرايا	٢٤٠
تعريف التقوى	٢٤١
القتال لأجل الوطن	٢٤٢
التمثيل بالمرتدين	٢٤٤
دعوة العدو من المرتدين إلى ثلاث خصال	٢٤٦
معنى قوله إلى الإسلام	٢٤٧
تفريق النبي ﷺ بين مسمى الإيمان وسمى الإسلام	٢٤٧
دخول الأعمال في مسمى الإيمان	٢٤٧
معنى قوله: «إلى دار المهاجرين»	٢٤٨
تعريف الغنيمة والفيء	٢٤٩
متى يستحق المسلم الغنيمة؟	٢٤٩
قوله: «فاسألهم الجزية»	٢٤٩

الصفحة	الموضوع
٢٥٠	معنى قوله تعالى: «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»
٢٥٠	قوله: «فاستعن بالله وقاتلهم»
٢٥١	قوله: «فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه»
٢٥٢	تحريم إزاحهم على عهد الله ورسوله
٢٥٢	بيان العلة في ذلك
٢٥٢	معنى قوله: «إن تخفروا ذمكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله»
٢٥٢	اختلاف العلماء في هذه المسألة
٢٥٤	كل مجتهد مصيّب من حيث اجتهاده
٢٥٥	إنكار شيخ الإسلام تقسيم الدين إلى أصول وفروع
٢٥٥	بقاء باب الاجتہاد
٢٥٦	أقسام حکم الله عز وجل
٢٥٧	السائل في الباب، وشرحها
٢٦٠	باب ماجاء في الأقسام على الله
٢٦٠	اختلاف العلماء في «لا» في قوله: «لا أقسم»
٢٦١	معنى الإقسام على الله
٢٦١	أقسام القسم على الله
٢٦٢	المناسبة الترجمة لكتاب التوحيد
٢٦٢	شرح حديث جندب
	ما يدل عليه كلامه
٢٦٧	السائل في الباب، وشرحها
٢٦٩	باب لا يستشعف بالله على خلقه
٢٧٠	المناسبة الباب لكتاب التوحيد

الموضوع	الصفحة
الاستشفاف بالخلق على الله	٢٧٠
الاستشفاف بالله على خلقه	٢٧٠
شرح حديث جبير بن مطعم : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ . . . »	٢٧٠
السائل في الباب ، وشرحها	٢٧٤
باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسد طرق الشرك	٢٧٦
مناسبة الباب للتوحيد	٢٧٦
Hadith 'Abdullah bin al-Shaykh: « Antalqat fi wafdi bani 'Amir »	٢٧٧
الفعل (تبارك) لا يوصف به إلا الله	٢٧٧
قوله : « قولوا بقولكم أو بعض قولكم »	٢٧٨
حماية النبي ﷺ (باب الشرك)	٢٧٨
الجمع بين هذا الحديث وقوله ﷺ « أنا سيد ولد آدم »	٢٧٩
ما يظهر للشيخ وفقه الله في هذا المحدود في هذا الحديث	٢٨٠
شرح حديث أنس رضي الله عنه	٢٨١
ال العبودية لله من أجل أوصاف الإنسان	٢٨٢
الطوائف التي تطرفت في الرسول ﷺ	٢٨٣
مناسبة الباب لكتاب التوحيد	٢٨٣
السائل في الباب ، وشرحها	٢٨٤
باب ما جاء في قول الله تعالى: « وما قدروا الله حق قدره . . . »	٢٨٥
شرح الآية	٢٨٥
شرح حديث ابن مسعود: « جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ . . . »	٢٨٦
تفسير أهل التحرير للآية	٢٨٩

الصفحة	الموضوع
٢٨٩	الرد عليهم
٢٩٠	فوائد الحديث
٢٩١	قولهم طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم
٢٩١	بطلان هذه العبارة
٢٩٢	وجوبأخذ العقيدة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ
٢٩٣	رواية مسلم : «والجبال والشجر على إاصبع»
٢٩٣	رواية البخاري : «يجعل السموات على إاصبع»
٢٩٥	هل نهز أيدينا كما فعل النبي ﷺ
٢٩٦	قوله : «ثم يأخذهن بـشـاهـة»
٢٩٦	اختلاف الرواية في كلمة «ـشـاهـة»
٢٩٨	قوله : «أنا الملك»
٢٩٨	شرح حديث أبي ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما الكرسي في العرش إلا كحفلة . . .»
٢٩٩	ما يدل عليه هذا قول
٣٠٣	ابن مسعود : «بين السماء الدنيا والتي تليها . . .»
٣٠٣	قوله : «والله فوق العرش»
٣٠٣	أقسام علو الله
٣٠٣	انقسام من أنكروا علو الله إلى قسمين
٣٠٤	شرح حديث العباس بن عبد المطلب : «هل تدرؤن كم بين السماء والأرض . . .»
٣٠٤	التفصيل في إثبات الجهة لله
٣٠٦	قول أهل التحرير

الموضوع	
الصفحة	
٣٠٩	المسائل في الباب
٣١٣	فهرس الآيات
٣٣١	فهرس الأحاديث
٣٣٧	فهرس الموضوعات

الجمع التصويري والإخراج - الفرقان
هاتف : ٢١٤٤١ / ٤٠٤٣٧٣٢ - ٤٠٤٣٧٨٧
الرياض ١١٤٧٥ - المملكة العربية السعودية